علم أسماء الأماكن

علم مساعد للآثار وللتاريخ وللحضارات

(الأسماء: أصالة، هوية، إنتماء وذاكرة وطن)

علم أسماء الأماكن

علم مساعد للآثار وللتاريخ وللحضارات

(الأسماء: أصالة، هوية، إنتماء وذاكرة وطن)

د. ڤيڤيان حنّا الشويري

أستاذة الفنون والآثار في الجامعة اللبنانية

دار صادر

بيروت

إسم الكتاب	:	علم أسماء الأماكن علم مساعد للآثار وللتاريخ وللحضارات (الأسماء : أصالة ، هوية ، انتماء وذاكرة وطن)
المؤلّفة	:	د . ڤيڤيان حنّا الشويري
التمهيد والملحق	:	د . عاطف خليل الحكيم
فكرة الغلاف	:	د . ڤيڤيان حنّا الشويري / د . عاطف خليل الحكيم (عنوان الصورة «من ترشيش إلى ترشيش») .
الطبعة الأولى	:	2018
عدد الصفحات	:	320



تأسست سنة 1863

ص . ب ١٠ بيروت ، لبنان

© DAR SADER Publishers
P . O . B . 10 Beirut, Lebanon
Fax : (961) 4 . 910270 Tel : 910340
e-mail : darsader@darsader .com
http :www .darsader .com

الإهداء

إلى أرض بلادي

بتضاريسها وجبالها وسهولها وهضابها وأوديتها وبواديها وسواحلها وبحورها . . .

إلى مناخ بلادي

بصيفه وخريفه وشتائه وربيعه . . .

إلى لغة بلادي

بمحكياتها ولهجاتها ولكناتها وفصحيتها . . .

إلى حرف بلادي

بتصويرياته ومقطعياته وأبجدياته . . .

إلى حضارة بلادي

بمدنها ومدنيتها وعمرانها ومواقعها وابتكاراتها . . .

إلى فكر بلادي . . .

بانتصاراته ورقيّه وسموّه وانتشاره . . .

إلى أسماء بلادي

جميع أسمائها حاملة الهوية وعنوان الإنتماء

إلى أمتي السورية العربية الحبيبة ، العظيمة

أهدي كتابي

صوت : الإنسان بعيش وين ما كان

غربة : بعيش لكن كيف ؟

بيضلوا يسألوك : أنت شو إسمك ؟

بتقلن إسمي فلان

ما فيك تكون بلا إسم

بيضلوا يسألولك : إنت منين ؟

بدّك تقول منين

ما فيك تكون مش من مطرح

إذا فيك تعيش بلا إسم ، فيك تعيش بلا وطن !

(من مسرحية الرحابنة ، «جبال الصوان» ، 1969)

تمهيد

بداية، نطرح الأسئلة البديهية التي تتقدّم كلّ بحث ودراسة، وهي: لماذا علم «أسماء الأماكن»؟ ما هي الغاية منه وهل هو ضرب من الترف العلمي؟

في الإجابة عن هذه الأسئلة، نقول إن هذا العلم هو من أهم علوم العصر اليوم، وهو يكاد أن يبزّ علوم العصر كغزو الفضاء والكمبيوتر والهاتف والكيمياء والفيزياء والأشعة والذرّة... إذ أن هذا العلم هو حافز للإنسان في مختلف ميادين حياته اليومية، وهو حافز لمعرفة الإنسان لهويته، وحافز لاكتشاف التاريخ والحضارة، وحافز للوطنية والقومية والحرية والإنسانية، وأخيراً، هو حافز للإنتماء... هذا والإنسان الذي يعرف هويته وتاريخه وقوميته وينتمي إليها، هو إنسان حيّ، ذو همّة للصراع من أجل الوجود والبقاء، وهو ذو أمل بالمستقبل، لا ييأس ولا يعيش على أطراف الحياة، هامشياً. إن الهوية والتاريخ والحضارة والوطنية والقومية والحرية والإنتماء هم الغاية من الوجود، وهذا مقصد السيّد المسيح وهو المعنى من قوله:

«لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ.» (متى 4:4).

الإسم أم الإنسان؟

أكثر ما يرافق الإنسان، جماعة كان أم مجتمعاً، في مسيرته الحياتية والفكرية والاجتماعية، هو الاسم. يولد المرء ويولد اسمه معه، أحياناً، يولد الاسم قبل الولادة. وليس اسم العلم الصغير وحسب، إنما يولد إسم الكناية واسم الصفة واسم الدلالة واسم اللقب، والاسم الفكري والاسم الفني... من هنا كان المثل «إسم على مسمّى». وتتغيّر الأسماء مع مرور الأيام، فالاسم الفني عادة ما يختاره المرء بعد أن يستغني عن الاسم الذي اختاره له الأهل مع الولادة أو قبلها. أما الاسم الفكري، فهو الاسم الذي يناله المرء بجهده الفكري وبحثه العقلي، يناله المرء بعد أن يبلغ درجة فكرية أو علمية مرموقة وعلى أصعدة العلم والفكر كافة. ومن الأسماء الفكرية: الشيخ، الحكيم، العالم، المستنير، المار، المارون، النبيّ، الإله... واسم اللقب، كثيراً ما يغلب على اسم العلم،

الصغير والكبير، ومن أسماء اللقب نذكر على سبيل المثال: الرب، المعلم، السيّد، الابن، المسيح، يسوع، الرسول، الروح، الكلمة... وهي ألقاب أطلقت على عيسى بن مريم. والمصطفى، المختار، الأمين، النبيّ، الرسول هي ألقاب أطلقت على محمّد بن عبد الله.

عُرِف الأديب الساخر بلقبه الجاحظ[1] أكثر ممّا عُرف باسمه، ومثله المتنبي[2] لَقَبُ الشاعر العربي، وعادة ما يُعرف الفيلسوف بعمله من مثل الطبيب لَقَبُ ابن سينا، الشيخ الرئيس، ولقبُ الفيلسوف ابن رشد، الشارح لكتب «أرسطو». أحياناً، يُعرف المرء صاحب الشهرة باسم المنطقة التي أتى منها، فالفارابي لقب الفيلسوف العربي، نسبة إلى بلدته «الفراب» في إقليم تركستان، والمعرّي لقب الشاعر أبي العلاء، نسبة إلى «معرّة النعمان»، وكذلك يُعرف المرء باسم عائلته أو عشيرته من مثل العلاّمة الكندي، نسبة إلى عشيرته «كندة»... كما يغلب اسم المدرسة الفكرية على اسم العلم الثلاثي مع لقبه، من مثل: المعتزلة، الأشاعرة، أخوان الصفا... حتى أن مدرسة أخوان الصفا قد طمست أسماء أعلامها وألغتهم من الوجود. وهناك الأسماء العلمية، تلك التي عُرف بها أصحابها من الذين أعطوا علوماً وذاع صيتهم بها، وقد استحقوها لعبقريتهم وسبقهم العلمي من مثل الخوارزمي في علم الرياضيات، عبّاس بن فرناس في علم الطيران، ابن الهيثم في علم البصريات، ومن الاختصاصات الطب البيطري نسبةً لصاحب العلم ابن البيطار... وأحياناً، يعرف المرء باسم كتابه من مثل «الفهرست» لابن النديم.

والسؤال: أيّهما أبقى في الوجود الإنسان أم اسمه؟ لمن يُكتب الخلود: للإنسان أم للاسم؟ أيّهما أبقى على الدهر: الاسم أم الإنسان؟ في الجواب، إن الذي يبقى على الدهر هو الاسم ومن هنا درج المثل الشعبي: «يعيش باسمه». عليه، الناس يعيشون باسمهم وباسم عظيمهم وليس بشخص عظيمهم. ونحن العرب - السوريين نعيش بأسماء عظمائنا الذين لا عدّ ولا حصر لهم. العرب السوريون يؤمنون بالمئات المؤلّفة من العظماء، أنبياء وحكماء وعلماء، يعرفون أكثرهم، وإن كان يقتصر إيمانهم على اثنين من الأنبياء، وهما عيسى ومحمّد، ويمتد هذا الإيمان عند البعض ليشمل سلة من الأنبياء كموسى وسليمان وداوود ويوسف وإبراهيم ونوح... وهذا الإيمان هو إيمان يقوم على التواتر

---

(1) الجاحظ، هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن نزار الليثي الكفاني البصري.

(2) المتنبيّ، هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيب الكندي الكوفّي المولد.

الشفوي أو التقليد الشفهي، أكثر ممّا يقوم على المعرفة البيّنة واليقين الفاصل. عليه، شرط الحياة لمن أراد الحياة مرهون بالانتماء للفكر والانتساب للاسم، فالاسم يحمل الإنسان إلى الوطن ويهديه للانتماء. الاسم هو السمت الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

إذاً، الاسم أبقى في الوجود من المرء صاحب الاسم. هذا والإنسان العظيم لا يخشى على جسده من مرض أو سقم، بل يخشى على اسمه من أن يلوّثه غبار الخطيئة أو تشوّهه شينة ما. هذا ومن لا يلتزم بالسموت المنتشرة على طول التاريخ، فإن مصيره العار وبئس المصير. هنا تجدر بنا الإشارة إلى أن الأسماء التي لا تمتّ بصلة لأشخاص هي أبقى على الدهر، فمثلاً، «كريستوف كولومبوس»، المستكشف، سرعان ما تناساه الناس، وسرعان ما سقط اسمه عن القارة الأميركية وعرفت الأرض الجديدة باسم شخص آخر هو «أمريكو» والذي، برأينا، هو كناية عن اسم الملاّح العربي المعروف بابن ماجد «أسد البحر»، إلاّ أن العابثين بالتاريخ والمطبلين شوّهوا إسم ابن ماجد وغيّروه لأميركا، فابن ماجد العربي هو الذي استعانت به إسبانيا قبل «كولومبوس» في رحلته الاستكشافية، ولم يعرف التاريخ شخصاً باسم «أميركو» كما يزعمون. فمن يدري؟ لعل «أميركا» هي تحريف لكلمتي «أمير» و«كا» أي «أميركَ»، فلعلّ الاسم يعود إلى العلماء المتهكّمين على «كريستوف كولومبوس»، وهو الأرجح، كأني بهم يقولون: «أنت يا كريستوف لم تكتشف الأرض الجديدة، لقد اكتشفها أميرُك العربي!» ولعلّهم يقصدون بقولهم «أميرك» ابن ماجد. هذا والعرب السوريون قد عرفوا أميركا باكراً جداً، يعود ذلك إلى ما قبل معرفة الإسبان والأوروبيين بها بألفيّ سنة. لقد عرف العرب أميركا في عهد الفينيقيين، أولئك البحّارة الأوائل الذين اكتشفوا كروية الأرض، ما سهّل عليهم الدوران حولها دورة كاملة. وهذا ليس بمستحيل، فإن بلادهم المحاطة بالمياه من جهتيّها الغربية والجنوبية: لجهة الغرب يقع البحر السوري والذي يُعرف اليوم بالبحر الأبيض المتوسط؛ ولجهة الجنوب يقع بحر العرب والذي ينفرج عنه خليجان كبيران: البحر الأحمر والخليج العربي، سهّلت عليهم هذه المعرفة ويسّرتها. لقد عرفوا بفطرتهم ومن خلال ملاحظاتهم هذه الحقيقة الطبيعية واستفادوا منها، ليكتشفوا كروية الأرض والدوران حولها. وهكذا تتأكّد لنا المقولة الشهيرة إن المشرق هو مهد الحضارات ووسط العالم، أي أنه، بالتالي، مصدر التسميات كلّها. وتكون سورية أوّل اسم في التاريخ. ومهما اختلف العلماء حول إسم الأرض الأولى التي عُرف بها الإنسان وعَرَفتْ الحضارة،

فهم، في النهاية، يتفقون على اسم شبه جزيرة سورية – العربية والمعروفة أكثر باسم شبه الجزيرة العربية، إنما، ومن بعد أن حزموا أمرهم واتفقوا على سورية أو «سور» أو «صور» أو «شور» أو «أشوريا» كأوّل أرض للإنسان والحضارة، عادوا واختلفوا حول أوّل مدينة سورية عرفت الحضارة، فمنهم من قال إنها أريحا، ومنهم من تعصّب لدمشق، وبعضهم الآخر رجّح مدينة أور العراقية، وآخرون ذهبوا إلى القول إنها عدن، وأنكر آخرون هذه الآراء كلّها وقالوا بل إنها أرمينيا الواقعة شمالاً على بحر قزوين. ومهما يكن من أمر، فإن في الطروحات كافة أمراً إيجابياً وهو أن سورية قد عرفت المدن والمدنيّة باكراً جداً (الألف التاسع ق. م.)، ففي الفترة التي كانت تعيش فيها البشرية أشبه بقطعان حيوانية، مثلها في ذلك مثل الحيوانات المتجمهرة، كانت المدن السورية منتشرة في شبه جزيرة سورية كلّها. وفي الفترة التي كانت تعيش فيها البشرية في عصر الظلمات، كانت سورية تعرف الحضارة من أرقى درجاتها. هذا وبإمكاننا القول إن انتشار المدن السورية لم يكن عشوائياً، بل كانت المدن تخضع لأنظمة وقواعد دقيقة من مثل اختيار البيئة الطبيعية، من حيث الهواء والبرودة والرطوبة والشمس، ومن مثل اختيار الموقع من أجل العمل والصناعة والتجارة، ومن مثل توزيع البيوت، قربها أو بعدها عن مركز القرار والحكم، ومن مثل تحديد وتنظيم البنية التحتية كالطرقات والساحات العامة، والملاعب والمسارح وحلبات السباق والحمّامات، والمعابد ودور الثقافة...

طبعاً، ومن يُنشيء مثل هكذا مدن، عليه أوّلاً أن يختار اسم المدينة. وعادةً ما يكون اختيار الاسم نسبةً للحاكم القائم، أو لاسم كوكب، أو لاسم إله، أو تيمّناً باسم مدينة أو قرية سابقة. من هنا، لا تستبعد الباحثة ڤيڤيان الشويري أن تكون جميع أسماء المدن والقرى والتضاريس الطبيعية تعود في وجودها الأول للحضارة السورية والانتشار السوري في العالم. وتعوّل في ذلك على أن الأسماء جميعها سورية – سُريانية – عربية وقد طغت على جميع الأسماء المحلّية والعالمية، فالأسماء المنتشرة في العالم هي نسخة طبق الأصل عن الأسماء السُريانية المنتشرة في سورية[1].

---

(1) وهذا ما انعكس علينا ونحن نقرأ معجم «آلهة وأماكن» لمؤلّفته الدكتورة ڤيڤيان الشويري. لقد وضعت بضعة من القواعد العلمية لتبرهن، بواسطتها، انتشار الأسماء السورية في العالم، ومن ثم ارتباطها ببعضها البعض واشتقاقها من بعضها البعض وتداعيها. وبذلك تكون الشويري هي من بلورت هذا العلم وصقلته، إذ ترى الشويري أن جميع أسماء الأماكن في العالم هي ذات أصول سُريانية – عربية =

نظريّة التداعي

لقد وضعت الشويري في كتابها «علم أسماء الأماكن» بضعة من القواعد العلمية لتبرهن بواسطتها أصولَ الأسماء واشتقاقاتها اللغوية، ومن ثم ارتباطها ببعضها البعض واشتقاقها من بعضها البعض وتداعيها. ونظرية التداعي تقوم على مبدأين اثنين: مبدأ تداعي الكلمة ومبدأ تداعي الحرف. كان الأولى أن يكون المبدأ الثاني أوّلاً والمبدأ الأوّل ثانياً، هكذا يظن البعض، فالحرف قبل الكلمة. لا، ليس صحيحاً، الكلمة وجدت أوّلاً ثم أوجدت لها الحروف. (تكلّم الإنسان قبل أن يكتب).

ومبدأ تداعي الكلمة هو نوع من أنواع التذكّر، ومن ثم بعد التذكّر يأتي الربط بين كلمتين أو أكثر. ومبدأ تداعي الكلمة هذا يقوم على الشبهة، أكثر تحديداً على مبدأ التشابه، أو الشبه. وتفسيره: ما أن تُذكر الكلمة في اللغة العربية أو الأجنبية حتى يتداعى شبهُها في الكلمات السورية، وكثيراً ما تكون الكلمة وشبهها حقيقية وصائبة. أما مبدأ تداعي الحرف فيختلف قليلاً عن مبدأ تداعي الكلمة، وهو أكثر صعوبة من المبدأ الأوّل. وتعتمد نظرية تداعي الحروف على نظرية القلب، قلب الحروف[1]، فإذا

= سورية، كذلك يعود الفضل في وجودها وانتشارها للسوريين في مختلف مراحلهم الفكرية والعلمية والحضارية، منذ عهد السومريين وحتى العرب، ومروراً بمختلف عهودهم السياسية: وهم على التوالي: السومريون، الأشوريون، البابليّون، الأكاديّون، الكلدانيّون، الآراميّون، الحثّيون، الفينيقيّون، السريان العرب. كذلك، ترى الشويري أن اللغة العربية، الفصحى منها والعامية، ليست إلاّ استمرارية وتهذيب للّغات واللهجات السورية القديمة. ونحن نقول تهذيب ولا نقول اقتباس أو تطوّر. وترى الشويري أنه مثلما اللغة العربية هي تطوّر للّغة السُريانية – الآرامية، فكذلك هو الحال بالنسبة للّغات الأوروبية مثل الألمانية، الفرنسية، الإنكليزية التي تعود في معظمها إلى اللغة السُريانية العربية السورية. وتستند في نظرتها تلك إلى الانتشار السوري في العالم بشكل عام وإلى الأساطير السورية بشكل خاص، على رأسها أسطورة «قدموس وأوروبا» وتاريخ «إليسار» ورحلتها إلى الغرب وتأسيس دولة قرطاج لتكون شرطياً مراقباً للمستعمرات السورية في الغرب. وتعتمد الشويري على التراث السوري «المقدّس»، الثلاثي: التوراة، الإنجيل، القرآن.

(1) راجع بهذا الخصوص كتاب «صحيح البخاري»، حديث عمر: «سمعت هشام بن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: «أرسله». ثم قال له: «اقرأ». فقرأ، قال: «هكذا أنزلت». ثم قال لي: «اقرأ». فقرأت، فقال: «هكذا أُنزلت، إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسّر». راجع أيضاً =

كان عدد حروف الأبجدية السُريانية إثنين وعشرين حرفاً (موزعة على الترتيب : أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت)، فالسُريان العرب قد طوّروا الأبجدية السُريانية وأضافوا إليها سبعة حروف ليصبح عدد حروف الأبجدية العربية تسعة وعشرين حرفاً. والحروف التي أضافها السُريان العرب ستة (ثاء، خاء، ذال، ضاد، ظاء، غين). عليه، بإمكاننا قلب حرف الكلمة بحرف آخر من الحروف التي أضافها السُريان العرب على السُريانية العربية القديمة، من مثل، قلب (التاء) بحرف (الثاء)، وقلب حرف (الكاف) بحرف (الخاء)، وقلب حرف (الدال) بحرف (الذال)، وقلب حرف (الصاد) بحرف (الضاد)، وقلب حرف (الطاء) بحرف (الظاء)، وقلب حرف (الجيم) بحرف (الغين)، والاستعاضة عن (الهمزة) بحرف (الألف)، كون الهمزة مفقودة في الأبجدية السُريانية، كقول (راس / رأس فاس / فأس، مروة / مروءة...) أو لفظ حرف (الفاء) (باء)، كقول (بلاط أو فلاط): كقرية «بلاط» قرب جبيل أو قرية «فليطه» في السلسلة الشرقية، والاسم يعود نسبة للصخور المسطحة والمفلطحة التي تكثر فيها. وبإمكاننا قلب الصوت (ألف) بالصوت (ياء)، مثلاً: (بنات، بنيت أو مال، ميل)... وقلب (الياء) إلى (ألف مقصورة)، من مثل: (ضحى التي تلفظ ضحي، وسجى سجي)[1].

إذاً، في علم النحو ما يفسّر الحديث الذي يُنسب للنبيّ محمّد: «اذهبوا واقرؤوا الكتاب، فهو يُقرأ على سبعة وجوه»[2]. هذا، وتفيدنا الشويري أن عدد الحروف الأساسية في الأبجدية السُريانية والعربية واللاتينية لا تزيد على خمسة حروف[3]. عليه، فالكلام يشتق من بعضه البعض، كلمات وحروفاً. أما نحن، فنرجّح أن عددها هو سبعة حروف، بناءً على أصوات السلّم الموسيقي السبعة، إذ أن الحروف، في النهاية، ليست إلاّ رموزاً صورية أو أنها أصوات تتبدل على حدّ زعم ابن خلدون[4].

= (تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، فصل في ذكر معنى حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم، دار الفكر).

(1) راجع بهذا الخصوص كتاب عاطف الحكيم، اللغة السُريانية، تاريخ، حضارة وهوية، المكتبة البولسية، حاريصا، 2011، (فقرة «اللفظ والحركات»).

(2) المرجع نفسه.

(3) من مسودّة دراسة قامت بإعدادها الشويري، (قيد الطبع).

(4) ابن خلدون، المقدمة الجزء السادس: «وحروف تتبدّل: فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأدوار عن أربعة، فإن زادت عن أربعة...»

وفي دراستها لعلم أسماء الأماكن، تردّ الشويري، بكل بساطة، المفرد أو المفهوم للكلمة إلى أصله في اللغة العربية، خاصة العامية التي تعتمد عليها إيما اعتماد، من مثل: إسم جزيرة «سردينيا» تردّها إلى جذرها العربي، فالكلمة تتألّف من كلمتين: (سرّ / الدين)؛ وتردّ اسم «ألاسكا» (Alaska) إلى الصفة العربية «الأصقع» أي الصقيع أو (السقيع، فالسين هي عينها لفظ الصاد). هذا، ولا تردّ، في دراستها، الأسماء الأوروبية إلى العربية وحسب، إنما تردّ أيضاً الأسماء السُريانية، من مثل: «قنّسرين»، تردّها إلى «قن النسرين»، أي «خم النسرين»، و«جلديران» تردّها إلى «جل الديرين» أو «الديرين» (جل= ال + ديرين)، وهكذا...

واختصاراً لكلّ ذلك، فإن اختصاصها في علم الفنون والآثار، تحديداً، تاريخ الحضارات، قد ساعدها كثيراً في اكتشاف المفاهيم وربطها ببعضها البعض تاريخياً وحضارياً وفكرياً وعقائدياً، إنطلاقاً من منهج التسلسل الزمني للتاريخ والحضارة (Chronologie) وهو التسلسل المنطقي التطبيقي الذي ينمّ عن وضوح الرؤية الذي يميّز باحثتنا في كلّ دراساتها الأثرية، حتى لتحسبها تعيش الزمن الذي تنقله إلينا بالتفاصيل، فتأتي الصورة واضحة، جليّة، منقشعة بعد أن أزالت عنها الطبقات المعتّمة التي طالما غلّفت التاريخ وحجبته عن الرؤية البيّنة، النقية، وهذا ما يبعدها كلّياً عن الأسلوب العشوائي، المبعثر للحقبات التاريخية، حسبما ينقله بعض من تطرّق للتأريخ من دون علم له بمسيرة البشر الحضارية والخطوات التي اتبعوها تدريجياً حتى بلوغ التطوّر في كلّ شيء. وما وضع الباحثة **منهج المستويات في التسميات**، أي الإضاءة على المراحل التي قطعها الإنسان في وضع التسميات الجغرافية، إلاّ خير دليل عما نقول، وهذا **المنهج التسلسلي المنطقي** الجديد يعدّ إنجازاً بحدّ ذاته، إذ يجعلنا نتتبّع خطوة بخطوة طريقة عمل البشر الأوئل منذ معاينتهم الأرض التي سكنوها حتى ازدهارها وتطوّرها عبر الزمن. ونهجها هذا إنجاز علمي وبحث أنثروبولوجي وإيثنولوجي بامتياز.

وحتى تتأكّد الشويري من بعديّها الفرضي والغائي، درّست هذه القواعد لطلاّب الفنون والآثار في الجامعة اللبنانية، وسرعان ما لاقت قبولاً ممتازاً وسرعان ما كانت النتائج مذهلة، إذ بدأ الطلاّب يتفاعلون مع اللغات الأجنبية بعد أن كانوا يعانون الأمرّين في فهمها. زد على ذلك فهمهم للغتهم الأم. كذلك، بإمكان القارئ الكريم أن يستعين بقواعد الشويري من أجل فهم اللغات الأجنبية المتحدّرة من اللاتينية والتفاعل معها

والتعامل بها . ومن استعان بقواعد الشويري سيجد متعة وسهولة مطلقة في بلوغ المراد . كما أن القواعد لا يقتصر علمها وعملها على معرفة الأسماء وحسب ، إنما يتعدّى الأمر إلى فهم ثقافات وعلوم وفلسفة اللغات الأجنبية نظرياً وعملياً ، زيادة على معرفة وفهم اللغة السُريانية العربية الأم بمختلف علومها وأفكارها وفلسفاتها . ونحن بدورنا ، أخضعنا نفسنا لهذه التجربة العلمية الجديدة ، وسرعان ما تبيّن لنا حقيقتها وسهولتها وظهر لنا أنها تفي بالغرض الذي وُضعت من أجله .

وخلاصة القول إن كتاب الدكتورة ڤيڤيان حنّا الشويري ، «علم أسماء الأماكن» ، هو علم جديد ، وهو علم «أقاديمي»[1] يكاد أن يولد كاملًا معها . هذا الكلام لا يعني أنه ولد فجأة من العدم ، فهو ليس مكاناً مجرّداً ليولد فجأة كولادة أرض من البحر أو طمس البحر لأرضٍ . ونقول : لقد اهتم الكثيرون من العلماء العرب بأسماء البلدان من أمثال ياقوت الحموي ، واضع كتاب «معجم البلدان» . وعُرف هذا العلم على يد بعض الباحثين المحدثين والمعاصرين من أبنائنا السوريين ، فقد تجلّت معرفته على يد أنيس فريحة وعفيف مرهج ، ونشط في هذا المجال الكثيرون من اللبنانيين ، كذلك كان للشاميين وللعراقيين وللفلسطينيين وغيرهم باع طويل في هذا المجال ، لكن كما لاحظنا ، تخلو تلك الدراسات من المناهج الأقاديمية ، أي من العلم المبني على القواعد والأسس والمبادئ الثابتة والأكيدة . إذاً ، هناك بدايات لهذه العلم ، إنما تلك البدايات كانت فقيرة ، خجولة ، لأنها بدايات تقوم على الصدفة والتكهن . صدفة ، كان يربط العلماء بين الأسماء المنتشرة في العالم والأسماء السورية ، أو صدفة كانت تفسّر الأسماء ، فإذا اعترضتهم بعض الأسماء المبهمة ولم يجدوا لها تفسيراً ، تجاهلوها وأعرضوا عنها ! فالعلم الكامل يجب أن تسري عليه قواعد لكلّ مسألة وليس على بعضها من دون بعضها الآخر . عليه ، لا مكان للصدفة في علم الشويري المنهجي ، القائم على تصنيف علم أسماء الأماكن علماً مساعداً لعلم الآثار أي يستمد مادته العلمية والمنهجية منه ولا يمكن دراسته بمعزل عنه .

نعم ، لقد اطلعت باحثتنا على إنجازات المتقدّمين الأوائل ولمست حقيقتها من باطلها واستفادت من الحقيقة ومثلما استفادت من الباطل . أما الحقيقة فقد انطلقت

---

(1) ونقول «أقاديمي» بالقاف وليس بالكاف ، فالكلمة تعود بجذورها إلى «قدموس» مبتدع الأبجدية السورية ، حتى وإن كان الحرفان ، القاف والكاف ، حرفاً واحداً ويقلبان .

منها والباطل نقدته ونقضته واستخلصت منه الحقائق. لقد استفادت من علوم الأوائل وأجلّتها وأجلّتهم، ولأنها أجلّتهم، سعت إلى وضع قواعد وأسس لتيسير هذه المعرفة للناس أجمعين ونحتْ في سعيها إلى وضع قواعد تعصمها بنسبة كبيرة جداً من الخطأ ووُفّقت، إذ سرعان ما تطابقت النتائج مع الفرضيات، ومع تطابق النتائج وصدقها كان العلم مولوداً، حتى بات بإمكان كلّ إنسان عامة، والطلاّب خاصة، الاستفادة من هذا العلم.

«علم أسماء الأماكن» سهل الاستعمال، مُيسّر وهو كأي مقياس يستعمله الناس في حياتهم اليومية، كالمتر للطول، والكيلو للوزن والبارومتر للحرارة... «علم أسماء الأماكن»، لو أخذنا أي إسم لمكان ووضعناه تحت مجهر اللغة المحكية اللبنانية أو أية لغة محكية سورية أخرى شامية كانت أم عدنية، بغدادية كانت أم قطرية، لتوضّحت لنا، ليس فقط معانيه، بل وفتح لنا على الحضارة كلّها، شرط أن لا تردّوا الاسم إلى اللغة الفرنسية أو الإنكليزية لتفهموا معناه فتتبلبلوا، بل أرجعوه للعربية فتستنيروا ولا تضيعوا. ادخلوا مباشرة في صلب القصد، لغتكم الأم، ادخلوا في وجدانكم فاللغة، في مسك الختام، وجدان ليس إلاّ.

الدكتور عاطف خليل الحكيم
رياق، في 25/ 3/ 2015

توطئة

«علم أسماء الأماكن» هو من العلوم ذات الموضوعات التي لا تُحدّ في مكان وزمان معيّنين، فهو مرتبط إرتباطاً وثيقاً بحركة تنقّل الشعوب الدائمة، حاملة تراثها ولغاتها وعاداتها معها أينما حلّت واستوطنت، لذلك لا تقتصر دراسة علم أسماء الأماكن على رقعة محدّدة ومحدودة، بل تتسع دائرة البحث لتشمل الأقاليم كافة، المجاورة والبعيدة والنائية فتنتقل الأسماء طبيعياً من المحلي إلى الإقليمي وحتى العالمي، وذلك تماشياً مع دورة الحضارات وأزمنتها. من هنا تأتي أهمّية دراسة علم أسماء الأماكن الذي يهم المحلي كما الإقليمي وأيضاً كلّ باحث في مجال الحضارات والثقافات المتنوّعة للشعوب.

لمّا كانت الجامعة اللبنانية قد أقرّت مادة «علم أسماء الأماكن» في برامج قسم الفنون والآثار الجديدة، (وذلك بناءً على اقتراح منّا في جلسة بحث أكاديمية لتعديل المقرّارات في دورة LMD)، ولما كانت مادة هذا المقرّر جديدة بالمطلق، رأينا من الضروري دراستها بمنهجية جديدة مختلفة عما سبقها من طرح حولها وما عرفت به في بعض الكتب العربية القليلة التي تطرّقت لموضوع أسماء الأماكن وعلى رأسها كتاب أنيس فريحة الشهير «أسماء القرى والمناطق اللبنانية»، الذي تبقى مادته أساسية لهكذا دراسات ولكن غير كافية ولا وافية من حيث المنهجية الأكاديمية والعلمية، كون منهجه ليس شاملاً. من هنا تبرز إشكالية أولى ألا وهي الحاجة القصوى لدراسة أسماء الأماكن من منطلق منهج جديد يكون بمثابة مادة علمية تطبّق بشكل عام بما يلائم المستوى العالمي، وهذا المنهج يشتمل بالدرجة الأولى على ربط الأسماء بأصولها الجغرافية والطوبوغرافية والحضارية واللغوية وإبراز أهمّية هذا العلم وحاجته وكيفية توظيفه بما يخدم العلوم الأخرى.

والاهتمام بأسماء الأماكن، هذا ما تداركته مؤخّراً الجامعة اللبنانية وأدرجته في مناهجها كمقرّر تعليمي خاص، ينبع من الحاجة لحفظ أسماء الأماكن بصيغتها التي انتقلت إلينا، لِما لها من أهمّية في إبراز الأصول الثقافية واللغوية لشعب ما في منطقة

حضارية ما، فكانت فكرة وضع هكذا كتاب بين أيدي الطلاّب والباحثين في الجامعة اللبنانية.

ومن أهم الحاجات لوضع كتاب حول تحليل وشرح أسماء الأماكن ومنهجية علومها، الحاجة الماسة لمراجع متخصّصة أكاديمياً في هكذا موضوع، نادراً ما تطرّقت إليه يد البحث والدراسات، إلاّ لماماً. وكونه أدرج كمقرّر في قسم الفنون والآثار[1]، فاستلزم الأمر وضعَ كتاب أكاديمي لتعليم هذه المادة المهمة والتي سوف تفتح المجال واسعاً أمام الدراسات حول موضوع أسماء الأماكن وأصولها اللغوية واللفظية. وهو ميدان شامل وشاسع وله أبعاد ثقافية ومعرفية جمّة، خاصة وأنه من الموضوعات القديمة الجديدة، إلاّ أنه لم يعط حقه بعد من الدراسة المنهجية العلمية وهذا ما يرمي إليه كتابنا.

أسماء الأماكن ما زلنا نتداولها وهي تجعل الماضي حاضراً، نحياها ونتفاعل معها

---

(1) وضعنا توصيف المقرّر الجامعي على النحو الآتي:
في برامج النظام التعليمي الجديد (LMD) - العام الدراسي 2011 - 2012
المخطط العام والموضوعات الرئيسية (محتويات تفصيلية)
القسم: الفنون والآثار
إسم المقرّر: **علم أسماء الأماكن/** الرمز: ARCE L4156

- مقدّمة: مدخل إلى علم أسماء الأماكن + المراجع
- أصل تسمية علم الأماكن (toponymie) ونشأته وتعريفه ومناهج دراسته.
- المدارس الغربية التي اهتمّت بعلم أسماء الأماكن.
- المدارس الشرقية التي اهتمّت بعلم أسماء الأماكن.
- العداء الشديد لهذا العلم بعيد ظهوره في أوروبا؛ إهماله ووسمه بالعلم المتطرّف.
- عودة هذا العلم إلى الظهور من جديد على يد بعض العلماء وانطلاقه من جديد....
- أهمّية اللغة واللغات القديمة والفيلولوجيا والإيتيمولوجيا بشكل عام في علم أسماء الأماكن.
- الأصول الفينيقية للأسماء وتطوّرها إلى الآرامية ثم السُريانية ثم العربية.
- أهمّية دراسة الأسطورة في تحديد أسماء الأماكن والأشخاص وفي تبيان حقيقة الأسطورة والأشخاص...
- دراسة بعض النماذج عن أسماء مناطق ومدن وأماكن تحمل أسماء تاريخية وأسطورية.
- أهمّية علم أسماء الأماكن كعلم مساعد للتأريخ وللتاريخ ولعلم الآثار تحديداً.
- علم أسماء الأماكن مسألة قومية ووطنية وهو هوية بحدّ ذاتها.
- نماذج عن نصوص تتضمّن أسماء أماكن: تحليلها وتبيان الحقيقة اللغوية وقيمتها التاريخية والوطنية.

حتى أننا نقدّس تلك الأسماء، فهي ليست مجرّد أسماء، بل إنها أسماء تحمل في مضمونها هوية شعب وحضارة أمّة وروح قوم.

هذا ومن معاينة على أرض الواقع، لاحظنا أن أكثر ما يسأل المرء عنه هو معنى الاسم: إسم العلم، واسم العائلة واسم المكان، من هنا، استشفينا حاجة الناس عامة وطلاب الجامعات خاصة لهكذا علم. عليه، رأينا من مسؤوليتنا كباحثة في علم الحضارات، لا بل من واجبنا، وضع كتاب منهجي عن علم أسماء الأماكن يفيد الحاضر ويحفظ تراث الماضي من العبث والتشويه ويحرص على وضع الكلم في مواضعه.

وما أن طرحنا علم أسماء الأماكن على الطلاب، حتى تجاوبوا معه ولمسنا ذلك من أسئلتهم الملحاحة عن مراجع متخصّصة حول أسماء الأماكن العربية أو الأجنبية على حدّ سواء، وخاصة عن دراسات وكتب تدعم أبحاثهم ويُستند إليها، وتحديداً، الحديثة منها. في البدء أرشدناهم إلى مراجع قديمة كمعجم البلدان لياقوت الحموي والى مراجع حديثة كأنيس فريحة وغيره، ولا شكّ أن العديد من الباحثين تطرّقوا إلى هكذا موضوع ونحن نقدّر جهودهم ونبارك أعمالهم ونستفيد منها، ولكن تلك المراجع على أهمّيتها لا تفي بالغرض وتبقى الحاجة ماسة إلى طرق هذا الباب من أكثر من وجهة نظر، خاصة أن علم أسماء الأماكن هو من الموضوعات الواسعة التي لا حدود نهائية لها، ما حفّزنا إلى وضع أبحاث حول مادة الاسماء جديدة من حيث منهجها. كانت بدأت مسيرتنا بوضع المعجم «آلهة وأماكن» ومن ثم لمسنا، من خلال محاضراتنا الجامعية وأبحاثنا التطبيقية، أن الطلاّب والباحثين في علم الآثار تحديداً هم بأمسّ الحاجة لمراجع مفصّلة في موضوع علم الأماكن لما لهذا المجال من أهمّية نظرية وتطبيقية في الأعمال الأثرية وتحليل معطياتها ونتائجها عملياً وعلى ضوء التفسير اللغوي الصحيح للمناطق التي يُظهر معطياتها العمل التنقيبي الأثري والبحثي فيها، خاصة من حيث أن بعض الأسماء غالباً ما تكون مفتاح اللغز وتكشف السرّ الذي دفن في طيّات الموقع المنقّب عنه، من هنا أهمّية علم أسماء الأماكن كعلم مساعد لعلم الآثار الميداني منه والنظري التحليلي أيضاً، وبتشجيع من الطلاب والزملاء ارتأينا وضع هذا الكتاب وأخرجناه بما يلائم تطلعاتهم وطموحنا، آملين أن نضيف مدماكاً في صرح العلم الكبير.

من الأهداف الأولى التي نرمي إلى تحقيقها من هكذا دراسة هي ، وكما يدلّ العنوان ، العودة إلى الأصول والجذور من أجل الحفاظ على الهوية التي تعزّز الانتماء الوطني والحضاري . ومن خلال دراسة عيّنات محليّة من أسماء الأماكن في سورية الكبرى بما فيها لبنان وفلسطين والأردن والعراق وشبه الجزيرة العربية ، يمكننا ربطها بأسماء إقليمية ودولية ، ما يُبرز أهمّية الانتشار الحضاري الذي يحكى عنه للحضارة الفينيقية – العربية العريقة والتي أعطت العالم الحرف والفكر والثقافة والفلسفة الإنسانية المبدعة .

نأمل أن يشكّل هذا الكتاب سابقة علمية تتميّز بمنهجية أكاديمية ، تفتح المجال واسعاً أمام دراسات حضارية جمّة نحن بأمس الحاجة إليها ، لما تتضمّنه من تجدّد في الرؤية في علوم الآثار والحضارة وكذلك اللغات القديمة ، على ضوء منهجية جديدة وعلم جديد .

المقدّمة العامة

إشتد الجدل في نهايات القرن التاسع عشر حول علم أسماء الأماكن (Toponymie) وتصنيفه كعلم قائم بحدّ ذاته ومن حيث إدراجه في العلوم النظرية أم في العلوم التطبيقية وحول تفعيل دوره على دور علم الآثار (Archéologie) الذي استأثر بأولويّة اهتمام العلماء آنذاك، ولا زلنا نلمس إلى اليوم بعض ترسّبات هذا الجدل، إذ لم تحسم بعد هذه المسألة كلّياً، عند الغربيين من باحثين ودارسين.

ومن البنود التي نقترحها بإصرار، إدراج علم أسماء الأماكن كعلم مساعد لعلم الآثار ومكمّل لأهدافه، خاصة في منطقتنا ومحيطها، لأنه، من الناحية التطبيقية، لا شكّ أن علم الآثار مادة عملانية بالمطلق وهو علم ميداني بالدرجة الأولى، أكان من حيث دراسة الموقع جغرافياً أم من حيث الموجودات التي يعثر عليها في طبقاته والتي تنقل إلى المتاحف للعرض والحفظ والدراسة. وعلم أسماء الأماكن، كونه أحد العلوم المساعدة لعلم الآثار، يبقى بالدرجة الأولى علماً تطبيقياً ميدانياً يحتاج للتحقيق الميداني وللتحليل اللغوي في تتبّع اللهجات المحلّية للأهلين، ما يجعل التطبيق فيه ضرورة حتمية، فمثلاً بلدة «ياطر» في جنوب لبنان هي في الأصل «ياثر» وذلك بشهادة الأهلين وطريقة نطقها بلسانهم وباللهجة المحلّية التي تميّزهم كما عايناه على الأرض وسمعناه منهم، بينما أُدرجت في السجلات الرسمية «ياطر»[1] بحسب النقل الذي خرج به المسح الديموغرافي أبان الإنتداب الفرنسي الذي نقل حرف (الثاء) (تاء)؛ والآن تكتب بالطاء، ما غيّر ليس لفظها فقط بل ومعناها. وقس على ذلك آلاف أسماء الأماكن الأخرى ما يستدعي التحقيق المعمّق على قاعدة جمع الأسماء من خلال سؤال سكان المكان أنفسهم والمسنّين والعارفين بشكل خاص. عليه، فإن مادتنا ميدانية الطابع بالدرجة الأولى. كما وأن علم أسماء الأماكن كمادة أكاديمية يفتح المجال واسعاً أمام دراسات أنثروبولوجية – إثنولوجية

---

(1) نقلها أنيس فريحة في معجمه «أسماء القرى . . .، ص 188 «ياطَر (يعطر) وقد نوّه في الهامش (1): «كذا في كتاب الجيش الإفرنسي (Liban: Répértoire alphabétique des noms des lieux)، إلاّ أنه يرجّح أن «يكون أحد أجزاء الاسم «أبي يثار» . . . ويفيد الوفر والعلو والحسن» . وترد عند صالح ديب (اليمن هي الأصل، ص 412) بلفظ «يعثر» ، وهكذا يلفظها سكانها ما يجعل الميدان الفيصل والحكم الأوّل والأخير .

كالعادات والتقاليد الشعبية والنواحي التراثية المختلفة، أكان في لبنان أم في العالم ما يجعل عملية المقارنة بين الشعوب مادة متداولة وهذا ما تحتاجه مجالات حوار الثقافات اليوم في تقارب الشعوب وتلاقيها عبر الحوار الثقافي الإنساني.

دراستنا هذه تشكّل جزءاً مختصراً من عمل موسوعي قمنا بإعداده بعنوان معجم «آلهة وأماكن. انتشار الأسماء عبر البحر الأبيض المتوسط» (دراسة في جغرافية الأسطورة وانتشارها في العالم) وتعالج مادته وموضوعاته أسماء الأماكن بشكل أساسي. هذا المعجم الميثوجيوغرافي الشامل الذي نعدّه، على خطى عظمائنا في التاريخ العربي من أمثال ابن ماجد[1] وابن بطوطة[2]، وغيرهم من الرحّالة العرب كالإدريسّي[3]، وابن

(1) شهاب الدين أحمد **ابن ماجد** بن محمّد السعدي النجدي (821هـ - 906هـ): ملّاح وجغرافي عربي برع في الفلك، الملاحة، والجغرافيا وسمّاه البرتغاليون (بالبرتغالية: almirante) ومعناها «أمير البحر»، ويلقّب «معلم بحر الهند» و«أسد البحار». ينتسب إلى عائلة من الملاّحين. كان أبوه وجدّه ملاّحين مشهورين، ويقول عن جدّه إنه كان نادرة في ذلك البـحر (المحيط الهندي) وإنه استفاد منه والده. كتب العديد من المراجع الملاحية، وكان خبيراً ملاحياً في البحر الأحمر وخليج «بربرا» والمحيط الهندي وبحر الصين، وعمل في معرفة القياسات وأسماء الأماكن وصفات البحر والبحار. ويتمتّع ابن ماجد بأشهر إسم في تاريخ الملاحه البحرية لارتباط اسمه بالرحلة الشهيرة حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند حيث قام بمساعدة «فاسكو دي جاما» باكتشاف الطريق الجديد الموصل إلى الهند. ولابن ماجد الفضل في إرساء قواعد الملاحة للعالم، فقد بقيت آراؤه وأفكاره في مجال الملاحة سائدة تروي إنجازاته في كلّ من البحر الأحمر والخليج العربي وبحر الصين وهو أوّل من كتب في موضوع المرشدات البحرية الحديثة. («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(2) محمّد بن عبدالله بن محمّد اللواتي الطنجي المعروف **بابن بَـطُّوطَة** (1304 - 1377م/ 703 - 779هـ): رحّالة ومؤرّخ وقاض وفقيه مغربيّ، لُقِّبَ بـأمير الرحّالين العرب. خرج من طنجة سنة (725هـ)، فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط إفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم شعراً واستعان بهباتهم على أسفاره. جاب الكثير من الأمصار ودوّن مشاهداته في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». قام برحلة أسفار دامت أكثر من 30 سنة. («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(3) أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن عبدالرحمن بن إدريس الشريفي أو الشريف **الإدريسي** (493 - 559هـ/ 1100 - 1166م): أحد كبار الجغرافيين في التاريخ، مؤسّس علم الجغرافيا، استخدمت مصوّراته وخرائطه في سائر كشوف عصر النهضة الأوروبية، إذ يُنسب له تحديد إتجاهات الأنهار والمرتفعات والبحيرات، وضمّنها معلومات عن المدن الرئيسية بالإضافة إلى حدود الدول. يعدّ الإدريسي أوّل من رسم خريطة للعالم تطابقاً مع الشكل الذي نعرفه اليوم. («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

جبير الأندلسي[1]، والبغداديّ[2]. وكذلك هناك من كتب في البلدان من مثل ياقوت الحمويّ[3] وليون الأفريقي الوزان[4] وغيرهم. ومعجمنا هذا يتضمّن رحلتنا اللغوية الأطلسية التي حقّقناها حول العالم، تتبّعنا خلالها أسماء الأماكن الجغرافية، وبيّنا أنها عربية الأصل في 90% منها، حتى لا نقول مئة بالمئة، لدرجة أنه راودتنا فكرة إلحاق عبارة «إقرأ بالعربية» في العنوان الكبير، لأن موضوع كتابنا لغوي الطابع، وما نودّ أن يُقرأ بالعربية، على اختلاف لهجاتها، هي لغات العالم، لأن أكثرها، لفظاً ومعنى، عربي الأصل. وهذا ما حقّقناه في دراستنا بحيث أرجعنا أسماء آلهة العالم[5]، موضوع معجمنا

(1) أبو الحسن محمّد بن أحمد بن جبير الكناني المعروف باسم ابن جبير **الأندلسي**: ولد في «فالنسيا» (540هـ، 1145م)، جغرافي، رحّالة، كاتب وشاعر أندلسي عربي. قام برحلة دامت ما يقرب السنتين ودوّن مشاهداته وملاحظاته في يوميّات عرفت برحلة ابن جبير، وسمّيت باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار». إنطلقت رحلته من غرناطة، إلى سبتة، بالرمو، كريت، صقلية، الإسكندرية، القاهرة، مكّة، المدينة، دمشق، بغداد، الموصل، حلب... («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(2) أحمد بن العباس بن راشد بن حماد **البغدادي**، (القرن العاشر م): وصف كعضو في سفارة الخليفة العباسي إلى ملك الصقالبة (بلغار الفولجا) سنة (921م)، وصل إلى البلغار (يوم 12 مايو 922م/ 12 محرّم 310هـ)، (وقد اتخذت تتارستان المعاصرة من تلك المناسبة يوم عطلة دينية). («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(3) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله **الحموي** (574 – 626هـ): أديب ومؤلّف موسوعات وخطّاط من أصل رومي، اشتغل بالعلم وأكثر من دراسة الأدب، وقد سمّى نفسه عبدالرحمن. وأهم مؤلّفاته كتاب «معجم البلدان»، طبع عدّة مرّات، ويعدّ مادة أساسية لمعرفة البلدان إلى اليوم.

(4) **ليون الإفريقي** أو يوحنا ليون الأفريقي أو يوحنا الأسد الأفريقي: هو الحسن بن محمّد الوزان الزياتي الحسن بن محمّد الوزان الفاسيّ. ولد في غرناطة (901هـ/ 1495م) ثم ارتحل مع عائلته إلى فاس. قام برحلات تجارية إلى «تمبكتو» ثم طاف المغرب وبعدها ذهب إلى مصر وخُطف على يد القراصنة ليُسلّم إلى البابا «ليون العاشر» الذي أسمّاه «ليون» وطلب منه الكتابة حول رحلاته، فكتب كتاب «وصف إفريقيا»؛ إشتهر بتأليفه الجغرافي في عصر النهضة. («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(5) جمع معجمنا أسماء الآلهة، وهي العنصر المكوّن لعلم الميثولوجيا في العالم كلّه ووحّدها وجعل منها لغة واحدة هي لغتنا العربية، التي تبيّن لنا أنها الأصل أو «اللغة الأم». والآلهة، موضوع دراستنا، ليست حكراً على حضارة شعب معيّن، بل شملت كلّ الآلهة التي عرفتها شعوب الأرض وصاغها الفكر الديني. وقد بيّنا أيضاً، من خلال أسمائها، أن نشأتها كانت في المشرق القديم، وليس عبثاً مقولة إن المشرق هو مهد الأديان والفكر الروحاني. ونؤكّد بالبرهان من خلال أسماء الأماكن صحّة ذلك. فمثلاً، هل تذكّر أحد أن اسم جزيرة «سردينيا» هو عربي، مركّب من كلمتين «سر» و«دين» أي «سر الدين»؟

الشامل، إلى أصولها العربية، مرتكزين على المعطيات الطوبونيمية (toponymique) المتعلّقة بعلم أسماء الأماكن، والأونومستية (Onomastique)[1] المتعلّقة بعلم أسماء الأشخاص، والمرتبطة بالعلوم اللغوية (Linguistique)، واللفظية (Phonétique)، وبعلم الألسنية (Sémantique) وبعلم الفيلولوجيا (Philologie) والإيتمولوجيا (Etymologie) أي أصول اللفظة والكلمة، وبعلم فلسفة التاريخ (Epistémologie) والرمزية (Symbolique) وبعلم الأصول والمنشأ (Genèse) وبعلم الحضارات (Civilisations) والعادات والتقاليد والمعتقدات (traditions/cultures/croyances) وبعلم الأساطير والخرافات (Mythologie)، إلى ما هنالك من اختصاصات ذات صلة بالموضوع ومرتبطة بأسماء الأماكن كعلم، من مثل الأنثروبولوجيا (Anthropologie)[2] والإثنولوجيا (Ethnologie)[3] وغيرها . . .

---

(1) من اليونانية (Onomasticon) ومعناها «مجموعة» أو «قاموس» الأسماء العامة، أو الخاصة، أو أسماء الأشخاص. وهناك عدد كبير من تلك القواميس القديمة والتي أحصت أسماءً، منذ العصور القديمة، من بينها:

Philon d'Alexandrie, *Onosmasticon des lieux et noms hébreux de la Bible*; Aménémopé, *Onomasticon d'Aménémopé, XX^{e} dynastie égyptienne*; Eusèbe de Césarée, *Onomasticon*, vers 331: sur les noms et lieux hébreux; Jérôme de Stridon: Sur les lieux et noms hébreux vers 390; *Ramesseum onomasticon*: papyrus tirant son nom du lieu de sa découverte, (le Ramesséum, temple funéraire de Ramsès II) et découvert par l'égyptologue Quibell.

(2) الأنثروبولوجيا هي علمُ الإنسان، أي الدراسة العلمية للإنسان، في الماضي والحاضر، الذي يرسم ويبني معرفة العلوم الاجتماعية، وعلوم الحياة، والعلوم الإنسانية. وقد نُحتت الكلمة من كلمتين يونانيتين هما (anthropos) ومعناها «الإنسان» و(logos) ومعناها «علم». وعليه، فإن المعنى اللفظي لاصطلاح الأنثروبولوجيا (Anthropologie) هو علمُ الإنسان. وتُعرّف الأنثروبولوجيا تعريفات عدّة أشهرها: علمُ الإنسان؛ علمُ الإنسان وأعماله وسلوكه؛ علمُ الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها؛ علمُ الإنسان من حيث هو كائنٌ طبيعي واجتماعي وحضاري؛ علمُ الحضارات والمجتمعات البشرية . . . («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة - إنترنت).

(3) علم الأعراق (Ethnologie) هو علم الثقافات المقارن، وهو علم يعنى بخصائص وإنجازات الشعوب وأحوالهم الحضارية والثقافية ومعتقداتهم. من أهدافه إعادة صياغة تاريخ الإنسان ومعرفة التغيّرات الثقافية الطارئة مع تغيّر الأجيال. في أميركا وبريطانيا، يرمز لعلم دراسة الأعراق بالإناسة (علم الإنسان) الثقافية على الرغم من أن المصطلحين لا يحملان المعنى ذاته. («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة - إنترنت).

في المنهجية

إن أهم بنود المنهجية هي اعتماد الأدوات الكفيلة بحل المسائل المطروحة في موضوع الدراسة، إشكالية، أهدافاً وفرضيات. وتبقى إشكالية كتابنا هذا في كيفية ربط الاسم بمعناه الحضاري والتاريخي ومن خلاله الإضاءة على أصالة الحضارة. اعتمدنا في دراستنا أكثر من منهج من أجل تتبّع خطوات البحث، من بينها:

منهجية دراسة اللغة:

إن معرفة المدلول اللغوي للاسم (قديماً وحديثاً) كفيلة بإعطائنا معلومات مهمة عن طوبوغرافيّة المكان ومعالمه الجغرافية أو البيئية وفي هذا فائدة جلّة للمتخصّصين من جغرافيين وجيولوجيين ومسّاحين ومهندسين وسواهم من العلماء والطلاّب المهتمّين بدراسات الأرض والمياه والزراعة والمعادن والآثار، لذا اعتمدنا في منهجنا التطرّق لجميع تلك المجالات العلمية واعتمادها كركيزة أساسية في البحث والدراسة.

دراسة اللغة العامّية:

وقد اعتمدنا على اللغة بما فيها اللغة العامية واللهجات المحكية كركيزة أساسية للبحث والتحليل. وطبعاً، لا يقدر اتباع هذه المنهجية إلاّ من كان عارفاً باللغات القديمة (الميّتة) والحديثة (الحيّة) وكان ضليعاً بها، تحديداً باللغة العربية. أما ما نقصده باللغة العربية، وهذا ما سوف يثير استغراب الكثيرين ممّن يجهلون أن اللغة العربية هي أقدم اللغات على الإطلاق وهي مواكبة في قدمها لحضارتنا المشرقية العظيمة، أن اللغة العربية الفصحى هي مجموعة اللهجات والمحكيات العامية لغالبية الجماعات العربية التي عاشت على هذه الرقعة الجغرافية التي تعرف بالمشرق العربي - سورية. وهذه اللهجات المتعدّدة اللكنات هي التي أعطت اللغة العربية ذخرها الفكري والكلامي، فهي إذن نتاج ما تكلّم به أجدادنا من السومريين والآكديين والبابليين والأشوريين والفينيقيين والنبطيين والآراميين والسريان، أي كلّ شعوب سورية، وكلّهم عرب تكلّموا اللغة العربية، كلٌّ بلكنته. ولم يكتفوا بأنهم كانوا أوّل من اخترع الرموز لكتابتها، بل صدّروها إلى شعوب العالم التي انتهجتها كلّ على طريقتها. وقد انتقلت اللهجات العربية مع الجماعات المختلفة المناطق الجغرافية في المشرق، عبر البحار والمحيطات والأودية والسهول... أي عبر الأماكن.

ولسنا أوّل من قال إن اللغة العربية هي أقدم لغات العالم، إنما نحن أكّدنا أنها اللغة – الأم، أي الأقدم تاريخياً، أي أنها الأصل وباقي اللغات هي فروع منها. وأكّدنا أنه بالعربية سميّت أسماء الأماكن على الأرض وكذلك في الفضاء، بحيث حملت الكواكب والمجرّات والنجوم أسماء عربية (الزهرة؛ عطارد؛ زحل؛ المريخ...)، نظراً لما كان من أهمّية كبرى لعلم الفلك عند الكلدانيين وهم من قدماء العرب.

وكثيرون هم الباحثون الذين قالوا بأقدمية الحضارة العربية – الفينيقية وبتأثيرها على باقي الثقافات في الجوار (تركيا، إيران، روسيا، الهند...) والعالم، لكنهم لم يتمكّنوا من إثبات ذلك بالطريقة الحسّية، الملموسة والمنطقية العلمية، بل جاء برهانهم جزئياً؛ ونظن أننا تمكّنا من تحقيق ذلك وتأكيده بشكل شبه تام، وهذا إنجاز بحدّ ذاته، وذلك باعتماد منهجية خاصة يمكننا تلخيص أهم نقاطها على النحو الآتي:

قمنا بجردة عامة على كمٍّ هائل من أسماء الأماكن في العالم، وعزلنا هذه الأسماء وحلّلناها لغوياً ولفظياً وأعدناها، قدر المستطاع، إلى أصولها العربية ومن ثم بحثنا في الأطلس الجغرافي العربي عن أسماء شبيهة بها لفظياً لنثبت أصلها. هذه الجردة الأطلسية[1] لأسماء الأماكن (جزر، مدن، قرى، جبال، أنهار، وديان، سهول، مواقع أثرية وتاريخية، معالم، صروح، ساحات، أحياء، زقاقات، إلخ...) وجمعنا أسماءها من حول العالم، خوّلتنا وضع لوائح كبيرة من الأسماء. وفي حال تعذّر علينا إرجاع إسم المكان إلى العربية الفصحى، أرجعناه إلى العربية المحكية المختلفة والمتنوّعة اللهجات، وهي خزّان فكري لا يستهان به. وقد اكتشفنا أن الأسماء برمّتها، إنما هي منقولة عن اللغات المشرقية القديمة (فينيقية، سُريانية...) أو أنها مقتبسة مع سمة من سمات اللهجات العربية المختلفة، وعلى هذا النهج تيسّر لنا تفسير معناها وإعادتها إلى أصولها اللغوية.

لقد جمعنا العيّنات من عدد كبير من أسماء المناطق اللبنانية والسورية والعربية والعالمية والتي يمكن أن تفسّر على ضوء الحضارة التي تعود إليها تاريخياً. واعتمدنا على تقنية جمع المعلومات أو القياس التي تقوم على المصادر والمراجع وسجلات وزارة الداخلية والخرائط. ومن ثم لجأنا إلى تقنية التحليل التي تقوم على التحليل اللغوي واللفظي بالاستناد إلى أصول اللغات السامية (فينيقية، آرامية، سُريانية، عربية، يونانية، لاتينية

---

(1) اعتمدنا الأطلس الجغرافي باللفظ الفرنسي بشكل عام.

وغيرها) وكذلك التحليل الرمزي والحضاري، لنصل إلى منهجية المقارنة اللغوية التي تعتمد على اللفظ وعلى القواسم اللغوية المشتركة بين اللهجات التي تكلّمت بها الأقوام صاحبة المواقع التجمّعية والاجتماعية والتي أعطتها أسماءها وحافظت عليها. عليه، كلّ اسم منطقة يُدرج في جدول خاص بحسب الترتيب الأبجدي للاسم كما وتوضّح المعالم التراثية والأثرية والتاريخية للمكان (تحديد زمنها والحضارات التي تعاقبت عليها ووصف معالمها)، إن وُجدت، وهذا ما يجعل هذه الدراسة تأخذ طابعاً تحليلياً، أثرياً وتاريخياً جديداً من نوعه وهذا العمل يتطلّب التحقيق الميداني بشكل خاص.

وتجدر الملاحظة إلى أنه قد طرأت بعض التغيّرات على الأسماء بفعل مرور الزمن كما وأن بعض البلدات تحمل أكثر من اسم. ومن خلال التحقيق والتحليل والتفسير، يسعى الباحث المتخصّص إلى تبيان الأصول الحقيقية للاسم ومنه الأصول اللغوية والتاريخية وتقوم هذه المعطيات على التحليل المنهجي اللغوي والثقافي وكلّ ذلك يساعد عالم الآثار في تبيان الحقيقة التاريخية للموقع المدروس، وبالتالي، يكون الاسم مفتاح الحل في أغلب الأحيان.

إن اللغة تحمل في كنهها كمّاً كبيراً من المعطيات الثقافية لحضارة شعب ما. وهي، وإن لم تكن تحدّد كلّ الهوية، فهي عنصر أساسي، ولعله الأهم من بين العناصر التي تكوّن الحضارة التي تنتمي إليها الأقوام. واللغة هي الوعاء الذي تُحفظ فيه فلسفات العالم وأفكار علومه وهي المبدأ أو الأساس الذي تقوم عليه الأمّة وتنشأ، بما في ذلك أمم العالم أجمع وقومياته ومجتمعاته وشعوبه. ومن خلال منهجية دراسة فيلولوجيّة اللغة أي بعدها الفكري، نستطيع أن نلقي الضوء على قدم اللغة العربية وأسبقيتها. كما وتبيّن لنا اتساع رقعة انتشار اللغة العربية القديمة، ومنذ بداية التاريخ، في بلاد المشرق القديم: بلاد ما بين النهرين (العراق؛ إيران؛ تركيا)؛ وسورية (الهلال الخصيب أو بلاد الشام بما فيها فينيقيا وفلسطين)؛ شبه الجزيرة العربية بما فيها اليمن. وفي بلاد آسيا الوسطى (الهند والسند) والشرق الأقصى (الهند؛ اليابان؛ الصين)؛ وإفريقيا (خاصة الجزء الشمالي منها: مصر؛ ليبيا؛ تونس؛ المغرب العربي؛ موريتانيا؛ والشرقي منها: السودان؛ الصومال؛ أثيوبيا؛ إيريتريا...) وأوروبا (اليونان؛ إيطاليا؛ فرنسا؛ إسبانيا؛ البرتغال...) وصولاً إلى بلدان بحر الشمال (بريطانيا؛ إيرلندا؛ غرباً؛ وروسيا والدول الإسكندينافية والسلافية شرقاً). وهنا تأتي الأسطورة لتدعم كلامنا، وهي أسطورة «أوروبا» الشهيرة، ابنة ملك

صور، التي خُطفت إلى القارة التي أخذت اسمها، وذهاب أخويها «قدموس»، معلم الأبجدية الفينيقية، و«فينيق» باني المدن والحواضر للبحث عنها، فنشرا الحضارة في كلّ الأرجاء. وهل لفظة «أوروبا» غريبة عن لفظة «عُربة» أو «غربة»[1]؟

منهجية دراسة الإيتيمولوجيا والفيلولوجيا وارتباط الأسماء بالأسطورة:

إن انتشار اللغة والكتابة العربية في العالم وتعدّد لهجاتها وطرق كتابتها أدّى إلى تعدّد لهجات الأقوام والمجتمعات المتأثرة بالحضارة المشرقية. هذا الانتشار نقل إلى العالم عبر القصص التاريخية والدينية والمعتقدات التي حملها معهم المهاجرون والتجار والمستكشفون والباحثون عن المعادن من أبناء المشرق القديم. وبواسطة لغتهم وقلمهم العربي، تلقاها المقيمون على شكل قصص أسطورية، ما لبثوا أن بالغوا في سرد أحداثها عبر العصور، حتى أخذت الطابع الميثولوجي الذي نعرفه اليوم. وما قصة النمرود المنتشرة في كلّ التراث القصصي العالمي وعند كلّ الشعوب، وهو الذي أراد اقتناص الإله من السماء ورفعه البروج والسلالم ليطاله، سوى قصة تاريخية مشرقية المصدر، لا تزال المراجع تخبرنا عنها حتى الآن. بحيث أتت الأسطورة لتبرهن على أسماء الأماكن، وبالعكس أتت أسماء الأماكن لتبرهن على أصول الأسطورة وأصول أسماء أبطالها وما خلّفوه من إرث حضاري، جغرافياً وتاريخياً. والأسماء الجغرافية تشكّل مادة فريدة من نوعها في علم الطوبونيميا (Toponymie) الأسطوتاريخية (علم أسماء الأماكن اعتماداً على الأسطورة التاريخية)، أي قاموس الأماكن والأساطير، من خلاله نتعرّف على أصول ومعاني أسماء الأماكن بواسطة إسم الإله الذي أعطاها اسمه، قاموس الأسماء الألوهية (noms théophores). ومن خلالها تدرس الطوبولوجيا (Topologie)[2] الخاصة بأسماء الأماكن وتحوّلها.

---

(1) هنا يجدر بنا إعادة النظر في أسطورة أوروبا وأخويها، فهل هي مجرّد أسطورة أم هي تخطيط مشروع الدولة السورية لاكتشاف أراضٍ واستعمارها.

(2) الطوبولوجيا أو علم الفراغ أو علم المكان كلمة يونانية (من topos وتعني مكان و logos، تعني دراسة) هي دراسة المجموعات المتغيّرة التي لا تغيّر طبيعة محتوياتها. ممّا دفع بعض علماء الرياضيات والهندسة إلى تسميتها الهندسة المطاطية. وتهتم الطوبولوجيا بدراسة الخصائص المكانية (propriétés spatiales). ومن خلال الاعتماد عليها، نؤكّد أنه مهما تغيّرت أسماء الأماكن في العالم وتحوّلت ظروفها وأقوامها وعاداتها يبقى هناك ثابت طوبولوجي أن أصلها واحد.

وكون أسماء الأماكن متعلّقة بالتراث الأدبي الأسطوري، إستعنّا في بحثنا بأكبر عدد ممكن من كتب الأساطير والميثولوجيا في العالم وعلى رأسها «الإلياذة» و«الأوديسة» لهوميروس وحقّقناهما بلغتهما اليونانية ودرسناهما بالترجمات أيضاً. إضافة إلى «الأناشيد الهوميرية» وكتاب «التاريخ» لهيرودوتس، و«الثيوغونية» و«الأيام والأعمال» لهزيود (Hésiode)؛ وتراجديّات «أسخيليوس» و«سوفوكليس» و«يوريبيدوس» وملهاة «أريستوفانوس»؛ و«المائدة» لافلاطون و«الإنيادة» لفيرجيل؛ و«أونومستيكا» «أوزيبيوس»، إلخ... وحقّقنا عدداً كبيراً من النصوص القديمة المنقوشة بإحدى الخطوط المشرقية القديمة (هيروغليفية، مسمارية، أوغاريتية، فينيقية...) بالإضافة إلى النصوص اليونانية واللاتينية، إلخ. كما راجعنا كتب الإخباريين والرحّالة العرب، كما أسلفنا، مثل ياقوت الحمويّ «معجم البلدان»، والمسعوديّ «مروج الذهب»، وابن الكلبي «كتاب الأصنام»، وغيرهم الكثير. أما المراجع فهي لا تعدّ ولا تحصى وتشمل أكبر عدد من ملاحم وأساطير البشر (مصرية، بابلية، سورية-عربية، هندية، صينية، أوروبية، إلخ...) بالإضافة إلى كمٍّ هائل من الكتب التي عالجت فلسفة الفكر الديني والتاريخ والحضارات. وكذلك إستعنّا بالحكايات الشعبية والنوادر التي لها علاقة بالخرافات والأساطير وقصص الجن والكائنات الخرافية وكذلك بالأمثال الشعبية، لفهم فلسفة القصة القديمة ونشأتها ودخولها في المفهوم الشعبي، لما لذلك من دلالة في فهم الإسم.

إن القصة الخرافية وأسماء الآلهة وأبطالها، وفي جميع صيغها الأسطورية التي نعرفها، تؤكّد على أن منشأها الأصلي كان على أرض المشرق القديم، وبالنتيجة أن اللغة العربية هي الأقدم وأنها تشاطرت إلى لهجات متعدّدة. وتأتي أسماء الأماكن لتدعم هذا الرأي، خاصة أن لا معنى لأغلب الأسماء في لغات شعوبها التي اقتبستها، بينما لفظها ومعناها المنطقي يتجلّيان بوضوح في العربية، مثلاً، «مرسيليا» هي «مرسى ايل»، كما بعلبك هي «بعل البقاع» بالفينيقية - العربية. إن الفكر الديني الذي اختزنته الذاكرة البشرية، على شكل أساطير وخرافات وقصص شعبية وسير وفولكلور وعادات وطقوس وقيم روحية، والذي تبلور في صيغ مختلفة عبر الزمن هو الأقوى على البقاء كون الإنسان يتمسّك بتقاليده ورموزه وأبطاله وآلهته، لأنها تعكس آماله في الوجود والخلود. لذا، فإن الأسطورة تحمل حصيلة الإبداع الإنساني واسم الإله هو رمز الجماعة. ونعتقد أن

ربط علم الأسماء بالأسطورة هو حلّ لمعضلة كبيرة لدى الباحثين حول أصول الأساطير وتطوّرها عبر التاريخ، ذلك أن البلبلة ما زالت قائمة في صفوف الباحثين التي تتضارب آراؤهم وتتناقض بشكل مثير للدهشة. ومن خلال بحثنا التنقيبي الطابع، قمنا برفع الطبقات السميكة المكدّسة فوق الأساطير لكشف أصولها، وبيّنا أصلها المشترك واللغة الأساسية التي كُتبت فيها، ألا وهي العربية القديمة؛ إن عملنا يشبه التنقيب الأثري، وهذا اختصاصنا. وقد توصّلنا، ومن خلال أسماء الأماكن، إلى معرفة كيف نقلت الأسطورة من شعب إلى شعب والطريقة التي حوِّرت بها، كالترجمة الحرفية الخاطئة للّغة الأساسية التي كتبت بها أو ترجمة رموزها وأسلوبها التشبيهي وجعله حقائق أضيفت إليها مراراً وتكراراً الخرافات والخيالات حتى أتتنا على الصيغة التي نعرفها بها اليوم. إن الاعتماد على هذا المنهج التحليلي الذي يعتمد بدوره على الرموز القديمة، وتحديداً الرمزية الدينية، يُعدّ الأجدى لأن الأسطورة هي الأبقى على الزمان وتأثيرها مباشر على الأفكار التي ابتدعها العقل والخيال، باعتبار أن الاسطورة قائمة، في الأساس، على الرمز المواري للمعنى.

منهجية الدراسة التاريخية:

يساعدنا اعتماد الموضوعية العلمية التاريخية على تأكيد وحدة البلاد على أرض المشرق القديم، رغم أن هذه البلاد المشرقية قد عرفت نظام الدولة – المدينة، منذ أكثر من 6000 سنة، وذلك منذ عهد السومريين والآكديين والبابليين والأشوريين... وهم امتداد طبيعي لأمة واحدة متعدّدة الشعوب، سمّيوا باسم بقعتهم الجغرافية على مرّ العصور، وكانت مدنهم عواصم كبرى تتنافس ثقافياً ولغوياً وفكرياً وحضارياً، إذ ضمّت كلّ واحدة من هذه المدن – الدول ذات السياسة والتنظيم الإداري الخاص بها، مراكز ثقافية وعلمية كبرى، وكانت الغلبة للثقافة الأقوى بينها. والأمر شبيه اليوم، حيث أن الوطن العربي مؤلّف من عدّة دول تجمعها أرض وفكر ولغة ودين وعادات مشتركة، غير أن هنالك دولاً أقوى من أخرى، في مجالات عديدة، ما يجعلها ريادية. ودراستنا اعتمدت على أحداث تاريخية كثيرة لم نكتف بقراءتها كما هي، على علاتها أو حسناتها، بل قمنا بتصحيحها على أساس المعطيات اللغوية والمنطقية لعلم التاريخ، التي تكمن في اعتماد منهج المقارنة والتحليل المنطقي في تسلسل الأحداث زمنياً (méthode chronologique). وهذا كفيل بأن يفتح الأبواب واسعة أمام صيغ جديدة

في علم التاريخ، نحن بأمسّ الحاجة إليها اليوم، مبنية على التجرّد واكتمال الرؤية العلمية. واعتماد المنهج التاريخي التنقيحي يبيّن ويدحض تلك الطرق التشويهية التي اعتمدت في سرد الأحداث والروايات خاصة عند الإخباريين العرب، ولا سيّما ممّن يعدّون مصادر لا يمكن الاستغناء عنها. ونحن أكّدنا على أعمالهم من حيث المادة التاريخية، لكننا قمنا بتنقيحها وإعادتها إلى أصولها الحقيقية الواضحة والصريحة.

غاية دراسة أسماء الأماكن وأهمّيتها

إن للاسم قيمة كبرى ومكانة مميّزة في حياة الإنسان، فلكلّ شيء إسم والمسمّيات لا عدّ لها ولا حصر لأنها تدلّ على ماهية الشيء وتحدّد خاصيته. والاسم هوية بحدّ ذاته يميّز شخص عن آخر، فالاسم، باختصار، هو التعريف والخروج من النكرة والانتقال من المجهول إلى المعلوم ومن الجهل إلى المعرفة. ولما كان المرء يسعى إلى الحفاظ على اسمه منزّهاً وبمنآى عن كلّ تشويه أو تحقير وتصغير[1]، عمد إلى الحفاظ عليه بأمانة لما يحمله من تاريخ وأصالة. وفي كلّ زمان ومكان اعتزت البشرية بأسماء عشائرها وقبائلها وعائلاتها، فكيف إذا ما تعلق الأمر باسم بلداتها وبلدها ووطنها وأمّتها؟ وإن أكثر ما يؤلم أن يُنعت أبناء وطن ما كلّهم ومن دون استثناء بالإرهابيين مثلاً أو أن يُصنّف بلدُهم على لائحة الإرهاب ويعمّم، فهذا أمر صعب التقبّل وحتى لو كانت صفة السوء ملتصقة

(1) هناك عائلات كثيرة تخلّت أو بدّلت أسماءها لارتباطها بحدث ما أخلاقي (جريمة مثلاً) أو معنوي (حيث يعطي الاسم معنىً سلبياً ما) أو بصنعة أو باختراع ما، مثلاً، لم نعد نسمع بآل «الزبّال»، وكان اسمهم موجوداً في السابق، لارتباط هذا العمل بالزبالة، ما اعتُبر محقّراً، كما وأن صانع عبوة القمامة الفرنسي أعطاها اسمه (Poubelle) الذي أصبح إسماً عاماً (nom commun) ولم يعد خاصاً (nom propre). بينما العكس صحيح فآل الحكيم أو الشريف أو سلام أو صدقة لا بدّ وأن يكونوا جدّ فخورين باسمهم. ولا ندري إذا ما كانت عائلة «سنوديش» ما زالت تسمّى هكذا نسبة إلى مخترع الشطيرة أي (Sandwich) الإنكليزي. ولعل الحكاية التالية تجمع النقيضين حول قيمة الاسم وأهمّيته بالنسبة لأي شخص، إذ لا يقل اعتزازه باسم عائلته عن اعتزازه باسم بلده أو حتى حارته، فيروى أن عنوان أنور السادات السابق كان «شارع عرصاوي»، فلما أضحى رئيس جمهورية مصر العربية، غيّر اسم المكان إلى «شارع الرئيس أنور السادات – عرصاوي سابقاً». وتجمع هذه الرواية المضحك والمبكي معاً، فإذا نجا صاحبنا باسمه «السادات» وفيه من معاني الفخر ما هو كبير، فلم يفلت من اسم محلّته. ولكن لو فُهم معنى اسمها الصحيح، لما كان من إحراج البتّة، لأن «العرصة» هي الساحة، ولكن مفهومها تبدّل إلى «شوارعي» أو «رخيص».

ببلد ما، فالمسألة مميتة على كلّ صعيد. والمثل الأكثر بروزاً هو الكيان الصهيوني الغاصب، فهو إرهابي بامتياز تأسّس على الإرهاب والجريمة والقتل، باعتراف الكون أجمع. لقد زرعه الاستعمار الغربي مثل شوكة في خاصرة وطننا العربي كخط دفاع أوّل من أجل تحقيق غاياته وأطماعه في الشرق. ولا ندري إذا ما كان سكانه فخورين باسم بلدهم المصطنع ذلك والذي سرقوه وبنوه على الدماء والجرائم، وما العسكرة الطاغية كطابع مميّز لهذا الكيان إلاّ التعبير الصارخ عن اعترافهم، ولو ضمنياً، بفعلتهم وخشيتهم الأزلية من ردّة فعل الضحية؛ وهذه وصمة عار سوف تلاحق أجيالهم ما بقيوا، ولن يكتب التاريخ إلاّ الحقيقة.

لهذه الأسباب مجتمعة وغيرها الكثير، يحتل الاسم موقعاً مميّزاً في حياة الناس وهو مرتبط بهم ارتباطاً وثيقاً ومباشراً، فما من أحد إلاّ وهو معني بمعرفة اسمه ومعناه واسم بلده ومعناه، وما البرامج الكثيرة، الإذاعية أو التلفزيونية («فيروزيات» الصباحي على سبيل المثال) عن أسماء البلدات والضيع والقرى إلاّ البرهان على ذلك، إذ تتسابق البلديات إلى الدخول في اللائحة للتعريف عن مدينتها أو قريتها، وتفسير اسمها وإظهار جمالها ومعالمها الأثرية والتاريخية والعمرانية والتغنّي برجالاتها العظام من أدباء وشعراء ومفكّرين ومخترعين ومبدعين... لما يشكّل ذلك من دعاية ويعود عليها بالفائدة، سياحياً، في الطليعة. وتجدر الإشارة إلى نموّ الوعي العربي وإدراكه خطورة تحريف وتحوير أسماء الأماكن، ومن نتائجه الإيجابية أننا بتنا نشهد اليوم موجة من البرامج التي تعنى بالتراث العربي بشكل عام بما فيها الإضاءة على أسماء المناطق الحضارية من مثل برنامج جدير بالاهتمام بعنوان «على خطى العرب»، المستقاة مادته من الشعر العربي والذي، كما يعلم العارفون، بأنه من أكثر المصادر التي ذكرت أسماء الأماكن العربية، تحديداً في شبه الجزيرة العربية، فهو بحسب تعريف من علّق على البرنامج «أوّل قاموس مرئي لشعراء المعلّقات»، حيث يزور المقدِّم[1] الموقع ويشرح اسمه ويضيء على المواقع التي ذكرت في

---

(1) تقديم عيد اليحيى، إعداد نوفل الجنابي ويعرض البرنامج منذ 2014، على الفضائيات العربية. ومن جملة ما كتب فيه: «العربية، في برنامج يجمع الشعراء والتاريخ والجغرافيا»؛ «بين كلّ شبر وشبر من وديان الجزيرة العربية وجبالها، على رمال صحاريها الطاوية على البلاغة وأسرارها، ثمة علامة تدلّ على عالم من معلّقات العرب وأشعارهم. وللمرّة الأولى، وعبر أكثر من أربعة عشر ألف كيلومتر، يتمّ اقتفاء تاريخ الشعر على الأرض بالبحث عن مفرداته بين رمال الجزيرة العربية ونخلها وصخور =

الشعر ويعرض كلّ ما بقي من آثار تلك المواقع في شبه الجزيرة العربية الضاربة في عمق التاريخ والحضارة، ويُبرز أشهر رجالاتها وأعلامها وإنجازاتهم.

باختصار، إنه، برأينا، معجم تراثي متكامل يحفظ أسماء الأماكن وخصوصيّاتها للتاريخ. وما أحوجنا لتعميم هكذا برامج لتغطي كلّ وطننا العربي، لأنها حاجة ماسة وضرورية لتعزيز القومية في نفوس أبنائنا، وكذلك على حدّ تعبير مقدّم البرنامج عيد اليحيى: «يثقف العرب في أرضهم وشعرهم. وأنه يأتي في وقت تتجه جهود كثيرة، قريبة وبعيدة، لهدم وتقويض تراث الأمّة العربية، وإحراق هويتها، وإثارة النعرات الطائفية والمذهبية لمنع قيام الدولة الوطنية المعتزة بدينها ولغتها، التي هي إناء حضارتها لتدخل أنفاق الحروب الأهلية، وقد دخلتها فعلاً. في هذه الأجواء المظلمة يقدم برنامجنا دفعة إحيائية تعزّز روح الانتماء للدين والوطن والتراث الأدبي الاجتماعي. نقدّمه عبر بوابة اللغة العربية الخالدة والأدب العربي، فن العرب الوحيد، وهو الشعر العربي. وعلى قمته قصائد المعلّقات التي ما زالت تطرب لها الآذان، وتسمو بها النفوس، بسبب المخزون الإنساني والبلاغي والتصويري الذي تحتويه»[1].

وبالعودة إلى دراستنا، فهي تعدّ من الصنف الجديد في طروحاتها، إذ تضمّنت عدداً من النظريات الجديدة أو المجدّدة والمنقّحة ونقول بتواضع إن معظمها خاص بنا، فنحن نعدّ أنفسنا من المدرسة التنقيحية التي ينبغي أن تتوسّع في المشرق العربي وحتى في العالم، وذلك من أجل النهوض بالمستوى التحليلي للعلم والاستغناء عن الأسلوب التقليدي الببغائي، المكرّر. ما يحثّنا على تأسيس مدرسة متجدّدة في التفسير اللغوي والفيلولوجي

= جبالها وعشب الوديان. هي رحلة من أجل الوصول إلى أكبر قاموس بصري للمفردات، التي طالما سمعناها وحفظناها من دون أن ترى لها شكلاً أو تسمع لها صوتاً. وحين تفتح الأرض قلبها تصبح أسرارها مثل كتاب مفتوح يخرج من صفحاته الطير والعشب والشجر والوحشيّ من ساكني الفلوات. كتب وتواريخ بسطور وصفحات متناثرة على طول المملكة العربية وعرضها، تقتفيها في رحلة في عمق التاريخ، ماشين «على خُطى العرب»... إنها رحلةٌ إلى المعرفة واكتشاف ما لم يكتشفهُ أحد»؛ «برنامج يُبرز المخزون الثقافي والحضاري لعرب الجزيرة الأوائل. وهذه المرّة الأولى التي يقدم فيها التلفزيون برنامجاً عن تاريخ الأدب العربي، ليس من داخل المدرسة أو الكتب، بل درس على الطبيعة الجميلة، بوسائل الرصد الإلكترونية الحديثة، وبالمراجع العلمية».

(1) له عدد من المؤلّفات منها «كتاب الرحّالة في الجزيرة العربية: المكتشفون البريطانيون في المملكة العربية السعودية»، وكتاب «أصوات الجزيرة العربية في عيون أعظم الرحّالة».

والفلسفي أيضاً، لا تعنى فقط بطرح الإشكاليات، بل وبإيجاد الحلول العملية ونشرها كمادة علمية عصرية. وهنا تكمن أهمّية عملنا، وهو الهدف الأساس: الخروج عن المألوف والمتكرّر. وقد وصلنا في الشروحات اللغوية والتفسير الفيلولوجي إلى درجة متقدّمة في تحليل أسماء الأماكن من خلال بحث متعمّق، نبيّن من خلاله أن التفسير يقوم على عدّة مستويات (جغرافية، تاريخية، اقتصادية، اجتماعية، دينية...)، بالإضافة إلى المستوى اللغوي بطبيعة الحال. وتجدر الإشارة إلى أن المدرسة التنقيحية موجودة، لكن يعوز علماءَها فقط الإرتكازُ على اللغة العربية وحضارتها وعلومها وثقافتها واعتمادها كأساس، قبل اللجوء إلى أي لغة أخرى.

في الواقع، ترمي كلّ دراسة علمية إلى هدف يتخطّى ما هو مألوف ومجتر، وهذا العمل الذي نقوم به في دراسة أسماء الأماكن يشكل، في نهاية المطاف، دراسة أنثروبولجيّة (anthropologique) وإثنولوجيّة (ethnologique). ويشمل التقاليد البشرية في كلّ زمان ومكان، ويدرس الأسماء من خلال دراسة عدد كبير من العادات والطقوس والتقاليد. وهذه الدراسة الأنثروبولوجيّة تساعد على معرفة الشعوب وكيفية انتقالها وحراكها وانتشارها في الأرض ونقل حضاراتها وثقافاتها والحفاظ على هويتها القومية. وهو صدى للذين انكبوا على أصل السلالات والعائلات («جمهرة الأنساب» للأندلسيّ قديماً؛ إسكندر المعلوف، حديثاً). وهو مادة دسمة للذين يهتمون بعلم السلالات (Généalogie) لأنه تبيّن، من خلال دراستنا، أن كلّ الأشخاص الذين أعطوا أسماءهم للأماكن وأطلقوا اسمهم على مواقع كثيرة، كانوا أشخاصاً تاريخيين، حيكت الأساطير حولهم وغلّفوا بطبقة من الخرافة جعلتهم أشبه بالكائنات العجيبة والآلهة. وقد حاولنا إعادتهم إلى مواقعهم في التاريخ. ونحن نطمح إلى إنشاء مركز أبحاث خاص باللغة العربية لتبيان أهمّيتها الحضارية والفكرية والأثرية، كونها أعطت أولى النماذج الكتابية في العالم. من هنا ضرورة أن نتابع في هكذا دراسات مسعانا، لكي تكون سنداً لمن يودّ التعمّق بها، ونعني الطلاّب الذين يبحثون وباستمرار عن «مادة بحثية» جديدة، لما لمسألة الأماكن وعلومها من أهمّية في تسهيل عملية البحث الأكاديمي في مجال العلوم التاريخية والأثرية عامة، معتمدين على اللغة التي تبقى المقياس الأهم في عملنا.

لعلّ من أهم الأهداف التي يرمي إليها كتابنا، بغية الحفاظ على الذاكرة والهوية الحضارية، أنه يضع حدّاً للتفسيرات القائمة على أساس المرجعية الأجنبية الأحادية الرؤية، إن من ناحية اللغة أو المضمون، فقد حان الأوان الذي يدرس فيه العربي

حضارته، لا بل حضارات العالم، من خلال فلسفة لغته والتي كانت أسّاً لكلّ الثقافات الأخرى، وليس إنطلاقاً من تفسيرات وتأويلات الغرباء عن اللغة والثقافة العربية. والنظريات الغربية تشوّه الوقائع وتحوّرها قصداً، لأن الأجنبي يخدم غاياته وليس الحقيقة. وما المؤتمرات التي تقام سنوياً في موضوع تحويل كتابة ولفظ أسماء الأماكن من العربية إلى اللاتينية، إلاّ برهاناً صارخاً لا بل عملاً تخريبيّاً مقصوداً، هدفه القضاء على اللغة العربية التي لم يستطع لا العثمانيون ولا الحلفاء (فرنسا، بريطانيا) في الماضي إلغاءها، فهل نتركهم يفعلون اليوم؟ لذا أسمى هدف يطمح إليه عملنا هو الحفاظ على أسماء أماكننا بلغتنا العربية وليس بلغة التحوير كما هو حاصل في فلسطين المحتلّة، لأن ضياع اللغة هو ضياع الهوية.

ونأمل أن يكون كتابنا الشاهد المستقبلي والمرجع الذي يُرتكز عليه في معرفة حقيقة الأسماء وهويتها الأصلية، من خلال اعتماد المنهج الصحيح، لأنه يتوخّى الحقيقة، فهو مكتوب بيد عالمة آثار وباحثة لغوية، مهمّتها التنقيب لإزالة غبار الجهل المتراكم فوق الإشكاليات والمسائل. لذا ارتأينا الردّ على النهج الغربي في التعاطي مع حضارتنا المشرقية من وجهة نظر ذاتية صرفة، في حين يعوزنا معالجة ثقافتنا العربية بعقاقير عربية نابعة من أرضنا، واللغة هي أحد الجوانب الأساسية منها، وهي مفتاح الحل لكثير من المعضلات. وقد تبيّن لنا، من خلال التعمّق البحثي الدقيق، أن كلّ النصوص التي أتتنا من التاريخ، بما فيها التوراة نفسها، كتبت بلغة واحدة هي العربية القديمة، وعلى اختلاف لهجاتها، (فينيقية، آرامية، سُريانية...) هذه اللغة التي اعتبرناها مقياساً: «إقرأ بالعربية». وبفضل هذه الأداة، توصّلنا إلى قراءة الملاحم القديمة لكلّ شعوب المشرق القديم باللغة العربية، حتى «هوميروس» الإغريقي، ممّا فتح المجال أمامنا لإعادة النظر في الترجمات التي حُقّقت حتى اليوم، وهذا بحدّ ذاته عمل جديد.

هذا العمل هو إنجاز وطني بامتياز لأنه يرمي إلى الحفاظ على الهوية الحضارية لبلادنا ويؤكّد على أهمّية شعبنا الفينيقي - السُرياني - العربي الذي علّم العالم الحرف ونشر ثقافته بين الجماعات البشرية التي احتك بها. ونؤكّد هذه المعطيات حسّياً، بواسطة اللغة الفينيقية - السُريانية - العربية، لغتنا الحالية. وإذا ما اعتُمد هذا النهج الفكري العلمي بشمولية فهذا كفيل، لا أن يعيد إلى الأمّة العربية وحدتها الجغرافية واللغوية والحضارية وحسب، بل أن يجعل من العالم أجمع بحيرة أو كرة مشرقية الطابع واللغة،

أين منها محاولات العولمة في حاضرنا. وأهمّية دراستنا هي في فكرة الكتاب أصلاً، التي انطلقت من البحث عن الهوية وبكل معطياتها. وربّ قائل يدّعي ضياع الهوية العربية اليوم، فكتابنا هو ردٌّ على المشككين الذين أضاعوا هويتهم وكانوا سبباً في تضييع الوطن، فكانت اللغة التي لُفظت بها أسماء الأماكن وسيلة لاستعداة الهوية، ونرجو أن نكون وفقنا في ذلك. ومن عرف أصله عرف نفسه وعمل على تكوين أسس ثابتة لمستقبل وطنه وأمّته. في الحقيقة، إن كتاباً مختصّاً في علم أسماء الأماكن هو ضرورة ملحّة لأنه مطلوب بكثرة من قبل الباحثين وطلبة العلم الذين ينتظرونه بفارغ الصبر. وقد أكدت لنا ذلك آراء عدد كبير من الأساتذة والمختصّين الذين أبدوا تقديرهم لمادته الغنية المتنوّعة وأبدوا حماسة في تشجيعنا لإنجازه. وهو منتظر بشغف من قبل الكثيرين من طلاّب الثقافة وهواة الاطلاع بشكل عام وخاصة الطلبة.

ولا ندّعي مطلقاً أن ما بيّناه هو الحقيقة الخالصة وإلاّ نكون قد ابتعدنا عن المنهج العلمي ودخلنا في ذاتية خطيرة، ونؤكّد أن طروحاتنا والنظريات التي خرجنا بها بعد بحث طويل، هي كما كلّ النظريات المستحدثة، قابلة للبحث والجدل والتصحيح والتطوير. من هنا أهمّية عملنا الذي طرح كمّاً من التساؤلات (الإشكاليات) ويتطلّب محيطات من الأجوبة. لذا يتوجّب على كلّ من يرى ضرورة في نقده أن يفعل، وبهذا تعود عجلة البحث إلى الدوران وهي اليوم صدئة في وطننا العربي، فحبّذا لو يكون عملنا هذا المحرك، لأن الصدأ بات يضرب الأدمغة وليس فقط المادة. وهذا بلاؤنا الكبير اليوم، نحن العرب، لأننا نكتفي بالترداد والنقل والاستهلاك السريع. والتاريخ والعلوم ليست علب طعام جاهزة نأكلها من دون معرفة ما تحتويه من سموم، بل علينا تطهير كلّ شيء قبل بلعه. ونحن نرفض رميها بالمطلق، لكي لا نخسر مادة بحثية مهمة. ونحن ندعو إلى التحليل المنهجي والموضوعي وهذا ما اعتمدناه. وكيف لا؟ ونحن نأخذ برأي عدونا قبل صديقنا، غير أننا نشرحه ونحلّله ثم نعتمده أخيراً.

إنّ تعصّبنا هو فقط للمنهج العلمي المنطقي الذي يعتمد على إجلاء الحقائق التي نعتقد كباحثين أنها صحيحة، لأن موضوع علم أسماء الأماكن شامل، مانع وجامع، ويظهر أن كلّ شيء معلّق باللغة ذات الأصل الواحد، فكيف نكون مجزّئين عندما نكون نحن من نجمع الأجزاء وعندما نكون نحن من نبتغي كليّة الأشياء؟

الفصل الأول

نشأة علم أسماء الأماكن

في تعريف الطوبونيميا كمصطلح

تدخل دراستنا حول الأماكن وأسمائها في إطار علم خاص هو الطوبونيميا (Toponymie)، وهي لفظة يونانية، مؤلّفة من (top) أو (topo)[1] «مكان» و (onyma)[2] «إسم» أو «لقب». إن الطوبونيميا كمصطلح شامل متعارف عليه هو العلم الذي يدرس أسماء الأماكن (toponymes)، من حيث معناها ومبناها وأصلها وانتشارها في مختلف المناطق والبلدان ويهتم بالتعرّف على أسمائها ومعانيها وألفاظها ومفاهيمها وأيضاً تغيّر تلك الأسماء وتبدّلها وتحوّلها عبر العصور وكذلك دراسة تأثيرها على المجتمعات[3]. إسم السكان الذي يتحدّر من «الطوبونيم» هو «الإيثنونيم» (ethnonyme) أو الاسم العام للسكان (gentilé)، أما «الإكزونيم» (exonyme) فهو الاسم الخارجي[4].

وميدان الطوبونيميا واسع جداً، فهذا العلم يدرس أسماء الأماكن المسكونة (مدن، محلاّت، أرياف، قرى، نواحي، بلدات...) أو غير مسكونة (lieux-dits)، وأيضاً الأنهار، طرق المواصلات (الطرق الكبرى الطرقات)، ويمكن أن يتطرّق لميادين أقل تداولاً من مثل المساكن الخاصة أو السياحية الطابع (أسماء فيلاّت، مزارع، فنادق...)[5] ويفتح هذا الإختصاص آفاقاً جديدة لدراسة موقع ما، وذلك من خلال الرجوع إلى أصل أسماء الأماكن التي غالباً ما تحمل مدلولاتها معلومات تضيء على حضارة الموقع المدروس بكاملها. وفي كثير من الأحيان، يحمل الموقع إسمين في آن معاً، ممكن لواحد أن يكون قديماً والثاني حديثاً وربما يكون الإثنان قديمين. والتغيير الذي طرأ على أسماء الأماكن هو الدليل على أنها عرفت غزوات أو نزوحات أو استيطانات متتالية وحركة سكن متعاقبة،

---

(1) طوبو (topo): طبيعة/ جغرافيا/ تضاريس...

(2) ومنه (nom/name/nomination).

(3) http://fr.wikipedia.org/wiki/Toponymie

(4) «الإكسونيم»: من (إكسُو - «خارجي» و-نيم «إسم» بالإغريقية)، إصطلاح يطلق على كلّ اسم غير ذاتي، سواء كان اسماً قومياً أو اسماً مكانياً أو اسم لغة... مثلاً، وحدهم الأجانب يسمّون بلاد الإغريق «اليونان»، بينما اسمها المحلي هو «هيلاد» (Hellade). كذلك «البربر» إسم خارجي سمّى به الغزو الأوروبي الأمازيغ في بلاد المغرب، كما يروّج له.

(5) Wikipedia, article «Toponymie»

فكلّما تعدّدت أسماء الأماكن، كلّما استنتجنا أنه حصلت تغيّرات ما في الموقع. وهذا يشكل مادة غنية تساعد على التعرّف على تاريخه. كما أن دراسة أسماء الأماكن يمكن أن ترشد الباحث إلى أماكن اختفت بشكل نهائي (آبار، حمامات، بيوت، مساكن، فيلات، غابات، قصور، قلاع، جزر، هضاب، تلال، أنهر، مجاري مياه، ينابيع، مدن، قرى، محلاّت، بلدات...) إلى ما هنالك من أسماء أماكن ومواضع اندثرت ومُحيت من ذاكرة التاريخ أو مُحيت معالمها من الجغرافيا كلّياً.

فروع الطوبونيميا

إن الاهتمام الكبير الذي يلقاه علم الطوبونيميا وتفرّعاته المتشعّبة اليوم جعل الباحثين ينكبون على اختصاصات دقيقة ومحدّدة شملها هذا العلم ومنها:

على صعيد أسماء الأشخاص: «الأنثروطوبونيميا» (Anthroponymie) هو علم أسماء الأشخاص وهو جزء من علم «الأونوماستيكا» (Onomastique) من اليونانية (Onomastiko)، أي دراسة أسماء العلم، وهو نفسه جزء من علم اللغة (Linguistique)[1]. «الهاجيوتوبونيميا» (Hagiotoponyme) التي تشكّل فئة متحدّرة من الطوبونيميا وتتعلّق بأسماء الأماكن الخاصة باسم قديس أو وليّ أو أي شخصية دينية أخرى. والأسماء المستحدثة التي تظهر بشكل مستمر تدخل في خانة «النيوطوبونيميا» (Néotoponymie) وتشمل كلّ التغيّرات والتحوّلات التي تطرأ على الأسماء وتؤدّي إلى تبديلها أو استحداث أسماء جديدة وهو أمر متواصل.

على صعيد الأسماء الجغرافية والديموغرافية والتنظيم المُدُني: «الهيدرونيميا» (Hydronyme) تشكّل فئة مرجعية من الطوبونيميا وهي تتعلّق بأسماء الأماكن التي

(1) اللغويات أو اللسانيات أو الألسنيات: العلم الذي يهتم بدراسة اللغات الإنسانية ودراسة خصائصها وتراكيبها ودرجات التشابه والتباين فيما بينها. ظهرت في القرن (19م) وهي متعلّقة بدراسة اللغة. جاءت بفكرة رئيسة مع العالم «دو سوسير» (De Saussure)، فمع علمنة الثورة الصناعية، أراد علمنة اللغة أيضاً في كتابه «محاضرات في اللغويات العامة»، فاللغة عنده تحمل هويات من القيم: الدين، المحيط، الثقافة، الفكر الفلسفي... ومن فروعها المتعلّقة بالأسماء، نذكر «الهيبورونيميا» (Hyperonymie) أي الاسم الشامل عند أهل اللغة وهو اللفظ الدال على معنى أعمّ من المعنى الأخص الذي يدلّ عليه إسم آخر، ويسمّى هذا الاسم مشمولاً. وللاسم الشامل أسماء أخرى، منها اللفظ الأعم والمقسّم والما فَوق... («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

لها صلة بوحدة مكانية تتضمّن عنصر الماء (مجاري مياه، مخطط مائي، شلالات، برك، بحيرات، ينابيع، أنهر...) «الأورونيميا» (Oronyme) وتشكّل فئة مرجعية من الطوبونيميا ذات الصلة بوحدة مكانية تتضمّن ملامح التضاريس (قمم، وديان، سهول، هضاب، تلال، خلجان، رؤوس...) «الميكروطوبونيميا» (Microtoponyme) هي طوبونيميا على مقياس أدنى من القرية أو البلدة أو السكن الجامع. «الأودونيميا» (Odonyme) وتكتب أحياناً (Hodonyme) وتشكّل فئة مرجعية تتعلّق بالطوبونيميا التي تعود إلى طرق المواصلات وشبكات الاتصال.

على صعيد أسماء الحيوانات: «الزونيميا» (Zoonymie) وتعني الأماكن التي اتخذت أسماءها من أسماء الحيوانات. ومثلها النباتات أي «الفيتونيميا» (Phytonomie) وهي الأماكن التي اتخذت أسماءها من أسماء النباتات. وكلاهما يشملان الأسماء المحلّية والمكانية للحيوانات والنباتات بحسب البيئة التي تعيش فيها. وهناك أسماء الأماكن التي لها علاقة بعالم النبات والأشجار من مثل الغابات والأحراش وغيرها وتسمّى «دوندرونيميا» (Dendronymie). وأكثر ما يساعد على الإضاءة على ارتباط هذه العلوم ببعضها هو في إبراز دورها كعلوم مساعدة لكافة العلوم الأخرى ذات الصلة[1].

---

(1) نعالج المسألة فيما يلي من هذا الفصل.

علماء مؤسّسون وإختصاصيون في الطوبونيميا

المدرسة الغربية

إن استخدام الطوبونيميا كمصدر لدراسة تاريخ استيطان الأماكن، يعود بتاريخه في شمالي غربي أوروبا إلى القرن التاسع عشر.

في ألمانيا، مؤسّس علم الطوبونيميا هو «و. إرنولد» (Wihelm Arnold). في دراسته بعنوان (Ansiedlungen und Wanderungen deutscher Stämme. Zumeist nach hessischen Ortsanem, 1875)، أخرج نظرية جريئة مفادها أن دراسة أواخر الكلمات (désinences) في أسماء الأماكن تسمح بتحديد المناطق التي سكنتها القبائل الجرمانية، خلال مراحل استقرارها وانتقالها النهائي من حالة البداوة والتنقل من شظف العيش إلى الاستقرار السكني. وعليه، فإن اللاحقة بالاسم (suffixe-heim) تدلّ على وجود الفرنجة (Francs) و(-ingen) على الألمان (Alamans) و(-leben) على الثورنجيين (Thüringiens).

أما في فرنسا، فإن استخدام الطوبونيميا كمصدر لدراسة تاريخ استيطان الأمكنة يعود إلى «أربوا دو جوبنفيل» (Arbois de Jubainville). في دراسة له بعنوان (Recherches sur l'origine de la propriété foncière et des noms de lieux habités en France, 1890) (بحث حول أصل الممتلكات العقارية وأسماء الأماكن المأهولة في فرنسا)، خرج بنظرية جديدة لاقت أصداءً إيجابية على نطاق واسع، فالطوبونيم المكوّنة من اللاحقة (-acus) والتي أعطت أسماء الأماكن التي تتضمّن (-y, -ay, -ac -é) تعود إلى أصول غالو–رومانية وتدلّ على مواضع سكنية قديمة ذات طابع ريفي (villae)، فجذر الاسم يدلّ على اسم المالك، أما اللاحقة فيه (-acus) فتعني «حقل فلان» (domaine de...). إلاّ أن المؤسّس الحقيقي لعلم الطوبونيميا هو «لونيون» (Auguste Longnon 1844-1911) الذي كان أوّل من درّسه في معهد فرنسا (Collège de France) حتى وفاته العام (1913). وكتابه العام عن أسماء الأماكن (1920 – 1929)[1] طُبع بعد وفاته. وهو يعدّ أهم الاختصاصيين في علم الطوبونيميا، بل مؤسّسها في فرنسا من حيث كونها علماً ممنهجاً ومنظماً بكل ما للكلمة من معنى. ولاحقاً،

(1) Auguste Longnon, *Atlas historique de la France depuis César jusqu'à nos jours*, Hachette, 1884.

قام باحثون آخرون بتطوير أعمال «لونيون»، على رأسهم «ألبرت دوزات» و«مرسيل بودو» و«شارل روستنغ» و«أرنست نيجر» (كتابه عن الطوبونيميا العامة لفرنسا، في 3 مجلّدات/ Toponymie générale de la France)[1] وغيرهم الكثير.

وعلى أثر أعمال «دو جوبنفيل» (Arbois de Jubainville)، راح أختصاصيو الطوبونيميا، تباعاً، يضعون لوائح بأسماء الأماكن موزّعة على فئات كبرى كالتي نجدها عند «لونيون» أو «دوزات»، كالآتي:

- طوبونيم ما قبل لاتينية: (أسماء من أصول غالية (gauloise) أو ما قبل سلتية (préceltique) تعرّفنا عليها من خلال بعض اللواحق مثلاً (-ialo) التي نجدها في اسم «أرجونتويل» (Argenteuil) وغيرها، أو بعض الجذور (-duno, briga-, mago-).
- طوبونيم غالو - رومانية: تتضمّن (-acum) وكلّ الأسماء التي لها جذر لاتيني، مثلاً (Fay de Fagus).
- طوبونيم جرمانية: تتضمّن اللاحقة (-ham, heim, bœuf)، وكذلك الأسماء المركّبة من «أنثروطوبونيم» جرماني ومن كلمة «فيل/ مدينة» (-ville) أو «بلاط» (-court)، مثلاً (Gondreville/Gondrecourt) والتي تعكس وجود المجتاحين الفرنجة أو السكندينافيين وتشي بتاريخ تلك الاجتياحات والغزوات العسكرية.
- طولونيم لاتينية (romans): التي تسبقها أداة تعريف وتضمّ هذه الفئة كلّ الأسماء التي لا تدخل في الفئات السابقة.

كثرٌ هم المختصّون الذين يستمرّون اليوم في التعمّق في أبحاثهم الطوبونيمية لأسباب شتّى، منها ما استحدث مع تطوّر العلوم والتكنولوجيا[2]. وتطول لائحة العلماء والباحثين في مجال أسماء الأماكن في العالم الأنغلو - ساكسوني تحديداً[3].

---

(1) Albert Dauzat (1877-1955), Marcel Baudot (1902-1992), Charles Rostaing (1904-1999), et Ernest Nègre (1907-2000) (Toponymie générale de la France).

(2) نذكر على سبيل المثال: Marie-Thérèse Morlet, Marianne Mulon, Paul Fabre, Stéphane Gendron, Michel Morvan. وأدرجنا أهم أعمالهم في لائحة المراجع في آخر الكتاب.

(3) نذكر البريطانيين: Richard Coates, Margaret Gelling, Oliver Padel, Albert Hugh Smith, Isaac Taylor, William J. Watson، والأميركي George R. Stewart والسويدي Eilert Ekwall...

تطوّر الطوبونيميا كمنهج في المدرسة الغربية

في الواقع، إن علم أسماء الأماكن قد تطرّق إليه عدد كبير من الباحثين ومنهم من عوّلوا عليه في تبيان نظريات ليس لها براهين مادية أثرية. وهو مادة عرفت اهتماماً كبيراً في أوساط الباحثين في القرن السابع عشر. وقد غامر الكثيرون منهم ووقعوا في أخطاء جسيمة لاتباعهم طرق غير منهجية كما يقول «فيكتور بيرار»[1] الذي كان من أكثر من اهتم بالطوبونيميا: «هذه اللعبة السهلة يخضع لجاذبيتها بعض العلماء أو الجهلاء بحماسة كبرى بحيث أن دراسة الأسماء من الناحية الإيتيمولوجية قد قلّل من أهمّية هذا العلم بالنسبة للرأي العام، فهي تبدو من السهولة حتى يُخال أن كلّ إنسان يستطيع أن يتناولها بالدراسة، ولكنها تبدو هكذا ظاهرياً فقط لأنها من أدقّ العلوم وأخطرها. هذه اللعبة السهلة يمكن أن يكون لها أبعاد وتفتح مجالات واسعة إذا ما استعنّا بكل المصادر اللغوية والقواعد والمفردات المقارنة. إذ أن كلّ اسم علم، وفي أي لغة كانت، هو مؤهّل لأن يتحمّل عدّة تفسيرات إيتيموليوجية يكون ظاهرها مُرضياً ويبدو عادة صحيحاً. برأيي، يتابع «بيرار»، أن من يريد التطرّق لهذا الموضوع ينبغي عليه أن يتوخّى الحذر الشديد، لأن علم الطوبونيميا له قواعده الدقيقة والتي لا تتحمّل الخطأ»[2].

ولا يكتفي «بيرار» بالنقد النظري، بل وضع الأصول والقواعد في التعاطي المنهجي مع دراسة علم الأماكن، فيقول: «إن كلّ دراسة تعتمد على تحليل الاسم الواحد فقط بمعزل عن نظام لغوي بكامله يجب أن تستبعد. وتشكيل الأنظمة هي خطوة أولى. وبعد وضع اللوائح ومقارنة الأسماء واشتقاقاتها، ينبغي إيجاد المعاني وتفسيرها. وهذه الأخيرة قد تكون من أنواع متعدّدة، فأسماء الأماكن توارثتها الشعوب المختلفة بشكل متنوّع»[3]. للوهلة الأولى، يبدو الأمر بغاية البساطة للباحثين، ويمكننا أن نقارب بشكل سهل ونستنتج مشابهات كثيرة بين الأسماء المتعلّقة بالمادة المدروسة. وهذه التحوّلات التي

---

(1) فيكتور بيرار (1864 – 1931)، سياسي فرنسي وباحث في العالم الإغريقي، ترجم ملحمة «الأوديسة» لهوميروس. من أهم أعماله كتاب «الفينيقيون والأوديسة» (V. Bérard, *Les Phéniciens et l’Odyssée*) والذي ضمّنه كمّاً كبيراً من الآراء في الطوبونيميا كعلم وكذلك عدداً من أسماء الأماكن وتفسير معانيها.

(2) V. Bérard, *Les Phéniciens et l’Odyssée*, 1903, p.5.

(3) المرجع نفسه، ص 8.

خضع لها الاسم، على كثرة تعدّدها الظاهر، يمكن أن تختصر في نهاية الأمر بثلاث طرق رئيسية :

الطريقة الأولى هي النقل (Transcription) : إن الشعب المستعير يتقبّل أونوماستيكا أو طوبونيميا الغرباء على الشكل الذي تلقّاه منه مباشرة وبشكل كامل، أفكاراً ولفظاً، فينقلها إلى لغته حسب قدرته على فهمها، فينقل حرفياً لفظ الأسماء ويعيد إنتاجها، بقدر المستطاع، مطابقة للأصل[1]، ففي هذه الحالة يحدث تغيير فيما يتعلّق بالصوائت (voyelles) والصوامت (consonnes)، وهي تغيّرات طفيفة ليست بذي بال وذلك فقط لضرورة ضبطها على ضروريات عادة الشعب السمعية والحلقية اللفظية. باختصار، فهو ينقل أسماء الجار إلى لغته الخاصة، من دون أن يشوّه ولا واحدة من القيم الأساسية من صوائت وصوامت.

الطريقة الثانية هي الترجمة (Traduction) : وتقضي أن يرمي الشعب المستعير نهائياً الأشكال الخارجية للأونومستيكا أو الطوبونيميا، أي الشكل الخارجي لإسم المكان ولفظه، وأن يكتفي بترجمة معناه بلغته الخاصة، مبقياً فقط على الفكرة[2]. مثلًا، على مدخل مضيق جبل طارق، كلّ الشعوب البحرية، تعرف «جبل القرود»، ولكن كلّ شعب يسمّيه باسم يختلف لفظه بين الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . . .

الطريقة الثالثة : تعتمد على كلا الشكلين، النقل الحرفي والترجمة معاً، فعادة ما يأخذ الشعب المتلقّي حلاً وسطاً بين حليّن متطرّفين : النقل والترجمة؛ فهو لا يتمكّن من ترجمة الاسم الذي يستعيره بشكل دقيق كما أنه لا يكتفي بنقله حرفياً بلفظه الصحيح، فيعمد إلى احتكاره وإنتاجه من جديد إما بتقصيره أو بتطويله أو بتحويره، مثلاً، أخذ الفرنجة الاسم «ميغارا» (Megara) الذي لا معنى له باليونانية وجعلوا منه مرفأ أسموه مرفأ «ميغر» (Port de la Maigre)[3]، أي المرفأ الضيق، ومثله بلدة تربل اللبنانية التي حوّلها الفرنسيون في ظل الإنتداب إلى (Terre belle) «الأرض الصالحة»، ومثلها بلدة بريتال البقاعية حوّلوها إلى (Brutale) أي «الهمجية».

---

(1) نضرب مثلاً : الأحواز = الأهواز = الأحواض وهو أصل لفظها، وهي المنطقة المحازية للحدود العراقية - الإيرانية. (المؤلّفة).

(2) نعطي مثلاً : بعلبك/ هيلوبوليس أي مدينة الشمس. (المؤلّفة).

(3) ف. بيرار، المرجع السابق، ص 48.

ويشدّد «بيرار» على أنه ينبغي دراسة أنظمة الأسماء بصورة خاصة، وهذه الأنظمة يمكن أن تكون متعدّدة ومتنوّعة. ويمكننا أن نتخيّل نظامين أو ثلاثة أنظمة على أقل تقدير: نقل، ترجمة أو تحوير أو جناس لفظي. كما، وبرأيه، كلّ الأونوماستيكا أو أسماء الأعلام تخضع بالضرورة إلى واحدة من هذه الطرق الثلاث. لذا، في نظام الكلمات المعتمد، ينبغي مراعاة طرق ثلاث في التحليل وهي الطرق التي مرّ بها تحوّل الاسم عبر الاستعارة وعبر الزمن، ممّا يستدعي ثلاث وسائل في تفسير عملية توارث الاسم في صيغته الحالية وذلك لتجنّب الوقوع في الخطأ. لذا يقترح «بيرار» الاستعانة بقاعدة دقيقة جداً، هي «قاعدة المزدوجات» (règle des doublets) ويريد بها نظرية إيتيمولوجية لا يمكن أن تكون صالحة بالكامل، إلاّ إذا اعتمدت على المزدوجات المقارنة، أي مقابلة الأسماء ببعضها من الناحية اللفظية.

بالإضافة إلى ما تقدّم، اعتمد «بيرار» على «النظام اللفظي»[1] وهو الذي اعتمده أيضاً «أولزهاوسن» (Olshausen) منذ العام (1855)، كنظام أساسي في دراسة أسماء الأماكن الفينيقية خارج نطاق العلم الشرقي حسب ما تسمح به مخيلته وتحليله، فتوصل، بواسطة مبدأ الجناس اللفظي والأحجية أو اللغز (rebus)، أن يعطي معنىً للفظ كان غير مفهوم. فمثلاً، الفرنسيون أخذوا اسم المكان «ميغارا» (Megara) اليوناني ذا الأصل الفينيقي الواضح دونما عناء «مغارة»، وأطلقوها على مرفأ (Maigre)، من دون معرفة أصله ولا معناه. وهكذا فإن سلسلة من الأسماء المزدوجة اليونانية – الفينيقية، يقول «بيرار»: «اعتمدناها لحلّ لغز الأصول اليونانية لأسماء العلم الخاصة بالأماكن. هذه السلسلة وغيرها بيّنت لنا التبادل في الكلمات والألفاظ الخاصة بالبضائع والأفكار بين الفينيقيين وأقدم سكان الأراضي اليونانية. وأعتقد أن هذه الطريقة هي الأنجع والتي لا يمكن نقدها وإبطالها إلاّ بصعوبة. وإذ ما مرّ اسم غير واضح ومشكوك في صحّته وأصله، فلا

---

(1) إن الغالب في منهجنا الخاص هو طريقة المقارنة اللفظية بين الأسماء التي أظهرت بديهية يلمسها كلّ إنسان، وليس اللغوي فقط، شرط أن يكون عارفاً باللغة العربية، فالتركيبة اللفظية ومقارنتها مع تركيبة شبيهة بها، هي في نهاية الأمر الأسهل والأضمن. وهي التي، إلى حدّ الآن، قد قدّمت المادة الأكثر إفادة في دراسة الطوبونيميا الما قبل – هيلينية مقارنة مع الفينيقية – العربية – السورية. فمثلاً، إسم «بيريت» أي بيروت أقرب إلى فهم الشخص المشرقي منه إلى الإغريقي، فلفظ بيريت أو بيروت يجعله يفكر ببئر أو برية بسهولة ومن دون كبير عناء، بعكس الأجنبي الذي يستعصي عليه الأمر بالكلّية. (المؤلّفة).

يمكن تفسيره إلاّ بالاعتماد على طريقة الأسماء المزدوجة المقارنة، فهو يحمل بمزدوجه البرهان عن أصله، شرط أن يكون المزدوج مبنياً على أسس لغوية صحيحة ومبرهنة علمياً وقواعدياً، وشرط أن تكون الكلمتان تعنيان، لفظاً ومضموناً، الشيء نفسه وتدلان على نفس المعنى. والتأكيد يصبح مطلقاً إذا ما استطعنا أن نبرهن، بالتالي، أن الشيء المعني يناسب الاسم ومزدوجه بالظبط. فعندما يتعلّق الأمر بأسماء الأماكن، ينبغي أن يكون المزدوج الطوبونيمي هو نفسه مزدوج الإسم. كما ينبغي أن يكون هذا الاسم المزدوج متناسباً تماماً مع طيبولوجيا الموقع وطبيعته وميّزاته، ممّا يعزّز صحّة الاسم ومزدوجه[1]. وهذه الدراسة غالباً ما تكون مفيدة في إعطاء كمٍّ هائل من المعلومات عن الموقع، تاريخه وحضارته وشعبه...»[2].

ويستعرض «بيرار»[3] عدداً من الباحثين الذين اهتموا بالطوبونيميا وطبّقوا المناهج التي اعتمدوها في دراستها، من بينهم «بوخارت» (S. Bochart 1599-1667) الذي قدم لنا، من حيث لا يدري، طريقة صحّح فيها الأخطاء التي وقع هو نفسه فيها، ولكن من دون أن يطبّقها. فهو يعرض القاعدة العامة لكلّ دراسة إيتيمولوجية، وهي أنه لا ينبغي أن يدرس الاسم أبداً بمعزل عن اسم آخر، أي من دون مقارنة. وإن أوّل قاعدة في علم الطوبونيميا ينبغي أن تكون «قاعدة الأنماط» أو النماذج، بمعنى آخر أنه يجب أن توضع لوائح وجداول أسماء وأن تتمّ دائماً بموازاتها دراسة مجموعة من الأحداث وليس حدثاً واحداً منعزلاً. هذه القاعدة تفرض نفسها بديهياً، لأن الاسم وحده لا يمكن أن يشكل مادة بحث وافية وكافية. كما وأن الاسم وحده منعزلاً لا يمكن أن يشكل مادة إيتيمولوجية علمية، صحيحة وصالحة لكلّ القاعدات الأونوماستية. هذه القاعدة ينبغي أن تُتبع بحرفيتها وبكل دقّة، خاصة عندما يتعلّق الأمر بالإيتيمولوجيات المشرقية.

ولعل «بوخارت»، يعلّق «بيرار»، كان أشهر ضحية للفورة الأونوماستية التي درجت في القرن السابع عشر والتي تعاطاها العديد من العلماء بالشكل الجنوني الذي ساد آنذاك. فقد أعاد «بوخارت» صياغة «الجغرافيا المقدسة» في كتابين، الأوّل بعنوان (Phaleg) كرّسه للكتاب المقدس، وعالج في أجزائه الأربعة تقسيمات الأعراق

---

(1) على سبيل المثال، بيروت تعني البئر لأنه تكثر فيها الآبار وقد تطابق فيها اللفظ والمعنى تماماً. (المؤلّفة).

(2) ف. بيرار، المرجع نفسه، ص 45 – 52.

(3) ف. بيرار، المرجع السابق، ص 45.

والذّريات. أما الكتاب الثاني فحمل عنوان «كنعان» (Chanaan) وعالج في جزئيه الاستيطان الفينيقي والبوني (القرطاجي)[1].

ومن خلال أسماء الأماكن، وبفضل معرفته العميقة بكل الكتّاب الكلاسيكيين المؤرّخين والجغرافيين والشعراء والميثوغرافيين، أي دارسي الميثولوجيا، توصّل «بوخارت» إلى إعادة تركيب بحر متوسطي فينيقي الطابع: من قبرص، إلى كيليكيا، إلى بيسيديا، إلى كاريا، إلى رودوس وساموس، إلى مصر ومناطق عديدة أخرى وزّعها في لائحة أسماء لا حدّ لها، أوردها في 36 فصلاً من كتابه «الجغرافيا المقدسة»، حيث لم يستثن واحداً من سواحل المتوسط إلاّ وأرجع تأسيسه إلى الفينيقيين. وفي الفصل الثاني والستين، يقوم «بوخارت» بمقارنات لغوية بين اللغة الفينيقية واللغتين اليونانية واللاتينية، ويطلع بيقين أن لغة الغاليين (Gaulois)، أجداد الفرنسيين، لها قرابة كبيرة بلغة الفينيقيين. كما يستعرض أسماء عديدة أخذتها اللغة اليونانية من الفينيقية مثل أسماء النباتات. ويذكّر أن المؤرّخين القدامى كانوا قد نوّهوا إلى هذه المسألة، فهيرودوت يتحدّث عن نبتة اسمها (Kinnamon) أو (Kinnamom) يقول إن الإغريق استعاروا اسمها من الفينيقيين وأن «الكاسيا» (Kasia) و«الليبانوتوس» (libanotos) هي طيوب كان يأتي بها العرب إلى اليونان[2].

أما «موفرس» (Movers)، ودائماً بحسب «بيرار»، فلم يكن بمنآى عن التفسيرات التي جاءت عنده بمعظمها من ضرب الخيال. وقراءته لأعمال «هكاتيوس» (Hécatée)[3] و«هيروديان» (Hérodien)[4] أوحت له بمدينة مصرية ذكرها «إتيان

---

(1) ف. بيرار المرجع نفسه، انظر أيضاً: (Étienne de Byzance. s.v. Φοινίχων)

(2) نحن نعتقد أن أسماء النباتات لها علاقة وثيقة بأسماء الآلهة التي انتشرت أسماؤها في العالم من خلال النباتات التي حملها المهاجرون معهم، فأدونيس نبة سامة، وفدرية أخت البعل هي حشيشة برية تؤكل، وميرا هي شجرة المرّ، وإيريس الحورية الجميلة هي إسم زهرة... الخ. وهذا عائد إلى ارتباط آلهة السوريين أساساً بالأرض أم الآلهة. يقول المؤرّخ فيليب حتّي: «إن عدداً كبيراً من أسماء النبات البري والجوي في لبنان وسورية يُردّ إلى أصل سُرياني – عربي. وكذلك المصطلحات والمفردات التي لها علاقة بالفلاحة والزراعة فإنها في جلّها كلمات سُريانية»، حتّي، تاريخ لبنان، ص 279.

(3) هكاتيوس الملطي: مؤرّخ يوناني (القرن السادس قبل الميلاد). يُنسب إلى مدينة «ميليتوس» في آسيا الصغرى. ركّز في كتاباته، التي لم تصلنا كاملة، على الجغرافية التاريخية أو الوصف الجغرافي.

(4) هيروديان (175 – 249) مؤرّخ روماني كتب باليونانية.

البيزنطي»[1]، وهي «ليبيريس» (Liebris)، كانت مستعمرة فينيقية تدعى «ليبريس بوليس» (Λίηβρις πολις) على حدّ تقديره.

علم طوبونيميّة المشرق القديم وانتشاره

يبدو أن «الشرق الأوسط»[2] كان الأوفر حظاً في دراسة أسماء الأماكن فيه[3]. وكثيرون هم البحّاثة الغربيون الذين اهتموا بهذا المجال، من دون أن تكون القواعد المنهجية التي حدّدها «بيرار»، مراعاةً بشكل صحيح، ولم تُعطَ لها الأولويّة في أغلب الأحيان وكثيرون هم الرحّالة والمستشرقون الذين زاروا بلاد المشرق لغرض الاستكشاف والاستقصاء التاريخي، وبالأخص بهدف السير على طريق «الكتاب المقدس»، في طليعتهم «المدرسة البيبلية التوراتية»[4] وعلماؤها، فكانت الخلفية الدينية التي أتوا من أجلها هي الحكم المسيطر على أقوالهم. لذلك كانوا في أغلبهم غير موضوعيين وكانوا يأخذون بأقوال العامة على علاّتها ليجعلوا منها حقائق تاريخية من دون تحقيق منهجي. وهذا ما نراه في أسماء المدن والأماكن والمقامات الدينية التي وثّقوها كما سمعوها وبما يتلائم مع تطلعاتهم وأفكارهم ونواياهم، فمثلاً، نقل «موندريل» أن محلّة «الآبلية» وهي محلّة وادي بردى اليوم، اسمها مأخوذ عن «النبي هابيل» وهو صاحب بيعة فيها، وأن

(1) هو «ستفانوس» البيزنطي (القرن السادس)، مؤلّف المعجم الجغرافي الذي أهداه للإمبراطور «جستنيان» في العام (528).

(2) نتحفّظ على هذه التسمية التي مردّها إلى الاستعمار المقسِّم لبلادنا ولكنها الأكثر شيوعاً اليوم وغدت مصطلحاً للدلالة على المشرق القديم أو المشرق السوري وهو بدون شكّ إحدى مناطق العالم حيث دراسة الطوبونيميا هي الأخصب والأغنى في تاريخ الوقائع الحضارية، لأنه الأقدم حضارياً وشهد، إبتداءً من حملة «الإسكندر المقدوني» على الشرق، تلاقي نموذجين لغويين مختلفين (السُريانية واليونانية). بالإضافة إلى الفتوحات العسكرية التي مرّت عليه حتى العصر العربي - الإسلامي وما أعقبها من تحوّلات طرأت على أسماء الأماكن فيه.

(3) من الدارسين: رونيه دوسو (R. Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, 1920).

(4) المدرسة الفرنسية الإنجيلية والأثرية (EBAF) مركزها في القدس. تأسّست في العام (1890) تحت اسم «المدرسة العملية لدراسات الكتاب المقدس» من قبل الأب «ماري جوزيف لاغرانج»، عضو نقابة الدعاة وهو من الدومينيكان. وهي اليوم مؤسّسة فرنسية للتعليم العالي والبحث العلمي، ومتخصّصة في علم الآثار وتفسير الكتاب المقدس.

قبره لا يزال قائماً فوق صخر عظيم في تلك المحلّة. وقد تعاظم نشاط المدرسة البيبلية، بما فيها أعضاؤها أو غيرهم من الرهبان الغربيين وكانوا أغلبهم من اليهود والذين بدأو باكراً الترويج للحملة الصهيونية الطامعة بالاستيلاء على الشرق (والغرب أيضاً) باعتباره أساس الحضارات، فخرجت ذمرة من هؤلاء المهتمّين بأسماء الأماكن بنظريات جدّ مهمة عن الأصول الفينيقية للمستوطنات في حوض المتوسط الغربي وبيّنت بالبراهين اللغوية والفيلولوجية صحّة ذلك ودعمته بالمادة الأركيولوجية اللازمة والمثبّتة لتلك الحقيقة. ولكن ما لبثت أن غيّرت اتجاه بوصلتها فنقلت ما يُنسب للفينيقيين إلى اليهود معتبرة أنهم من الكنعانيين وأنهم الأصل. ومن بين هؤلاء المزيّفون نذكر الأب «بابون» (Papon) الذي اهتم كثيراً بأسماء الأماكن الغاليّة في المقاطعات الفرنسية والجنوبية تحديداً ونسب تأسيس مناطق عديدة لأقوام فينيقية أتت من فينيقيا، من مثل شعب «البريتيني» الذي يقول إنه كنعاني أتى من «بيريت في فينيقيا»[1]، ولكنه ما يلبث، في كتاب آخر، أن يغيّر رأيه الصائب هذا إلى رأي زائف وذلك لخدمة قضية الصهاينة وأهدافهم الاستعمارية، فراح يناقض آراءه السابقة وينفي عن الفينيقيين كلّ تأسيس حضاري قديم ويعزوه إلى اليهود بحيث يدّعي أن تلك الأماكن وأسماءها وضعها اليهود في القرون الوسطى حين امتلكوها آنذاك[2]. والأنكى أن باحثين آخرين يجارونه ويستشهدون بنظرياته ويتقلّبون مثلما يتقلّب من دون وعي ولا إدراك إلاّ للتزوير والتحريف المتعمّدين[3]. وهكذا بدأت حملة التزوير من خلال الاهتمام بأسماء الأماكن بغية خدمة تاريخ اليهود واعتبارهم المكوّن السامي الكنعاني الأساس وليس الفينيقيون، وما زالت الموجة مستمرّة.

ومن أبرز الباحثين الغربيين الذين أخذت الطوبونيميا المشرقية حيّزاً من اهتماماتهم، «إرنست رينان»[4] الذي اهتم بشكل خاص بالساحل السوري - الفينيقي ودرس معالمه الأثرية. وهناك من الباحثين من عُني بصورة خاصة بالانتشار الفينيقي - السوري في غربي المتوسط من مثل «فارغاس - ماشقا» (Vargas-Machka) الذي نشر عملين[5] في

(1) Papon, *Histoire générale de la Provence*, tome I, p. 108-109.

(2) Papon, *Voyage littéraire de Provence*, p. 273-274.

(3) Jean Joseph Léandre Bargès, *Recherches archéologiques sur les colonies phéniciennes*, 1878, n° 1, p. 48-49.

(4) Ernest Renan, *Mission de Phénicie*, 2 vols., Paris, 1864.

(5) Vargas Machka, *Dell'antiche colonie venute in Napoli ed i primi si furono i Fenici*, Naples, 1764; *Dell'antiche colonie venute in Napoli ed i secondi furono gli Euboici*, Naples, 1773.

«نابولي» وكانت غايته الأولى منهما إظهار أن الفينيقيين كانوا أوّل سكّان المنطقة النابولية، من «غايتي» (Gaëte) إلى «كابري» (Capri)، وأن الأوبيين (Eubéens) لم يستقروا فيها إلاّ لاحقاً. ونرى نفس المحاولات عند عدد كبير من الباحثين مثل «شامبو»[1] الذي يصف «الأوديسة» بالقصيدة الوطنية لمستعمرة نصفها فينيقي والنصف الآخر يوناني، ناتج عن اختلاط وامتزاج الشعوب الفوسية والكلسيدية (Chalcidiens, Phœcéens) في «إيشيا» (Ischia).

ويعدّ الباحث «كليرمون غانو» (Clermont-Ganneau) من أوّل الباحثين الذين شجعوا على التطرّق إلى موضوعات الانتشار الفينيقي عبر أسماء الأماكن، في دراسته عن الإله «شدرافا»[2]. وعنه أخذ «فيكتور بيرار» الكثير، وهذا الأخير يعدّ أهم من درس موضوع انتشار الأسماء الفينيقية في المتوسط وعلاقتها بالأسماء اليونانية، منطلقاً من ملحمة «هوميروس» «الأوديسة» التي لا يعتبرها قصة خرافية بل حقيقة واقعية، أحداثها جرت بالفعل في المتوسط. وهي أكثر ما يعبّر عن واقع الحال الذي كان عليه البحارة الفينيقيون في مغامراتهم البحرية التي نقلها «هوميروس» وغيره من الشعراء على شكل قصص دُبّجت بالخرافة لدرجة المغالاة التي تميّز القصص المكتوب بالأسلوب الشعري الملحمي، إذ أن «أوليسيوس» (Ulysse) (باليونانية أوديسيوس Odysseus) ليس بطلاً أسطورياً يتخبّط في مجاهل البحر ويتوه في ضبابه وتتقاذفه الأمواج إلى المجهول، بل هو بحّار من سلالة الفينيقيين، برأي «بيرار» وكثيرين غيره، ينتقل من جزيرة إلى جزيرة ومن رأس إلى رأس حيث كانت تقصد التجارة الفينيقية[3]. و«بيرار» مقتنع، بإيحاء من الجغرافي اليوناني «سترابون» (58 – نحو 25 – 21 ق. م.)، بأن «بناء أسطورة أو خرافة بدون أي أساس من الحقيقة ليست من ميزات هوميروس»[4]. لذلك من الضروري أن نقرّب «الأوديسة» من الأشعار الجغرافية والشبه – علمية والعملية التي ألفّها أو ترجمها اليونان

(1) Ph. Champault, *Phéniciens et Grecs en Italie d'après l'Odyssée. Étude géographique, historique et sociale par une méthode nouvelle*, Paris, 1906.

(2) Clermont-Ganneau, *«Le dieu Satrape et les Phéniciens dans le Péloponnèse»*, in Journal Asiatique, X, p. 157; XII, p. 257. Cf., E. Oberhummer, Die Phoenizier in Akarnanien, Munich, 1884.

(3) بيرار، المرجع السابق، ص 53.

(4) Strabon, *Géogr*. I, p. 20.

ومن بعدهم الرومان، والتي وضعت أساساً لتسهيل عمليات الإبحار والإكتشاف، معتمدين على خبرات الشعوب الأقدم منهم معرفة وعلى رأسهم الفينيقيون. تماماً كما هو الحال اليوم مع البحارة الذين يعتمدون على الخرائط القديمة بما فيها الأسماء القديمة الخاصة بالمحطات البحرية. ونقرأ في المصادر القديمة أن «فيلون الجبيلي» ذكر أن الفينيقيين والمصريين كانوا يرون أن الآلهة هم الرجال الذين قاموا ببعض الإكتشافات النافعة لوجودنا أو الذين صنعوا أعمال خير للناس في حقل من الحقول، لأنهم نظروا إليهم كمحسنين ومصدر خيرات كثيرة، وكانوا يعبدونهم كآلهة بعد موتهم. وقد أنشأوا لهم معابد وأقاموا لهم أنصاباً وسواري تحمل أسماءهم، مكرّمين باحترام جزيل هذه الأشياء[1]. وإذا أخذنا رحلة عودة «أوديسيوس» إلى وطنه نموذجاً، فتقضي المسألة أوّلًا التفريق بين الجانب الواقعي (réel) للأسطورة والجانب الخرافي (mythique)، فيما يتعلّق بجغرافيّة رحلة «أوديسيوس»، مع الأخذ بالإعتبار وجهات النظر القديمة والحديثة. ويرى العديد من البحاثة أنه على الرغم من الطابع الخرافي الأسطوري للأوديسة، فإن ركيزتها أو عمودها الفقري الذي تقوم عليه بالأصل هو الأساس العلمي، كما ذكر «سترابون»[2]؛ فلنأخذ مثلًا الوصف الدقيق الذي تعطيه «الأوديسة» عن بعض المواقع الخطرة في المتوسط والتي حيكت حولها الخرافة لشدة خطورتها والتهويل الذي كان يرافق الحديث عنها، مثل مغارة (Kyklope) التي ارتبطت باسم العملاق الرهيب (Cyclope) والذي يخاطر بطل «الأوديسة» «أوليسيوس» بمواجهته ولا يتمكّن من التغلّب عليه إلاّ بعد أن يفقأ عينه. في الحقيقة، إن الأبحاث الجغرافية الطوبوغرافية دلّت أن هذه المغارة ما زالت إلى اليوم موحشة ومرعبة تغطي مدخلها نباتات وأشجار ضخمة تخيف كلّ من يتقدّم من الساحل. ولا شكّ أن نفس الانطباع حدث للبحارة القدامى الذين نُقل خوفهم وتُرجم من خلال تدوين رحلاتهم على شكل مغامرات مبالغ في سردها وتضخيم أحداثها.

في الحقيقة، إن شعراء الملاحم كما تبيّن من دراستنا، و«هوميروس» واحد منهم، يبدو وكأنهم عاشوا على متن سفن فينيقية يجولون البحار مع البحارة ويكتبون يوميّاتهم ويسجّلون إنجازاتهم ويدوّنون ملاحظاتهم بما فيها المتعلّق بفن الملاحة وقواعده.

---

(1) ذكره «أوزيبوس»، 1، 9، 29.

(2) Strabon, *Géogr.*, I, p. 12.

ويقول «بيرار»، مؤكّداً ظنّنا، إن كاتب «الأوديسة» يبدو كأنه استعان بسجلٍّ لرحلات بحرية فينيقية تُخبر عن مغامرات البحارة وسيرهم، وقد دوّنها بحارة صور وصيدون وبيبلوس – جبيل ذوو الخبرة الكبيرة، حتى تكون منهجاً لهم في ملاحتهم عبر المتوسط. وقد قام «بيرار» بنفسه بتتبّع المحطات والمواقع المذكورة في «أوديسة» هوميروس، ووجدها من ساحل تراقيا حيث كانت تعيش «الكيكون» (Cicones) حتى مضيق جبل طارق، حيث ما زالت مغارة «كاليبسو» قرب ساحل «كوتا» (Ceuta) شمالي المغرب، مروراً بتونس حيث جزيرة «دجربا» التي يعيش فيها «اللوتوفاجيون» (Lotophages) السعداء، وإيطاليا حيث جبل «كيركيو» (Monte Circeo)، وطن «السيكلوب» وحيث بحيرة «إفيرن» التي تَذكّر «أوليسيوس» الأموات على ضفافها، وسردينيا المأهولة باللستريغون (Lestrygons)، وصقلية، جزيرة الشمس، حيث ترعى القطعان المقدسة. بالإضافة إلى أماكن أخرى ذكرها «هوميروس» واستطاع «بيرار» أن يحدّدها على الواقع الجغرافي في حوض البحرالأبيض المتوسط.

إذن، إن ملحمة «الأوديسة» لهوميروس قد استعارت أبطالها من قصص كان مسرحها البحر. وكان هؤلاء الأبطال أمراء حقيقيين عاشوا في محيط الحضارة الميسينية (البيلوبونيز، منتصف الألف الأوّل ق.م.)، ولذلك لا نستغرب أن يصف بعضهم الأسطورة بأنها «صورة متنكرة عن التاريخ»[1].

وكانت نتيجة اعتناء علماء الغرب بأسماء الأماكن في المشرق وتحليلها أن اهتموا بالتنقيبات الأثرية، وأسّسوا معاهد علم العاديات (علم الآثار) المشرقية (Archéologie orientale) الذي اعتمد كعلمٍ مستقلٍّ في أوائل القرن التاسع عشر وأصبحت له مناهجه العلمية الخاصة والمبنيّة على الأسس المنهجية الخاضعة لتطوّر التقنيات المساعدة، ونشطت علوم اللغات الساميّة وفك رموزها إلى جانب دراسة أسماء الأماكن وغيرها من العلوم المساعدة لعلم الأركيولوجيا على نحوٍ لم يسبق له مثيل. في الواقع، كانت، وفي حالات عديدة، أسماء البلدات والمحلاّت مفتاح اللغز وأوّل الركائز التي خوّلت الباحثين أخذ القرار في التنقيب في المواقع التي ارتأوا البحث فيها، خاصة تلك الأسماء الواردة في التوراة والكتاب المقدس. وهذه الأسماء فتحت الباب على مصراعيه أمام أعمال التنقيب

(1) قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين وفي الحضارة السورية، (تعريب خياطة)، ص 12.

في أماكن عديدة، حتى خارج فلسطين وامتدّت إلى سورية كلّها، فمثلاً بلدة تحمل اسم «خرايب» في جنوب لبنان وهي مجاورة لصور لا يمكن تجاهلها من قبل المنقّبين، إذ أن اسمها يدلّ تلقائياً على وجود آثار مهدمة فيها وبقايا لصروح تاريخية ومعالم قديمة بقي منها القليل أو اندثرت كلّياً أو طوى الزمن ذكراها ولم يبق إلاّ الاسم شاهداً عليها. وأيضاً بلدة تسمّى مثلاً «قصر البنات» أو «قصر البُناة»[1] أو تحمل فقط إسم «قصر» (سورية) أو «قصير» أو «أم القصر» (سورية) أو «الأقصر» (مصر) أو «القصرين» (تونس)، لا بدّ أن يكون قد بُني فيها صرح كبير أو قصر حتى تحمل هكذا اسم معبّر ولا يمكن تجاهله من قبل علماء التنقيب الأثري حين تطأ أقدامهم المحلّة.

المدرسة الشرقية

مرّ زمن طويل، ظلت المدارس الشرقية تحذو حذو المدارس الغربية، لذا اعتمدت أسماء الأماكن كعلم مبني على ما أسّسته المدارس الغربية وليس بصيغة أصلية، مشرقية المنشأ، لذلك إرتكزت على المدارس الغربية كما هو الحال بالنسبة لكلّ العلوم الأخرى، وتحديداً علم الآثار بما فيه من دراسة لأسماء الأماكن القديمة، وتبنّته على إيجابياته وسلبياته دونما تطويع للحالة المحلّية، بمعنى أنها نقلته كما وُضع وما زالت إلى هذه الساعة تردّد ما جاء به الغربيون بخصوص الأسماء. يقول ألفرد نقاش: «فأسلوب تأدية الأعلام القديمة باللغة العربية - مثلاً - في الوقت الحاضر يفتقر إلى الدقّة العلمية، ويشكو من عيبين أساسيين: الأوّل أن تأدية هذه الأعلام لا تصدر عن الأصل القديم بل تُستمد، عن طريق التعريب، من التأدية الأوروبية، والثاني، أنها تتجاهل دور الكتابة العربية (والعروبية) التي تميّز بطبيعتها الصوائت الطويلة عن الصوائت القصيرة وهو أمر لا يتيحه الحرف اللاتيني»[2]؛ فأحرف كثيرة في العربية ولهجاتها مثل (ق) و(غ) و(ع)

---

(1) محلاّت وبلدات عديدة في لبنان وسورية تحمل اسم «قصر البنات» والأرجح أن يكون الاسم الصحيح «قصر البُناة» في تلميح إلى بنّائيه، فمثلاً في بلدة «كفر زبد» البقاعية، هناك ناحية في الجبل تحمل اسم «قصر البنات» وما زالت فيها آثار دارسة يقول الأهلون عن أصل التسمية إن «البنت» كانت خليلة الإله «زبد» الفينيقي الذي كان شفيع بلدة كفر زبد وما زالت آثار معبده مندثرة في المكان، كما أن هناك لوحة صخرية تمثل فتاة يافعة تنسب المحلّة إليها لقب الأميرة وسميّت على اسمها وشيّد القصر على شرفها، وتلك المنحوتة لا زالت ماثلة إلى اليوم بحسب البعض وتسمّى «إبنة الملك».

(2) ألفرد النقاش، «الآثار وكتابة التاريخ العربي القديم»، مجلّة الفكر العربي، العدد 52، ص16.

و(ض) و(ظ) و(ذ) و(ح) والهمزة غير موجودة في اللاتينية وبنات الهندو – أوروبية. ولقد عرض «فرانز وورولي» إلى هذه المشكلة عند السؤال عن اللفظ الحقيقي لمدينة «إيمار» (Emar) الرافدية، فهل هي «عمار»، أم «غمار»، أم «خمار»؟ وكذلك عندما تحدث عن اللفظ الحقيقي لإيبلا (Ebla) فقال إنه «عبله»[1]. ومن الأسماء التي وردت في وثائق «إيبلا» (تل مرديخ، شمالي سورية، الألف الثالث ق.م.) «حمص» التي نُقلت «إيميس» (Émèse)، لإفتقار اللاتينية لحرف (ح)، وغيرها أمثلة كثيرة.

ويتدارك النقاش بالقول: «الحق أن نفراً من المؤلّفين العرب قد شعروا بأهمّية معالجة التراث القديم بالعربية كالشيخ نسيب وهبة الخازن وأنيس فريحة وسامي سعيد الأحمد وكميل البستاني إلاّ أنهم اقتصروا في منهجهم على استبدال الحرف العربي بالحرف أو الرمز القديم العروبي وهو ما يمكن تسميته بالنقل الحرفي واتباعه النص»[2]. ويتابع مشدّداً على الارتكاز على اللغة العربية: «ولذلك لا بدّ من أن تكون القراءة حيّة، متسلّحة بمقدرات اللغة العربية المعاصرة وبخصائص اللغة العروبية بلهجاتها المتعدّدة السابقة، وإظهار الروابط التي تصل بين العناصر المكوّنة للبناء اللغوي بتطوّراته وحراكه التاريخي، وهذا ما يكشف بالإضافة لذلك الجوانب الأخرى غير اللغوية المباشرة المرتبطة بالبناء الميثولوجي والأدبي والثقافي والفني والحضاري والتقني»[3]. وهذا هو الصحيح والأجدى وقد حُسم الأمر لصالح العربية لدى بعض الغربيين، بحيث يقول «بيير روسي»: «وإذا كنّا عازمين على ألا نستعير شيئاً من أحلامنا، فيجب علينا عندئذٍ أن نعرّف العروبة كثقافة الشرق الوحيدة، والتي امتدّت عبر مساحة جغرافية ذات تاريخيّة خاصة ميّزتها عبر آلاف السنين وكانت شعوبها المصرية والكنعانية والأناضولية والسورية والبابلية تنتمي للأسرة العربية نفسها»[4].

وتجدر الإشارة إلى أن الباحثين العرب في علم أسماء الأماكن، تحديداً المختصّين منهم، قليلون، كما أن علم أسماء الأماكن أهمل إهمالاً ملحوظاً في القرن الماضي ليعود منذ سنوات قليلة إلى حيّز الوجود بشكل أوسع. وهذا الإهمال مردّه إلى عدم الاهتمام العربي

(1) عفيف بهنسي، وثائق إيبلا، دمشق، 1984، ص142.

(2) ألفرد النقاش، «الآثار وكتابة التاريخ العربي القديم»، مجلّة الفكر العربي، العدد 52، ص16.

(3) المرجع نفسه.

(4) بيير روسي، مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب (ترجمة فريد جحا)، 1980، ص9 وص 18 – 19.

بالعلوم الإنسانية بشكل عام وبالعلوم التاريخية والأثرية بشكل خاص إلاّ ما قلّ وندر، في حين طغى الاهتمام بالعلوم الإنسانية الغربية من فلسفة وآداب وتاريخ وغيرها ممّا يستورد ويفتح كالعلب ويؤكل دونما اهتمام بمضامينه، وذلك بإيعاز من المستعمِر نفسه من أجل المضي أبعد فأبعد في تغييب الهوية الوطنية القومية.

يستعرض كلّ من الأيش والشهابي في كتابهما «معالم دمشق التاريخية»[1]، أهم الباحثين الذين اهتموا بأسماء الأماكن: «وأما بين الباحثين المعاصرين فأشهر من كتب في اشتقاق أسماء البلدان والمواضع الأب لويس شيخو اليسوعي منشيء «مجلّة الشرق» والأب «هنري لامنس» اليسوعي[2]، وعيسى اسكندر المعلوف (مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، الأعداد الأولى)[3]، وحبيب الزيّات في مجلته «الخزانة الشرقية» وكوركيس عواد في أبحاثه العديدة وأيوب سميا في مجلاّت (النعمة والإيمان والبطريركية وجريدة الجيل الجديد)، والبطريرك جرجس شلحت الحلبيّ، صاحب «لغة حلب السُريانية» وأنيس فريحة وكتابه «معجم أسماء المدن والقرى»، وخير الدين الأسدي صاحب «موسوعة حلب المقارنة»، و «أحياء حلب وأسواقها»، و «حلب الجانب اللغوي من الكلمة»، وحمد الجاسر ومعاجمه الجغرافية المفصّلة عن أسماء الأماكن في الجزيرة العربية، وكذلك «نايجل غروم»، خرّيج معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن وهو مستشرق تخصّص في طوبوغرافية الجزيرة العربية وعادياتها، ووضع معجماً بهذه الأسماء (غروم نايجل، معجم الطوبوغرافية وأسماء الأماكن العربية، إنكليزي عربي، مكتبة لبنان ناشرون، 1983)؛ وعفيف بهنسي (مجلّة الحويلات الأثرية العام 1977، ومقاله «مجاهل الأسماء في دمشق الفيحاء»)، ورياض

---

(1) الأيش والشهابي، معالم دمشق التاريخية، 1996، ص15.

(2) في كتابه «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار»، 1913. (المؤلّفة).

(3) اهتم المؤرّخ عيسى اسكندر المعلوف كثيراً بأسماء الأماكن وخصّص لها حيّزاً هاماً من أعماله أغلبها ما زال مخطوطاً ولم يحقّق أو يطبع؛ فمثلاً فيما يتعلّق باسم مدينته زحلة، ذكر العلاّمة المعلوف عدّة أصول له وتفسيرات منها ما كان معروفاً ومنها ما اجتهد هو به، فمن المرجّح أنه مشتق من «زحل» (Zuhal) وهو كوكب (Saturne) معبود الرومان الأكبر ولكن قبلهم عبده الفينيقيون. ويُعتقد، وعلى حدّ قول المعلوف، أنهم أشادوا له معبداً في مشارف زحلة وسميّت المدينة على اسمه. وقد عثر على بقايا هيكله في منطقة المشيرفة، فوق زحلة. ومن المحتمل أن يكون اسم زحلة مشتقاً من «زحل» (zehal) وهي لفظة سُريانية بمعنى «جرى» و «زحل» و «انزلق»، وهذا ينطبق على تركيب زحلة الجيولوجي، حيث تتعرّض تلالها للزحل، وخاصة محلّة «البيادر»، من هنا وجوب الإعتناء بتشجيرها الدائم. (المؤلّفة).

حنين («أسماء قرى ومدن وأماكن لبنانية في روايات شعبية»، 1986). ولا يتسع هنا المجال لذكر كلّ المراجع البلدانية، ابتداءً من الهمدانيّ وياقوت الحمويّ[1]، إلى البلدانيين المحدثين، مثل ابن بليهد وابن جنيدل والجاسر وعبدالله بن خميس والعبوديّ، وبعض الباحثين الآخرين مثل عبد الله الشايع ومحمّد الشاويّ وغيرهم»[2].

وحديثاً، أخذ الاهتمام بدراسة أسماء الأماكن حيّزاً كبيراً عند عدد من الباحثين العرب ومردّ ذلك إلى القضية الفلسطينية التي حرّكت هذا العلم بسبب المسألة العالقة حول تهويد القدس وكلّ فلسطين المحتلّة، ومن بين هؤلاء نذكر محمد محمد حسن شرّاب (معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينية وتفسير معانيها ومدلولاتها السياسية والحضارية، 2000)؛ ومن العراق، كوركيس عواد ويعقوب سركيس (أصول أسماء مدن وقرى عراقية، 2009) وفاضل الربيعي ذا النظرة التنقيحية والتجديديّة بالمطلق، حيث اتخذ من لغته المحكية السُريانيّة الجذور وكذلك من تحليله للأسطورة على ضوء الحضارة المحلّية الضاربة بالجذور الرافدية العربية، منطلقاً لتفسيراته المغايرة تماماً للمألوف الموروث عن المدارس الغربية، وله كتب مهمّة[3]. ومن ليبيا، نذكر بازمة محمد مصطفى، (ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، بنغازي، 1975). ويبقى لبنان محتلاًّ الساحة في عدد إصداراته المتعلّقة بدراسة أسماء الأماكن حيث كثر الباحثون في السنين الأخيرة، نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: جورجي كنعان في أبحاثه حول اسم «إيل»، بحيث اهتم بأسماء الأماكن التي تتضمّن اسم «إيل» وخصص لها فصولاً كاملة في كتبه العديدة. وفرج الله صالح ديب الذي يقول: «نحن من أصحاب المبدأ الأساسي في أن أسماء المدن والقرى

(1) يقول ياقوت الحمويّ في مقدّمة كتابه «معجم البلدان»: «على أنه قد صنّف المتقدّمون في أسماء الأماكن كتباً، وبهم اقتدينا وبهم اهتدينا، وهي صنفان: منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة، ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار، واقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار. وطبقة أخرى سلكوا قريباً من طريقة أولئك، من ذكر البلاد والممالك، وعيّنوا مسافة الطرق والمسالك، وهم: ابن خرداذبه وأحمد بن واضح والجَيْهاني، وابن الفقيه، وأبو زيد البَلخي، وأبو إسحاق الأصطخري، وابن حوقل، وأبو عبد الله البَشّاري، والحسن بن محمّد المهلبي وابن أبي عون البغدادي وأبو عبيد البكري، له كتاب سمّاه «المسالك والممالك»...

(2) ذكرنا عدداً كبيراً في لائحة المراجع في نهاية الكتاب.

(3) فاضل الربيعي، الشيطان والعرش. رحلة النبيّ سليمان إلى اليمن، دار رياض الريس للكتب والنشر، 1996.

والأنهار والمناطق تعود للعشائر التي أرادتها في البدء وأنها ليست وليدة تأمل جغرافي»[1]. وأيضاً كمال الصليبيّ فيما يتعلّق بأسماء شبه الجزيرة العربية، في بحثه عن التوراة العربية[2]، ويوسف الحوراني الذي عالج أسماء كثيرة في كلّ أعماله التاريخية والحضارية وأولى اللغة المشرقية القديمة اهتماماً خاصاً، ويقول: «هكذا نجد أن التراث الشعبي يحفظ في ثناياه معلومات علمية لا تتضمّنها الكتب، وهي كبيرة الجدارة بالاهتمام، ولذا الحق بتسمية حقل جديد في علم الأركيولوجيا هو «أركيولوجية اللغة»[3]. وتحتل المقالات ذات الصلة بأسماء الأماكن موضع الصداراة على صفحات الإنترنت اليوم وهي لا عدّ ولا حصر لها لكثرتها. وتُبرز لائحة المصادر والمراجع في آخر كتابنا أهمّية هذا العلم من حيث عدد المباحث والكتب المتعدّدة فيه.

هل ثمّة منهج خاص بدراسة الطوبونيميا في المدرسة الشرقية؟

حقيقة القول إن كثيراً من البحّاثة نقلوا عن الرحّالة ونسبوا أسماء الأماكن بشكل عشوائي لا مكان له، في كمّ كبير منه، من الصحّة، فعلى سبيل المثال، اعتمد عيسى إسكندر المعلوف على «معجم البلدان» لياقوت الحموي ونسب كلّ أسماء الأنبياء

(1) «كذبة السامية وحقيقة الفينيقية»، ص168. وللباحث كتب عديدة في أصول أسماء الأماكن ضمّنها آراءه وتحليلاته اللغوية المتجددة والخارجة عن المألوف إذ ينتمي الباحث إلى المدرسة التي ترتكز على اللغة العربية في تحليل اللغات والحضارات، أبرز كتبه: اليمن هي الأصل. الجذور العربية للأسماء، 1988، والتوراة العربية وأورشليم اليمنية، 1994.

(2) أثارت أبحاث كمال الصليبيّ حملة مناهضة لطروحاته الجديدة وغير المألوفة في الوطن العربي، لأنها عدّت معادية للقضايا العربية وعدّت سياسية الأهداف، خاصة أنه تلميذ «برنارد لويس» اليهودي صاحب نظرية تفتيت الشرق الأوسط. ولكن، رغم كلّ الآراء، لا يمكن تجاهل أن الصليبيّ أسّس لمدرسة جديدة في دراسة التاريخ بشكل عام. يقول أسعد أبو خليل: «أعتقد أنّ الصليبيّ بالغ في الاعتماد على عنصر أسماء القرى والمدن، على حساب عناصر مثل علم الآثار ومراجع أخرى. تعلّمت منه حب كتاب «لسان العرب» لابن منظور. كان يقول إنّه لا يفيد فقط في البحث عن أصل الكلمة ومعناها، بل يفيد في ملء أوقات الفراغ... كان الصليبي يحاول التعمّق في اللغة العربيّة وتراثها...» (أسعد أبو خليل، «كمال الصليبي: تأريخ لما يُسمّى لبنان»، جريدة الأخبار، 10 أيلول 2011).

(3) ورد في مقال «أركيولوجية اللغة في الثقافة الشعبية»، مجلّة الحداثة، العدد 85 – 86، ص52. وهناك من ركّز اهتمامه حول علم الأسماء بدراسة منطقة وادي التيم من الناحية الأثرية المبنية على المعطى الإيتيمولوجي.

إلى مواضع في سهل البقاع[1]، هكذا لمجرّد أن ياقوت ذكرها ونقلها كما هي في أغلب الأحيان[2]. لقد اهتم عيسى إسكندر المعلوف بأسماء الأماكن في البقاع بشكل خاص ولا تخلو دراساته من تبيان أهمّية المادة، حيث يقول: «ولما كنت كُلّفت بالأبحاث التاريخية والتمحيص في التسميات، تفرّغت ردحاً من الوقت لتحليل الأعلام في تواريخ سورية بحسب آثارها وعباداتها واللغات التي سُميّت بها، فيما اجتمع لدي طائفة كبيرة من التسميات السورية ولا سيّما في كتابي «تاريخ سورية المجوّفة» الذي توفقت إلى تحليل أسماء مدنه وقراه بحسب ما وصلت إليه يد الطاقة وما بلغ إليه العجز. وعرضت كثيراً منها في بعض المقالات...»[3] ويتابع: «لقد كُلّف كثيرون من العلماء باشتقاق الأسماء وكتبوا مؤلّفاتهم باللغات الأجنبية. وربما كان أوّل من نبّه الخواطر إلى هذه الفوائد التاريخية حضرة صديقي العلامتين الأب «هنري لامنس» والأب «سيبستيان رونزفال» اليسوعيين في مقالات عديدة من مجلّة «المشرق» في أساطير ميثولوجية سورية المجوّفة وما بقي منها في أسماء الأنهر والأماكن. إن المؤرّخين اليوم يعتمدون على إستقراء الآثار والأساطير ليبنوا عليها فلسفة التاريخ التي هي أمنع دعامة للوثوق به. فلذلك رأينا من المباحث اللذيذة النظر في أسماء القرى والأماكن التي دخلت في حيّز سورية المجوّفة والتعمّق في تسمياتها وردّها إلى أصولها ما أمكن لنستنتج من ذلك ما تقلب على هذه البلاد من الشؤون وتلاعب بها عبر الأيام وحوادث الأعوام فيكون تاريخها جلياً معزّزاً بالشواهد البيّنة والأدلة الدامغة... والغاية من هذه الدراسات هي: وضع لهذه البقعة الخصيبة تاريخاً وافياً يكشف اللثام عن وجه الحقيقة لتظهر للملأ ظهور الصورة الشمسية ممثلة أصلها كلّ التمثيل غير مزورة ولا متصنعة، بل طبيعية صادقة طبق الأصل»[4].

---

(1) لقد أفردنا في معجمنا «آلهة وأماكن» الذي سبق ذكره آنفاً، فصلاً خاصاً عن هذه الأسماء وأضأنا على حقيقة هذا الموضوع.

(2) كتب محمّد عجينة: «لاحظنا من خلال دراستنا أن محاولات عديدة قديمة وعربية خاصة إهتمت بموضوع تحليل لأسماء البلدان ولعلّ ياقوت في طليعتها وقد ذكر عدد من التفاسير من أقوال غيره ونلاحظ أن الكل تخبّطوا في دائرة ربط الأسماء حتى البلدان القاصية مثل الصين بنسل التوارة التقليدي»، (موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص1).

(3) ع. أ. المعلوف، تاريخ سورية المجوّفة، ص76. (والمجوّفة هي ترجمة خاطئة ولكنها شائعة لمصطلح Coelsyrie والذي برأينا يعني «كل سورية»، المؤلّفة).

(4) ع. أ. المعلوف، تاريخ سورية المجوّفة، ص76.

ومن أبرز من أضاء على أهمّية وأهداف أسماء الأماكن الأب «لامنس» اليسوعي، بحيث أفرد لهذا الموضوع أبحاثاً كثيرة في مجلّة «المشرق»، وفي الجزء الثاني من كتابه «تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من آثار»، ص227، خصص فصلاً بعنوان «النتائج التاريخية من درس أعلام الأماكن اللبنانية»، جاء في مقدّمته: «ليس بين المطلعين على أساليب علم التاريخ في عصرنا من يجهل فائدة البحث عن درس أسماء الأمكنة... إن علم درس أصل الأسماء المكانية أعظم وأكبر نصير للتاريخ، لأن أعلام المكان ترجع إلى أقدم أصول اللغة، إذ المتبادر إلى الذهن أن الرجل أوّل ما يبدأ به تسمية محل إقامته باسم يعرفه ويميّزه. لذلك نرى أعلام المواضع أبقت لنا ذكر حوادث ومواقع لا نجد لها أثراً في أعظم التواريخ إسهاباً وأكثرها تفصيلاً. وقد يتفق أن أعلام المكان وحدها تذكّرنا بما جرى لبعض الشعوب من الحروب وما طرأ عليها من الحوادث السياسية والدينية. فهكذا كلّ موضع دخل في تركيبه إسم دير وقصر ومجدل (مع فروعها مجيدل ومجدليون ومجدليا) يدلّ على أنه كان ثمة دير أو قلعة، ولو غيّر الدهر معالم ذلك البناء ولم تبق لـه أطلال ولا رسم وربما كنّا لا ندري أصل الأماكن اللبنانية ولا نعرف قدم عهدها فإذا ما عثرنا على أعلام فينيقية إستطعنا أن نستدل على أن أصل تلك المواضع يتصل بالعهد الذي كانت فيه تلك اللغة شائعة في لبنان. وإذا وجدنا موضعاً مدعواً باسم أحد الآلهة القديمة سورية كانت أم بابلية، فلنا أن نستنتج أنه سبق التاريخ المسيحي وأنه وجد في عهد كان الأهلون يعبدون تلك الآلهة. وعليه فدرس أعلام المكان يقوم مقام ما أغفلته الأدلة الكتابية ويدعم التقاليد المحلّية، وبدونه لا نستطيع سبيلاً إلى تحقّق المنصوصات المبهمة الخالية من الحجّة والعارية عن البرهان... وقد يتفق أن يخلف شعبٌ شعباً آخر فيغيّر الاسم القديم باسم أحدث أو يُجمع الإسمان، ومن هنا الأسماء الكثيرة التي تجمع إسمين عربي وسُرياني مثلا «جبل طورا» (قرب جزين) وكلاهما يعني الجبل»[1].

---

(1) في ما يتعلّق بالمباحث اللغوية كالتغيّرات التي توالت على أسماء الأمكنة، راجع دراسة «كمبفمير» Kampffmeyer: «الأسماء القديمة في سورية وفلسطين الحالية» (مجلّة ZDPV, XV/XVI) ومجلّة الحفريات الفلسطينية (PEF) لبلاد فلسطين، ومقال العلاّمة «جوليان» التي عنوانها «الحاجة إلى مجموع الأعلام المكانية في العالم القديم» (Beitraege Z.alt. Gesch. 1902, II, p.I.) ولائحة «روبنسون» و«سميث» المنشورة في (Biblical researches in Palestine, vol.III) و«دليل لبنان» المنشور في إدارة جريدة لبنان. وفي «تاريخ بيروت» للأب لويس شيخو لائحة بأسماء المناطق اللبنانية ونجد فيه كثيراً من الأسماء المندثرة كلّياً كإسم «رمطون» مثلاً.

وتبقى النتيجة أن المدارس الشرقية ضعيفة إلى اليوم وذلك لعدم وجود اللغويين المختصّين باللغات المشرقية القديمة أو التي ما زالت متداولة على حدّ سواء، إذ يرفض أغلب اللغويين المهتمّين باللغة العربية لغات المشرق القديم والعودة إلى أصولها والتي هي جذور اللغة العربية الفصحى، التي كما نعرف، تتحدّر من الفينيقية والآرامية والسُريانية السورية، ولا يعمدون إطلاقاً إلى ربط اللغة العربية بهذه الأصول ولا حتى اعتبارها فرعاً من اللغات السامية وهي الأحدث زمناً وتاريخاً بينها، بل يصرّون على تعنتّهم وذلك لأسباب عقدية وطائفية والسبب الأهم هو الجهل المطلق بتاريخ اللغة العربية والتي لا يملكون من المعرفة بجذورها أدنى شيء يخوّلهم التعرّف والتعمّق بتاريخها العريق. يقول محمد ذوق: «وبالرغم من أن بعض علماء الجغرافيا بحثوا في تفسير معاني أسماء الأماكن والمدن والبحار والقارات إلاّ أنهم لم يبحثوا ذلك بشكل علمي ولغوي، فاللغة التي ينتمي إليها الكثير من أسماء بحار وقارات وأقطار العالم هي اللغة العربية التي نستعملها اليوم في حياتنا»[1].

أما القلّة التي تعرف شيئاً فهي تتجاهله لأسباب عدّة منها اللامبالاة. وهناك فِرَقٌ تتعمّد اللحاق بركب ما يسوّقه المستعمر ومدارس الغرب وتعتمده وتردّده على علاته ومجاناً، إذ من الأسهل لها أن تردّد ما قرّره الغربيون من نتائج بحجّة تقدّمهم في العلوم وتفوّقهم على الشرق، وتسوّق أن الشرق بعيد بعد السماء عن الأرض في مجال التطوّر العلمي والمعرفي. وهذا بلاء أبناء شعبنا ممّن يجهلون تاريخهم وحضارتهم والأنكى أنهم يسوّقون المستورَد على علاته وأضراره وفداحة مضامينه. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للّغة فما بالكم بالنسبة لعلم أسماء الأماكن المجهول أو المغيّب كلّياً من قاموس هؤلاء والذين ما برحوا يتجاهلون اللغات المشرقية القديمة التي تتفرّع منها تلك الأسماء ولا يأبهون بالمحافظة على الأصالة المشرقية ولا على الهوية اللغوية، رغم إدراكهم أن اللغة هي وعاء الفكر يحملها المرء بوجدانه وهي تحيا بإحياء هذا الوجدان؟!

ولعلّ الباحثين الغربيين من القرن التاسع عشر، من الذين درسوا الحضارات المشرقية واللغات السامية تداركوا هذه المسألة اللغوية أي العودة إلى اللغة الأم، لا

(1) محمّد رشيد ذوق، «الجغرافيا وأسماء الأمصار في اللغة العربية»، 2006؛ و«لغة آدم، عطاء أبدي لبني آدم»، 1995.

بل إلى أصل اللغات جميعاً ألا وهي الفينيقية - السُريانية وذلك من أجل فهم أعمق للنصوص القديمة وتحديداً لأسماء الأماكن الغربية والتي تمتد في أصولها إلى الفينيقية بفعل منطقي أكيد باعتبارها مناطق أسّسها الفينيقيون في البداية. من بينهم الباحث في الاستيطان الفينيقي «جان جوزف لايندر برجيس» الذي يستطرد في النقد، في دراسة أثرية له حول المستوطنات الفينيقية في المنطقة الساحلية السلتوليجورية، والتي يستعرض خلالها عدداً كبيراً من المناطق والأماكن التي أسّسها الفينيقيون هناك والتي تحمل أسماء ذات أصول فينيقية، محاولاً ردّها إلى أصلها اللغوي المشرقي وتفسير معانيها، مخفقاً مراراً وناجحاً مرّة: «أنهي هذه الدراسة والتي راودت تفكيري طبيعياً، بينما نحاول فهم الاسم الذي نتناوله بالتحليل هنا (Balsamen أي «بعلة شميم»، أي عشتروت سيّدة السماء[1])، بهذه المسألة وهي أن علماءنا المحدثين، حين تتعلّق المسألة بالبحث عن إيتيمولوجيّة الاسم (تحليل أصل لفظه ومعناه) وعن فيلولوجيته (دلالة معناه وأبعاده)، لا يعيرون المعطيات التاريخية اهتماماً، ولا يأخذون بالحسبان كفاية هذه الناحية المهمة والخطيرة. كما أنهم ومن ضمن اهتماماتهم وأولويّاتهم وهي حرصهم أن ينسبوا كلّ شيء إلى الأصول السلتية، يهملون في أغلب الأحيان الرجوع إلى الأصول المشرقية، ليتكلوا بدلاً عنها إتكالاً لا جدوى منه على اللغات الشمالية (الكمرية Kymrique أي لهجة بلاد ليون Léon، الإيرلندية القديمة، السكندينافية، الكورنيكية cornique إحدى اللهجات البريتونية brittonique، والغاليتية gaélique، أي لهجة الجزر السلتية، البريتونية القديمة bas-breton وغيرها من المحكيات التي لا أعلم ما إذا كانت معروفة أم لا...). في أبحاثهم الشاقة هذه والتي لا يملّون منها متمسّكين بإصرار بهذه العادة ألا وهي أن يفسّروا كلّ شيء على ضوء تلك اللهجات السلتية، فلا يخشون أن يضعوا بين أيدي القراء غير العارفين بعالم اللغات نتائج أعمالهم وتفسيراتهم والتي بمجملها تأتي خاطئة لا سند أكيد لها ولا صحّة، والأخطر أنها غالباً ما تكون متناقضة كلّياً، حيث يقيمون مقاربات غريبة وتدعو للعجب. من أجل التوصل إلى معرفة أكيدة لتلك الأسماء وخاصة أسماء أماكن تلك المستعمرات الموغلة في القدم والتي بمعظمها هي «بربرية» أي غير مألوفة وغريبة ومدوّنة بكتابة اعتباطية وغير أكيدة، لا يسعنا إلاّ اكتساب علم شبه شامل أي منهجية منطقية وعلمية. غير أنه، وفي أغلب الأحيان، فإن هؤلاء الذين

(1) Joannis Seldeni, *De Dis Syris*, (de Astoreth), in Syntagma II, 1670, p. 246.

ينكبون على تلك الدراسات اللغوية الإيتيمولوجية والغامضة غالباً والمعقدة بفعل تعقيدهم باستمرار، لا يفقهون من أصول اللغات إلاّ فرعاً، إثنين أو ثلاثة أو أربعة على أبعد تقدير من تلك العائلات اللغوية التي يرتكزون عليها بغية دعم نظرياتهم وتأويلاتهم البهلوانية التحليل لأنها تستند على مقاييس غير مكتملة النواحي وغير وافية من حيث المعطيات وتعتمد لوائح لفظية وإسمية غير كافية، مصدرها لغات ولهجات ميتة أو منسية لم يتبق منها سوى فتات أو بضع ألفاظ لا تغني عن جوع، تسبّب إلتباسات جمّة؛ من هذه المطابخ تخرج نفس تلك الأطباق المركّبة بطريقة عجيبة والمقدّمة بأساليب مختلفة أو مع بعض التشكيلات اللفظية والكتابية والتي يستعصي على أشد اللغويين خبرة فك رموزها واستيعابها بسبب الإبهام الكلي الذي حلّ بها وفتك بالاسم حتى غيّبه عن الوضوح التام حتى جعله غريباً كلّياً بسبب الأدوات غير الملائمة التي يستخدمها هؤلاء الدارسون الشديدو الثقة بنفسهم. إلى جانب هذه المغالطات الخطرة المتأتية من غموض أو ندرة المصادر التي يمكن لهؤلاء العلماء الاستحصال عليها إضافة إلى الشوائب العديدة المحيطة بأعمالهم وعدم جلائها، تضاف الجرأة الفائقة لبعضهم ممّن يجهلون كلّياً اللغات المشرقية ولم يسمعوا إلاّ باللغات الأوروبية الشمالية التي يحاولون استخدامها والتفسير بواسطتها الكلمات والأسماء التي تنتمي إلى اللغات المشرقية، ونلاحظ بالمقابل شجاعة البعض الآخر الذي يجرؤ، وهو العارف باللغات المشرقية أن يفسّر بواسطتها الكلمات والأسماء الشمالية الأوروبية، حيث لا يرى وفي كلّ شيء إلاّ جذوراً عربية أو عبرية أو كلدية أوسُريانية أو فينيقية»[1].

وتجدر الإشارة إلى أن هناك مشكلة جدّية تواجهها المدرسة الشرقية في حال خرجت بدراسات جدية ومبنية على منهج علمي أكيد وهو أن المدارس الغربية لا تقبل ولا تعتمد إلاّ بما تخرج به هي نفسها من نتائج في التحليل اللغوي والتفسيري لأسماء الأماكن وذلك قياساً على معطياتها الخاصة ومناهجها التي وضعتها واعتمدتها كمقاييس لا تحرّك، باستثناء ندرة من المحدثين اليوم الذين يصوّبون الأمور على ضوء المناهج العلمية العقلية وليس لغايات أسلافهم الاستعمارية. وتلك التيارات، التي رغم معرفتها الحقيقة،

---

(1) Jean Joseph Léandre Bargès, *Recherches archéologiques sur les colonies phéniciennes établies sur le littoral de la Celtoligurie*, Leroux, Paris, 1878, pp.35-36.

تحوّرها لصالحها وليس لصالح العلم والمعرفة المجرّدين من كلّ غاية سياسية[1] . وهؤلاء المحدثون كما أسلافهم يرتكزون في تفسير أسماء الأماكن على قاعدة معرفة اللغات المشرقية القديمة ، ولكن مع فارق جوهري أنهم بدأوا يأخذون بعين الاعتبار اللغة العربية كنقطة إرتكاز لغوي ، وهذا ما أهمله أسلافهم عمداً ، فمنذ نحو عشر سنوات تقريباً ، بدأت نهضة جديدة لإحياء أسماء الأماكن على قاعدة جديدة أصولها لغوية أي تعتمد اللغات المشرقية القديمة ومن ضمنها اللغة العربية التي تفسّر على ضوئها الأسماء ، وراحت تعقد المؤتمرات الدولية[2] حول هذا الموضوع ، والأهم أن معظم المؤتمرات التي تتناول علم الآثار المشرقي لم تعد تتجاهل علم اللغات المشرقية ، لا بل هناك باحثون أجانب كثر يعوّلون على معرفة اللغات المشرقية معرفة دقيقة ومنزّهة عن كلّ تأويل (توراتي مثلاً) حتى يتمكّنوا من الولوج إلى أسرار المواقع الأثرية بدقّة لم تعد خافية على أحد وهذا ما نسمعه نحن الاختصاصيون من أفواههم بأنهم يتمنّون لو يحظون بفرصة التعمّق باللغات وخاصة العربية منها[3] . والأهم أن ثمة تيار علمي بدأ يفرض الحقائق العلمية التي ارتكز عليها ألا وهي كلّية الجغرافية العربية باعتماد حدودها الطبيعية الموحّدة وليس السياسية المفتعلة ، ولعل «أرنولد توينبي»[4] و«بيير روسي» كانا ، بلا منازع ، زعيمي هذا التيار في

(1) لا يغيب عن بالنا أن الأغلبية من الباحثين (المستشرقين) في القرون الاستعمارية الأوروبية السالفة كانوا مرسلين من قبل دولهم وكانوا يحتلون في أغلبيتهم مراتب سياسية برتبة قنصل أو سفير أو منسّق ثقافي تابع لوزارة خارجية بلاده ، كما وأن المؤسّسات العلمية والمراكز البحثية التي أسّسوها ولا زالت فاعلة وناشطة إلى اليوم ، كانت تموّلها دولهم ، وذلك لغاية التعرّف على المنطقة التي انتدبوها أو استعمروها من خلال معرفة علمية تخوّلهم السيطرة عليها ثقافياً بالدرجة الأولى .

(2) حظي لبنان بحصّة كبيرة من انعقادها على أرضه ولكنها متوقفة اليوم بسبب الظروف السياسية والأمنية التي تمرّ بها المنطقة والتي هي غير ملائمة للعلم بشكل عام .

(3) صرّح لنا أحد الباحثين الفرنسيين في مؤتمر الآثار الذي عقد منذ فترة ليست ببعيدة (2008) ، في جبيل ، أنه بصدّد المشاركة في تأسيس «مركز اللغات الفينيقية» في بلغاريا من أجل تفعيل علم الآثار على ضوء معرفة هذه اللغة التي تتعلّق بحضارة البحر الأبيض المتوسط كلّه ، وتعتبرها كلّ دولة من دوله أنها تنتمي إلى حضارتها ، وتمنّى لو أنه يلم بشيء من اللغة العربية لتساعده على فهم الفينيقية ، وهذا ما رأينا فيه تطوّراً نوعياً وعلمياً لا يستهان به . تبقى المسألة الأهم : هل بلغاريا أولى بالمعروف في تأسيس مركز اللغات الفينيقية والسامية من لبنان مصدر هذه اللغة ومنشأ الكتابة الأبجدية ؟

(4) أرنولد توينبي ، «دراسة للتاريخ» ، 12 مجلّد ؛ أ . توينبي ، «الوحدة العربيّة آتية» ، (ترجمة عمر الديراوي أبو حجلة) ، دار الآداب ، بيروت ، 1986 .

القرن الماضي : «وإننا عندما نؤكّد من خلال نظرة شاملة، أن الشرق يتعيّن من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية فإننا لا نخترع شيئاً، إننا لا نفعل شيئاً جديداً سوى جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية الموطِّدة الواحد للأخر»[1] . واعتماداً على اللغة كعنصر موحّد للعالم العربي، يقول «روسي» : «فلقد أعادت الرسالة الإسلامية الشرق العربي إلى نفسه، إلى ذاته أعادت الشرق بامتداده الجغرافي من «بحر الظلمات» (المحيط الأطلسي) إلى «الخليج العربي» (البحر الأسفل) ومن شمال هضبة الأناضول إلى بحر العرب وعمق الصحراء العربية في لغة عربية واحدة، حملت حداثتها مع الإسلام، لأن القرآن حمل الكمال الجمالي والصوتي والدلالي والقواعدي والديني للّغة شعب مصري - رافدي قديمة محكية»[2] . ويقول جمال الخضور : «إذن للهوية كسيرورة تاريخية خصائص قائمة في الزمان والمكان مستقلّة عن إرداتنا، وهذا ما هو قائم في الجغرافية التاريخية والتاريخ الجغرافي العربيين. إن التطوّر الثقافي لا يمكن أن يعاني من عملية قطع تاريخية، فهو عملية متواصلة سيرورية في تأصيلها وسبقها وصيرورتها اللاحقة وهو ما نقصده بعملية التأصيل في بدايات تكوّن المنظومات المعرفية، فالحضارات الجليلة التي بناها العرب بما في ذلك البابلية والفينيقية والسورية والمصرية . . . وحتى الإسلامية لم تكن مقاطع معزولة في تاريخ أناسي متقطع، إنها تواصل أناسي معرفي، مؤسَّس ثقافياً على ثوابت تأصيل عظيمة لا تمتد جذورها المعرفية لمراحل التاريخ الكتابي فقط، بل تمتد إلى مراحل الباليوليثي الأوسط (Mésolithique / Paléolithique Moyen = 150000 ق. م.) حيث تواجد في منطقتنا الإنسان الحديث سباقاً بذلك تواجده في المناطق الأخرى من العالم بعشرات الآلاف من السنين»[3] .

وبالنتيجة، فإن كلّ هذه المقولات لا تتجسّد إلاّ من خلال اللغة المحسوسة التي ما زالت حيّة، ولعل أسماء الأماكن هي المادة التي تجسّد بالتمام والكمال هذه الاستمرارية اللغوية لأجدانا العرب - السريان على أفضل وجه، كونها لا زالت تلفظ على نفس النحو على ألسنة أحفادهم اليوم، وبلهجات مختلفة وفي كلّ أصقاع الوطن العربي، ما ينمُّ عن

---

(1) بيير روسي، مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب (ترجمة فريد جحا)، 1980، ص37.

(2) المرجع السابق، ص 263.

(3) جمال الدين الخضّور، الأنتربولوجية المعرفية العربية. دراسة في الإناسة المعرفية العربية التاريخية - اللغوية ووحدتها، ص52.

استمرارية الوحدة الحضارية. بهذا الصدد، يقول الخضور: «وإذا كان من المسلّم به أن أسماء الأماكن وأسماء الأشخاص إذا وجدت متّفقة بين إقليمين في القديم، فإنه برهان على وحدة هذين الإقليمين، فإن دراسة أسماء الأماكن والمواقع وأسماء الأشخاص بين أقطار الوطن العربي تبيّن بشكل لا يقبل النقض هذه الوحدة. وجود نفس المواقع بتسمياتها على الشاطئ الشرقي لجزيرة العرب وعلى الشاطئ الشامي وعلى الساحل الشمال الإفريقي يؤكّد بأنهم يدركون بأن الإنسان هو الذي يصنع المكان، ولا تواجد للمكان بدون الإنسان، وأن هذا الإنسان يتحرّك في مكان هو أهّله، بحيث لم يتمّ الجولان إلاّ من خلال علاقات سلمية ومودة»[1].

ومنذ حوالي خمس سنوات، بدأت نهضة جديدة لإحياء علم أسماء الأماكن وعلومه في الجامعة اللبنانية على قاعدة أصوله اللغوية القديمة، فأدرج مقرّر بهذا الخصوص في قسم الفنون والآثار، كما أسلفنا، وهذه سابقة وبادرة خيّرة بوجه التعتيم على هذا العلم وبوجه حملات التزوير المتعمّد للأسماء وتحويرها. ولا بدّ من أن تترافق هذه الخطوة بقرار دعم المختصّين في هذا المجال وتبنّي أعمالهم وأبحاثهم المهمة، لكي يوضع حدّ لعمليات التشويه المتعمّد من قبل أعدائنا ولكي تبقى الذاكرة العلمية على الأقل حافظة للأسماء الأصلية كشاهد تاريخي عنها، ومن أجل التصدّي لمنهج القوة الذي يفرض فقط البرامج الأجنبية للتعليم كاستمرار للعصور الاستعمارية والتي تغرق أسواقنا بمنتوجاتها الأدبية والعملية المتبعّة اتباع القطعان للراعي. وإن التصدّي لهكذا مشاريع مغيِّبة للثقافة الوطنية يخوّل مجتمعنا العربي فرض العلم الصحيح والمعرفة الصحيحة النابعة من صميم تراثنا وطبيعة إرثنا الفكري المتجدّد على ضوء الحداثة والمعاصرة.

وينبغي أن يصار إلى إدخال تعليم اللغات القديمة، والسُريانية تحديداً، بشكل إلزامي إلى المدارس منذ المرحلة المتوسطية كما هو معمول به في الغرب من تعليم اللغتين القديمتين: اليونانية واللاتينة كقاعدة للّغات الأوروبية اللاتينية والأنكلو - سكسونية وغيرها، ما يخوّل المواطن فهم تراثه منذ نعومة أظافره بدل الانتظار حتى المرحلة الجامعية وقت فوات أوان نحت العلم في ذهنه، وبهذا نرسّخ في أجيالنا الطالعة ضرورة المحافظة على الإرث اللغوي للمحافظة، بالتالي، على الإرث الحضاري والهوية الخاصة.

---

(1) المرجع السابق نفسه.

نهاية الجدل حول تصنيف الطوبونيميا

لقد مرّت الطولونيميا بأوقات عصيبة في تثبيتها كعلم، ففي فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، دار النقاش خلالها بين العلماء حول أهمّية العلوم بالنسبة لبعضها البعض. وقد حظي كلّ من الطوبونيميا والأركيولوجيا أي علم الآثار بنصيبهما من الجدال بين مؤيّد ومعارض. والجدير بالذكر أن عدداً كبيراً من الباحثين نادى بالاعتماد على اللغة كمدخل لفهم الحضارات القديمة. وقيل بهذا الصدد إن التوجّه العلمي اليوم يميل إلى الاعتماد، وخاصة من قِبَل البحّاثة أصحاب الأرض واللغة والذين وحدهم يفهمونها بالفطرة، إلى الارتكاز على العلوم اللغوية أكثر منها على المعطيات المادية التي توفّرها الأركيولوجيا. يقول «ريناخ»: «إن أحد أبرز الأمور التي تستوقفنا والتي طُبع بها العلم في أواخر القرن التاسع عشر، هو التراجع وبشكل تدريجي لعلم الفيلولوجيا (فلسفة اللغة) الذي كان معتمداً منذ زمن، أمام الأركيولوجيا المسيطرة. ونتج عن ذلك هبوط في نوعية الدراسات، لأن الفيلولوجي اللغوي غير العارف بعلم الآثار يبقى عنده اهتمام بالتاريخ والحضارة، بينما عالم الآثار غير العارف بلغة الحضارة التي يدرسها، ليس إلاّ مجرّد هاوٍ بجمع التحف والكنوز. غير أن ثمة تطوّر في المفاهيم راح يُرسم في الأفق، فالمخطوطات اليونانية التي خرجت من الأرض تعيد للّغة اليونانية، كما حصل في عصر النهضة، أهمّيتها في فهم الثقافة اليونانية فهما صحيحاً، والناتج، ليس عن بعض الأشياء المادية، بل عن النصوص الأدبية»[1]. كذلك، في نهاية حياته العملية، تساءل «كورتيوس» إذا لم يحن الأوان بعد لكي ينتهي عهد الأركيولوجيا المهيّمن، وإذا لم يحن الوقت بعد لتنقيح وتصحيح ما ارتكبته من أخطاء فادحة في حق الحقيقة الحضارية وتفادي تأثيراتها السلبية. وبرأيه أن التاريخ اليوناني يجب أن يترك المتاحف لبعض الوقت، حتى يتفرّغ للعلم الوحيد الذي يخوّل إعطاء شواهد أكيدة وهو علم أسماء الأماكن: «إن الطوبونيميا وحدها تعيدنا إلى المفاهيم الصحيحة لدور الشرقيين والهلّنيين في البحر المتوسط القديم»[2].

وسادت آنذاك مفاهيم خاطئة أجّجت الصراع بين علم الآثار وبين الطوبونيميا

---

(1) S. Reinach, *Chronique d’Orient*, II, p. x.

(2) E. Curtius, *Topographie und Mythologie*, 1895, p. 575 s.

الناشئة كعلم مستقل والتي كانت تجاهد لتأخذ مكانها بين العلوم، بغية التفرّد بعد دمجها لسنين في علم الآثار وأحياناً كرديف له، حيث حصل الطلاق أخيراً[1].

«الطلاق» بين الأركيولوجيا والطوبونيميا

بتلك العدّة والتجهيزات، خاصة اللغوية والفيلولجية، التي دُعمت بها، ظلت الطوبونيميا لسنين عديدة مستخدمة كبديل للأركيولوجيا أي علم الآثار. وكتب «ك. جوليان» (Camille Jullian) العام (1926)، أنه مهم أكثر كتابة أسماء الأماكن القديمة على الخرائط بدل رسم معالمها الأثرية. وفي كتابه الذي نشر العام (1946)، أعلن «دوزات» (Dauzat) أن أسماء الأماكن «هي المتحجّرات الجيولوجية البشرية»، وأن هذا التشبيه لهو حقيقة مبرّرة باعتبار أن أسماء الأماكن تتمظهر على شكل طبقات تاريخية متتالية متكدّسة فوق بعضها البعض كما الطبقات الجيولوجية[2] (دوزات، 1946، ص13). هذا التشبيه بين الأسماء ومجموعة الطبقات ذات التاريخ هي نقطة مشتركة أولى بين أسماء الأماكن وعلم الآثار.

في الواقع، لطالما واجهت المنهجية المعتمدة في دراسة أسماء الأماكن عدّة انتقادات وقوبلت بعدة تحفّظات وذلك منذ اللحظة الأولى لإنطلاقتها من حيث فعاليتها ومصداقيتها في إعادة الاسم إلى أصوله اللغوية الأولى، وبالتالي، تفسيره هلى ضوء الحقيقة: فالمعروف أن الطريقة الطوبونيمية في تحليل الأسماء تقوم على البحث بواسطة التحليل الفيلولوجي وقواعد اللفظ الصوتي التاريخي المبني على الألفاظ والمعاني اللغوية لكلّ منطقة، السُريانية – العربية للمشرق، والجرمانية واللاتينية والغالية للغرب، إنطلاقاً من أسماء الأماكن الحالية أو من الأشكال الشبيهة التي ذكرت في المصادر القديمة والكلاسيكية والقرطوسية (القرون الوسطى الأوروبية) والتي تُعدّ لاحقة جداً على زمن التكوين الافتراضي الأول لتلك الأسماء الجغرافية. كما أنه، في الغرب تحديداً، قواعد الألفاظ الصوتية التاريخية التي تتشكّل من خلال دراسة تحوّلات الأسماء المشتركة العامة، والتي نعرف صيغتها الأصلية باللاتينية والصيغة الناتجة عنها بالفرنسية، فيها

---

(1) Elisabeth Zadora-Rio, *«Archéologie et Toponymie : le divorce»*, *Les petits cahiers d’Anatolie*, n° 8, décembre 2001.

(2) هذا ما ذهب إليه المؤرّخ عيسى اسكندر المعلوف، منذ العام (1912).

ما يسمح بدراسة إنعكاس تطوّر اللفظ واللكنة مع صيغها المحلّية والمناطقية المتعدّدة. والمسألة الخطيرة هنا هي في ما تعرّضت له الأسماء خلال رحلتها الزمنية التي أدّت بها إلى مضاعفات لفظية وتحويرات وتشويهات وتغيير المعنى حتى غُيّب لفظها ومعناها الحقيقين في أغلب الأحيان، هذا عدا الأخطاء الكتابية التي ألّمت بها عند نسخها أو نقلها كتابياً، ما يجعلها تبعد عن الصحّة، وكلّما كان الاسم أقدم زمنياً كلّما اتسعت دائرة الشكّ حول صحّته أو أصوله. وهذه الأخطاء المتراكمة لا يمكن إهمالها أو التغاضي عنها وبالتالي لا يمكن البناء عليها بنظر من يشكّك في مصداقية علم أسماء الأماكن.

ومن بين أوائل المنتقدين له ولتفسيراته نذكر «بلوش» (Marc Bloch) و«روبلن» (Michel Roblin) أكان من حيث توخّي الحذر في الاعتماد على أسماء الأماكن كمصدر لرفد العلوم التاريخية، أم من حيث ربطها مباشرة بعلوم اللغة، كما نوّه «روبلن» إلى المردود الصغير جداً تاريخياً لأسماء الأماكن على صعيد اللغات. ولكن رغم كلّ الانتقادات التي تعرّض لها هذا المجال في الخمسينيات من القرن العشرين، ظلت الطوبونيميا المصدر الأساسي لدراسة تاريخ سكن الأماكن حتى السبعينيات، لأن الكثير من المؤرّخين، من بينهم «هيغونيه» (Charles Higounet)، رأوا فيها المصدر الوحيد لتزويد المؤرّخين بالمعلومات المفقودة خاصة التي تعود إلى الحقبات الممتدة بين نهاية العصر القديم إلى بداية العصور القرطوسية (حوالي خمسة قرون) والتي لا نعلم عنها شيئاً لأنها لم تترك أي بقايا أثرية. كما أن الوثائق الكتابية بخيلة جداً بالمعلومات أو أنها لم تذكر شيئاً البتّة. من هنا ضرورة اللجوء إلى أسماء الأماكن التي تبقى الوسيلة الوحيدة للتفسير ومفتاح اللغز الكفيل في سبر أسرار تلك الشعوب السالفة وكيفية سكنها. ناهيك عن أن أسماء الأماكن تشترك مع علم الآثار بأدوات العمل ولديهما قواسم مشتركة لا بل سلّم أولويّات مشترك. ولعل أسماء المواقع والمعالم والصروح والآبار والكنائس والمرافق القديمة هي مصدر معلومات لا يستهان به والأهم أن الأسماء تحدّد توزّع السكان والمحيط الذي تفاعلت فيه الشعوب مع بعضها البعض: إتصالات، تجارة، تبادل سلع، تزاوج، نزوح... ما يسمح بالتعرّف على النسب السكانية وأعدادها، كثرتها أو قلتها.

وعلى صعيد البيئة والطبيعة، من بين النقاط المشتركة الأهم بين الطوبونيميا وعلم الآثار، هو معرفة تقلص الغابات والأحراش لصالح القرى المبنية من أجل السكن، تراجعها أو تقدّمها، تطوّرها أو تدهورها، واستمرار السكن فيها أم هجرها، فإسم المكان يوضّح كلّ تلك الجوانب وما تعدّد الأسماء إلاّ دليل على تراكم الحقبات الحضارية، ما يساعد علم الآثار على دراسة إثنولوجية وأنثروبولوجية السكان وتعاملهم مع بيئتهم ومحيطهم. كما أن وجود المدافن أو المدن المدفنية (necropolis) وما تحتوي عليه من أسماء إثنولوجية وعرقية متنوّعة تدلّ على تعدّد الوافدين إلى المكان، فمثلاً، عدد كبير من المدافن شغلها البرابرة ومن ثم المجتاحون الجرمان على حدّ سواء، وقد لاحظ الباحثون المختصون بالعصور القرطوسية، من خلال الأثاث المدفني واللقى الجنائزية المتنوّعة المصادر والأساليب الصناعية أنها مشتركة مع كلّ أوروبا الشمالية، ولكنها أيضاً تتضمّن عدداً من العناصر الشرقية أو المتوسطية، أو أنه أُلصقت بها صفات إثنية بعيدة كلّ البعد عن الصحّة في نسبها إلى أقوام معيّنة، ومن دون أي مصداقية تاريخية أو أثرية صحيحة. فلماذا يجب مثلاً الافتراض أن المدفونين هم بالضرورة من الفرنجة أو البورغونديين أو الأنغلو - ساكسونيين؟ بشكل عام، هذه الافتراضات لا ترتكز سوى على معلومات غامضة، مشوّشة وغير دقيقة، متأتّية من مصادر مكتوبة تتناول أمكنة أو مساحات شغلها هذا القوم أم قوم آخر، ولا حجّة للباحث أن يؤكّد يقيناً أنها كانت مسكونة من قِبل المجموعة الإثنية نفسها التي دُفن أفرادها في المدافن المجاورة[1].

إلا أن الحال لم تبق على ما وصلت إليه من تلاقي بين أسماء الأماكن وعلم الآثار، بل ثمّة إنعطافة بدأت ترتسم، وذلك في الثمانيات من القرن العشرين، بعد تطوّر تقنيات الاستشعار (prospection) التي أدّت إلى التعرّف إلى سطح المواقع الأثرية وما تبعه من تقنيات حديثة أمدّت الباحثين بكمّ هائل من المعلومات الجديدة والكثيرة من خلال اللقى الأثرية والمسح الشامل للأراضي بأحدث الطرق العصرية (Topographie numérique et informatique). وفي التسعينيات، نشط علم الآثار

(1) Elisabeth Zadora - Rio, *«Archéologie et Toponymie : le divorce»*, Les petits cahiers d'Anatolie, n° 8, décembre 2001, p. 32.

الوقائي (Archéologie de sauvegarde et préventive) ما أحدث ثورة كبرى في علم الآثار مع كلّ ما تبعها من منهجية جديدة قائمة على العلوم التطبيقية بالدرجة الأولى، فتغيّرت الأهداف تغييراً جذرياً، من بينها أن بعض المواقع أظهرت أنها لم تهجر أبداً بل عرفت السكن منذ ما قبيل التاريخ (5000 ق.م.) واستمر العيش فيها إلى اليوم، فلم يعد هاجس الباحثين الإضاءة على المساحات التي شغلتها الأقوام في سكنها المنطقة، بل تركّز الاهتمام بشكل أساسي على دينامية العيش والتغيّرات التي طرأت على طرق العيش في المكان الواحد نفسه. وهذا التغيير بات يُنظر إليه كعامل داخلي، عائد إلى عوامل اجتماعية، ولم يعد يعار اهتمام للعوامل الخارجية إلاّ بشكل ثانوي، من مثل الهجرات الجماعية أو النزوحات أو الاجتياحات وغيرها.

هذا التبدّل في سلم التحليل في علم الآثار، أحدث أيضاً شرخاً أو بعداً بالنسبة للسلم الفضائي – الزماني للطوبونيميا. في الواقع، إن التقنيات الحديثة في مجال التأريخ والتي أعطت دقّة عالية لم تعد تعتمد على الطوبونيميا أي فقط على أسماء الأماكن التي تبقى نتائجها في مجال التأريخ محدودة، لا بل عرضة للخطأ عامة ومشكوك بصحّتها. ولا مجال للمقارنة بطبيعة الحال، فالافتراض لم يعد سيّد الموقف في ظل وجود الآلات الدقيقة العلمية النتائج، خاصة من حيث المساحة المكانية ودراسة الفضاء العام للأماكن، وما أحدثتها منهجية التنقيب الأثري التقني، والتي لم تعد تسمح بالمحدودية التي درجت لسنين طويلة بسبب غياب البديل التقني، والتي جعلت من الطوبونيميا بديلاً عن علم الآثار للضرورة التي كانت عليها قبلاً. فقد أصبح بإمكان الباحثين اليوم تحديد التنوّع السكاني بدقّة وعلى مساحة أرضية واسعة جداً وتحديد الأقوام التي شغلت الأمكنة والأحداث التي طرأت على المكان مع ما رافقها من تغيّرات بيئية وبشرية على تنوعها وتعقدها، وكأن شريط الماضي قد فتح على مصراعيه أمام المنقّبين.

وهكذا، بعد ثلاث أرباع قرن من الانسجام، فإن الأركيولوجيا والطوبونيميا اتخذتا كلّ منهما طريقاً مختلفاً، كما أن استخدام الطوبونيميا كبديل للأركيولوجيا بات من حكم الماضي ولم يعد له سبب وجيه للحلول محل الأركيولوجيا لأن مادته عتيقة التقنية ونسبية النتائج. وإن أسباب هذا الطلاق تكمن في الفروقات الشاسعة في سلم التحليل والعائدة إلى التطوّر المدهش والسريع للأركيولوجيا التقنية والمنهجية وتضاعف

المعطيات التي نتجت عنها. من ناحية أخرى، علينا الأخذ بالاعتبار وأن لا يغيب عن إدراكنا أن الأسماء، مهما حوت من معلومات قيّمة، لا يمكن أن تشكّل لوحدها مادة كافية للتحليل التاريخي الكامل كما أن الفكرة السائدة من أن الأسماء هي عبارة عن طبقات تاريخية مكدّسة تعادل من حيث قيمتها الطبقات الأركيولوجية باتت صورة مبالغ فيها بعض الشيّ والحل الأفضل الذي فرض نفسه أخيراً، هو في تصنيف علم أسماء الأماكن كعلم مساعد لعلم الآثار وليس بديلاً عنه.

وهكذا، بين من كان يعتبر الطوبونيميا علماً «متطرّفاً» وكنّ العداء الشديد لهذا العلم بعد ظهوره في أوروبا وعمد إلى استبعاده وعدم تصنيفه كعلم صحيح، وبين عودة هذا العلم إلى الظهور من جديد على يد بعض الباحثين المختصّين بفروعه المتنوّعة كافة وإدراجه كعلم صحيح، حُسم الجدل اليوم في اعتماد مسلّمة منطقية وهي أن علم أسماء الأماكن يُعدّ من العلوم المساعدة (sciences auxiliaires) أي التي يُرتكز عليها بشكل أساسي في علوم أخرى رديفة.

علم أسماء الأماكن : علم مساعد

الطوبونيميا علم مساعد لعلم الآثار

إن اكتمال علم الآثار الذي يُعنى بدراسة المواقع القديمة لا يمكن أن يتحقّق بشكل فعلي من دون علوم مساعدة، فالفريق العامل على موقع التنقيب لا يستطيع لوحده أن يعمل بجدية علمية، فهو بحاجة أن يؤازره فريق متخصّص وأفراد عارفون بكل الإختصاصات المساندة لعلم الآثار. ومن تلك المعارف التي يستعان بها تحليل اسم المكان موضع التنقيب.

يلتقي العلمان من حيث الأدوات المستخدمة أيما إلتقاء فكلاهما علم ميداني تطبيقي، يعتمد على الأرض حيث ميدان تطبيقه يتعلّق بالجيولوجيا والتضاريس والمواقع الطبيعية والعمرانية وكلّ ما خلّفه البشر من صناعات حياتية. وعمادة دراستهما هي المقاييس العلمية المحدّدة والمنهجية، فعلم التنقيب الأثري كما هو معروف يدخل في العلوم التطبيقية المنهجية ذات البرامج الصارمة في التعامل مع المواقع المنقّبة، وإلاّ تقع الكارثة في حال أُخلّ في التطبيق (التحقيق enquête، الإستشعار prospection في كلّ أبعاده، دراسة الأرض جيولوجياً وطوبوغرافياً، دراسة السويّات stratigaphie، السبر sondage، الرسم، وضع الخرائط، تحليل البيانات المخبرية والتاريخية، التأريخ المخبري datation، على أنواعه من مثل (Carbone 14, magnétisme, dendrochronologie,... معالجة اللقى في المختبر الميداني وترقيمها قبل نقلها للترميم النهائي في المتاحف، وضع التقارير الأوّلية والنهائية...) هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، يقوم كلّ من العلمين على التحليل المخبري ودراسة البيانات كافة والتي جُمعت إثر تحقيقات ميدانية طويلة الأمد، والتحليل على عدّة مستويات: اللغوي، الإجتماعي، الأنثروبولوجي، الإثنولوجي، الفني، التاريخي، الفكري والفلسفي، النفسي، إلى ما هنالك من تعبيرات إنسانية منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا.

في الواقع، إن أسماء المدن والقرى شُبّهت، كما ذكرنا، بالطبقات الصخرية في علم الجيولوجيا «ترشد إلى حقائق راهنة وتؤيّد العلم الصحيح»[1]. وما أقرب هذا التحليل إلى الحقيقة وما أبعده أيضاً عنها، كما أسلفنا، في حال لم يُدعم بالبراهين التقنية. ولو راح كلّ

(1) عيسى إسكندر المعلوف، تاريخ زحلة، مطبعة «زحلة الفتاة»، 1912.

باحث مطلع في علم الآثار يهتم بتحليل الأسماء، لتوصل إلى اكتشاف معلومات قيّمة. ونحن نقول إن أسماء المدن والقرى هي كالطبقات الأثرية ترشد إلى حقائق أكيدة وتؤيّد العلم الصحيح، لأن دراسة السوّيات الأثرية أو الطبقات الأثرية (stratigraphie)، هي القاعدة الأساسية التي أرست علم الآثار الحديث، وهي التي حوّلته من هواية جمع التحف والكنوز القديمة إلى علم حديث ومنهجي يدرس نتاج الإنسان منذ أن وجد ومن خلال مختلف نواحي حياته. لذلك يجب التأنّي في دراسة الأرض التي سكنها الإنسان وتقليب صفحاتها تماماً كالكتاب وقراءتها بتمعّن. كما ينبغي التريّث في تحليل معطياتها قبل قلب الصفحة التالية. وكالمحلّل المتعمّق الذي لا يأخذ فقط بظاهر الأشياء، ينبغي قراءة ما وراء السطور.

وقد أدرج علم الطوبونيميا لسنين طويلة كعلم موازي لعلم الآثار، وليس كعلم رديف أي مساعد له كما هو معمول به اليوم، شأنه في ذلك شأن علوم كثيرة صنّفت مساعدة لعلم الآثار[1]، إذ إن للطوبونيميا أهّمية أساسية بالنسبة لعالم الآثار، خاصة خلال بحثه عن موقع لم يدرس من قبل أو البحث عن مدينة ذكر اسمها في المصادر القديمة ولم يعد لها وجود أو محُيت من ذاكرة الناس رغم أن معالمها ما زالت مطمورة تحت الأرض، فمثلاً، مدينة طروادة الشهيرة بحروبها وكنوز ملكها «بريام» (Priam)، كان اعتقاد الباحثين قديماً أنه لم يعد لها أثر أو حتى أنها مجرّد مدينة خيالية ذكرها الأدب القديم ليس إلا، لكن الدراسات الحثيثة بيّنت أن الشاعر «هوميروس» ذكرها في ملحمته «الإلياذة» تحت إسم «إيليون» (Illion)، ممّا دفع بعدد من المهتمّين بالتاريخ القيامَ برحلات إلى اليونان للبحث عنها. لكن الحظ كان حليف التاجر الألماني «شليمان» الذي دفعه إلمامه

(1) هناك علوم كثيرة مساعدة لعلم الآثار ومن دونها لا يمكن للأركيولوجي أن يتوصّل إلى نتائج سليمة في دراسته. إن الطوبونيميا من الأهمّية بمكان بحيث تعادل أهمّية علم المسكوكات القديمة (Numismatique) والتي هي ركيزة أساسية في قراءة المواقع الأثرية، لما تحمله من معلومات متعلّقة بها، فعملة صغيرة تعطي من خلال وزنها وحجمها ومعدنها فكرة عن الحالة الاقتصادية للفترة التي ضُربت فيها. كما تتضمّن على وجهيها: إسم الإمبراطور أو الملك ولقبه، ولباسه ورموزه، والتاريخ، واسم المدينة التي سُكّت فيها ورموزها وآلهتها (dieux poliades) وما تمثله من أساطير ورموز. كما تُخبر عن حدث تاريخي أو إيديولوجي أو تذكاري مثل الألعاب الدورية والتذكارية وبناء الصروح والمنشآت. وهكذا فعلم المسكوكات يشكّل مادة ضرورية في دراسة الأسماء التي تتعلّق بأسماء المدن والأماكن والأشخاص وهو أسٌ في علم الآثار.

بملاحم «هوميروس» القيامَ بمغامرة اكتشاف طروادة التي عثر عليها بعد جهود مضنية ولكن ليس على أرض اليونان الحالية كما ظن طويلاً، بل في آسيا الصغرى، بعد ان دمّر الموقع بسبب حفرياته العشوائية[1].

عملياً، إن اسم البلدة، حين يكون له مدلول حضاري، هو المفتاح الأوّل للولوج إلى الأرض المراد التنقيب عنها. وعلم اللغات هو أهم المواد التي يعتمد عليها الآثار في فهم النصوص والوثائق، والحكاية الشعبية التي تُتداول على ألسنة سكان تلك البلدة حول نشأتها تدخل في إطار كلّ ما له علاقة بالأدب القديم كالأساطير والملاحم والقصص التي كتبت أو حكيت بلغات معيّنة ولا بدّ من الإستعانة بها من أجل الاستطلاع العلمي. وما الأسماء بشكل عام وأسماء الأماكن بشكل خاص إلاّ جزء مهم من اللغات والتي لا يمكن إهمالها في علم الآثار، إذ أنها تشكّل الركيزة الأولى والعمود الفقري له. ومن هنا تبرز أهمّية كلّ من أسماء الأماكن وأسماء الأشخاص من حيث تحليلها اللفظي والمعنوي.

في الحقيقة، ترتبط الطوبونيميا بالأونوماستيكا بشكل وثيق، إذ كلاهما تنتميان إلى علم اشتقاق الأسماء وأصولها أي الأيتيمولوجيا (étymologie)[2]، أي علم اشتقاق الكلمة الصحيحة وألفاظها الأصلية والتي هي، بالنسبة للباحثين، الوسيلة التي ترشدهم إلى الحقيقة. وهذا ما يتوخّاه عالم الآثار الباحث عن الحقيقة منذ جذورها وفي أعمق الطبقات. وكشف الحقائق هو جلّ ما يرمي إليه الباحث من دراسة الأسماء التي يظهر أهمّيتها الحضارية، ما يجعل لها مكانة خاصة في علم فقه اللغة (Philologie) ودراسة النصوص والذي ينظر إلى الكلمة الواحدة على أنها متحجّر إجتماعي قديم وصل إلينا منذ آلاف السنين. وهذا ما يعطي الأسماء قيمة أنثروبولوجية صرفة ويجعل منها مصدراً من مصادر المعرفة التاريخية، شأنها شأن الأركيولوجيا التي تدرس النواحي المادية من تاريخ الإنسانية. فكلّ اسم يحتوي على مضمون يعكس لنا ناحية من نواحي التفكير

---

(1) كان «شليمان» مدفوعاً بطمعه بالكنز الذي تمّ له العثور عليه وامتلاكه بصورة غير شرعية، وظل لسنين طويلة يقوم بمحاولات ابتزاز لبيعه إلى المتحف الذي يدفع له أعلى سعر. وما زال هذا الكنز إلى اليوم، موضوع خلاف بين متحف برلين ومتحف بوشكين. راجع:
(*«À qui appartient le trésor?»*, cf., Louis Godart, *Le Trésor de Troie*, Clio, Paris, juillet 1995, site internet, 2015).

(2) كلمة يونانية (Etumologia) مؤلّفة من «etumos» (صحيح) و «logos» (كلمة). و«لوغو» بإسقاط اللاحقة (س) هي كلمة عربية الأصل، وتعني «اللغة» (لوغو/لغة). (المؤلّفة).

الإنساني والتصرّف العملي والابتكار والعمران. والتحليل الفيلولوجي والإتيمولوجي للأسماء يصلح كأداة موضوعة في خدمة مسألة تحتويها، هي معرفة المصدر الحضاري لهذه الأسماء، أي منشأها الأوّل.

ولما كان لكلّ هذه العلوم التي تعنى بالأسماء فلسفة كامنة تتضمّن حقيقة علمية تصبّ كلّها بالنهاية في هدف رئيسي وهو معرفة تطوّر الفكر الإنساني عبر العصور – وما يعنينا بالدرجة الأولى نشأة الفكر القديم وتأثيره على شعوب العالم وتحديد هويتها وأصالتها والحفاظ عليها –، كان لا بدّ من ربطها بعلم الألسنية أو علم اللغات (Linguistique) وبالفيلولوجيا أي فقه اللغة ودراسة النصوص، وهما العلمان الأكثر تعبيراً عن ماهية الفكر الإنساني، إذ ما من شكّ أن تطبيق علم الألسنية على علم الإنسان (Anthropologie) أدّى إلى اكتشاف آفاق معرفية جديدة، لأن «الفكر الإنساني يتمثّل في أنساق تنعكس في السلوك العام للجماعات والسلوك الجزئي للأفراد. كما تتراءى هذه الأنساق من خلال اللغة، والكلام والجملة. واكتشاف الكل من الجزء ومن الأجزاء المركّبة هو الذي يقودنا إلى بناء الفكر من خلال اللغة وبناء اللغة من خلال الفكر. إذن، هناك نظام عام يكمن خلف اللغة ما يكمن خلف الفكر. وهذا الفكر وهذه اللغة بل هذا النظام متّصل بوعي الإنسان ومن حيث أن الفكر بأصوله وجذوره متّصل أيضاً باللاوعي، فالإنسان لا يفكر بالنحو حين يتكلّم أو يكتب، كذلك حين يتصرّف، وهو يعبّر بسجية من دون أن يفكر بنحو اللغة أو بناء الفكر. من هنا التمييز بين الفطري وبين المتعمّد أو المقصود والمفتعل، فللثقافة نحوها، وللفكر بنيته وهي كالمجموعات الثلجية (iceberg) في البحر، نصفها عائم في دائرة الوعي والنصف الآخر تحت الماء في منطقة اللاوعي. وكما يبني اللغوي نظام النحو من الأجزاء، هكذا يفعل عالم الإنسان، يقيم بناء الفكر من نماذجه اللاواعية. والنماذج، (تفكير – تعبير – سلوك)، نصفها ظاهر والنصف الآخر محجوب باللاوعي. أما النماذج الجماعية الواعية فكراً وسلوكاً فتقوم على إعادة تفسير النموذج الأصل أو عقلنته وترمي إلى تأسيس البناء واستمراره، لا شرحه وتغييره. وهي صور من النظام لا النظام نفسه»[1]. ومن خلال دراساته الإثنولوجية المعمّقة،

(1) نذير العظمة، «سفر العنقاء (حفرية ثقافية في الأسطورة)»، في دراسات فكرية، عدد 27، 1996، ص 36 – 64.

يخلص «ليفي ستراوس»[1] إلى أن اللغة هي الوسيلة الأفضل للتعرّف على الفكر والنظام الكامن فيها. فهو يطعّم العلم والفلسفة بعلم الإنسان والألسنيات ويجعلها جميعاً متّصلة بمكامن اللاوعي للذاكرة الجماعية والعقل الكلي، الذي من الضروري أن ينشأ ويتطوّر في إطار جغرافي – تاريخي مناسب، توفّرت فيه عوامل الوعي الحضاري وتبلورت في أفضل صورها الفكرية حتى استطاعت أن تنتشر وتسيطر بقوة.

إسم «عمريت» نموذجاً

إن هذا الارتباط المباشر بين علم الآثار وعلم أسماء الأماكن تبرز الحاجة إليه خصوصاً في معرفة المواقع العمرانية القديمة أي حقيقة المدن التي أُهملت دراستها الهندسية التاريخية لصالح ما شُيّع على لسان أحدٍ ما، ما زلنا نردّد أخطاءه إلى الآن، من مثل أن الفينيقيين لم يعرفوا الهندسة وأخذوا أسسها عن اليونان والرومان وهذا ادعاء خطير ومبتذل. والباحث المتيقّن، عندما يقع على اسم مدينة «عمريت» مثلاً[2]، الواقعة على الساحل السوري، على بعد 7 كم من مدينة طرطوس باتجاه الجنوب، يلفته اسمها المعبّر جداً والمتشعّب الأبعاد والدلالات. وما أن يدخل إليها للمعاينة المباشرة على الأرض، حتى تدهشه معالمها العمرانية وصروحها الضخمة وتنوّع أبنيتها ومنشآتها، أبرزها معبدها المتمثّل بالمذبح الضخم الماثل في وسطها وكذلك الملعب المدرّج المنحوت في الصخر مباشرة. وما زال الكثير من معالمها تحت الأرض مطموراً ينتظر المنقّبين لتبيان ما خُفي عنا من تاريخها العريق. وإن اسمها «عمريت» أو «العامرة» بالفينيقية لهو خير برهان على كذب إدعاءات من توهّم من أن الفينيقيين لم يعرفوا العمران وانتظروا الاستعمار حتى يدرسوا على يده الهندسة، بينما العكس هو الصحيح، فالموقع «عمريت» يعود بتاريخه إلى الألف الثالث ق. م.، أي إلى ألفين وثلاثمئة سنة قبل أن يتمكّن الإغريق من العمارة الهندسية الحجرية (القرن السابع ق. م.)، فمن يكون معطي من؟ ومن الآخذ

(1) Lévy Strauss, *La pensée sauvage*.، راجع ن. العظمة، ص64.

(2) مدينة «عمريت» أو «ماراتوس» (Marathos) تأسّست في العصر الأموري، في الألف الثالث قبل الميلاد. تنتشر فيها الآثار والأوابد أهمها: معبد فينيقي ذو طابع مميّز وملعب أولمبي يعدّ أقدم المنشآت الرياضية في العالم (راجع: E. Renan, *Mission de Phénicie*, 2 vols, Imprimerie Impériale, Paris, 1864, nvl. éd., Beyrouth, 1997.؛ لبيب بطرس، الرياضة الفينيقية وتأثيرها في نشأة الألعاب الأولمبية، جزءان، بيروت، 1974).

عن من؟ والبناء الحجري في عمريت لا يقتصر على كونه أسلوباً معمارياً فينيقي الطابع وحسب، بل تكمن الأهمّية في مجمل المجمّع العمراني الذي ما زالت آثاره تدلّ على تخطيط هندسي متقن قائم على قياسات هندسية تترجم فكراً وعقيدة معيّنة ودوراً وظيفياً محدّداً، بحيث أن المعبد حضن في وسطه مذبحاً عملاقاً وهي ميزة المعابد السورية النمطية ولا يوجد مثلها في الهندسة اليونانية أو الرومانية. عليه، فالمقارنة بين عمريت وبعلبك واردة، خاصة من حيث وجود المذابح في كلا المجمعيّن، وإنما لا يمكن مقارنة عمريت مع معبد «البارثينون» (Parthénon) اليوناني أو معابد الرومان على الإطلاق.

والمتمعّن جيداً في إسم عمريت التي تحمل اسماً رديفاً وهو «ماراثوث» (Marathos) يقال إنه اسمها «اليوناني»، لا يمكن أن يغيب عن فكره إسمٌ شبيه ألا وهو «ماراثون» (Marathon) باليونان وهي منطقة إرتبط اسمها بالماراثون كونه اختبار رياضي شاق في فئة ألعاب القوى يكمن في الركض لمسافة 42,195 كيلومتراً، وهو جزء من الألعاب الأولمبية[1]. وارتبط المكان بالقصة التي انطلقت منه ومفادها أنه في العام (490 ق. م.)، نشبت معركة «ماراثون» بين اليونانيين والفرس في منطقة «ماراثون» باليونان، وبعد صراع طويل، إنتصر الإغريق على الفرس، وعلى أثر هذا الإنتصار خرج شخص من المقاتلين اليونان اسمه «فيديبيدس» وجرى مسافة قدرها 40 كيلومتراً من بلدة «ماراثون» إلى أثينا ليخبر أهلها أنهم انتصروا على الفرس وما كاد يخبرهم حتى مات من التعب والإرهاق. وقد سمّي سباق «الماراثون» بهذا الاسم تيمّناً ببلدة هذا العسكري الذي قطع كلّ هذه المسافة من أجل أن يُخبر أبناء بلدته أنهم انتصروا على الفرس[2].

غير أنه لنا رأي آخر خاص، مخالف لهذه القصة التي دخلت التاريخ وفُرضت علينا

---

(1) يقال إن البداية الفعلية للألعاب الأولمبية القديمة كانت مرتبطة بالأساطير الدينية والميثولوجيا الإغريقية، وتشير السجلات إلى أن إقامة أوّل ألعاب أولمبية جرت العام (776 ق. م.) في مدينة «أولمبيا» باليونان وإليها تنتسب الألعاب.

(2) وأقيمت أوّل بطولة للألعاب الأولمبية العام (1896م) في اليونان، وكانت رياضة «الماراثون» من الألعاب الأساسية في الأولمبياد. وكان السباق يبدأ من جسر قرية «ماراثون» إلى أثينا وهي نفس المسافة التي قطعها «فيديبيدس». وقد حصل على الميدالية الذهبية العدّاء اليوناني «سبيريدون لويس» (1873 – 1940)، الذي سمّي ملعب أثينا الأولمبي باسمه (إستاد سبيروس)، وقد قطع المسافة في ساعتين و58 دقيقة و50 ثانية. («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

كما الآلاف من القصص الأخرى المعتمدة دونما تحقيق، فالدارس المتعمّق بعلم الآثار والتاريخ واستناداً إلى المعطيات العلمية المتوفّرة لديه، وإن لم تتوفّر لجأ إلى منهج المقارنة، يستدل على الحقيقة منطقياً، إنطلاقاً من معطى منهجي، واضح ألا وهو أسبقية الحضارة ومن يتأثر بمن. فإذا عدنا إلى مدينة «عمريت» السورية لوجدنا أنها تضمّ بين آثارها العمارنية الملعب الأولمبي الأقدم بين مناطق الحوض الأبيض المتوسط، أي أنه يسبق بأكثر من ألفي سنة كلّ الملاعب والألعاب الأولمبية كافة بما فيها حادثة «ماراثون» نفسها. ولا ننسى من جملة ما ذكرنا آنفاً معطى آخر وهو الاسم الرديف لعمريت ألا وهو «ماراثوث» (Marathos) القريب جداً من لفظ «مارثون» والمتداول أنه يوناني التسمية. وهذا ما نرفضه فهو فينيقي بامتياز وقد لُفظ محرّفاً على لسان الغرباء فأسقط حرف (ع) الثقيل على لسانهم وأهمل فأصبحت «عمريت» «مريث» ثم «مراثوث» وهكذا تباعاً حتى فُقِد اللفظ الأساسي.

وثمة سؤال يُطرح بإلحاح في هذا السياق: هل هي صدفة أن يكون اسم «عمريت» الفينيقية حاملاً لدلالتين شبيهتين بالاسم «ماراثون» اليوناني، أي باللفظ والمضمون؟ فكلاهما تلفظان بالطريقة نفسها وكلاهما منطقتان تفيدان الألعاب الرياضية، وتأتي الإجابة لتدعم الحقيقة البيّنة والتي مفادها أن عمريت الفينيقية هي الأم الكبرى المؤسِّسة لماراثون الإغريقية وما وجود الملعب الأولمبي فيها إلاّ البرهان عن طابعها الرياضي المهم، ما يجعلها المدينة الرياضية الأقدم[1] في كلّ حوض البحر الأبيض المتوسط وهذا منطقي إذا ما نظرنا إلى تاريخها السحيق وقارنّاه مع تاريخ مدينة «ماراثون» اليونانية الحديث جداً بالنسبة لها. وما بيّناه، بفضل تحليل اسم المكان، يبرهن أن أصل ونشأة الألعاب الرياضية وتسمياتها عديدة بحسب المدينة التي كانت تنظّمها وتستضيفها ومن بينها مدينة «أولمب» التي أعطت تسمية (الألعاب الأولمبية)، كان في فينيقيا على الساحل السوري، وكانت ناشطة جداً بدليل وجود أكثر من مدينة ساحلية رياضية الطابع (صور وإنطاكية مثلاً) ما يعني أن هكذا نشاطات كان طابعها ليس دينياً تذكارياً تقام

(1) لا نستثني أختها مدينة صور الساحلية وهي كذلك من أهم المدن الرياضية الفينيقية وأكبرها وتضمّ أيضاً ملعباً هو الأكبر بين كلّ ملاعب العالم القديم. راجع: لبيب بطرس، الرياضة الفينيقية وتأثيرها في نشأة الألعاب الأولمبية، جزءان، بيروت، 1974.

فصلياً على شرف الآلهة[1] وحسب، وإنما كان تنافسياً شديداً وربما سياسياً أيضاً، ما استدعى تشييد العديد من الأماكن المتخصّصة بالرياضة، تحديداً على الساحل لسهولة الوصول إليها ومغادرتها بغية استضافة المتبارين الوافدين من كلّ أصقاع العالم القديم من أجل المنافسة والتصدّر إلى مرتبة الأبطال والحصول على الشرف والغار والدخول في سجلات العظماء.

وهذا يعكس مستوى حضاري راقي ورفيع جداً وصلت إليه الدولة الفينيقية-السورية باكراً جداً أي منذ الألف الثالث ق.م. أي قبل كلّ دولة أخرى لاحقة. هذا الازدهار والتطوّر يعكسه التوسّع والانتشار، فمن المعروف أنه حين تتطوّر الأمم تسعى إلى التوسّع إلى خارج حدودها، في حركة طبيعية عرفتها كلّ الدول التي أصبحت إمبراطوريات كبرى. وتأتي أسماء الأماكن مرّة أخرى لتدعم رأينا وتبرهنه بالدليل المنطقي، فالباحث المدقّق، حين يفنّد الخرائط الجغرافية وهو على يقين من أهمّية أسماء الأماكن وما تحمله من فحوى حضاري وثقافي مهم وما تدلّ عليه من براهين وأدلة صارخة، لا بدّ أن تسترعيه تلك الأسماء مثل: «مراثا» (Maratha) في اليونان؛ «عموراث» (Amurath) بين دجلة والفرات؛ «مارثون» (Marthon) في «شارونت»، فرنسا؛ «مارثا» (Martha) و«مراثوث» (Marathos) في جزيرة كريت... واللائحة تطول وكلّ هذه الأماكن نحن على يقين أن الفينيقيين السوريين، وتحديداً، برأينا دائماً، أهل «عمريت» هم من أسّسوا تلك الأماكن من مدن وغيرها وتباعاً عبر الزمن. وإلاّ ما تفسيرنا لتشابه تلك الأسماء التي لا يعرف لها الغرب من معنى ولا تفسّر إلاّ على ضوء اللغة الفينيقية؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كيف يُبرهن على الانتشار الفينيقي الذي نسمع ونقرأ عنه بكثرة من أن الفينيقيين أسّسوا المدن وجابوا البحار واكتشفوا الأماكن في كلّ أنحاء المعمورة، إن لم تأت أسماء تلك الأماكن لتبرهن على صحّة ما نقله المؤرّخون؟ ألا تكفي الأسماء دليلاً أكيداً على ذلك؟ وإذ كان إسم واحد لا يكفي دليلاً قاطعاً، حيث أن سنونو واحد لا يعني أن الربيع حلّ كما يقول المثل، فماذا عن عدد كبير من الأسماء المنتشرة في حوض البحر المتوسط؟ من هنا وجوب دعم النظرية بأكثر من اسم، فكيف

(1) يدخل في التركيبة اللغوية لمراثوس كلمة «ثيو» (theo) التي تعني «إله» وهو المدبّر، المنظّم، والتنظيم هي وظيفة الآلهة لدى الفينيقيين (Hérodote, *Hist*., 2: 52).

إذا كانت عشرات الأسماء تبرهن على ما تقدّمنا به ؟[1]

وأيضاً من حيث تحليل الاسم «عمريت»، تبيّن لنا أنه يتضمّن قيمة تاريخية كبرى لأنه يدلّ على مرحلة زمنية ذات صلة بقوم طبعوا الحضارة ببصمتهم، حتى سميّت المرحلة باسمهم، ولعلّ «عمريت» كانت عاصمتهم الساحلية، وهؤلاء كانوا العمّوريون أو الأموريون بلفظ العين ألفاً (ع = أ/ A) وبرأينا، لتعذّر لفظها على الأجنبي الذي دوّن، وهو الإغريقي غالباً، معلومات عنهم، وبفضله تعرّفنا عليهم. وعُرفوا بأسماء مختلفة ولكن كلّها متشابهة تفيد اللفظ والمعنى: العمّوريون أو الأموريون أو العمورو باللغات السامية والمارتو باللغة السومرية، وهم مجموعة من الأقوام السامية (المشرقية) تشير أقدم المصادر المسمارية إلى أنهم بدأوا، منذ نهاية الألف الثالث ق.م.، بالانتشار في حواضر بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام على شكل موجات، كما انتشروا في مناطق البادية العربية. وهناك مصادر تشير إلى أن «الهكسوس» هم من العموريين الذين هاجروا إلى مصر واستمر حكمهم فيها من العام (1785 إلى 1580 ق.م.) وعُرف إله العموريين باسم «عمورو» وهو إله الصيد والحرب وزوجته «عاشرة» أو «عشتار»، ربّة المسرّات والنشاط وهي عشتروت نفسها. وفي «تل عرقا» في شمال لبنان، وجدت عدّة كتابات بالحبر على آنية وسهم يحمل الكتابة (HS ZKRBL MLK’MR)، أي «ملك ذكربعل ملك أمورو»[2].

يقول أنيس فريحة: «الأموريون هم أقدم شعب سامي إستوطن سورية الكبرى. التوراة تسميهم الشعب الأموري. وقد كثر ورود اسمهم في التوراة حيث ذكر أنهم كانوا سكان فلسطين الأصليين من لبنان إلى حدود مصر. وقد ورد اسمهم أيضاً في النقوش البابلية باشكال مختلفة: أمورو، أماري، مرتو. وقد أصبحت لفظة «مرتو»

---

(1) لقد ذكرنا مراراً أن دراستنا هذه ما هي إلاّ جزء صغير، خصّصناه للمقرر التدريسي الجامعي كما أسلفنا، إستخلصناه من موسوعتنا الواسعة والشاملة عن انتشار أسماء الأماكن السورية - الفينيقية - العربية في العالم، أحصينا فيها آلاف الأسماء وحلّلناها منهجياً، وفاقاً للمعطيات اللغوية والفيلولوجية، والتي أتت نتائجها، تماماً كما مثل «عمريت»، حاملة دلالات وبراهين ثقافية وحضارية مهمة جداً، كفيلة أن تغيّر معلومات خاطئة، موروثة ومكرّرة ومشوّهة للحضارة وللتاريخ وقد آن الأوان لتنقحيها.

(2) *«Dossiers d’Histoire et d’Archéologie consacré aux Phéniciens et la Méditerranée»*, préparé par Maurice Sznycer. Article de Pierre Bordeuil, p.24.

مرادفة للفظة «غرب» لأنهم كانوا إلى الغرب من البابليين. ويسمّي المصريون البلاد الواقعة إلى شرقي فينيقيا (A-ma-ra) ويرد في رسائل «تل العمارنة» إسم آمارا وآمور ويقصدون به سهل البقاع. والرسائل (رقم 42، 44، 50)[1] أشارت إلى أن أمير البقاع هو أمير «أمورو». أما «ويلهاوسن» فيعتقد أن الأموريين هم الكنعانيون»[2]. ويذكر فريحة أن عاصمة الأموريين كانت على الفرات جنوبي مصب الخابور، وكانت تعرف باسم «ماري» (تل الحريري) التي درسها «بارو» (A. Parrot)، عُثر فيها على آجرات حملت نقوشاً أمورية بالخط المسماري البابلي، ولغتها لا تختلف كثيراً عن لغة الآراميين، أي أنها تنتسب إلى الفرع السامي الغربي. ويذكر أيضاً أن من مدنهم «عمريت» (Marathus). وفي الهامش (1) من الصفحة نفسها، يفسّر فريحة إسم «أمور/ أمورو» أنه قد يكون مشتقاً من جذر «أمر» ويفيد «العلو» والارتفاع. ويتابع: «ويقولون في لبنان «أمير»، أي الشجرة الغصن الرئيسي فيها، والذي ينمو ويطول فيصبح «الجذع». وفي الآرامية (Amir) القمة/ الرأس (عامر/ عارم/ عمر/ عرم...) أمير الشجرة بالعامية اللبنانية من جذور فينيقية»[3].

وتأتي أسماء الأماكن العديدة والتي سكنها السوريون، في كلّ أنحاء المعمورة، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، لتدعم رأينا من أن الانتشار الفينيقي حمل معه أسماء أماكنه ونشرها في العالم وهذا دليل أن الفينيقي هو مبتكرها وأوّل من أطلقها على أماكن بلاده. وفي هذا السياق، نحصي عشرات الأسماء التي تحمل جذر «عمر» أو «أمر» أو «حمر»، من مثل («عمورية» و «تل عمريه» في سورية؛ «العمارة»: جبال سود تليها بِراق في الجزيرة العربية؛ «العامرية» في العراق واليمامة؛ «تل العمارنة» (عاصمة الفرعون أختنون في مصر)؛ «دار عمارا» في المغرب؛ «أمارو» في اليابان؛ «أميور» في أندونيسيا؛ «أمارا» في كلّ من العراق، أثيوبيا والنيجر؛ «أمارو مونته» في إيطاليا؛ «حمير» في اليمن...) واللائحة تطول.

وهكذا، بنتيجة التحليل اللفظي والمعنوي لاسم المكان «عمريت»، تبيّن معنا

---

(1) Winckler, *The Tell - Amarna Letters*, Berlin, 1896.

(2) Wellhausen, *Die Composition des Hexateuchs*, II, 34.

(3) أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص XIV.

أهمّية دراسة إسم المكان للإضاءة على الجوانب المظلمة التي لا يستطيع علم الآثار أن ينيرها من دون معطيات رديفة تأتيه من العلوم المساعدة على رأسها الطوبونيميا. حيث استعرضنا لعدّة نقاط مهمة: إسم «عمريت» وارتباطه بالعمارة والهندسة؛ إسم عمريت وارتباطه بالرياضة ونشاطها في المدينة نفسها؛ انتشار الحضارة والثقافة العمريتية إلى خارج حدود المدينة؛ عمريت تنتمي إلى سلالة حاكمة هي العموريين ومملكتهم «عمورو» العريقة. وبعد هذا، هل من داعي لتغييب علم أسماء الأماكن من الدراسات الأثرية والتاريخية والتعتيم عليه؟

الطوبونيميا علم مساعد للطوبوغرافيّة[1] التاريخية

إن أسماء الأماكن لها علاقة وثيقة بعلم الطوبوغرافية التاريخية أو علم «الخطط» كما أسماه الجغرافيون العرب. والطوبوغرافيا هي دراسة القسمات الفيزيائية للمواقع الجغرافية ويشمل ذلك المعالم الطبيعية[2]. ولا بدّ لنا هنا من أن نبينّ أهّمية الطوبولوجيا وعلم الأماكن الذي يمكن أن يستعين بهما علم الطوبوغرافيا، أي وصف الأماكن. كما هو الحال بالظبط من دور الجيولوجيا في علم الجغرافيا. ففي الحاضر كما في السابق، درست الطوبولوجيا أسباب السكن البشري وتأثيراته واستخلصت النتائج. كما تطرّقت إلى الظروف التي شهدت نشأة هذا السكن، النوع والفترة الزمنية والحضارة التي ينتمي إليها وتاريخها. والطوبونيميا والطوبوغرافيا مجتمعتان يمكنهما التوصل إلى اكتشاف الظروف الملائمة والعودة إلى الأسباب الحقيقية والبعيدة في الزمن، بهدف إعادة تشكيل مخطط واضح للحقبات الزمنية التي تهمّنا دراستها، وتشكيل الخطوط العريضة لها، امتدادها الجغرافي والزمني وبالتالي أصولها ومنشئها لكلّ نظام أو دولة – مدينة، ساحلية أو بحرية أو داخلية. فهذان العلمان يقيمان لنا كرونولوجيا ومدّ زمني ومدّ جغرافي

---

(1) طوبوغرافيا (topographie) وهو تمثيل دقيق لسطح الأرض بعناصره الطبيعية والبشرية. هو العلم الذي يبحث في تقنية رفع أي منطقة من الأرض بجميع ما عليها من معالم وتفاصيل سواء كانت طبيعية كالجبال والأنهار والبحيرات، أم صناعية كالمباني والأقنية والطرق والسكك الحديدية وخلافه، ورسم خريطة لهذه المنطقة بنسبة ثابتة، كما في معرفة تضاريس الأرض وارتفاع تقاطعاتها المختلفة وانخفاض بعضها بالنسبة لبعضها الآخر أو بالنسبة لأي مستوى أفقي معلوم ومتخذ لمستوى المقارنة وكذلك في توقيع التصميات لأية مشاريع على الطبيعة إنطلاقاً من تصميات هذه المشاريع وخرائطها.

(2) أحمد الأيش – قتيبة الشهابي، معالم دمشق التاريخية، دارسة تاريخية ولغوية، 1997، ص9.

عاميّن. كما أنهما يستطيعان أن يدخلا في التفاصيل وأن يعيدا إحياء الحياة المحلّية لموقع معين أضحى اليوم خربة وقفراً خالياً. وعندما تنعدم الشواهد الكتابية والأثرية وتبقى نصوص المؤرّخين صامتة، فإن هذين العلمين يساعدان على إعادة إحياء حركة ونشاط الإنسان الذي عاش في بقعة ما، وتبيان نمط معيشته من كلّ نواحيها.

الطوبونيميا والعلوم الجغرافية

يستعان بها في وضع الخرائط القديمة والحديثة، وتحديداً يستعان بالطوبونيميا من حيث معرفة أسماء الأماكن بأشكالها الأصلية بغية وضع تلك الخرائط بدقّة، من هنا الارتباط الوثيق بين العلمين وما يتضمّنه إسم طوبونيميا كأداة تصدير(préfixe) (طوبو topo = صورة – هيئة – تضاريس) هو بادئة كلمة «جغرافيا». والإشكالية الأهم التي تطرح في هذا المضمار الجغرافي هو كيفية كتابة أسماء الأماكن بلغتها الأصلية على الخرائط الطوبوغرافية وفي الوثائق الجغرافية ذات الصلة، وكذلك كيفية نقلها إلى اللغات الأخرى، نقلاً وفيّاً يؤدّي غرض لفظها بأمانة ومن دون أي تحوير أو تغيير[1].

في علم الجغرافيا تحديداً، إن استعمال الطوبونيميا كعلم مساعد يتطلّب دقّة وحذر شديدين، لأنه يمكن أن يكون مصدر أخطاء تفسيرية كثيرة تكون خطيرة في حال لم تعتمد الدقّة من حيث كتابة وتحديد الاسم تحديداً دقيقاً. ومن المعروف أن الجغرافيا تتعاطى مع أسماء الأماكن تعاطياً مباشراً كونها تدرس التضاريس وسطح الأرض والطوبوغرافيا بشكل خاص، فمهمّة وضع الخرائط موكلة إلى المؤسّسات الرسمية الجغرافية (مديرية الشؤون الجغرافية التابعة للجيش في لبنان/ المعهد الجغرافي الوطني I.G.N. في فرنسا...) ورغم التدقيق الكبير الذي يصار إلى تحقيقه في وضع الخرائط الجغرافية، إلاّ أن العديد منها يحتوي على أخطاء وهفوات لا يمكن تداركها على الفور، من هنا وجوب العمل على مراجعات متواصلة وتدقيقات متلاحقة ومن هنا وجوب الإصدارات المستمرّة المنقّحة، فمن الممكن أن يكون هناك أسماء قد أزيلت عن مكان ما وأخرى أضيفت أو استحدثت أو أيضاً أسماء متشابهة لفظياً تنتمي لعدّة مناطق ولكن تكتب بشكل مختلف. لذلك ينبغي أن تتضافر جهود فريق متكامل من العاملين في مجال وضع الخرائط بما فيهم اللغويون والعارفون باللغات القديمة وكذلك الاختصاصيون في

(1) سوف نتعرّض لهذه المسألة الشائكة في الفصل الثاني بالتفصيل.

كلّ من علم الآثار والتاريخ للإستفادة من خبراتهم في قراءة المواقع القديمة واللجوء إلى المقارانات مع مواقع ذات أسماء شبيهة ومتماثلة من حيث الحضارة والحقبة التاريخية بغية معرفة نسبة الاسم بدقّة . فمثلاً ، تحتوي أسماء أماكن عديدة فرنسية وألمانية على اللاحقة الحرفية «آنج» (suffixe-ange) وتنسب عادة إلى الحضارة الغالو - رومانية (من القرن الأوّل ق. م. إلى القرن الرابع م) وهي فترة تاريخية خاصة بتاريخ فرنسا ، ولكن لها كذلك أصول جرمانية تاريخية تعود إلى القرون الوسطى ، ومن الدارسين من يقول إن هناك علاقة وثيقة بين الثقافتين الغالية والجرمانية وقد تلاقحتا في الماضي (القرن الرابع م) ، فمثلاً ، إسما المكان (Boulange = Bollingen) يتحدّران من أصل أونوماستيكي واحد هو (Bol + ange) ما يدلّ على أصل عائلة واحد تفرّعت بين فرنسا وسويسرا[1] ، من هنا وجوب تحديد الفترة والحضارة حتى لا يحدث التباس في كتابة ولفظ الإسم ، وهنا تتضافر جهود اللغوي والأثري والمؤرّخ قبل أن يعتمدها الجغرافي ويثبتها في الخريطة التي يضعها .

الطوبونيميا علم مساعد للعلوم التاريخية

إن الطوبونيميا والأنثروبونيميا (Anthroponymie) أي دراسة أسماء الأشخاص تعتبران جزءاً من علم آخر مساعد لعلم الآثار ، هو علم أسماء العَلم أو الأونوماستيكا . ومن خلال اسم شخص ما ، قائد ، فاتح ، ملك منقوش على عملة نقدية أو على لوحة مثلاً ، نقرأ تاريخ السلالات والعائلات القديمة التي لعبت دوراً في الأحداث الماضية . من هنا وجوب الاعتماد على أسماء الأماكن في تصويب التاريخ المحرّف ، كون الأقوياء هم دائماً الذين يكتبون التاريخ فيكون لصالحهم ، فالمغلوب مغلوب على أمره فكيف يكتب عن نفسه ؟ ويساعد علم الأسماء على ملء الثغرات والفجوات وهي كثيرة في التاريخ وبهكذا عملية يمكن الوصول إلى تسلسل زمني كرونولوجي يضع بواسطته المؤرّخ النقاط على الحروف بدقّة ، وهذه الفجوات التاريخية يجب تنقيح مادتها بالاستعانة بكل المواد اللازمة للوصول إلى نتيجة واضحة . ومن أسماء الأماكن ما يفتح الباب واسعاً أمام التاريخ المعتّم عليه ، مثلاً ، لنأخذ منطقة في ليبيا تسمّى «برقة» (المرج اليوم)

---

(1) *Dictionnaire des noms de lieux de France*, Larousse, 1963; La frontière linguistique en Lorraine, Toussaint, 1955; *Dictionnaire topographique de la Moselle*, Bouteiller, 1874.

ومنهم من يكتبها «بركا» أو «باركي»، ويقال إن هذا الاسم قرطاجي - فينيقي ويرتبط باسم عائلة «هميلكار برقا»[1]، والد حنا بعل، القائد القرطاجي الكبير (يلفظ لاتينياً Hannibal/ هنيبل)، فتكون عائلة برقا إذن هي من أسّس مدينة «برقا» تيمّناً بالعائلة الكبرى في وطنها الأم سورية وتكريماً لهم. والمعروف أن القرطاجيين كانوا من أكثر الأقوام الفينيقية استكشافاً وتمديناً للمناطق في حوض المتوسط خاصة شمالي إفريقيا وكذلك في غربي المتوسط كلّه، وقد استوطنوا في أماكن عديدة أطلقوا عليها أسماء آلهتهم وقادتهم الفينيقيين الأصلية التي لها ارتباط بالوطن الأم سورية، حيث يوجد الاسم «برقة» و«بريقة» في بلدات عديدة منها (سورية/ لبنان/ اليمن/ العراق/ فلسطين...) ويتكرّر مرّات عديدة وبأشكال مختلفة وهو يحمل معنى البرق ومعناه واضح. ولهذا الاسم «برقة» من الدلالة ما هو كبير في معرفة تاريخ هذه البلدة الليبية بشكل خاص وتاريخ ليبيا بشكل عام. وليبيا، في هذا السياق التاريخي العام، لا تقتصر على الدولة التي وضعت حدودها معاهدة «سايكس - بيكو» (1916)، بل هي المنطقة الواقعة شمال إفريقيا كلّها والتي كان يطلق عليها إسم «ليبيا» كما حدّدها المؤرّخون القدامى[2]. وذلك يدحض ادعاءات موجة من المؤرّخين الليبيين الجدد المتطرّفين والمعادين لكلّ ارتباط بالفينيقيين، لا بل وبكل حضارة أساساً، وكأنهم لو أتوا من الفراغ لكان مجد لهم ومفخرة أكثر من ارتباطهم بأمّة عريقة الحضارة. وهذا يدلّ على مدى التردّي العربي الحديث الذي يتفشىّ تفشّي الطاعون؛ ويكثر أمثال هؤلاء من الذين يسوّقون ادعاءات باطلة ومجحفة بحق حضارتهم وتاريخهم، مرتكزين على ما يقوله أعداء الأمّة القدامى والجدد. ونقول بؤساً! لهولاء الذين يتبنّون أقوال المستعمر بدل البحث عن هوية مشتركة ترفع من شأنهم حضارياً، معارضين بذلك أبناء أمّتهم وجلدتهم لمجرّد رفض الاتحاد معهم في الانتماء إلى قومية واحدة! يقول أحدهم[3]، وما يقوله غريب ولا يمت للمنطق بصلة: «ليس

(1) غوليام ناردوتشي، استيطان برقة قديماً وحديثاً (ترجمة إبراهيم أحمد المهدوي)، ص 63.

(2) ذكر المؤرّخ اليوناني «هيرودوتس» في «تاريخه» (Hérodote, *Hist*., II, 16-17-32) أن الليبيين هم أهل شمال إفريقيا، من مصر شرقاً حتى الأطلنتي غرباً، وحذا حذوه الرومان الذين، عندما يتحدّثون عن الليبيين، فإنهم يعنون بذلك الأفارقة. راجع:
(Bates O., *The Eastern Libyans*, London, 1914, p.195).

(3) الناجي منصور الحربي، الليبيون في جيش قرطاجة، 2010، ص 120.

من المؤكّد أن القرطاجيين وصلوا إلى مدينة «باركي»، المرج، فلعل أصحاب هذا الرأي يقولون أنه قرطاجي ويربطونه باسم عائلة هملكار بركا، ويبدو أن ذلك بعيد كلّ البعد عن الواقع، ولا يوجد إلى ما يشير إلى ما ذكره «غوليام ناردوتشي» في كتابه «استيطان برقة قديماً وحديثاً»، الذي من الواضح أن الهدف منه كان دليلاً للمستعمرين الإيطاليين كي يتعرّفوا على القرى والمدن والمناطق المراد استيطانها . . .»

وهنا نتساءل: ما هذا المنطق الذي يسوّقه هذا الباحث؟ وما هذه الادعاءات المغلوطة وما الهدف منها؟ أفلا كان من الممكن أن يؤخذ كتاب «ناردوتشي» لهكذا أهداف استيطانية من دون أن يذكر بلدة برقة وينسبها إلى عائلة برقة القرطاجية؟ ما تأثير ذلك في الاستيطان الإيطالي الحديث من عدمه؟ إلاّ إذا كان الباحث يضمر النيّة السيئة معتبراً أن عائلة برقة هي إيطالية الأصل وبهذا تشرّع الحجّة للإيطاليين لاسترجاع أراضيهم القديمة في المستوطنات على غرار اليهود في «أرض الميعاد»، ما يعني أن الباحث يصدق أكاذيب اليهود وقد انطلت حيلتهم عليه وعلى أمثاله، وهذه هي الحقيقة المرّة التي يخاف منها، فهو يدرك جيداً أن كلّ إيطاليا كانت قد استوطنتها العائلات الفينيقية ومنهم عائلة برقا (ما زالت العائلة موجودة وتلفظ (Borgia) وكان منهم أحد الباباوات (Rodrigo de Borja, Alexandre VI (1431-1503) منذ زمن بعيد يعود إلى الخروج الأوّل للفينيقيين إلى البحر، حيث اتخذوا سواحل أوروبا الجنوبية وكذلك سواحل شمال إفريقيا كلّها مستوطنات لهم قبل غيرهم من الشعوب. لذا يبيّت مؤرّخنا نواياه تلك وينصح بإهمال كتاب «ناردوتشي» الذي ينعته بالسيء. والباحث في كلّ كتابه يكنّ العداوة للقرطاجيين معتمداً على ما ذكره المؤرّخون اليونان والرومان والذين كانوا أعداء الفينيقيين ووظّفوا للكتابة ضدّهم بطبيعة الحال. ويميّز الليبيين عن القرطاجيين رافضاً الرابط العائلي بينهم رغم اعترافه به مراراً وهذا ما يجعل كتابه مليء بالمتناقضات، فتارة يقرّب بينهم وتارة يبعّد بينهم بحسب أهوائه. ونحن إذ نسوّق هذا المثل فلتبيان أهمّية أسماء الأماكن التي تأتي لتؤكّد عنصر اللغة المشترك والموحّد للقوميات والمنقح للتاريخ، فمجرّد أن القرطاجيين استقروا مع الليبيين على أرض واحدة وتفاعلوا معهم، فقد أصبحوا مشاركين في نفس الحضارة ومتفاعلين ومنصهرين، ثقافياً ولغوياً وعقدياً وفكرياً، بغض النظر عن من أثر ومن تأثر بالآخر، وإلاّ لماذا يدخل الليبيون في جيش قرطاجة ويؤازرونها على أعدائها الإغريق ثم الرومان، ببسالة؟ هل يفضل الباحث العتيد

العبودية والذل لأجداده على العزة والكرامة، فيسوّق أن الليبيين كانوا قد استعبدوا من قبل القرطاجيين؟ وهذا خطأ تاريخي فادح بالطبع، فكلا القوميتين فنيقيتي المنشأ وتشتركان بثقافة واحدة موثقة وبرهاننا على ذلك أن أغلب المؤرّخين يطلقون اسم إفريقي على المواطنين القرطاجيين من دون التفريق بين الليبيين والفينيقيين، ما يدلّ على عملية التمازج والاندماج وصعوبة التمييز بين الشعبين[1].

ليس هذا وحسب، بل ويذهب مثل هؤلاء «المؤرّخون الجدد» إلى نعت كلّ شيء بالأسطورة والخرافة وتالياً إنكار أهمّية الأساطير[2] في الإضاءة على التاريخ، وها هم المفتقدون لكلّ منهج علمي يتناقضون المرّة تلو الأخرى مع نفسهم، فتارة يقولون بأهمّية الأساطير وطوراً يرفضونها وذلك في عملية تأرجح بحسب ما يتلاءم وحاجتهم منها، فعندما تدعم رأياً يؤيّدهم يعتمدونها وعندما تأتي مغايرة لقناعاتهم يرفضونها. وهذا بعيد عن الموضوعية جداً. وهناك عدد كبير من الكتّاب العرب من الذين يعتمدون على هذا النوع من التفكير المحتار، فحين تكون الأسطورة معاكسة لآرائهم يرفضونها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول الناجي الحربي: «وعلى الرغم من أن الأسطورة ترمز إلى حقائق فلسفية (سيد القمني، الأسطورة والتراث، دار سينا للنشر، مصر، 1992، ص21 – 27)، إلاّ أنها تمثل انعكاسات طبيعية مرّة بعد مرّة بصيرورة لا تتوقّف، تصف حقائق تاريخية، فقد ذكر المؤرخ «سيليوس إيتاليكوس» (Silius Italicos, Punica, XIV, 437) في ملحمته التي تجنح كثيراً إلى الخيال، أن موقعة حربية بين الرومان والقرطاجيين قد حدثت في صبراته، ما يرجّح على مكانة الليبيين وأهمّية مدنهم في حروب قرطاجة ومشاركتهم فيها بشكل مباشر»[3]. ما يعني أن صاحبنا يعير للأسطورة مكانة كشاهد تاريخي، في حين أنه، في أكثر من موضع، يعود ويشكّك بصحّتها ويدعو إلى عدم الأخذ بها كحقيقة تاريخية. والمتعارف عليه في المنهج العلمي هو أخذ موقف واحد واعتماده لتجنّب التناقض والبلبلة، كما هو حاصل مع هؤلاء.

---

(1) محمّد مصطفى بازامة، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، منشورات مكتبة قورينا، بنغازي، 1975، ص 31 – 32.

(2) لنا مبحث خاص في هذه الدراسة عن أهمّية دور الأساطير في الإضاءة على أسماء الأماكن.

(3) الناجي منصور الحربي، الليبيون في جيش قرطاجة، 2010، ص 92.

الطوبونيميا علم مساعد لعلم الأساطير

إن دارس المجتمعات القديمة يبحث، بطبيعة الحال، عن أثر اللغة المشتركة وأثرها في السياق الاجتماعي: الأسرة، الجماعة، والقبيلة، وتالياً عن أثر هذه الأشكال الاجتماعية في إفرازات اللغة وجوانبها المتعدّدة. كما يلاحظ أنه، عندما طرأت التحوّلات وشروط العيش الجديدة على المجتمعات القديمة وذلك من خلال التغيّرات وتقدم الثقافة، تموضعت علاقة عملية ومختلفة بين الإنسان ومحيطه، فالمصطلحات اللغوية بما فيها الأسماء مثل أسماء العلم، فقدت هي أيضاً معناها الأصلي، وراحت تتنقل من مكان إلى آخر تدريجياً حسب ما تغيّر من عادات وتصرّفات الناس ولغاتها، فمنه ما بقي ومنه ما تلاشى من عادات وذاكرة الأفراد، وذلك بسبب نشاطات وعادات وأعراف مختلفة طرأت على المجتمعات ففقدت المصطلحات اللغوية القديمة أهمّيتها ومعانيها واستعيض عنها بمصطلحات ومفاهيم جديدة تعبّر عن المتغيّرات الطارئة على المجتمع. والتعابير اللغوية والألسنية أخذت بالتغيير أيضاً لتعبّر عن النشاطات الحديثة. وقد حاول الباحث «أوزنر»، بحسب ما ذكره «كسيرير»[1]، أن يبينّ أن كلّ المفاهيم اللغوية العامة مرّت بالضرورة بمرحلة تمهيدية أوّلية هي مرحلة الميثولوجيا، فكان أن أغلب أسماء الأمكنة أخذت أسماء آلهة لأن القدماء لم يفكروا بمعزل عن الفكر الديني. من هنا أهمّية مرحلة الميثولوجيا المرتبطة بالآلهة والظواهر الغيبية والأساطير التي تنسب إليهم والتي ركّز عليها قديماً الفلاسفة وحديثاً علماء الاجتماع، وأبرزهم مؤسّس علم الاجتماع الغربي[2]، الفرنسي «أوغست كومت» (Auguste Comte 1798-1857). ومن هنا أهمّية اعتماد الأنتروبولوجيا والإثنولوجيا في دراسة اللغة ومشتقاتها والفروع الألسنية المتحدّرة منها في دراستنا لأسماء الأماكن وعلاقتها بالميثولوجيا أي علم الأساطير[3] كعلم مساعد لها.

في الواقع، إن الولوج إلى عالم الأساطير من باب الأسماء تحديداً، إسم المكان أو إسم البطل أو القديس أو الشفيع الذي بقي متداولاً في موضع ما والتعمّق في سيرة حياته،

---

(1) E. Cassirer, *Langages et mythes*, p. 31.

(2) بالنسبة للمشرق العربي، يبقى ابن خلدون هو المؤسّس الأكبر لعلم الاجتماع وواضع أسسه المنهجية وعنه نقل من لحق.

(3) تُدرس الأساطير من حيث أنها علم قائم بحدّ ذاته، ومادة مقرّرة في التعليم الجامعي اليوم (قسم الفنون والآثار)، والجدير بالذكر أن تدريسها يتطلّب الاختصاص والتعمّق في التحليل المنهجي.

يمدّنا بكم هائل من المعلومات من حيث أنها قصص قديمة نقلت إلينا عبر التواتر الشفهي أو التراث المكتوب. والتعرّف عليها ليس بالأمر المستعصي على أحد والكل يفقه معنى تلك القصص والعبر والحكم التي تنطوي عليها. والعودة إلى الأساطير وما تحويه من أسماء لأماكن مندثرة أو ما زالت موجودة، معروفة أو مجهولة، ترفدنا أيضاً بأسماء شخصياتها وأبطالها الرئيسيين أو أسماء الشخصيات الثانوية وأسماء المخلوقات التي تتحدّث عنها من عفاريت وجن وطيور غريبة وحيوانات عجيبة وأيضاً بأسماء مخلوقات خرافية من مثل طائر الفينيق وأبو الهول والنسر المجنّح أو الحصان المجنّح أو المخلوقات البحرية من حوريات وغيلان وغيرها الكثير، وهذه الأسماء تحفل بها الميثولوجيا الإغريقية إلى أبعد الحدود، وكلّها تضعنا على سكك المعرفة القديمة وتؤدّي دراستها إلى معرفة رموز ومعاني تلك الأسماء ودلالاتها، لذلك، تلك الأسماء ينبغي أن تخضع للتحليل والمعالجة المتأنّية، المرتكزة على مناهج دراسة الأسطورة وتفكيك ألغازها وأسراراها تباعاً وإزالة الشوائب المتكدّسة فوقها وتنقيحها من العناصر الخرافية حتى تعود إلى أصولها كقصة تاريخية واقعية تمتُّ للحقيقة بصلة، فلا تبقى من عالم الغيب والخيال.

والأسطورة مرتبطة إرتباطاً وثيقاً ومباشراً بالمناطق والأماكن والبلدات والمدن، فلكلِّ مكانٍ قصتُه وحكايتُه الخاصة التي تُروى على ألسنة كبار السن، يتناقلها السكان المحليون من سلف إلى خلف، فيخبرون القصص التي سمعوها من أجدادهم، إبتداءً من اسم المحلّة إلى أسماء أماكنها المختلفة ومواضعها السرية كالمغاور وما تحتويه من كنوز ورصد وغيلان وعفاريت، إلخ . . . . وغالباً ما يحللون اسم المنطقة على ضوء الأسطورة، إذا ما وجدت أو العكس صحيح، فإن لم توجد أوجدوها بفعل خيالهم[1]، وتكاد لا تخلو بلدة من قصة يرويها المحليون تتصل بعالم الخيال بالدرجة الأولى. وإن كلّ المعالجات من قبل الباحث تدخل في إطار إغناء البحث الأثري الضارب بجذوره في عمق التاريخ ما يسمح بجلاء حقيقة المواقع والأماكن وتفسير أسمائها شرط أن تؤخذ هذه الأمور على محمل الجدّ وأن يكون التعامل معها كما تستحق العلوم والمعرفة من تعاطٍ منهجي، مدروس ومتين البنية العلمية.

(1) مثلاً، عندما يُسأل أهل بلدة «بياقوت» اللبنانية عن معنى اسمها، يجيبون أنه كانت بلدتهم مملكة عاشت فيها ملكة اسمها ياقوت، ويبرهنون عن وجود قصرها من خلال باب دهليز طُمر اليوم تحت الأبنية والعمارات الحديثة.

في الواقع، إن نشأة الأسطورة مرتبط إرتباطاً وثيقاً بنشأة المدن والعكس صحيح، بل يمكننا القول إن العمران والمدنيّة هما أساس الأسطورة، لذا فإن الأسطورة في أصلها ملك أصحاب العمران والبنيان، ففي البلاد العربية، نسمع عن مدينة موغلة في القدم لكنها مجهولة وغامضة اسمها «إرم ذات العماد»[1]، وأنها أوّل من شيّدت فيها الأعمدة[2]. ويردنا عن الإسكندرية أن شدّاد بن عاد هو الذي بناها قبل أن يعيد بناءها «الإسكندر الكبير»[3]. ونسمع أن مدينة الحضر التي قامت في أطراف شبه الجزيرة العربية، مهّدت لقيام المدن على ضفاف الأنهار والوديان الخصبة، وماذا نقول عن عشرات المواقع التي تعود إلى ما قبل التاريخ في المشرق العربي؟ وقامت حول نشأة المدن أساطير في الشرق والغرب وظهرت ملاحم نتيجة رحلات أسطورية تسفر عن وجود مدن في إيطاليا وليبيا مثلاً، وتؤلف أعمال هرقل بطل مقاطعة «دوريد» (Doride) وهي ملحمة غير مكتوبة تتضمّن أساطير محلّية لبلاد «البيلوبونيز» اليونانية من «أرجوس» إلى «أولمبيا»، وغالباً ما انبثقت خرافات اليونان وأساطير الرومان وقصص أوروبا القرطوسية من أطلال مهيبة[4].

والخرافة أو الأسطورة ولدت نتيجة نقل خاطيء أو محوّر أو بأسلوب مبالغ فيه، تضمّنت أحداثاً تاريخية بَعُدتْ في الزمن فتناقلتها الألسنة أو كتبت بطريقة مضخّمة

---

(1) إرَم ذات العماد هي مدينة مفقودة (قد تكون قبيلة) ذكرت في سورة «الفجر» في القرآن الكريم، الآية 7 – 8 ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝﴾. ويقال (إرمَ) ذات العمادِ تقع في اليمن بين مدينتي حَضْرَمَوْتَ وصنعاء، والتي قام ببنائها شدَّاد ابنُ عاد.

(2) قال عبدالله بن إبراهيم البيز (مستشار في الهندسة) في محاضرة له حول العمران في إرم ذات العماد: «فعند ذِكر (العماد) يجب أن تذكر معها خصائص المنطقة التضاريسية وكيفية التعامل معها إنشائياً فلذلك رفعوا صروح البناء بأعمدة لتعلو فوق مستوى الرمال لتعطي فرصة لحركة الرمال من تحتها دون أن تتأثر المباني بحركتها الدائمة، وكذلك لتوحي بالقوة والمنعة. وهو تميّز فريد لقوم عاد في العمارة والهندسة... إن (العِمَاد) التي لم يسبق أن استخدمت في التشييد والعمارة من قبل هي التي لم يخلق مثلها... وإن قوم عاد هم أوّل من ابتكروا واستخدموا نظام الأعمدة في البناء والهندسة حيث كانت العمارة في تلك الحقبة تعتمد على البساطة في البناء التقليدي والتكهيف، ولهذا ذكرها الله بذات العماد عن سائر المدن»، (عن مجلّة الرياض، بتاريخ 22 يناير، 2014).

(3) ابن سعيد الأندلسي، «نشوء الطرب في أخبار جاهلية العرب»، 26 – 28.

(4) أحمد كمال زكي، الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، ط2، دار العودة، بيروت، 1979، ص 105.

وصار يشوب الغموض شخصياتها الحقيقية وأسماءهم وأماكنهم لأن الزمن كفيل أن يمحو ذكراهم، وبقيت الأسطورة كوسيلة وحيدة للتعرّف ثانية إليهم، من هنا وجوب فك رموزها وإجلاء الشوائب العائدة إلى الترجمات الخاطئة وما تراكم فوقها عبر السنين من مغالطات وخيالات. ولا ننسى أن الأسطورة تنقل عن أسطورة أسبق والخرافة عن خرافة أقدم، ما يجعل من عملية كشف النقاب عملية أشبه بالتنقيب الأثري للوصول إلى الطبقة الأولى التي هي أساس كلّ الطبقات الأخرى، فهي إذن عملية فك رموز ومن هنا تعقيدها ومكمن أهمّيتها التاريخية، لأن الأسطورة وثيقة ثقيلة جداً، كونها تحمل التاريخ في طيّاتها وهذا ما يجعل التطرّق إليها شديد الدقة، بحيث لا يجب الاستهانة بمعطياتها ومعالجتها معالجة علمية بحتة ترتكز على كمٍّ من المعطيات (اللغويّة والفيلولوجيّة والإيتيمولوجيّة والإثنولوجيّة والأنثروبولوجيّة والأثريّة والكتابيّة والماديّة...) وكون كلّ الأساطير لم تأتنا مكتوبة بل بمجملها وردتنا عبر التوارث الشفوي، فإنه من هنا كان اعتمادنا الأوّل على اللغة واللغة العربية تحديداً، بما فيها من تعدّد لهجات ولكنات ولا نهمل مقارنتها مع لغات أخرى على تعدّد لهجاتها. ومن هنا وجوب العودة إلى لغة أصل هي اللغة الأم مرّ عليها الزمن وعرفت التطوّر عبر آلاف السنين، وكانت المفاجأة من خلال بحثنا الطويل أن هذه اللغة الأم ما زالت موجودة بكل ألقها وهي اللغة العربية، أصل كلّ اللغات، أقله لغات العالم المتوسطي.

إذن، الأسطورة في فحواها اللغوي، هي عملية تنقيب من أجل العودة إلى الجذور والأصول وقد أكدت جهودنا أن لغتنا بطواعيتها وحيويتها استطاعت أن تستوعب كلّ ما تتضمّنه ثقافة شعب أو جماعة من جوانب. كما وتبيّن لنا أن النقل عن الثقافة العربية كان وظل مستمراً عبر كلّ الأزمنة ولم يتوقّف حتى الآن. قد يبدو ما وصلنا إليه من استنتاجات غريباً للبعض وهم طبعاً معذورون ليس فقط لعدم إلمامهم بالموضوع أو لأن الأغلبية لم يكرسوا وقتهم لدراسته أو لعدم الاهتمام بهكذا موضوعات بالأساس، لأنها باعتباراتهم لا تقوم على برهان أكيد، فكلّ من اللغة والأسطورة من العلوم النظرية برأيهم، أو أنهم يرون أنه لا جدوى منها، ونحن نقول بل لعدم استطاعة العقل العربي بشكل عام، وهم جزء كبير منه، تصوّر أهمّية حضارته واللغة عمادها الأوّل والأسطورة عمادها الثاني، لأن هذا العقل قد طمس منذ قرون طويلة في مجاهل الغيب وما برز من عقل عربي اليوم هو العقل المستعمَر الذي وظّفه الاستعمار وجعله مادة إستهلاكية بحتة

وظيفتها تفسير الأمور من منطلق ما يملى عليها من دون أي داعي لتشغيل خلايا هذا العقل وانشغالها بشيء آخر غير تحليلي الطابع .

وهنا يدخل علم النفس على خط دراستنا ، لذا علينا العودة إلى الوجدان وهو نقطة الانطلاق التي انطلقنا نحن نفسنا منها ، لأن في وجدان هذا العقل العربي المغيّب شيء مدفون تحت طبقات من الثقافات المشوّهة . هذا الإحساس الكامن يشعر به كلّ عربي إذا ما دغدغنا له إحساسه ، فكان علينا واجب إيقاظ الشعور بالثقافة العربية المهملة وكان دورنا كما التيار الكهربائي الذي يثير الآلة فتضيء . وكان لزاماً علينا أن نطهّر دماغنا ونفسنا من كلّ الشوائب الاستعمارية والتعاطي مع حضارتنا وخاصة مع لغتنا وثقافتنا ، وهي ذلك الوجدان الذي عنيناه ، من منطلق صافي ومنزّه ، بل قل من منطلق عاطفي ، وقد يبدو هذا الأمر للبعض بعيداً عن الأسلوب العلمي ، ولكن العكس هو الصحيح لأننا نعني بوجداني وعاطفي هنا معنى المنطق الخالص الصافي ، المنطلق من المعطى الثقافي المجرّد من كلّ إضافة ، أي العودة إلى السجية اللغوية والفكرية للعقل العربي والذي تعزّزه العودة إلى الاهتمام باللهجات المتنوّعة وبالتراث الغني للأقوام العربية ، من دون مؤثرات جانبية وبمعزل عن كلّ تأثير مكتسب أي أكاديمي الطابع أو دخيل ؛ وهو بالنتيجة منهج علمي وفلسفي وهذا مفهوم علم الفيليولوجيا بامتياز والتي تنطلق من فلسفة اللغة وتكوّنها القائم على مستويات مثل المستوى المادي والمعنوي والعملي والاختباري ويتجلّى ذلك في تعدّد المرادفات والمعاني للعبارة الواحدة وفي تعدّد أوجه استعمال الكلمة الواحدة أو تغيّر معناها من خلال المعنى الكامل للجملة أو بحسب المضمون الذي استعملت فيه ، من هنا عبارة مثل «اللعب على الكلام» أو «بدون معنى» وهذا ما تظهره النكتة العفوية والكلام المشفّر أو المرمّز وهي خاصية أهل القانون والمحامين ، أو قراءة ما وراء السطور أو الصور البلاغية ، لغة الشعراء والخطباء وأصحاب المنابر ، وأهمها على الإطلاق الإستعارات البلاغية مثل التشبيه والتورية والأسلوب الرمزي . ولعل عبارة «قراءة الممحي» هي أكثر ما يفسّر ما نقول ، لأننا بالفعل ، في عملنا التنقيبيّ في خضم اللغة والأسطورة هذا ، أشبه بشخص صبّ جلّ اهتماماته على قراءة الممحيّ ، الذي وإن كان موجوداً بصيغة أخرى ، فهو فعلياً ممحيّ من حيث حقيقته ويترتّب علينا إعادة اكتشاف أثره حتى ولو زالت ملامحه كلّياً . وهذا ما نعتقد أن الباحث يتوصّل إلى تحقيقه إذا ما قصد . ولعل الفترة الزمنية من تاريخ العرب والمعروفة خطأ بعبارة مجحفة بحق الحضارة

والثقافة العربية وهي «الجاهلية»، أي فترة ما قبل الإسلام[1] تعدّ من أكثر الحقبات غموضاً في تاريخ العرب وتحتاج للتنقيب على جميع الصعد لإبراز حقائقها المطموسة المعالم وإجلاء ما خُفي عمداً على يد المستعمر قبل أصحاب الأرض أنفسهم، بسبب ما كانت عليه تلك الحقبة من صراعات بين الأقوام العربية والعالم الاستعماري (روما وفارس) قبل زوالهما من الجغرافية العربية على يد الإسلام. لذا يتوجب على الباحث التطهير الذهني والنفسي للتعامل المجرّد من كلّ تبعية فرضتها الانتماءات المختلفة لغير الثقافة العربية، والعودة إلى الوجدان الذي ذكرنا واعتماد كلّ من اللغة وتاريخ العرب الشفوي المعتَبَر أساطير عربية أو جاهلية لا صحّة لها وما هي، في الحقيقة، إلاّ تاريخ العرب. كلّ تلك الجهود ينبغي أن تتضافر من أجل التوصل إلى إعادة كتابة التاريخ العربي الصافي والواضح والمنقّح.

عليه، فإن علم أسماء الأماكن وعلم الأسطورة يعدّان من العلوم المساعدة لعلم الآثار وبالتالي لعلم التاريخ، فعلى ضوء علم الآثار يتمكّن المؤرّخون، بفضل ما يمدّهم به هذا العلم من معلومات جديدة، أن يضعوا المعطيات ويخلصوا إلى النتائج، والتي على ضوئها يحدّدون الأزمان والوقائع، وهذه لا يمكن تبيانها إلاّ من خلال تضافر جهود كلّ تلك العلوم وعلى رأسها علم اللغات الكفيل أن يحلل جذور الأسماء ويدعم المعطيات الأوّلية القابلة أن تصنّف حقائق تاريخية ثابتة وأكيدة يمكن الاعتماد عليها بدقّة. وإننا وعبر الدراسات العديدة وعبر اجتهادات قلّة من الدارسين المتجرّدين من كلّ عصبية وتحيّز، نعلم أن آلهة وأبطال الملاحم والأساطير المشرقية التي أخذت عنها الأساطير الأخرى بمعظمها، كانوا أبطالاً وملوكاً وقادة حقيقيين، عاشوا أمجاداً خلّدتهم وتبوأوا في نظر شعوبهم منصب الأبطال، لا بل ألّهوا في حالات عديدة بعد مماتهم وحيكت حولهم الأساطير والقصص، فجلجامش بطل الملحمة المعروفة باسمه، كان ملكاً سومرياً

---

(1) من المراجع التي لها علاقة بإظهار حضارة ما قبل الإسلام وأساطيرها ومعتقداتها وثقافتها عامة والظروف التي ساهمت بتقييدها والتصنيف فيها، نذكر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (مترجم)؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، 1983 (مترجم)؛ حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، (من دون تاريخ)؛ فرانز روزنطال، علم التاريخ عند المسلمين، (مترجم)، 1983؛ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف مصر، ط4، 1969.

(السلالة الخامسة) حكم مدينة «أور» أو «أوروك» (الورقاء) وعاش في الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والعشرين والسابع والعشرين ق. م. وبعد تأليهه، أصبح واحداً من آلهة العالم السفلي، حيث ورد اسمه في قائمة أسماء الآلهة المكتشفة في مدينة «فارا» في جنوب الرافدين، وكان والداه «لوكلبندا» و«نينسون» مألّهين أيضاً.

وبناءً على ما تقدّم، فإن الأساطير ذات المضامين التاريخية، قلّما تكون واضحة بيّنة في حكايات بعينها وكتبت برمزية أي ليس في قالب سردي واضح بيّن، بل قد تكون، وهذا حالها أغلب الأحيان، ضمنية، خفيّة في الطقوس والعادات اليومية أو حتى في شكل رواسب في الأدب عندما لا تعود الأسطورة محل اعتقاد وتتحجّر في قوالب أدبية[1].

ومن أبرز المؤسّسات التي اعتمدت على الكتب الدينية وعلى العودة إلى التاريخ القديم، حتى المصنّف أسطورياً (مثل التوراة) من أجل غايات استعمارية، المدرسة التوراتية في القدس. لقد ارتأت هذه المدرسة في أبحاثها الطوبونيمية أن أسماء الأماكن الواردة في التوراة ترتكز على حقائق تاريخية[2]، مشى الإكليروس الغربي والشرقي التابع لها على طريق اكتشافها لإثبات حقيقة التوراة وتثبيت مقولة «الشعب المختار» و«أرض الميعاد». ولكن، كان منطلق هذه المدرسة عاطفياً، وجدانياً، دينياً، فلم تعمل بموضوعية علمية بل أعطت الأولويّة للفكرة العقائدية الدينية، فجاءت بعض نتائج دراساتها مبالغاً فيها إلى حدّ الخيال، فمثلاً، راح الرهبان ينشؤون، في مواقع عديدة من فلسطين، مراكز دينية سياحية اعتبروا أنها الأماكن التي مرّ أو نزل أو حلّ فيها الأنبياء والرسل وحتى المسيح، وما زالت إلى اليوم قائمة ومحافظة على ذلك التقليد

(1) محمّد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ص71، يقول في هامش 36: «لا شكّ في وجود علاقة متينة بين الأساطير والأدب. ولكن لنلاحظ منذ الآن أن الأساطير على ما يذكر بعض الدارسين قد تستحيل بعد فقدانها طابع القداسة إلى مواضيع لا قدسية مثل الخرافات والقصص والحكايات العجيبة وما أشبه ذلك (راجع فريدريش فون ديرلاين). وشبيه بهذا عند العرب القدامى النحر عند قبر الميت والدعاء له بالسقيا وقد استمرت مع الأيام في المرثية».

(2) يعارض كمال الصليبيّ هذه المقولة التي ثبّتها الغرب واعتمدها منهجاً، وخرج الباحث العربي بنظرية أخرى إذ جعل تلك الأسماء في الجزيرة العربية وليس في فلسطين في كتابه الشهير «التوراة أتت من الجزيرة العربية» والذي لاقى استهجاناً ورفضاً لا مثيل لهما من قبل العرب، قبل رفض اليهود والغرب نفسهم، ولا يزال الجدل قائماً إلى الأن حول صحّة ما قال.

وباتت مصنّفة على أنها الأماكن الأصلية التي وردت في الكتب المقدسة، ولعلّ خير مثال على ذلك بلدة «قانا» في فلسطين التي ظل الاعتقاد، منذ أواخر القرن الثامن عشر، أنها قانا المذكورة في إنجيل يوحنا، الإصحاح الثاني. ولكن، برز حديثاً وجود آثار في قانا أخرى تقع جنوب لبنان تدلّ الشواهد المحفورة في صخورها من تماثيل أشخاص وكذلك بقايا الأجران في أرضها أنها تعكس ملامح القصة الإنجيلية أكثر من موقع قانا الذي اعتمده الرهبان سابقاً. وأهالي قانا اللبنانية يخبرون أن أجدادهم يتداولون قصة معجزة تحويل الماء إلى خمر، كما تلك المذكورة في الإنجيل والشهيرة بعرس قانا والتي تشكّل أولى «معجزات»[1] يسوع المسيح، وتأتي الشواهد المادية الأثرية الكثيرة الموجودة في الموقع، ومنها وجود معاصر في البلدة، لتدعم هذه الرواية المتناقلة على ألسنة الأهلين. أما فيما يتعلّق بالمنحوتات على الصخور في قانا - صور، فهي لم تفسّر على وجه التأكيد، كما ولم يُعتمد تاريخ دقيق لها يثبت أقدميتها من عدمه، أثرية أم تاريخية، أو أنها معاصرة للسيد المسيح أم لا، فمنهم من يردّها إلى زمن الفينيقيين المتأخر، أي السابق على مجيء السيد المسيح، ومنهم من يقول إنها معاصرة له، ومنهم من يشكّك ويدّعي أنها حديثة المنشأ، إلى ما هنالك من تنوّع الآراء بحيث لم تحسم المسألة علمياً بعد. وقد أعادت المجامع العلمية البحث في هذه المسألة واعتمدت قانا لبنان أنها الموقع الصحيح، ورغم ذلك لم تتخل السلطات الكهنوتية في فلسطين المحتلّة عن موقعها الذي اعتبر أنه قانا الوارد اسمها في الإنجيل، والجدل ما زال قائماً حولها. وممّا لا شكّ فيه أن تسمية الموقع «قانا» تعيد إلى الأذهان الواقعة الإنجيلية كما

---

(1) هذا التعبير «معجزات» محض كنسّي، إيمانّي ولسنا من مؤيّديه، إذ نعدّ السيد المسيح معلماً، ومفكراً وفيلسوفاً ومصلحاً وهو من أوجد الفكر العمليّ، الحياتيّ، الوجوديّ ولم يتكلّم قط بالموارائيات أو بالألغاز، إنما بالأمثال النابعة من صميم الحياة الطبيعية وتراكم الخبرات الإنسانية. يراجع بهذا الخصوص كتاب الدكتور عاطف خليل الحكيم، المسيح المعلّم الثائر. هكذا تكلّم يسوع، المكتبة البولسية، 2010؛ (قمنا بترجمته إلى الفرنسية)، وفيه يعيد الكاتب تفسير أقوال المسيح على ضوء الفكر والمنطق ويوظفها قومياً ووطنياً بما يخدم الأمّة السورية - العربية، مظهراً ثورتها ونضالها بوجه الاحتلال الروماني الجائر. ولا يخلو الكِتاب من التطرق إلى جغرافية الأمّة السورية، أمّة يسوع كما استخلصها من الإنجيل: «فذاع خبره في جميع سورية» (إنجيل متى 4:24)، ما يدحض كل ادعاءات المغرضين والمضللين في تجزئتها على نهج «سايكس - بيكو».

أن المنطقة تدخل في إطار الجغرافيا التي تنقّل فيها يسوع المسيح، بين الجليل وشمال فلسطين ولبنان أي في كلّ سورية، وهذا الأمر ليس بغريب أن يكون أكثر من مكان يحمل نفس الاسم «قانا»، فالمعروف أن هناك أماكن كثيرة تحمل نفس الاسم وذلك على رقعة جغرافية غير متباعدة، والمعروف أن معظم الأسماء الفينيقية - السُريانية لها معاني ومدلولات تعكس مسألة أو وظيفة، لذا يطلق الاسم على أكثر من مكان.
ويمكن الاعتقاد أن نفس الاسم الذي تحمله عدّة أماكن يجعل منها أماكن معاصرة زمنياً، أي أنها تأسّست في زمن تاريخي عرف أحداثاً استدعت هذه التسمية وإن على رقع جغرافية مختلفة، بفعل عامل النزوح أو من أجل التأسيس لاحقاً لموقع بديل إلى ما هنالك من أسباب. والبلدات التي تحمل أسماء متشابهة كثيرة في كلّ من فلسطين ولبنان وسورية مثل (كفريا، بيت لهيا، كفرلهيا، كفرلاتا، مجدليا، عفرين...)

الفصل الثاني

نشأة أسماء الأماكن
ومناهج تحليلها وتفسيرها

في أصل الأسماء

إن أسماء الأماكن، بالعودة إلى مصادرها، تدخل في نطاق التراث الشفوي أو الشفهي الذي لا يمكن إهماله بأي شكل من الأشكال في علم أسماء الأماكن وغيرها من العلوم المساعدة لعلم الآثار والتاريخ، لأنه قبل أن تدرج هذه الأسماء في اللوائح الإدارية الرسمية، أكان بصيغتها العربية أو اللاتينية، أُخذت مباشرة من فم الأهلين، أي السكان المحليين الذين هم أعلم باسم بلدتهم وفاق ما ورثوها عن أسلافهم، مثلاً: «قاع الريم» ومعناها «وادي الغزال»، تلفظ «عَفَرّين» إلى اليوم، وهو اللفظ المحلي الدارج على لسان أهلها وجوارها، بينما أدرج اسمها «قاع الريم» في السجلات الرسمية. وتجدر الإشارة إلى أن «عفرين» إسم منطقة في شمالي سورية وفي فلسطين أيضاً. من هنا وجوب الحفاظ وبشكل «صارم» على أسماء الأماكن بلفظها المحلي أي كما يلفظها أهل البلدة فهي التي تدلّ على تراثها الصحيح المتوارث عبر التقليد الشفوي اللفظي الذي هو أسبق من التراث الكتابي، وذلك قياساً على قاعدة أن اللهجات والمحكيات واللكنات المحلّية سبقت اللغة المكتوبة أي أن اللهجات المحلّية سبقت عملية التدوين الذي يُدرِج اللهجات في خانة اللغة نحواً وصرفاً والمساة العربية الفصحى.

إذن، من المسلّم به أن أسماء الأماكن انتقلت عبر التقليد الشعبي الشفوي المتوارث لدى السكان المحليين (قبل أن تُدرج هذه الأسماء في أرشيف البلديات ووزارة الداخلية المعنيّة بشؤون البلاد والتنظيم الديموغرافي والمُدني)، فالأهلون هم من حفظوا اسم المحلّة بتردادهم الاسم عبر الأجيال المتعاقبة وهم أكثر من يعرفون الاسم الأصلي والصحيح للمحلّة التي يسكنونها والتي ورثوها عن أجدادهم منذ مئات أو آلاف السنين والتي ربما استمروا فيها منذ أقدم العصور. من هنا نجد أن مكان معيّن أو قرية أو ضيعة تحمل في أغلب الأحيان اسمين (أو ربما ثلاثة أسماء مختلفة اللفظ أو ذات لفظ متقارب)، إسماً محلياً يتداوله الأهلون وإسماً رسمياً مسجّلاً في الدوائر الرسمية للبلدية ووزارة الداخلية.

ورغم أن أغلب الدول سعت مؤخّراً إلى توحيد الأسماء الخاصة بمناطقها وذلك تفادياً للمشاكل التي تنتج عن الازدواجية في دوائر القيد ولوائح الشطب في زمن الانتخابات، ووضع الخرائط الجغرافية والطوبوغرافية، تبقى هنالك صعوبات جمّة تعترض تغيير أسماء الأماكن، تماماً كما هو الحال مع تغيير أسماء الأشخاص، خصوصاً من الناحية القانونية إذ يعتبر تغيير الإسم، أياً كان، عملاً قانونياً يحتاج إلى مرسوم خاص

يتطلّب جهوداً كثيرة وطويلة الإجراءات من أجل تحقيقه. وفي لبنان تحديداً، فإن هذه المسألة صعبة جداً لأنه يدخل في قانون الجنسية المعقد أصلاً والذي ما زال مسار بحث وجدل طويلين في البرلمان اللبناني. ولا تخرج أسماء الأماكن عن هذه القاعدة بسبب ارتباط تلك الأسماء باعتبارت شتّى معقّدة، خاصة العائلية والطائفية منها والتوزع الديموغرافي المناطقي للعائلات[1].

وهنا يمكن طرح هذا السؤال: كيف ينسى الأهلون اللفظ كما المعنى الحقيقي لإسم بلدتهم وما السبب في ذلك؟ والجواب ببساطة لأن لكنتهم المحلّية تأثّرت على مرّ السنين بالتغيّرات التي طرأت عليها الألفاظ الدخيلة وأيضاً بسبب فقدان الألفاظ والمفردات بشكل مضطرد وهذا عائد إلى عملية التداخل البشري والتنقل والنزوح والهجرات ووفود جاليات دخيلة على المنطقة والسكن غير المستمر في المكان، وإن الحروب وحدها كفيلة أن تتأثر المنطقة من جراء نتائجها لغوياً وبشكل كبير، ناهيك عن السبب الرئيسي ألا وهو تأثير اللغة الرسمية أي اللغة السيادية أو الأقوى سياسياً والتي تفرض نفسها في عصر سياسي معيّن، فتغلب هذه اللغة حتى تصل لدرجة إزاحة اللغة (اللهجة) الأصلية والحلول مكانها نهائياً.

مراحل (مستويات) نشأة أسماء الأماكن

لا يزال الجدل قائماً بين العلماء الذين أخذوا من مادة علم أسماء الأماكن ميداناً للدراسة والبحث، لا بل هو اليوم على أشدّه حول كيفية نشأة الأسماء الخاصة بكل منطقة بما فيها من أماكن، محلاّت وشوارع إلى ما هنالك. ولعل عدم الاستمرارية في هكذا دراسات متعلّقة بعلم أسماء الأماكن وانقطاعها لفترة ليست بالقليلة من تاريخ العلوم الحديثة، هي التي أفقرت هذه المادة وحرمتها من العديد من الدراسات التي كانت كفيلة بجلاء موضوع نشأة الأسماء ووضوحها، فلم تخرج إلى حيّز الوجود أعمال جديدة أو نظريات متجدّدة حول هذه المسألة المهمة، لهذا السبب ما زلنا إلى اليوم نردّد ما جاء

(1) لعلّنا نحبّذ هذا التعقيد في القرارات بالنسبة لأسماء الأماكن، لإدراكنا أن تغييرها الاعتباطي يؤدّي إلى زوال الأسماء بسهولة وخسارة معلومة تاريخية يمكن أن تساعد الباحث في عمله الدراسي التاريخي تحديداً، والأهم أن تغيير الاسم يفقده أصالته ودلالاته الأساسية التي درجت على ألسنة سكان المكان عبر مئات السنين. ومن الأسماء التي غيّرت نذكر في لبنان على سبيل المثال: بلدة «الفساقين» التي أصبحت «البساتين»، لتعذّر فهم معناها الأصلي وغموضه والاعتقاد أنه سيء الدلالة.

به من سبقنا وما اجتهدوا به حول أسماء الأماكن وكيفية وجودها ولا زلنا نعتمد على مراجع قديمة نسبياً بإيجابياتها وسلبياتها وهي أجنبية في أغلبها والتي، في مسألة الأسماء تحديداً والمرتبطة باللغات المحلّية، تبدو قاصرة عن الإجابة الدقيقة عن هذه الإشكالية، كون العلماء الأجانب، وإن اجتهدوا إلى أبعد حدّ في التفسير، يظلون عاجزين عن الإلمام العميق بكنه اللغات المحلّية ولهجاتها ولكناتها على دقتها. فقط وحده صاحب اللهجة هو الكفيل بمعرفة حيثيات لهجته من دون غيره، من هنا وجوب عدم استبعاد المحكيات لا بل الاهتمام والعناية بها لما تحمله من ضرورة علمية ملحّة. لهذا السبب، وتحديداً فيما يتعلّق بالأسماء العربية، نرى أن الباحث العربي هو الأولى بمعرفة كنه الأسماء وأصولها من الأجنبي حتى ولو تفوّق عليه هذا الأخير في معرفة عدد من اللغات القديمة، المسمّاة ميتة (السامية والهندو – أوروبية على حدّ سواء)[1].

وكوننا باحثين متعمّقين في هذا الموضوع وفي مجال التسميات واللغات القديمة بشكل عام، إعتمدنا منهج قراءة خاص بنا في موضوع نشأة أسماء الأماكن. وما اجتهدنا به عبارة عن استنتاجات متتالية تعتمد على عدّة نقاط ارتكاز موضوعية ومنطقية يمكن لأي

---

(1) اللغات الساميّة أي لغات المشرق القديم (من البابلية إلى العربية)؛ واللغات الهندو – أوروبية تعدّ أم اللغات الأوروبية الحيّة، وتشمل أيضاً بالإضافة إلى اللاتينية والأنغلو – سكسونية، الآرية (الفارسية – الفهلوية) السنسكرستية، التركية، الكردية الأرمنية، السلافية، الهنغارية، الغجربة، التشيكية... والجدير بالملاحظة أن «بيير روسي»، في كتابه «وطن إيزيس، تاريخ العرب الصحيح»، (ترجمة مولود طياب)، الجزائر، 2007، لا يقبل التفريق بين ما هو مشرقي أو عربي بالأحرى حسب المصطلح الأصح برأيه، (وليس الساميّ) وكلّ ما هو أوروبي، فبرأيه، الثقافات كلّها عربية مشرقية في الشرق ومتداخلة ومتقاربة ولا فرق بينها. فيقول ص 13، في رفض واضح منه لنظرية «شلوتزر» الشهيرة (1781) التي قسّم فيها الأقوام ولغاتها على مبدأ العرق الساميّ والحاميّ بحسب ما ورد في التوراة: «كما أن النظرة القائلة بأن الشرق والغرب يتمثّلان ويتميّزان بها لكلّ واحد منهما من لغات هندية أوروبية أو سامية، نظرية خاطئة سواء في مبادئها أو في صيغها... فالعبارة «ساميون» أو «آريون» لا عبرة بهما ولا تدلان على شيء... ولا يوجد إلى يومنا هذا أي شخص ولا أي ثقافة ولا أي مجتمع يدّعي أو يطالب بأنه من أصل سامي أو من أصل آري». وبالنسبة للّغات، يتساءل «روسي» كيف توضع مثلاً اللغة اليونانية وكتابتها في الخانة الهندو – أوروبية وهي من أصول مشرقية – عربية؟ حيث يقول تحديداً: «كيف يمكن لشعب أن يستعير أبجدية شعب آخر، إن لم يكن له صلات به فكرية وثقافية؟» (المرجع نفسه، ص 69). وكذلك يذهب «روسي» إلى أبعد من ذلك إلى حدّ القول: «فاليونانية لغة عربية كما أن العربية لغة يونانية...» (المرجع نفسه).

باحث منهجي التفكير أن يصل إلى نتيجة حتمية إذا ما نهج المنهج التحليلي الموضوع من قبلنا وهذا ما يخوّلنا تفسير الأسماء على ضوء هذا المنهج التسلسلي والذي عموده الفقري ونقطة ارتكازه يقومان على مبدأ أساس وهو أن أسماء الأماكن نشأت في أصلها على مستويات عدّة تباعاً، لا يمكن خلط مراحلها أو قلبها، بل علينا تتبّعها بشكل تسلسلي دقيق، يضعنا على سكّة المنطق، والأهم أننا اعتمدنا كنقطة انطلاق، وبناءً على المعطى التسلسلي التاريخي دائماً، منطقةَ المشرق القديم كونها مهد الحضارات منذ أن بدأ الإنسان عملية الزراعة والاستطيان والاستقرار والانتاج[1]. وأهّمية منهجنا هذا أنه يوظّف أسماء الأماكن بحسب تتابع مراحل تطور الاستقرار والتمدّن وارتقاء الفكر والثقافة مرحلة فمرحلة.

المستوى الجيولوجي - الجغرافي

وهو أساس التسميات كلّها والأسبق برأينا، فمنطقياً تسبق الجيولوجيا والجغرافيا أي المحيط الطبيعي والبيئي كلّ أشكال الحضارة وأعمال البشر، بحكم أن المكوّن الحضاري لاحق على المكوّن الجيولوجي وليس أساساً. ونعني بالجيولوجي - الجغرافي شكل تضاريس الأرض التي عاش عليها الإنسان، فهي تعدّ أولى المعطيات التي أدّت إلى أن يأخذ المكان تسميته الأولى، من هنا التسميات العديدة التي ما زالت المناطق في الشرق تحديداً تحملها مثل (جبلة/ جبيل/ جبالة... رأس الشقعة/ رأس العين/ رأس النبع... جون/ جونيه أي خليج... ضهر الشير/ ضهور الشوير/ ضهر الأحمر/ ضهر البيدر(في كلّ من البقاع والزبداني)... ومثلاً منطقة ذات تسمية مثل (La Rochelle) بفرنسا، تذكّر حكماً بالصخر، وهي أيضاً تسمية عائلة لا شكّ أنها عاشت في المنطقة وأخذت اسمها منها؛ وتكثر أسماء الأماكن التي تتضمّن كلمة (stone) صخر، كما في البلدة الإنكليزية (Stonehenge) وهي من الأماكن الأكثر شهرة سياحياً لضمّها مجمّعاً حجرياً شُيّد بين (2800 - 1100 ق.م.)، ويعود إلى الحقبة الميغاليتية (mégalithique)، أي عمارة الحجارة الكبيرة؛ وفي تنزانيا، هناك (Town Stone) وهي مدينة «زنجبار» الحجرية، وتعني «مدينة الحجر»، لأن بيوتها مبنية من حجارة المرجان البحري، وباللغة السواحلية الإفريقية تسمّى (Mkonge Mij) وتعني «المدينة القديمة».

(1) وذلك ابتداءً من العصر الحجري الحديث (النيوليتي Néolitique) أي قبل 10000 سنة ق.م.

وهنالك أسماء أماكن قديمة جداً تدلّ على البحر أو اليم وهي عربية بالمطلق لفظاً ومعنى وتعكس تأصّل اللغة العربية القديمة وتجزّرها واستمرارها، ما يعزّز الأصول العربية لتلك الحضارات المشرقية ومن ضمنها المصرية القديمة، من تلك الأسماء «الفيوم» واسمها المصري القبطي الأصلي هو «با - يم» (اليم أو البحر) وبالقبطية «بيوم» إشارة إلى البحيرة الكبيرة الواقعة في الفيوم والتي تعرف باسم «مر - ور» أي «البحر الكبير»[1].

وهناك أسماء تحمل اسم التضاريس مثل سهيلة/ سهل الغاب/ سهل البقاع، المرج، المريجات...، أو ساقية مثلاً: رأس السقا/ النبعة (لبنان) أو نهر مثل: نهر إبراهيم، رشميا، الميه والميه (لبنان)... تعود إلى وجود سواقي أو ينابيع أو شلالات مثل (جسر الشغور/ شاغوريت في سورية؛ مشغرة في لبنان وبالسُريانية الشاغور يعني الينبوع[2])، أو ينابيع قوية الدفع أو متفجّرة (جعيتا/ جوعيت في لبنان)، أو مجاري مياه في المنطقة أو المحلّة مثلاً (إسم العاصمة الروسية «موسكو» وتلفظ «موسكفا» بالروسية[3]، واللاحقة «كفا» تعني الماء باللغة الفنلندية)؛ ومنطقة اسمها «أكيتين (Aquitaine)[4] في فرنسا ومعناها «بلاد الماء» (Pays des eaux)، ولفظة (aiguade) الشبيهة تعني الماء؛ ومثلها «بيجي» في العراق والتي تعني «المياه الكثيرة» و«فيجي» أو نبع الفيجي في سورية (من فجّ النبع أو انفجر) وهي مياه شهيرة بفوائدها و«الجيّة» و«الفاكهة» أو «الفاجة» في لبنان و««فجّة» (Fajja) في فلسطين.

وكذلك هناك أسماء تدلّ على الارتفاع والعلو (صعدة، اليمن/ الصعيد، مصر) ومن مثل «المطلة» (لبنان وسورية)، «الأشرفية» (لبنان/ سورية)، «المشيرفة» (لبنان/ سورية)، «المكيشفة» (العراق) و«بئر السماء» أو «زلطين» في ليبيا نسبة لوجوده في مكان منبسط

---

(1) إيمان أحمد العريبي، «مصادر الأسماء الجغرافية المصرية»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

(2) أو النور مجازاً وتسمّى صورة مريم العذراء في صيدنايا بالشاغورة، أي الينبوع أو النور المشع. (الشاغورة هي عبارة عن أيقونة السيّدة العذراء محفوظة في دير صيدنايا في سورية وهي إحدى النسخ الأصلية للأيقونات الأربعة التي رسمها بيده القديس لوقا الرسول والإنجيلي، وتلقب بالسُريانية «شاغورة أو شاهورة» ومعناها «الذائعة الصيت» أو «الشهيرة» («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(3) ومثلها: «دمشق» وتعني «المسقية» (ذا مسقية) ولنا مقال بعنوان «المسقيتان: دمشق وموسكو». (تحت الطبع).

(4) «كي» أو «أكي» هو إله المياه السومري، ولعله أساس كلمة (aqua) أي ماء باللاتينية.

ومفتوح حيث يشعرك بقرب السماء من الأرض. وكذلك سميّت الأماكن بحسب اتجاهها، فمثلاً «أستراليا» تعني «الأرض التي في الجنوب»، ومثلها «أوستريا» (Austria) أي النمسا و «هولندا» (Netherland)، (Pays-bas = Holland) أو الأرض المنخفضة؛ و «الشرقية»، مدينة في مصر.

وتعدّ هذه الأسماء، من حيث ألفاظها ومعانيها المباشرة، الأسهل على الفهم. والملاحظ أنها لم تتغيّر عبر الزمن. وهناك أسماء خاصة بالتربة التي تتميّز بها المنطقة مثل (الصفرا/ الحمرا/ الخضرا/ يحمر/ سحمر/ الحمّارة (لبنان) الحمرا، تل أبيض (سورية)؛ مدينة «السويداء» في سورية نسبة إلى الحجر الأسود البركاني المميّز لأرض حوران؛ قرية «السودا» بالحكسة (سورية)؛ ولعل «السويد» في أوروبا الشمالية سمّيت كذلك لشدة الظلام الذي يكتنفها لمدّة زمنية طويلة في السنة؛ و «السودان» يدلّ على البشرة السوداء للشعوب الإفريقية...) كلّها أسماء تعكس نظرة الإنسان الأولى وملاحظته للبيئة التي اختار السكن فيها أو بجوارها وهذا الإنسان لا شكّ أنه أوّل من وطأت قدمه تلك المنطقة، بدليل التسمية نفسها والتي اعتمدها كلّ من أتوا من بعده وحافظوا عليها. هذا القادم الأوّل نقل ما شاهده من مميّزات جغرافية خاصة بالمنطقة والبيئة الخاصة بها ومناخها وتربتها الخصبة، فأسماها على هذا الأساس الذي فرض نفسه بفضل ميّزاتها الخاصة كالمناخ مثلاً (قارّة، يبرود/ بردى/ براد (سورية)؛ البردوني/ نهر البارد (لبنان)، بوردو (تركيا، فرنسا)؛ جبل الثلاجة (القلمون، لبنان)؛ الثليجة (ليبيا)؛ الحارّة/ الشوف/ الشويفات (لبنان)؛ عين الحرّة (اليمن)؛ السُخنة (سورية). وهناك بلدة «أخميم» المصرية وهي لفظة قبطية قديمة تعني الحرارة أي الحمى...) أو بحسب مواصفاتها الطبيعية المختلفة (منها الحيوانية: العقربة/ العقرب/ العقيربات (لبنان، سورية)؛ تل حنش، تعلبايا، نهر الكلب، اللبوة، وادي الدبّ، الدبيّة؛ نحلة (لبنان)؛ أبو ظبي (الإمارات العربية)؛ رأس البقرة، أم الفار (ليبيا)؛ الغزلاني (العراق)، جبل التيس (اليمن). وهذه التسمية المعبّرة لجزيرة صغيرة في بحيرة «إلوا» (Lac Éloi) في كندا تشبه ظهر الغوريلا الفضي فأعطيت اسمها (Île de Gorille à Dos argenté...)

وإن الطبيعية بعناصرها المتشابهة، تفرض الاسم بصورة عفوية، وهذا ما يفسّر كثرة الأسماء المشتركة والمتشابهة، ففي كلّ المناطق اللبنانية - السورية بالأخص، الريفية والقروية تحديداً، هنالك تسمية مشتركة مثل (رأس العين)، فحيث حلّلنا نسمع برأس

العين وأيضاً (الحمّار، أي الطريق التي يسلكه الحمار صعوداً والذي، أي هذه الدابة، ساهم في شق الطرقات الجبلية بعد الأقدام البشرية التي سلكتها والتي تسمّى «قدومية») والدليل أنه حين نسأل عن اسم الأماكن في بلدة أو قرية أو ريف أو جبل وعن معنى إسم هذه التلة أو المرتفع نسمع نفس الإجابة «الحمّار» التي أصبح معناها مرادفاً للمرتفع الذي يشرف على البلدة أو القرية أو الضيعة في الأسفل[1].

وتجدر الإشارة إلى أن التسميات على أساس التضاريس وهيئة المنطقة الطبيعية ومصادرها الطبيعية لا تنقطع عبر الزمن بل هي عملية مستمرّة، فحيثما حلّ البشر في بقعة ما، لاحظوا بيئتها وطبقّوا عليها الاسم الملائم لأرضها (فالجزيرة لا تسمّى جبلاً، والجبل لا يسمّى ساحلاً وهكذا...). وإن دلّ هذا الأمر على شيء فيدل على أن الإنسان رأى وراقب ولاحظ معالم البيئة وعاينها بدقّة أوّلاً وصار يشار إلى أماكنها على أساس شكلها الجغرافي كالقول مثلاً عندما يبحث أحدهم عن رفقائه: «أين الآخرون؟» يجيبه أحدهم: «حدّ الساقية أو حدّ العين أو حدّ الشير» إلخ...، فتدرج التسمية وتشاع وتعتمد عفوياً بحسب ما تروّج على لسان الأهلين.

جاء في تعريف معجم «غروم»: «أسماء الأماكن العربية في معظمها وصف كلي أو جزئي لماهية المكان المسمّى أو طبيعته أو ما هو مقام (أو كان مقاماً) عليه. وهكذا فإن معرفة المدلول اللغوي للاسم (قديماً وحديثاً) كفيلة بإعطائنا معلومات مهمة عن طوبوغرافية المكان ومعالمه الجغرافية أو البيئة – وفي هذا فائدة جلى للمتخصّصين من جغرافيين وجيولوجيين ومسّاحين ومهندسين وسواهم من العلماء والطلاّب المهتمّين بدراسات الأرض والمياه والزراعة والمعادن والآثار، ويلاحظ ذلك في أسماء الأماكن، من مثل: (إربد، أورفة، برقة، جدّة، الجمهور، الرقّة، الرملة، الرياض، سترة، الشارقة، صفاه، صيداء ظفار، العرقوب، القبيبة، القرية، القصيبة، قطر، الكوت، الكويت، المجدل، النوبة، وغيرها...)»[2]

وإن تكرار هذه الأسماء وشيوعها الكبير في كلّ المناطق ذات الطبيعة الجغرافية

---

(1) هذا ما دفع أهالي «الحمّارة» البقاعية إلى تغيير اسمها إلى «المنارة»، حتى لا تُقرن بالحمار، علماً أن اسمها من «حُمّر» أي التربة الخصبة، وحمّر منطقة لبنانية بقاعية ومثلها يُحمر وسُحمر...

(2) نايجل غروم، معجم الطوبوغرافية وأسماء الأماكن العربية، إنكليزي عربي، مكتبة لبنان ناشرون، 1983.

المتشابهة، لهو خير دليل على أن أولى التسميات تعود للجغرافيا الخاصة بالمنطقة أو الإقليم ولعل التسميات الجغرافية هي وحدها المشتركة، مثلاً تندر تسمية «بادية» في المناطق الجبيلة كلبنان مثلاً وهذا بديهي لأنها غير موجودة فيه، بينما تكثر في شرق سورية (البادية السورية) والعراق وشبه الجزيرة العربية لأنها صفة بيئية عامة في هذه المناطق، ومثلها تسمية «غور» التي تعني العمق حيث تغور المياه إلى الأسفل كما هو الحال في غور الأردن وهي المنطقة الأكثر انخفاضاً عن سطح الأرض على وجه الكرة الأرضية، وتكثر فيها الأغوار بعكس المناطق الجبلية المشرفة والمرتفعة عن سطح البحر والتي تقاس على أساس علوّها. ومثلها تسمية «جزيرة» التي لا وجود لها إلاّ في البحر، فهي محاطة بالمياه من كلّ الجوانب، بينما شبه الجزيرة هي المحاطة بالمياه من جوانب ثلاث ومتعلّقة باليابسة من الجانب الرابع (شبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية ومثلها إيطاليا...) كلّ هذا يعكس طبيعة البلاد الخاصة وبالتالي مناخها وبيئتها. والإنسان يتفاعل في البئية الملائمة لعيشه تماماً كما الكائنات الحيّة الأخرى من حيوان ونبات والتي تتفاعل مع محيطها تفاعلاً تاماً. والإنسان لاحظ جيداً ما يحيط به من كائنات حيّة وأطلق أسماءً على النباتات[1] والحيوانات وبالتالي على أماكن تواجدها بكثرة في بيئتها، وتكثر الأمثلة عن أماكن تحمل أسماء الأشجار على مختلف أنواعها (الجميّزة/ الزعرور/ وادي الزعرورة/ زعرورة/ السنديانة/ الدلب/ دلبا/ إدلب/ الزعترة/ الزعيترة/ الزيتونة/ كفر رمّان/ عين الرمّانة/ (لبنان) / رأس رمّان (البحرين)؛ الشيخ سنديان/ زيتون/ عسّال الورد/ رأس شمرا/ الشومرة/ قلب لوزة، حي كرم اللوز (سورية)، كامد اللوز (لبنان)؛ زهرة/ زيتون/ منيا القمح/ الباذنجانية/ مدينة البصيلة بحر (مصر)؛ الشوح، تل شيحا[2] (لبنان، فلسطين)، الشيحا (ليبيا، سورية، العراق...).

وكذلك أماكن تحمل أسماء حيوانات على أنواعها (تعلبايا/ جلّ الديب/ سن الفيل/ الطيارة/ الدبيّة/ ضهر الوحش (لبنان)؛ بئر السبع (فلسطين)؛ تل الأسد سابقاً القادسية

---

(1) من الملاحظ أن التسميات النباتية غالبة على أسماء الأماكن في المشرق العربي، ما دفعنا لتخصيص كتاب (قيد الاعداد) يعكس أهمّية النباتات في مسيرة الحضارة من خلال نقل أسمائها إلى العالم، حمل عنوان «هذه النباتات التي لقّحت الحضارة».

(2) الملفت للنظر أنه في كل من لبنان وفلسطين تلفظ «تل شيحا» شعبياً «ترشيحا» وقلب (ل) (ر) وارد على ألسنة العامة في سورية كلها كالقول «بلكي» و «بركي» بمعنى ربما وكذلك «يا ليت» «يا ريت».

(العراق)؛ غزال أو ميت غزال/ زاوية غزال/ الكلابية/ شبرا النملة/ كفر الفيلة/ طوخ الخيل/ نزلة الديب/ بحيرة التمساح (مصر)؛ مدينة الضبعة (مصر)، تل الضبع (سورية)؛ وادي الثعبان (اليمن)، إلخ . . .

في تصنيف الأسماء الجغرافية

صنّفت التسميات الجغرافيّة اعتماداً على معانيها والدوافع التي اختيرت على أساسها في أصناف عدّة، فالمعروف أن الأسماء الجغرافية نوعان: أسماء عامة مثل «جبل» و «نهر» وأسماء خاصة مثل «بردى» أو «قاسيون» والفارق بين النوعين واضح. والأسماء الجغرافية هي أسماء وصفية (noms descriptifs) بالدرجة الأولى، فالأسماء الوصفية تشير إلى طبيعة المَعْلَم ومواصفاته، كالجبال الصخرية، أو بحر الشمال، أو نهر الأعوج أو نهر العاصي أو طرابلس (تريبوليس ومعناها المدن الثلاث كما يقال) والقليعة والقسطل وجباب وقنوات وغيرها. وقد تأتي التسمية من هذا النوع عشوائية أو مضللة أو من قبيل المصادفة، كما هو الحال، بما سمّي المحيط الهادئ (L'Océan Pacifique) أوّل مرّة، فالمحيط المذكور ليس بهذه الصفة، وثمة جزء صغير منه فقط ينعم بالهدوء فعلاً. ومثل ذلك البحر الأبيض المتوسط (La Meditérannée)، فقد سمّي بهذا الاسم لتوسطه العالم القديم، وخرج عن كونه كذلك بعد عصر الاكتشافات، كما أن البحر الأسود ليس أسود اللون، بل بحر داخلي ومغلق؛ وحده البحر الميت لبس صفته تماماً، لأنه بسبب ارتفاع الملوحة فيه، انعدمت فيه كلّ مظاهر الحياة.

ولعل أكثر الشواهد برهنة على أن الإنسان عاين الطبيعة حوله ونقلها كما شاهدها هي تلك الرسومات التي حقّقها على جدران الصخور (art rupestre) والتي تعود إلى العصر الحجري الوسيط (mésolithique = 15000 ق.م.) في كلّ المناطق التي غدت صحراوية اليوم (الصحراء الكبرى في إفريقيا، أو الربع الخالي في شبه الجزيرة العربية حيث تكثر صور الجمال والأحصنة والأبقار والأشجار والنباتات في تلك النقوش التي خلّد الإنسان العربي ذكرى وجوده فيها؛ وكذلك تلك المغاور المصورة (art parietal) الكثيرة في أوروبا والتي تعجّ بصور القطعان والثيران والغزلان والأشجار والحيوانات التي شاهدها المراقب لها في تلك الفترة، ما يعني أن الطبيعة وعناصرها كانت شغله الشاغل وهو عنصر من عناصرها ويتفاعل معها ويتعامل بذكاء إزاء كلّ ما يحيط به، ولو كان يمتلك الكتابة لكان عبّر عما راوده من أفكار ولقال لنا كيف نحت تلك الأسماء التي ما زلنا نتلفّظ بها إلى

اليوم. فإذا كان قد سمى الجبل بهذا الاسم فما زلنا نلفظه هكذا، وتأتي الشواهد الأثرية لتؤكّد ما نقول أي أننا ما زلنا نتكلّم لغة أجدادنا نفسها منذ آلاف السنين، فعلى ناووس أحيرام (نهاية الألف الثاني ق. م.) نقش يذكر جبيل كمدينة وطبيعتها جبلية بطبيعة الحال كونها جزء من لبنان ذي الطابع الجبلي؛ فعندما سمع خرير المياه، لفظ «خرّ»، وشوشة الأوراق قال «وشوش»، وحفيف الأشجار قال «حف»، وزقزقة العصافير قال «زقزق»، وسأسأة المياه قال «سأسأ» وهكذا وما زلنا نردّد نفس التعابير اللفظية تلك[1].

أهمّية التسمية الجغرافية

إن الشراكة بين الأسماء لها دلالة كبرى وأهمّية عالية، فهذه التسميات الجغرافية على تعدّدها تدلّ على الشراكة الجغرافية لإقليم ما وعلى وحدة لغوية خاصة في المناطق ذات الوحدة الحضارية كبلاد الشام أو ما يعرف بسورية الطبيعية وهي البلاد المعروفة بالمشرق القديم في المصطلح الحضاري. فمثلاً، إسم «صيدا» الذي يدلّ على البيئة البحرية (ومنها صنعة الصيد البحري) تشترك بهذا الاسم أماكن عديدة منتشرة على الساحل الطويل للجزيرة العربية (صيدا على ساحل عُمان/ صيدا على البحر الأحمر/ صيدا - صيدون على الساحل اللبناني/ صيدا على الساحل السوري...) وكذلك (الأشرفية/ والمشرفية/ والمشرفة) والتي تعني «المطلة» والعالية وهي تسمية مشتركة بين كلّ المناطق المشرقية؛ ومثلها «حياطة» أي المحاطة بالجبال... وهناك مناطق عديدة سميّت على اسم مناخها وفصولها والطبيعة الجوية التي تتمتّع بها من مثل (المشتاي ومصياف في سورية) وغيرها الكثير ذات الدلالات المناخية.

هذه التسمية المشتركة تُفسّر أوّلاً بوحدة الشعب (بالإضافة إلى وحدة الجغرافيا) التي ينتشر فوقها ويتفاعل فيها مع الأقوام المختلفة التي يتشكّل منها هذا الشعب الواحد، وبالتالي وحدة اللغة الجامعة بينهم. وعادة ما تكون اللغة الأقوى المنتشرة بين الأقوام هي المستعملة على حدّ سواء بينهم (كالعربية اليوم الجامعة لكلّ العرب وغيرهم من الأقوام الذين يعيشون على الأرض العربية). في الواقع، إن الجغرافيا الواحدة تدلّ على وحدة الشعب على تعدّد أصوله والأقوام المؤلّفة له وعلى اختلاف اللغات الخاصة بهم بتعدد

(1) وفي اللغات الأجنبية نلاحظ (زقزق gazouiller، وشوش chuchoter، بربر/ مرمر murmurer, bourdonner...).

لهجاتها ولكناتها ومحكياتها وألسنتها. وتعبّر هذه الشراكة الإسمية للمكان أيضاً على كثرة التنقل البحري والبري وسهولته بين كافة المناطق (بحار، أنهار، جبال، قفار...) هذه الجغرافيا الموحّدة التي زرعت نفس الاسم في كلّ الأمكنة التابعة لها، لها من الأهمّية ما لا يمكن إغفاله في المسيرة الحضارية وتطوّر الثقافات وتلاقيها، فالجاليات المتنقلة تنقل معها إسم منطقتها وصنعتها التي اختارتها شبيهة ببيئتها التي خرجت منها، فلا شكّ أن الفرد القادم من المنطقة الأقوى نفوذاً تجارياً واقتصادياً وسياسياً هو الذي يملك سلطة وضع بصماته على المنطقة التي نزل فيها من دون أن نتمكّن من تحديد إسم لهذه الأقوام السبّاقة إلاّ من خلال ما بقي من أسماء أماكن استوطنتها. ولعل لفظة «المشرقيين» (نسبة للمشرق العربي أي سورية الطبيعية) تبقى الأصح لأنها جامعة ومنصفة لكلّ الأقوام التي تفاعلت حضارياً فوق هذه البقعة ذات المعالم والتضاريس المتنوّعة والموزّعة على الأقاليم المختلفة.

وهذا المستوى الجغرافي الحضاري لتسمية الأماكن يعكس الحضارة التي وحدها تدلّ على الشعب الذي سكن منطقة معيّنة وهو ما يميّزه عن شعب آخر أنشأ حضارة في منطقة أخرى حملت أسماء خاصة ومميِّزة لحضارته. وما يميّز حضارة عن حضارة هو، بعد كلّ الاعتبارات، قوة الفكر الذي أبدعته والذي خوّلها الاستمرار في المكان والزمان، وما النقوش الكتابية التي تحمل فكر حضارةٍ كبيرةٍ إلاّ خير دليل على تفوّقها الفكري على غيرها من الثقافات الأخرى. وخلاصة القول على صعيد المستوى الجغرافي إن الجغرافيا هي التي تحدّد الهوية بكل مقوّماتها الثقافية (اللغة، التقاليد، العادات، الفكر والثقافة...) ولا بدّ من التذكير دائماً أن «الجغرافيا هي صانعة التاريخ».

المستوى الزراعي والمدني

إن الملاحظة تتأتّى من المشاهدة الدقيقة والتأمل المستمر، ما يعني أن الأمر يستدعي الكثير من الوقت والجهد الطويل وأنه على المرء أن يعاين عن قرب كلّ التغيّرات الحاصلة والطارئة على المحيط الذي اختار العيش فيه (المناخ، الأحوال الجوية المتقلّبة، الزلازل، البراكين، الأعاصير، الفياضانات...). وهذه المشاهدة ودقّة الملاحظة تسمح بالتالي الاستقرار أي الإقامة الدائمة في بقعة معيّنة، وإلاّ لما كان ليسكن فيها البشر ولكانوا هجروها إلى منطقة أخرى أكثر ملائمة لعيشهم، فالمرء يختار المحلّة المناسبة للتمركز فيها من أجل متابعة حياته بحيث تؤمّن له معيشته ويكوّن فيها جماعة. لقد كانت الزراعة سبب الاستقرار الأوّل وهي تتطلّب بيئة ملائمة مثل توفّر المياه بالدرجة الأولى. من هنا

كانت أولى الحضارات متمركزة في أودية الأنهر وحول مجاري المياه (وادي الرافدين دجلة والفرات/ وادي النيل/ وادي العاصي/ وادي الليطاني/ بحيرة طبرية . . .)

لقد تكوّنت على ضفاف هذه الأنهار جماعات مستقرة، تطوّرت إلى جماعات حضارية أسّست القرى والمدن التي ما لبثت أن كبرت وتوسّعت حتى غدت المدن الحضارية العريقة المعروفة في المشرق القديم والتي استمرت متفاعلة في محيطها لآلاف السنين، وإن كانت قد صمدت عبر السنين الطويلة فلأن الملاحظة ظلت سيّدة الموقف، ما خوّل الإنسان التطبّع مع محيطه وكذلك تطبيع محيطه بما يلائم عيشه. والملاحظ أن محيط البحر المتوسط، خاصة في طرفه الشرقي، كان الأكثر ملائمة للاستمرارية بسبب التوسّط والاعتدال الذي ساعد على التفاعل على كلّ الصعد. وهذا الإستقرار الزراعي المدني أدّى إلى نشأة المدنيّة وازدهار المدن وتوسّعها.

أهمّية التسمية الزراعية والمدنيّة

إن الاستقرار الزراعي هو أساس التطوّر المدني (مفهوم المدينة) والعمراني (توسع المدن وتعدّدها) وتميّزها عن الأرياف والقفار والبوادي، حيث تفاعلت مجتمعات بشرية مختلفة في معيشتها وتباينت في أسلوب عيشها بين نمط بدوي ونمط مدنيّ. من هنا ميّز علماء الاجتماع، وعلى رأسهم ابن خلدون، تحديداً فيما يتعلّق بالعرب وأصنافهم: (عرب/ أعراب/ مستعربون)، بين أهل الحضر[1] وأهل المضر، أي بين سكان المدن والعمران وبين سكان البداوة والقفار والصحارى، أي بين أهل الاستقرار المدنيين والبدو الرحّل. وهذه القاعدة تنسحب على كلّ شعوب الأرض التي تتوزّع بين هاتين الفئتين بحسب أقاليمها (سكان الإسكيمو والمناطق الجبلية يصنّفون أيضاً بدواً لانتفاء العمران لديهم وكذلك سكان الهضاب والقفار المغولية). والبدوي، في طريقة عيشه، يترحّل دائماً بحثاً عن مناطق الكلأ والرعي فلا يستقر في مكان محدّد.

هنا تستدعينا المسألة التوقّفَ للاجتهاد فيما يخصّ المستوى الحضاري لنشأة أسماء الأماكن. ولنا رأي خاص يتعلّق بمفهوم «الحضر» الذي تتحدّر منه كلمة «حضارة» والتي نخص بها الحضارة العربية من دون غيرها لأنها الأقدم على الإطلاق. يميّز ابن خلدون

(1) جواد علّي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأوّل (المقدّمة)؛ راجع أيضاً، ڤيڤيان حنّا الشويري، معجم «آلهة وأماكن» (تحت الطبع) حيث خصّصنا مباحث طويلة عن العرب وتسمياتهم وأسماء الأماكن العربية المرتبطة بهم. ونحن بصدد إصدار كتاب أسميناه «العرب».

بين المضر والحضر وهذا مهم لأن العبارتين تشتملان على معان تختصر آلاف السنين من التطوّر البشري؛ ففي حين أن عبارة «مضر» نسبية تعود إلى قبيلة «مضر»، وتدلّ بالتالي على الوضع القبلي، فإن عبارة «حضر» ترتبط بالحضارة والتمدّن والعمران، ما يعني أنها غير منسوبة إلى حالة سابقة، باعتبار أن الوضع الحضري طاريء وليس أصيل كالمضري، فالحضر حالة مكتسبة بينما المضر وراثة. ويمكن للمرء الانتقال من الأصل أي المضر، إلى المكتسب أي الحضر، وهذا يعدّ تطوّراً من حالة البداوة إلى حالة المدنيّة. من هنا وجوب التمييز المهم الذي وضعه ابن خلدون بشأن العرب: عرب/ أعراب/ مستعربون، أي أنه ميّز بين العرب فئات بحسب توزّعها في الأقاليم التي تعيش فيها والتي تختلف مناخياً واجتماعياً وكذلك في طريقة عيشها، فالأعراب هم المضر البدو المترحّلون، أهل البادية والقفار والصحاري؛ والمستعربون هم الطارئون على العرب أو الدخلاء وليسوا الأصليين؛ أما العرب فهم الحضر أصحاب المدن والعمران والتطوّر الحضاري بكل ما تعنيه كلمة حضارة من معاني وتشتمل عليه من مكوّنات ثقافية وفكرية وفنية وإبداعية وتقنية وصناعية... من هذا المنطلق، تكوّنت لنا قناعة أن كلمة «عرب» تدخل في المستوى الحضاري الابتكاري وهو أحد مستويات أسماء الأماكن، وليست من المستوى الجغرافي الطبيعي، فحالة العربة هي اكتساب حضاري وليس حالة طبيعية.

ويختلف المضري أي البدوي اختلافاً كبيراً عن الحضري أو المدني الذي يعيش النمط المدني العمراني المستقر الذي يخوّله التطوّر والابداع والابتكار في أساليب عيشه بما يتلاءم ومتطلبات المدنيّة والمدينة التي يسكنها، بعكس المضري الذي ما زال يعيش النمط البدائي نفسه كما عاش أجداده دونما تغيير كبير، وهذا الترحال الدائم لا يسمح له الابتكار ولا الخلق الإبداعي الذي لا يحتاجه أصلاً في حياته المعيشية والعملية، فهو لا يتقن الزراعة ولا ما تستدعيه من مكمّلات لها، صناعية كانت أم تجارية. والبدوي ينتج ما يأكله ويلبسه من قطعانه نفسها ولا يعتمد على منتوجات الأرض الزراعية كما هو الحال في المجتمعات الزراعية المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالأرياف والمدن، حيث أسواق الإستهلاك والتبادل التجاري، وهي سمة مشتركة بين الفئتين، ولعلها المسبب الأوّل للاحتكاك البشري بكلّ تنوّعاته.

إن هذا النشاط البشري: التنقل المستمر وكذلك الاستقرار والمدنيّة هو في أصل تسميات الأماكن بامتياز، والإنسان أينما حلّ وكيفما حلّ يعطي التسمية للمكان، ولكن بطبيعة الحال فإن الابتكار والإبداع والخلق والتأسيس المستمر هم أغنى من القحط والتكرار وعدم التنوّع، ما جعل أهل الحضر يشكلون أساساً في استنباط الأسماء الملائمة مع الأماكن التي استوطنوها أو استعمروها وسكنوها على تنوّعها. وحيث توسّعت المجمعّات السكنية وضعت التسميات تباعاً، بدءاً بملاحظة بيئتها ومحيطها الجغرافي ومروراً بكل المستويات الحضارية الأخرى كاستصلاح الأراضي للزراعة (سهل/ سهيلة/ جل/ جليلة...)، وصولاً إلى المقوّمات الاجتماعية المنظمة (قبلية عشائرية عند المضر) والمقوّمات المدنيّة (عند الحضر) وما وضعه البشر من نظم (يشترك فيها المضر والحضر على حدّ سواء) بما فيها من قوانين وشرائع منظِّمة للمجتمعات، تضمّنت تراتبية على أساس الطبقات العائلية المؤسّسة من رئيس القبيلة أو سيّد القوم (مثلاً «مزرعة السيّاد» في لبنان؛ «وادي سيدنا» في السودان)، مروراً بالحاشية حتى الرعايا وباقي الفئات الاجتماعية الأخرى المكمّلة، فكان هذا أساس النظام الطبقي في المجتمعات، بحيث نظّمت الجماعة أحوالها الاجتماعية ومؤسّساتها على أساس الملكية المأخوذ عن العائلة الصغيرة التي يرأسها ربّ الأسرة أو الأب: شيخ على رأس القبيلة، عادة ما يكون الأكبر سنّاً، أو زعيم القبيلة أو حاكم ينظّم شؤون المدينة الإدارية والقانونية. هذا الشيخ له من المكانة والاحترام ما ليس لغيره ما يمنحه سلطة مميّزة في إدراة مختلف الجوانب الحياتية التي هدفها تأمين رفاهية القبيلة وسعادة أفرادها بالعدل والمساواة. ومثله الحاكم أو الزعيم السياسي الذي نُصِّب على رأس المدينة وتولّى حكمها، فله من السلطة والقوة ما يجعله يضمن سلامة رعاياه من خلال تطبيق القوانين والشرائع والعدالة، فالقرارات الكبيرة تعود له بالدرجة الأولى، وهو كما شيخ القبيلة، كبير القوم والقاضي والفاروق العادل والمصلح بينهم وهو الذي يوزّع الوظائف والأعمال والأموال المستحقة، وهو الهادي نحو الخير والسلام والمحبة بين أفراد المجتمع وأيضاً منظّم علاقتهم مع مجتمعات أخرى جارة أو صديقة. من هنا جاءت العبارة المعبّرة «كبيرُكم خادمُكم»، والتي إذا ما التزم بها أصحاب السلطة وطبّقوها خير تطبيق، نالوا الإكرام والتبجيل من رعاياهم ومواطنيهم. ومن الطبيعي جداً أن يكرّم القوم هكذا شخص وهكذا راعي لقومه فيستحق أن تسمّى القبيلة على اسمه أو أن

يأخذ المكان أو المحلّة أو البلدة أو القرية أو المدينة خاصته إسمَه أو كنيته أو لقبه إلى ما هنالك من صفات مميّزة لديه. والأهم أن أعماله الطيبة والصالحة تخوّل مجتمعه أن يُحافظَ بقدسية على هذا الاسم مع مرور الزمن لأن هذا الشخص الجليل رُفّع تلقائياً إلى مرتبة إستثنائية ونال التقدير من قبل قومه لدرجة جعلت منه بطلاً قومياً أو أباً روحياً أو حتى حلّ بمصاف الآلهة (خاصة الرجالات الذين فدوا الأمّة بأرواحهم واستشهدوا من أجل بقائها وخلاصها)، أو من فئة الأسياد في أحيان كثيرة، وذلك بحسب عقلية وعقيدة القوم الذي ينتمي إليهم. وهذه العادة ما زالت دارجة إلى اليوم، بحيث تعطى دائماً محلّة ما أو شارع أو حديقة أو مركز أو بناية أو منشأة رسمية أو بلدية إسم رجل ذي مآثر عظيمة خدم وطنه بإخلاص وكان مفخرة قومه. ويمكننا القول إن الأمور تجري عفوياً على عكس ذلك كلّياً في حال كان الشخص الموكل الحكم متسلّطاً وظالماً، فسرعان ما يسقط اسمه ويختفي من الذاكرة الجماعية مباشرة بعد سقوطه أو موته، أو أنه يُزال ثم يعاد تعسّفاً وبالقوة من جراء ممارسات أتباعه المتعصّبين له من دون غيرهم من فئات المجتمع، وهذا الأمر يُحدث شرخاً كبيراً بين أفراد المجتمع الواحد وربما العائلة الواحدة ما يؤدّي إلى الانقسام وبالتالي إلى التدهور الذي يتمثّل بضياع الهوية الخاصة بالمكان، وربما ضياع اسمه الأصلي إلى الأبد. وإن فرض الأسماء بالقوة هو الأكثر شيوعاً عبر التاريخ، الذي لم يحفظ لنا إلاّ ما فرضه الحكام أو الأمراء أو الزعماء أو القادة أو الملوك بالقوة والجبروت وليس بالعدل. وبالمقابل، هذا ما يفسّر في أحيان كثيرة أن يحمل المكان نفسه عدّة أسماء لأشخاص مختلفين بحسب الأهواء الاجتماعية أو الحالات السياسية السائدة وهذا ما يفسّر أيضاً أن تُزال أسماء المستعمرين عن الأماكن التي طردوا منها بفعل الثورات الشعبية المناهضة لهم والتي ما أن اندحروا، حتى تخلّصت الأقوام الأصلية من الأسماء التي وضعوها على أماكن عديدة من البلاد التي استعمروها (إلا في حالات قليلة من مثل لبنان الذي ما زالت شوارع عديدة من عاصمته وفي مناطق أخرى منه تحمل أسماء من مثل: جادة فوش/ فردان/ شارل ديغول/ كليمنصو/ فرنسا... وهذا ما لا نراه في دول عربية عديدة تعرّضت لنفس الاستعمار والإنتداب، ما لبثت أن تخلّصت من أسماء المعتدين على الفور إثر خروجهم من البلاد وجلائهم عن أرضها).

هكذا تفسّر أسماء الأماكن التي حملت في الأساس أو تباعاً إسم أو أسماء عائلات كبرى (Patronyme)[1]، سكنتها أو حقّقت إنجازات عامة فيها، فخلّدت اسمها في المكان على مرّ السنين. وهذه الأماكن كثيرة منها (حارة حريك/ بيت مشيك/ قرنة شهوان لعلها من شاهين أي النسر...) والعكس صحيح أيضاً، أي أن اسم العائلة هو نسبة إلى المكان الذي استمد اسمه من بيئته وجغرافيتها (مثلاً: عائلة الساحلي نسبة إلى الساحل/ الجبيلي نسبة إلى الجبل أو السهيلي نسبة إلى السهل/ الشويري نسبة إلى الشوير وضهور الشوير/ بريدي أو بردويل نسبة إلى بردى أو يبرود أو البردوني أو براد/ عائلة الصيفي نسبة إلى منطقة ذات مناخ صيفي...)

في تصنيف الأسماء النسبية السيادية

تدخل الأسماء النسبية في فئة الأسماء التذكارية أو التكريمية (noms comme-moratifs)، وهي كثيرة بكثرة أصحابها الذين أُطلقت أسماؤهم على المعالم تكريماً لهم فخلّدت تلك الأسماء؛ والمثال عليها: القسطنطينية (Constantinople) نسبة للإمبراطور الروماني «قسطنطين» الذي اتخذها عاصمة بدلاً من روما، وكان اسمها من قبل «بيزنطة»، ثم سمّيت إسطنبول أو إسلامبول وهو اسم مركّب من العربية «إسلام» واليونانية «بول/ بوليس» أي مدينة. وسمّاها العثمانيون الأستانة. ومثل ذلك القاهرة التي سمّاها جوهر الصقلي القاهرة المعزية نسبة إلى المعز لدين الله معد بن اسماعيل الفاطميّ. وللبعض رأي مغاير في أصل تسمية القاهرة، أي أن المدينة التي عَهَدَ الخليفة المعز ببنائها في مصر لجوهر الصقلي لكي تكون عاصمة خلافته الفاطمية لم تحمل اسم المعز ولا اسم جوهر، بل أطلق عليها إسم (القاهرة)، وأشهر الروايات التي تفسّر سبب هذه التسمية أنه عندما بدأ إنشاءَها، رأى المنجّمون «القاهر» في السماء وهو كوكب المريخ. وهذا ما يفتح الباب على الاستثناءات في هذه القاعدة، فليست كلّ أسماء الأماكن قد أخذت اسم مؤسّسها، فالمدينة التي بناها أبو جعفر المنصور، المؤسّس الفعلي للدولة العباسية، سميّت (بغداد)، ويقال إنها فارسية معناها «بستان العدل». والمدينة التي بناها محمد عليّ باشا في السودان في القرن التاسع عشر وصارت هي العاصمة بعد ذلك سُميت (الخرطوم)،

---

(1) أي اسم العائلة (Patronyme/nom de famille) وتحديداً إسم الأب أو ربّ العائلة. وكذلك تأخذ بعض الأقوام إسمَ العائلة العائد للأم (Matronyme).

وقيل إن سبب ذلك في شكلها الذي يشبه خرطوم الفيل. وكذلك لم تحمل «أميركا» إسم مكتشفها «كريستوف كولومبوس» (القرن الخامس عشر)، بل حملت اسم البحارة الإيطالي «أمريجو» أو «أمريكوس فسبوكيوس»[1]، الذي أبحر إليها لاحقاً، فاختار اسمه المؤرّخون متجاهلين «كولومبوس» كلياً.

أهمّية التسمية في المستوى السلطوي والسيادي

في الواقع، إن الجماعة هي المجتمع بكل فئاته وبكامل أفراده وهو جامع لكلّ الأقوام المكوّنة له ولكلّ الفئات، وبالمنطق المدني، لا تعتبر عشائر أو قبائل أو عائلات وهو المفهوم البدوي المضري البدائي، بل يعدّون كلّهم مواطنين يشتركون بالعيش في مكان جغرافي محدّد وعلى أرض واحدة تجمعهم ولهم نفس الحقوق والواجبات، ما هو متساوي بينهم، لذا فإن هذا المستوى من تسمية الأماكن بأسماء الزعماء والقادة القوميين أو الأبطال الوطنيين، عن حق وليس باطلاً، يكتسب أهمّية كبرى لأنه عامل جامع بين المواطنين ويكون مدعاة للفخر والاعتزاز بتاريخهم ونضالهم أو ابتكاراتهم أو إبداعاتهم، يشتركون فيها كلّهم وتشكّل وحدة اجتماعية جامعة ومانعة يدافعون كلّهم عنها ويحتفلون

(1) كان للعرب نصيب في الوصول إلى الأميركيتين الشمالية والجنوبية قبل «كولومبس» و«أمريجو» بزمان بعيد. وقد تناول هذه المسألة وألقى عليه الضوء باحثون من مثل محمود الربداوي ومحمود الدغيم، والمستشرق «آدم متز» في موسوعته (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمّد أبو ريدة)، حيث أشاروا جميعاً إلى قصة «الفتية المغرورين»، أو «المغربين» أي المتجهين غرباً والواردة في كتاب الشريف الإدريسي، (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، عند كلامه على مدينة (لشبونة) عاصمة البرتغال الآن، قال: «ومن مدينة الاشبونة كان خروج المغرورين في ركوب بحر الظلمات، ليعرفوا ما فيه، وإلى أين انتهاؤه...» وخلاصة القصة قيام مجموعة من الشبان العرب بالملاحة فيما وراء البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي إلى أن صادفوا بلاداً غريبة لم يسبق أن ارتادها أحد لبعدها الشديد، ووصفوا هناك سكانها الأصليين الذين أوثقوهم وذهبوا بهم إلى ملكهم ثم أطلقوا سراحهم بعد مدة، وعادوا أدراجهم إلى بلادهم ليقصّوا أخبار رحلتهم العجيبة. ويتضح من القصة أن (الفتية المغرورين) نزلوا في بعض سواحل هذه القارة الجديدة دون أن يعرفوا أي بلاد هي، و «كولومبس» نفسه لم يكن يعرف أنه اكتشف قارة جديدة. واعتقد أنه اكتشف ما سمّاه «جزر الهند الغربية» (West Indies)، لأنه أبحر إلى ما يعتقد أنه (الهند) ولكن عن طريق الغرب، ولا يزال السكان الأصليون يسمّون «الهنود الحمر»، راجع: معتز شكري/ كاظم الحمامي، «وثيقة تاريخية جديدة تقول: عرب الأندلس أوّل من اكتشف أميركا». (موقع إنترنت).

كلّهم بذكراها من خلال الأعياد السنوية التي تذكّر دائماً بأمجادهم، وهي كفيلة بأن تدعم اللحمة بينهم وتصون وجودهم وتحميه. ويمكن أن يكون هناك أكثر من شخص مصنّف لإنجازاته وأعطي أسمه لأماكن مختلفة وهذه التعدّدية والتنوّع (أسماء بلدات، قرى، حدائق، مزارع، جامعات، معاهد، مصانع، مطارات...) يغني البلاد بعظمائها الذين سطّروا المآثر لإعلاء شأنها وكلّما كثروا كلّما كان مستوى بلدهم أرقى وأهم في سلم الرقي والتقدّم، ما يمنح المنتمين إلى هذا الشخص النشاط الدائم والحافز باستمرار للتقدم والتمثل به والنحو نحوه. وفي أحيان عديدة، تغدو المنطقة مزدهرة بفضل وجود أضرحة وقبور هؤلاء العظماء، فيحج إليها الزوار والسائحون والباحثون والمهتمّون ما يرفع مكانتها السياحية وينمّي اقتصادها موفّراً فرص العمل والاستقرار فيها والعمل في أرضها، حتى لا تُهجر من قبل شبيبتها الطامحة للعمل في أماكن أخرى، ما يفقرها باليد العاملة والدم الفتي النشيط. من هنا ضرورة الاهتمام بالذاكرة الشعبية التي حفظت أسماء عظمائها ومن هنا وجوب أن تُسرد دائماً أعمالهم ويذكّر بهم. ولعل مثل الشاعر الإغريقي «هوميروس» هو الأكثر تعبيراً، بحيث لا يعرف أين قبره الحقيقي إلى اليوم، إذ تبنّت مناطق ومدن وجزر كثيرة أصل منشئه وحتى ولادته فيها بفضل ما كان له من الشهرة قديماً وبفضل سمعته العالمية وجدارته الأدبية والشعرية الفريدة. ومثله الكثير من القادة، على رأسهم «الإسكندر الكبير» الذي إدّعت مدن عديدة دفنه فيها أو وجود ناووسه أو مدفنه فيها، مثلاً في «سيوا» في الصحراء الليبية - المصرية أو في صيدا - لبنان حيث وجد الناووس الشهير باسمه (اليوم في متحف اسطنبول) أو في «بيلا» بمقدونيا حيث قبر والده «فيليب الثاني» وأفراد عائلته أو أماكن أخرى إدّعت بفخر أنه دفن فيها...

المستوى الديني والأسطوري والفكري

لكلّ شعب عقائده وتقاليده وعاداته وطرق تفكيره وتصوّره للخلق والخالق والكون وما وراء الكون والموت وما وراء الموت، بلْوَرَها محمّلاً أفكاره على شكل عقائد إيمانية ومسلّمات اقتنع بها وهي تمسّ بالدين الذي يترجم على شكل ممارسات وشعائر ومراسم تعنى كلّها بمسألة حيّرت البشر منذ وجودهم وهي: من أين أتوا، وكيف خلقوا، وإلى أين يذهبون بعد الموت؟ فتسألوا عن مصيرهم ولم يجدوا أجوبة شافية، فعزوا هذه المسائل المستعصية الفهم على العقل البشري إلى خالق ووضعوا مسألة وجودهم بين يديه وسلّموا أمرهم لمشيئته، فأصبح عزاءهم في الحياة وغايتهم بعد الحياة وعزّوا أنفسهم

بأنهم سينتقلون إليه بعد الموت شرط أن تكون أعمالهم صالحة لأن الخالق صالح ولا يقبل الخطيئة ولا الإثم اللذين هما من أعمال الشيطان القابع في جهنم، إلى حيث يذهب السيّئون. وهكذا وجدت إزائية «الخير والشر» وصراعهما الأزلي والتي هي جوهر الدين.

هذا الحسّ الديني المشترك بين كلّ البشر عبّروا عنه في لجوئهم إلى الخالق بعدّة مظاهر، أهمها أنهم ألّهوا عناصر الطبيعة فجعلوا من الأرض الأم المعطية للحياة ومن السماء الأب المخصّب وجعلوا من العناصر الطبيعية، على اختلافها، أولاداً لهم يُنعِمون على البشر بالخير ويمنحونهم السعادة، يقابلهم عناصر ضارة ألصقت بمخلوقات شريرة كالعفاريت وكلّها أعطيت تسميات بحسب وظيفتها ودورها في الكون، فألّهت الأفلاك والكواكب والأبراج وراح الناس يتتبّعونها ويضعون أنفسهم تحت رحمتها، تدور بهم كيفما داروا وتقودهم إلى المجهول بحسب أهوائها، وما فتئوا إلى اليوم يمارسون هذه العقائد دونما هوادة رغم الدعوات إلى تفعيل العقل، إلاّ أن الغريزة والعاطفة ما برحتا سيّدتي الموقف ولن تكف الأمور أن تكون كذلك طالما أن البشر بشر.

وتفيدنا دراسة الأنثروبولوجيا في تتبّع خطوات الإنسان البدائي (primitif) والذي ما زالت الجماعات الأصلية (aborigènes/autochtones/indigènes) تمثله في طريقة تفكيره وابتكاره، من هنا وجوب حماية هذه الأقليات والعمل على إبعادها عن كلّ أصناف المدنيّة الحديثة التي ما إن تحتك بها حتى تؤدّي إلى زوالها المحتّم.

لقد أفرد الباحث «ليفي-ستراوس» فقرات كبيرة لموضوعات مثل الجغرافيا الميثولوجيّة والجغرافيا الطوطميّة وكذلك النباتات والحيوانات الطوطميّة[1]، وعلاقتها بأصل أسماء الأماكن ونشأة أسماء العلم عند القبائل البدائية في كتابه «الفكر المتوحش»[2].

---

(1) الطوطم (totem) (بالأجيبوي، لغة إحدى القبائل الهندية الكبيرة في أميركا الشمالية يسمّى «odoodeman»)، هو أي كيان يمثّل دور الرمز للقبيلة، وأحياناً يقدّس باعتباره المؤسّس أو الحامي. أوّل من أدخل اصطلاح «الطوطم» إلى اللغة الإنجليزية هو الرحّالة «ج. لونك» العام (1791)، إذ استعمله في كتابه «رحلات مترجم هندي وأسفاره»، واستعمل كلمة الطوطمية في الدراسات الأنثروبولوجية لأوّل مرّة العالم الإسكتلندي «ج. مكلينين» في العام (1870) عند كتابته مقالاً بعنوان «الطوطمية». كانت الطوطمية موجودة لدى عرب ما قبل الإسلام، إذ كان لكلّ قبيلة صنم خاص بها على صورة حيوان أو جزء من الإنسان (راجع: الطوطمية، جريدة كلّ العراق).

(2) C. Levy-Strauss, *La Pensée sauvage*, p. 217-224.

عندما وقف الإنسان أمام الخضرة والنبات الكثيف المتشابه في مختلف أشجار غابة السنديان وغيرها، أدّت خيالاته بالنهاية إلى أن تتمثّل في المفاهيم الثيولوجية (عالم الآلهة)، ما جعلها تقدّم في مظاهرها قواسم مشتركة تجسّدت على شكل روح أو خيال أو شبح . . . هذا المخلوق الخفي لم يبق شيئاً - رمزاً (fétiche) خاصاً بكلّ شجرة أو بكل نبتة على حدى، بل أصبح إله الغابة. هذا هو التحوّل الفكري من «الفتيشية» الأحادية (شجرة واحدة) إلى التعدّدية المعتقدية (polythéisme) الذي انتقل بصورة لا مفرّ منها من أفكار خاصة إلى أفكار عامة. هذه هي نظرية «أوغست كومبت» (A. Comte 1798-1857) في نشأة الأنواع[1]. و«إدوارد تيلور» (E. Tylor 1832-1917)، مؤسّس علم الإثنولوجيا الحديث، يؤكّد قول «كومبت» ويقول إن كلّ الأنواع وضعت تحت حماية الآلهة[2].

في الواقع، إن الجغرافيا الطوطمية لكلّ الشعوب ومنها «الأراندا» في أستراليا، تدلّ على أنهم ينسبون لكلّ شيء في الطبيعة مصدراً إلهياً ويعطونه إسماً ويسكبون عليه قصة خرافية تشبه شكله الطوبوغرافي: فكلّ نتوء فيه يعادل مرحلة من مراحل الطقوس العقدية، لدرجة أن هناك موقعاً صخرياً قطره ثماني كلم يمثل عند السكان الأصليين أسطورة وروزنامة بحدّ ذاتها، بحيث يحتوي على كلّ تركيبات الأسطورة وكلّ تفاصيلها مكتوبة على مساحاته ونتؤاته وبرنامج احتفالاتهم مكتوب في تضاريسه، فمثلاً، المنحدر الشمالي يمثل نصف الشمس ونصف الدورة الطقوسية (cycle rituel «Kerungera»)، أما المنحدر الجنوبي فالنصف الثاني من الظل ونصف الدورة الطقوسية (Arangulta)، وعلى طول قطر الهضبة تتوزّع 38 نقطة لها أسماؤها ووظائفها وحكايتها الخاصة[3].

في أميركا الشمالية أيضاً، الجغرافيا الميثولوجيّة والطوبوغرافيا الطوطمية موجودتان بكثرة من الألسكا إلى كاليفورنيا، بالإضافة إلى جنوب - غرب وشمال - غرب القارة، بحيث أن كلّ القبائل التي تعيش هناك تفسّر تضاريس الطبيعة بواسطة أساطير وخرافات وتؤنسن عناصر الجغرافيا والطبيعة بشكل مدروس جداً وتعلل جغرافياً ومناخياً حركة

(1) Daniel Parrochia, *La notion de classification chez Auguste Comte et l'idée d'une théorie générale des classifications* (Université Jean Moulin - Lyon III - IRPHIL).

(2) E. Taylor, *Primitive Culture*, 2 vols, 1873-1874, (Trad. en français *La civilisation primitive*); Researches into the early history of mankind, 1865, (Trad. en fr., *Recherche sur les débuts de l'histoire de l'humanité*).

(3) M. Eliade, *«Le mythe Aranda»* (extrait de «Religions australiennes», (Traduit de l'anglais par L. Jospin), Folklore Coll., Petite Bibliothèque Payot, n° 352, 2004.

السكان من استيطان إلى ترحّل إلى انتقال مرحلي كلي أو مؤقت، بحسب الظروف الطبيعية المروية على طريقة الأساطير[1]. مثلًا: صخرة مستطيلة يرى فيها أحدهم مركب أحد الأبطال أو عُرق في حجر أبيض يتراءى للبعض وكأنه أحشاء الشخص الذي قتله هذا البطل، أو مثلاً جبل «كينيو» (Kineo) شبّه بالقُدر الذي طُبخ فيه لحمه. هذه الظاهرة في شخصنة تضاريس الأرض وإعطائها أسماء أبطال وآلهة وسكبها في قالب أسطوري قصصي خرافي عامة هي ظاهرة مشتركة عند شعوب الكرة الأرضية كافة، نذكر مثلاً الصخرة المستطيلة على جبل «آرارات» (أرمينيا) التي تعتبر أنها أخذت شكلها بعد تحّجر سفينة نوح فيها، حيث رست مع قوم نوح على أثر الطوفان. لكن الفارق مع قبائل الهنود أن القصة لديهم متواصلة وتشمل مساحة جغرافية كبيرة تمثل مسافاتها ونتوءاتها مراحل الأسطورة المتعاقبة وبكل تشعباتها. وهذا نراه في إفريقيا أيضاً، ففي السودان مثلاً، دُرس نظام خرافي - جغرافي يشمل كلّ وادي النيجر الشاسع والقصص والأسماء تشترك بها وتعتمدها كلّ المجموعات الإثنية والعرقية الساكنة في هذا المحيط الجغرافي - المؤسطَر.

ولاحظ العلماء الإثنولوجيون[2]، وفي كلّ الأمكنة، أن الجماعات المختلفة تستعمل نفس أسماء العلم أو التسميات الطوطمية للأنواع والأصناف الطوطمية المعتمدة في تراثها الروحي وأن قواسم مشتركة كثيرة تجمع بين ما تعتمده هذه المجموعات على الرغم من المسافات الكبيرة التي تفصل بين كلّ مجموعة وأخرى، حيث نجد نفس المحرّمات والممنوعات على صنف نباتي أو حيواني معيّن ونفس التقديس والخوف من صنف آخر ونفس الاسم الطوطمي لجنس آخر بين القبائل الهندية في أميركا ومثلها بين القبائل الإفريقية. وقبائل «اليوروك» (Yurok) في كاليفورنيا (ربما أعطت اسمها لنيويورك)، وهذه الأخيرة هي من أكثر الجماعات التي تشخصن الجغرافيا، بحيث يُنظر إلى التضاريس على اختلافها وكأنها كائنات بشرية حيّة ومتحرّكة ويذهبون حتى تسمية البيوت. وهذه العادة عامة بين الشعوب لدرجة أنه، في الكلام الشعبي، تحلّ أسماء العلم المعطاة للأماكن محل الاسم المشترك، كالقول (بيت فلان، حارة فلان، حيّ فلان...) وهي عادة محلّية في

---

(1) لا يختلف الأمر كثيراً عن غيرهم من الشعوب، ونحن العرب، واللبنانيون تحديداً، لدينا مقولة أو مثل شعبي أو حكاية أو طرفة عن الأشهر، مثلاً «في آذار بيتساوى الليل والنهار» وكذلك عن فصول السنة والمواسم (سعد السعود)، إلى ما هنالك من طقوس ومناسبات.

(2) C. Bromberger, «Pour une analyse anthropologique des noms de personnes», in Langages, n°66, vol. 16, 1982, pp. 103-124.

المشرق خاصة عندما لا تتوفّر لوحات لعناوين الشوارع والمنازل .

وما يهمّنا في هذا المستوى الديني هو أن أسماء تلك الآلهة والمخلوقات على أنواعها وأشكالها وتعدّدها وتنوّعها عبر الزمن على حدّ سواء لدى شعوب الأرض كافة ، تشكّل كمّاً لا يستهان به من أسماء أماكن أخذت أسماء دينية نسبة إلى إله أو معبود أو قديس أو شفيع أو ولي . . . وهي لا عدّ لها ولا حصر على الكرة الأرضية[1] . وتتميّز القارة الأوروبية تحديداً بكثرة الأماكن التي تحمل إسم قديس تبدأ بكلمة (Saint/Sainte) ، التي تدخل في فئة الأسماء القدسية (hagiotoponymes) .

ويستوقفنا ها هنا ، تحديداً ، في سياق هذا المستوى الأسطوري الديني ، إسما «كفر لهيا» و «بيت لهيا» وتعني «بيت الآلهة» وهذه التسمية تتزامن من حيث اعتمادها مع نمط طقوسي معيّن ، بحيث تعكس اللغة التي سيق بها الاسم حقبة تاريخية معيّنة سادت فيها هذه اللغة اللاهوتية ، إذ من الواضح أنه كان لرجال الدين القرار الفصل في تسمية بلداتهم ذات المراكز الدينية المهمة ، فبيت لهيا إسم مرتبط بالآلهة أو الإله وهذا يعكس ارتباطا قوياً بالمعتقد العام للأهلين ما يفسّر جيداً المستوى الديني والأسطوري في التسمية ، أي أن الاسم جاء نتيجة تأسيس معبد أو كنيسة في البلدة . والمستوى الديني هو المستوى الأكثر تجذّراً في التقاليد القديمة ، كما ذكرنا مراراً ، إذ يعكس الحالة الاجتماعية الرابطة للجماعة والتي أدّت إلى تكاتفهم حول تشييد صرح جامع بينهم ، ألا وهو المعبد رمز وحدتهم . وهو عمل ليس إفرادي بل جماعي يدخل في سياق احترام التقاليد والعادات المشتركة بينهم وهو شأن عام يجمعهم وليس شاناً خاصاً حكراً على فرد أو عائلة معيّنة .

أهمّية المستوى الديني والأسطوري والفكري

إن اسم الإله أو الشفيع أو القديس أو الولي الذي يكرّم في بلدة أو محلّة ما والتي حملت اسمه يعطي المكان صفته الدينية ، المقدسة ، «حامي المدينة» (dieu poliade) . وتأتي عشتار على رأس الآلهة التي وضعت تحت رايتها المدينة في المشرق القديم ، فقد صوّرت على شكل تمثال نصفي مبرّجة أي تحمل برجاً (سور المدينة) على رأسها ، كما نراها في منحوتات عديدة تزّين المعابد (بعلبك) وكذلك على العملة . ومثلها الإلهة أثينة

---

(1) راجع ، ڤيڤيان حنّا الشويري ، معجم «آلهة وأماكن» دراسة في جغرافيّة الأسطورة والميثولوجيا» . بلغ معجمنا أكثر من سبعة آلاف صفحة موزّعة على 10 مجلّدات ضخمة . ما يدلّ على اتساع المادة ولا محدوديتها في الزمان والمكان .

شفيعة مدينة أثينا وحاميتها والتي تمثل الحكمة لدى الإغريق. ولعلّ الإله بعل الذي ما زالت إلى اليوم مدينة الشمس بعلبك تحمل اسمه هو خير مثال عما نقوله، وقد شُيّدت لتكريمه أعظم الهياكل وأضخمها بهمّة الأهلين ومشاركتهم المادية والروحية والمعنوية والجسدية وقد أعطوا أحسن ما لديهم من إمكانيات في سبيل تكريمه بأجمل مظاهر الجمال الفني، حتى غدت مدينتهم التي وضعت تحت حمايته، من أجمل المدن القديمة وأغناها، كونها ظلت ردحاً كبيراً من الزمن (حتى القرن الخامس ميلادي) محجّاً يقصده الناس من كلّ حدب وصوب في هذا المشرق الكبير، تماماً كما هو الحال مع الكعبة في شبه الجزيرة العربية وهي محجّ المسلمين في العالم أجمع اليوم[1]. هذا المعبود الخاص بمنطقة ما يكرّمه الأهالي جميعاً وبذلك يجمع فيما بينهم، كونه عنصراً من ثقافتهم المشتركة ويشكّل بذلك لحمة وثيقة ورابطاً عقدياً وإيمانياً ما من شأنه أن يعزّز الرابط بينهم ويرفع من قيمة تاريخهم الواحد، ويقوم السكان بتكريمه على شكل جماعي ما يجعل تلك الاحتفالات مناسبات اجتماعية وطنية، يلتقون خلالها ويتبادلون التهاني والتبارك ما يجعل المجتمع بنية واحدة موحّدة. وهذا التقليد ظل متبعاً في المشرق حتى اليوم وخاصة في لبنان، بحيث تكثر الأحياء والبلدات والمناطق التي تحمل أسماء قديسين أو أولياء من مثل (السيّدة/ النبي شيت/ النبي آيلا/ حي مار الياس/ مار مخايل/ الأوزاعي/ مار تقلا/ السانت تيريز/ الست شعوانه/ السيّدة زينب...) ولا تخلو بلدة لبنانية من وجود كنيسة أو عدّة كنائس أو مسجد أو مقام كلّها حملت أسماء شفعائها وقدّسيها.

ما استعرضناه من مراحل إلى الآن متتبّعين أثر نشأة أسماء الأماكن، يشكّل تلك التراتبية الحضارية المنطقية جداً، لأنها ترتكز على كرونولوجيا زمنية جغرافية ثم بشرية معيشية، ثم حضارية تاريخية تساعد في تتبّع عملية نشأة أسماء الأماكن ولا يمكن أن نعكسها، فالإنسان بدأ بالملاحظة أوّلاً ثم راح يختار ما يناسبه ويلائمه من مسكن في بيئة معيّنة، ثم استقر فيها ليبدأ عملية الإنتاج على أنواعه من تصنيع وابتكار تقني لتأمين حاجياته الأساسية الحياتية العملية، ثم بدأ بالإبداع الفكري فوضع القوانين والشرائع

---

(1) ومثلها القدس التي انتقلت بفعل الاستعمار والهيمنة الرومانية إلى روما فأصبح بذلك الفاتيكان محجّة مسيحيي العالم، وقد فُرض عليهم الأمر تعسّفاً، وهذا من باب تزوير التاريخ وتضييع الهوية، فالسيد المسيح ولد في فلسطين وليس في روما. ونسأل: من الذي يُكرّم فعلياً في الفاتيكان: يسوع المسيح أم البابا؟

والمبادئ والأسس التي عليها ارتكز نظام شَمَل كلّ أفراد المجتمع وانضوت تحته الأفكار العقدية والإيمانية والدينية، ثم راح يمارس التقاليد والعادات دورياً على شكل مهرجانات موسمية كان منشؤها الاحتفال بالأرض والإنتاج والمحاصيل الزراعية التي وضعها تحت حماية آلهة الأرض والخصوبة، فكانت المواسم الريفية خاصة الغرس والقطاف أساس الفكر الديني المتمثّل بموت الطبيعة ثم قيامتها واخضرارها من جديد، بحيث تماهى معها البشر وربطوا شرط وجودهم بوجودها وكان أن وضع الإنسان أسماءً لكلّ شيء في حياته ومن بينها الأمكنة التي استوطن فيها وسكنها وأخرى تعبّد فيها، فهناك أماكن تشير إلى وجود صروح دينية للزيارة والحج من مثل: «حجّة» في اليمن، «الحويجة» في سورية و «آيا صوفيا» (Hagia Sophia) في تركيا اليوم، وهي محج الحكمة بحسب معنى اسمها وقد بُنيت هذه الكنيسة على العهد البيزنطي، و «هاجيا ترياداا» (Hagia Triada) في جزيرة كريت، وتعني الثالوث المقدس؛ وبلدات تحمل إسم «الزيارة» في كلّ من إدلب بسورية ولبنان وكذلك «دير الزور» و«الزارة» بحماة في سورية و «مزيارة» في لبنان. ويشمل المستوى الديني، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة العامة، الأماكن التابعة لها روحياً مثل المدافن التي تعطى أسماء العائلات التي تدفن فيها، وأحياناً أسماء الأشخاص الأكثر بروزاً في مجتمعاتهم (مثلاً، مدافن آل المعلوف في زحلة -البيادر) أصبحت ناحية محدّدة أشبه بعنوان عندما يستدل عن المنطقة) و «بير لاشيز» (Père Lachaise) في باريس.

في الحقيقة، إن السياق الحضاري المرافق للمسار الطبيعي في رحلة الحياة البشرية لا يقتصر على المراحل الحضارية التاريخية أي المدوّنة (3500 ق.م.)، علماً أن التاريخ يبدأ مع الكتابة كما هو معروف، بل يشتمل على المراحل الطويلة جداً التي تعرف بعصور ما قبل التاريخ، أي تلك الفترات السحيقة من الزمن عندما كان البشر يمارسون الحياة البدائية كما هو حال مع من تبقى من أقلّيات إثنيّة وعرقية ما زالت تعيش في مناطق الأدغال والغابات والإسكيمو والتي تدلّنا على كيفية ممارسة البشر الحياة قبل الدخول في طور الزراعة أي الاستقرار وبالتالي المدنيّة. وهذه المراحل الطويلة من عمر البشرية وإن كانت تخلو من الكتابة والتدوين إلاّ أنها حافلة بالإنتاج التقني والفني والرمزي، أي بما يتعلّق بالجوانب الروحية التي نقرأ مدلولاتها من خلال ما صوّره أو رسمه أو نحته أو حاول نقشه الإنسان ما قبل التاريخ في الأماكن التي سكنها والتي، بطبيعة الحال، أطلقت عليها تسميات خاصة به، تداولتها الأجيال شفوياً لعهود طويلة وربما بقي منها أثر في المراحل اللاحقة حتى مرحلة التدوين. وهذا ما يعزّز أن التراث الشفوي هو الأهم، كونه الأسبق

والأقدم، لأن اللغة عامة وتشمل كلّ القوم، بينما الكتابة، عندما ابتكرت وتطورت، ظلت حكراً فقط على فئة الكتبة أي الكهنة التابعة للملك والتي كان لها السلطة الكبرى (لنتذكر سلطة الصحافة اليوم) والتي حفظتْ في أرشيف المعابد ما راق لأهوائها ولنزعاتها وتطلّعاتها من مادة تناسب مصالحها، بينما أهملت مواد أخرى لا تتناسب ومصالحها أو تطلّعاتها، أي أن الهوائية أوالمزاجية كانت ولا تزال هي سيّدة الموقف بامتياز. كما وأن جهل الكتبة بأماكن عديدة خارج نطاق عملهم وسكنهم وتحرّكاتهم لم يسمح لهم بتدوين كلّ شيء، بعكس التراث الشفوي الذي يستمر في التداول عفوياً وطبيعياً على مرّ السنين والذي تعتمد عليه بالدرجة الأولى العلوم المختصة بأسماء الأماكن.

والمستويات التي ذكرناها إلى الآن تُعدّ الأساس الذي ارتكزت عليه نشأة الأسماء التي أُطلقت على الأماكن في كلّ الكرة الأرضية. غير أنه هناك مستويات عديدة أخرى أكثر خصوصية، أي بحسب درجة التطوّر الذي عرفته الأقوام في أماكنها.

في الواقع، يرتبط إسم العَلَم (onomastique) إرتباطاً وثيقاً باسم المكان (toponyme) كون السكان هم الذين يطلقون الاسم على المكان الذين اختاروه للسكن أو العمل. وفي المستويات التالية التي سوف نستعرضها، ندخل في الشق الصناعي التقني والعملي للنشاط الاجتماعي (بمعناه المدني، لأن العصور التي تلت العصور الحجرية، والمصنّفة بحسب التصنيع المعدني مثل عصر البرونز (Âge de Bronze) وعصر النحاس (Calcolithique/Âge d'Airain) وعصر الحديد (Âge de Fer)، تمتد من مرحلة ما قبيل التاريخ (Proto-histoire = 5000 ق. م.) إلى المرحلة التاريخية (Historique = 3000 ق. م.)، خاصة في المشرق القديم، حيث كانت المدن قد تأسّست على نطاق متطوّر جداً ومن ثم بدأت عملية التدوين تنشط في كلّ أنحاء هذا المشرق القديم.

المستوى الابتكاري الصناعي

لعلّ مستوى الصناعات والحرفيات والابتكارات هو من أهم المستويات في نشأة تسميات المناطق والأماكن. في الواقع، لقد ميّز المجتمع مواطنيه المبدعين خاصة الحِرَفيّين وأصحاب الصناعات والابتكارات اليدوية والمهارات والفنية، وكانت هذه الحرف والصناعات تلتزم بها عائلات معيّنة كان لها الفضل في ابتكارها، كما وأن تلك العائلات التي يتوارث فيها الابن الحرفة عن أبيه وينقلها بدوره إلى ابنه، تمركزت في أمكنة محدّدة

سميّت فيما بعد بالأسواق، حيث نشأت المحترفات التي مارست فيها كلّ عائلة مهنتها، فأخذت أسماء الحرفة التي تزاولها حتى أصبحت المهنة هي نفسها كنية عائلية بحدّ ذاتها، يدرسها علم أسماء الأشخاص (onomastique). والغالبية العظمى من تلك الأسماء ما زالت حيّة إلى اليوم رغم تغيير المهنة من قبل أفراد العائلة (السكاف، الحدّاد، النجّار، الفاخوري، اللحام، الجزّار، الحلاق، المكاري، الكرّام، المبيّض، المهندس، المعماري، القهوجي، الطرّاش، المكحّل، الصبّاغ، الحايك، الكيّال، الكلاس، الصيرفي، القبّاني، البيطار، طبيخ، الحلاق، المعلوف، العلاّف، الجمّال، الطحّان، الخبّاز، البرّاق، التنوري، الحلاب، الزيّات، الحجيّري، القنطار، الشرابي، البستاني، الراعي، الخادم، الجوهري، قلعجي، المكاري، الغنّام، الخيّاط...) وما لبثت أن أعطت أسماءها لأحياء أو بلدات أو مناطق مثل (مرفأ الحديدة» في اليمن/ الحديدية، في لبنان؛ راشيا الفخار/ عيتا الفخار في لبنان) ما يدلّ على توسّع نشاط تلك الحرف وامتدادها. ولا يقتصر الأمر فقط على الأقوام العربية، فلا زالت عائلات أجنبية وغربية كثيرة تحمل أسماء مثل: (Boulanger/ فرّان)؛ (Charbonnier/ عامل الفحم أو بائع الفحم)؛ (Tessier/ ناسج)؛ (Smith/ حداد) وغيرها الكثير تدلّ على حرفة العائلة الأساسية والتي أعطت أسماء أماكن عديدة أوروبية عُرفت بتلك المهن من مثل (Charbonnières-les-Bains) أو (Smith Lake).

وهنالك مدن بكليتها يُنسب اسمها للصناعة (مثل صنعاء في اليمن) وكذلك للصناعات التي تميّزت بها، فعلى سبيل المثال، يُفسّر اسم «قرطبة»[1] في الأندلس

---

(1) اعتماداً على ما ورد عند ياقوت الحموي (معجم البلدان، ج4، ص324) بشأن أصل مدينة قرطبة فإن أصل اسمها يرجع إلى مصدرين، أوّلهما أعجمي روماني وثانيهما عربي. أما معنى الكلمة في اللغة العربية فيقصد بها العدوُ الشديد، وورد في الشعر العربي بيت جاء فيه ذكر الكلمة:

إذ رآنـي قد أتيتُ قرطباً وجال في جحاشة وطرطباً.

وفي رواية أخرى أن التعبيرَ «قرطبة» بمعنى «صَرَعَهُ»، وتعني أيضاً أن القرطبا هو السيف كأنه من قرطبة أي قطعه. أما بخصوص إرجاع الكلمة في أصلها إلى اللغات القديمة فقد أشار إليه مؤلّف مقالة «قرطبة» في دائرة المعارف الإسلامية والعديد من الكتاب الغربيين والعرب، فالكلمة أصلها أيبيري قديم مأخوذ من كلمة «كوردوبا» (Corduba) أو (Corduva). وهي بالفعل، كما قال المؤلّفون العرب، كلمة قديمة تشير إلى مدينة قديمة أزلية. فقد ورد ذكرها أثناء الصراع بين اليونان وقرطاجنة حيث اشترك أهالي قرطبة في حملة حنا بعل على روما. وأصبحت تابعة للإمبراطورية الرومانية بحدود سنة (206 ق. م.)، (عبدالجبّار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية)، راجع أيضاً («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

بإسبانيا على أنه متحدّر من صناعة الجلود لاشتهار المدينة به. وعليه، يقال إن اسمها (Cordoba بالإسبانية، Cordoue بالفرنسية) يتحدّر من حرفة صناعة الجلود والنعال (الكندرة أو الكندرجية بالمحكية cordonnerie) والجلد (cuir) ومشتقاته ويسمّى نوعه تحديداً (Guadamacile) وفي شكله يتميّز بالبروز والنتوء وباللون الذهبي. وتُنسب هذه الصناعة في الأصل إلى مدينة «غدامس» (Ghadamès) في ليبيا. وتقع قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) وهو كما يظهر بوضوح إسم محرّف من العربية (L'Oued-el-Kabir) إلى الإسبانية كما هو حال معظم أسماء الأماكن في الأندلس والتي تعود بتسمياتها للعرب. وتنتمي المنطقة إلى حضارة «ترشيش» (Tartessos) الفينيقية والتي ورد اسمها في التوراة في معرض الحديث عن تجارة المعادن (ار 10 : 9) كالحديد والقصدير (حزقيال 27 : 12)، وكما وأن الاسم يشبه «طرطوس» وهي مدينة على الساحل السوري. واسم «ترشيش» يعني النحاس بالفينيقية وكذلك يفسّر أنه «معمل للتكرير»، وبلدة «ترشيش» ما زالت محافظة على اسمها في لبنان، وهنالك (Tarsis) في آسيا الصغرى. ومن الخطأ تفسير إسم «ترشيش» (Tharsos) على أنه يوناني الأصل كما يرد في المعاجم. وفي العصر الروماني، عرفت منطقة «الوادي الكبير» باسم (Baetis/Betis) ويظهر واضحاً الاسم العربي (بيت). هذه التسميات الفينيقية الأصل تعزّز أن قرطبة الأندلسية هي تسمية عربية – فينيقية في الأصل وتعني برأينا (القرية الطيبة) وهنالك عدد كبير من البلدات في المشرق العربي وفي سورية الكبرى تحديداً، تحمل هذا الإسم، على رأسها قرطبة في كلّ من دمشق ولبنان و «قرة طيبة» وقد حرّف اسمها (Kara Tepe) بعد أن ضمّتها تركيا.

ولا ننسى أن مناطق عديدة اشتهرت بمنتوجاتها الصناعية الغذائية، مثلاً، سميّت إحدى البلدات في جنوبي إنكلترا «تشيزويك» ومعنى الاسم (مزرعة الجبن) لاشتهار المنطقة بانتاج وتصنيع الألبان. بالمقابل، فإن الكثير من المناطق أعطت أسماءها للمنتوجات والمصنوعات الخاصة بها، فعدد الأجبان الفرنسية التي تحمل اسم مناطق تصنيعها لا عدّ لها ولا حصر. وكذلك تشتهر بعض المناطق بمياهها المعدنية فيصبح اسمها ماركة صناعية وتجارية، مثل (Evian) في فرنسا، «الفيجة» في سورية و «فيشي» (Vichy) في فرنسا... ومناطق أخرى أخذت أسماءها من ثرواتها الطبيعية مثل (ساحل العاج) في إفريقيا و(ساحل الذهب) في «بورغونيا» الفرنسية، وكذلك «غانا» كان اسمها

(ساحل الذهب)، ولربما سمّيت بغانا أي الغنية لغناها بالذهب.

والصناعات والابتكارات لا تقتصر فقط على كونها يدوية وإنما هنالك اختراعات وإبداعات علمية وفكرية أيضاً أعطت أسماء عائلات من مثل (الشاعر/ المعلم، الحكيم، الجرّاح، القاضي، العوّاد، القسيس، الخوري، الشمّاس، الخطيب، المطران...) كلّها تدلّ على المهن التي زوالها الأجداد الأول لتلك العائلات والتي حملت هذه الألقاب والتي أيضاً سميّت الأماكن على أسمائها (من مثل المختار/ المختارة). وإن انتقال الأشخاص أو نزوح العائلات وهجرتهم، وهذه حركة طبيعية في التاريخ بفعل التجارة أو العمل أو المشاكل العائلية أو الحروب التي يضطر معها الأفراد إلى الهروب، تجعل السكان المحليون يكنّون الشخص بالبلد الأصلي الذي جاء منه، مثل (البغدادي، الموصلّي، الشامي، الجزائري، المغربي، التونسي، المقدسي، المصري...) وبعض الجاليات أعطت أسماءها لمناطق كبيرة تكاثرت فيها وأصبحت من أسيادها، مثل «النبطية» في جنوب لبنان، نسبة إلى الأنباط والمعروف أن مملكة الأنباط العريقة هي في الأصل البتراء (Petra) في غور الأردن.

وهنالك بلدات تحمل أسماء تدلّ على معاني مرتبطة بالحالة الفكرية أو الحالة الاجتماعية المميّزة للسكان، فبلدة «الجاهلية» في لبنان ما زالت تحتفظ باسمها الذي يُظن للوهلة الأوّلى، كما يدلّ عليه لفظه العربي الصرف، أنه يعني الجهل (ignorance). ولكن الباحث المدقّق والآخذ بعين الاعتبار العقلية البشرية التي ترفض الذم وتطمح دائماً للسمو والافتخار، يدرك أن السكان المحليين، لولا معرفتهم التامة بالمعنى الحقيقي لإسم بلدتهم ما كانوا أبقوا عليه. من هنا وجوب التعاطي مع أهل المكان والأخذ بما ورثوه من تفسيرات عن أجدادهم، فعندما يُسأل أبناء الجاهلية عن اسمها يردّون بفخر أن معناها «الجاه لي» أي «أنني ابن عزّ ونبل». ولعلّ المرحلة الزمنية التي سبقت الإسلام كفكر وحضارة عند العرب والتي سمّيت بالجاهلية، تدلنا على تلك الحالة النفسية والاجتماعية التي عاش فيها العرب قبل الإسلام والقائمة على التغنّي بالنسب والحسب والمكانة والرفعة التي كانت تتمتّع بها بعض القبائل وتتفاخر، وهذا ما غيّره الفكر الإسلامي الموحّد والذي ساوى بين الأقوام كلّها ونبذ الاختلافات الطبقية بينها. وهنالك قرية «الجاهلي» في اليمن، تمتاز بعمرانها التراثي التقليدي المميّز لبلاد اليمن السعيد وتتفرّد بجمالية نادرة، ما يدلّ على طبقة غنية، كان بمقدورها بناء مثل تلك العمارات الغنية الزينة

والزخرفة والعالية التكاليف.

وهنالك أماكن تدلّ أسماؤها على حالة فكرية معيّنة أو على التأثير النفسي الذي يحدثه المكان على المرء، من مثل «وادي عبقر» واتفق العرب أنه مأهول بالجن واسمه «وادي البقار» في الأصل[1]، («جنين» في فلسطين و«بيت جن» في سورية)، و«صَحن الجن» اليمني أو أماكن تدلّ على معاني نفسية من مثل «قصر المعاشيق» في اليمن أو «المعشوق» أو «عشقوت» في لبنان. وأمكنة تثير الريّبة ولكأنها كانت مخصّصة لممارسات شاذة أو تأديبية من نوع خاص، مثل «قرنة المذبحة» بجرود رأس بعلبك أو «المشنقة» في لبنان وهذا المكان يقع بجوار بلدة «غينة» في أعالي جبيل والشهيرة برسومها المحفورة في الصخر والتي تدلّ على أسطورة «عشتروت وأدونيس»، حيث يظهر الشاب الصياد وقد هاجمه الخنزير البري المتوحش وقتله، وعلى صخرة أخرى نُحتت صورة عشتروت وهي جالسة حزينة تبكيه[2]. وهناك «جبل خنوقة» في شبه الجزيرة العربية، تقول الرواية المحلّية إنه مسكن قبيلتين من الجن، الأولى مسالمة لا تؤذي أحداً والثانية شريرة يطال شرّها المسافرين.

---

(1) «أشار العرب إلى «جن البقار»، واختلفوا في البقار هل هو وادٍ أم جبل أو رملة، إلاّ أنهم اتفقوا على أن وادي عبقر وادٍ مأهول بأمّة من الجن؛ ولذا كثر ذكره في أشعارهم ورواياتهم، حتى أن بعضهم ذكر أن فيه قرية عامرة بأصناف من الجن التي ينسبون إليها كلّ شخص ذكي، فيقولون «عبقري» نسبة إلى وادي عبقر الذي ترجحّ الروايات أنه في أرض اليمن - على خلاف بعض الأقوال التي زعمت أنه بين جبال الحجاز وتلك التي ذهبت إلى القول بأنه وادٍ في فيافي نجد -، كما قالوا إن «بلاد الشحر» في حضرموت مشهور بتواجد الجن، ولذا قالوا: إن من قبائل الجن «بنو غزوان»، وأن من ملوكهم «الشنقناق» و«الشيصبان»، وروي أن بعضها سكن في قصر الخليفة العباسي المعتضد بالله في بغداد وروّع أهله. كما ذكرها بعض الشعراء مثل «بشّار بن برد» و«الشنفرى» و«السليك بن سلكة» و«تأبّط شراً»، و«ابن الورد»، وأكثروا من ذكر «العوامر»، وهي قبائل من الجن سمّيت بذلك لأنها تسكن البيوت، لا سيّما المهجورة منها - أي تعمرها بسكناها -، ولذا يقال هذا البيت مسكون، أما العفاريت فهي القوية منها، ومع هذا فكلّها ضعيفة في كيدها وقدراتها على إيذاء الإنسي إذا تحصن منها بما شرعه الله له كتلاوة القرآن العظيم، والتحصّن بالأوراد الشرعية الصحيحة، والتعوذ بالله من الجان وشرورها وكيدها. راجع: («أودية الجن في شبه الجزيرة العربية»، مقال من الإنترنت).

(2) أفرد لها الأب لامنس اليسوعي فصلاً مطوّلاً، في كتابه «تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار»، طبعة جديدة، 1996.

ومن المهن التي ميّزت بعض الأماكن، نذكر المهن المتعلّقة بالشؤون الروحية مثل الكهانة (القسيس/ الشيخ/ الإمام/ الخطيب/ الشمّاس[1] . . .) والعرّافة والتنجيم والسحر وكلّ ما يتعلّق بالشعوذة، إذ كان لها أربابها وما زالوا إلى اليوم. ولكن بعض الفئات كان لها الدور الأبرز مثل الكهنة الذين اؤتمنوا على مراقبة حركة الأبراج والكواكب من أجل الاستدلال بها وليس للشعوذة والتدجيل ومعرفة الغيب، ولعلّ بلدتي «مسحرة» في سورية و «بيت ساحور» في فلسطين أخذتا إسميهما من آل الساحر وكانت مهنتهم السحور أيام الصيام. وما زلنا نمارس إلى اليوم ظاهرة مراقبة القمر في الشرق، متبعين التقويم القمري[2]، من أجل تحديد الأعياد والتي يقرّ بها رجال الدين فيعطون الأمر ببدء موسم العيد وغيره من التقاليد الدينية. وبعض العائلات حملت إسم مهنتها الفلكية كونها كانت من هؤلاء الفلكيين القدماء، مثل (هلال/ نجم/ نجيم/ كواكبي/ شمس/ قمر/ الزهري/ الأزهري/ سنو/ الغزالي/ شهاب/ زحلاوي . . .) وأعطت أسماءها لمناطق سكنتها أو مارست مهنتها فيها، مثلاً «بيت هلال» عاشوا إلى زمن غير بعيد في حرّان شمالي سورية وهي العائلة التي بقيت تمارس مهنة الفلك لفترة طويلة من الزمن وربما نزحت منها جاليات أعطت أسماء أماكن مثل بلدة «الهلالية» في لبنان، وربما كان فيها قديماً مرصد فلكي. والأماكن التي تحمل أسماء كواكب وأبراج عديدة منها «الشهباء» و «أشيهب»[3] في سورية؛ و«قمران» على البحر الميت وهي الشهيرة بلفائفها أو ما يُعرف باسم «مخطوطات

---

(1) مثلاً، بلدات مثل «مشيمشة» «مشموشة» . . . بالسُريانية «مشيمشو» أي الشمامسة، وهنا يردّنا الاسم إلى طقوس كاهنوتية ودينية قديمة جداً في سورية وهي أن الشمّاس كان كاهن معبد الشمس الإله الأكبر والمعبود الأعظم في المشرق (رع أو أتون في مصر/ أيل في كلّ سورية؛ ورث اليونان البعل على اسم «أبولون» Apollon والرومان سمّوا الشمس Sol Invictus . . .) والسيّد المسيح هو الشمس والنور؛ ولويس الرابع عشر (1638-1715) حمل لقب «الملك الشمس» (Le Roi Soleil, Louis XIV).

(2) يقابله التقويم الشمسي المعمول به في الغرب وهو ليس دقيقاً، لأن الشمس ثابتة والكواكب بما فيها الأرض هي التي تدور حول الشمس، وكون القمر يدور حول نفسه فهو إذن متحوّل، من هنا دقّة التقويم الطقسي المعتمد على الدورة القمرية.

(3) تكثر البلدات التي تحمل اسم «الشهباء» و«أشيهب» و«شهبة» في سورية الطبيعية، ولعلّها عائدة في أصل تسميتها للمستوى الجغرافي أي الأول في ترتيب مستويات التسميات والعائد إلى الطبيعة الجيولوجية التضاريسية للمنطقة، مثل منطقة حوران وطبيعتها بركانية بامتياز، وحيث تقع بلدة «أشيهب» ومدينة السويداء. ولا تشذّ بلدة «الحجر الأسود» و«كوكبا» وغيرها الكثير في سورية عن هذه القاعدة.

البحر الميت»، و«درب السين»، والسين كما هو معروف هو القمر عند العرب ما قبل الإسلام، ومثلها شبه جزيرة سيناء في مصر. ولعل المثل الأبرز حول التسمية الدينية المتحدّرة من طقوس العرّافة والكهانة هو «الفاتيكان» (Le Vatican) نفسه، وهي الحاضرة الدينية الأكبر، باعتبارها الدولة الدينية الوحيدة في العالم، وهذا مردّه بلا شكّ أنها تستمد هذه الميزة من تاريخها العريق، فقبل اعتناقها المسيحية كانت أيضاً ذات طابع ديني بحت ومركز العرّافة الرومانية بشهادة اسمها «الفاتيكان» نفسه الذي يتحدّر من الفعل (Vaticener du latin Vaticinor = prophétiser) أي «تنبأ» أو «العرّافة». يقول اللغويون القدامى من أمثال (Festus Grammticus) إن اسم «الفاتيكان» (Vaticanus) يتحدّر من (Vaticinium) أو أكثر تحديداً (Vātes/Vātis) والتي تعني «عرّاف» (devin) أو «متنبيء» أو «متبصّر» (voyant)، لأن العديد من العرّافين سكنوا تلك الناحية من نهر «التيبر»، ومن المعروف أنه خلال حكم القيصر «تيبيريوس» (Tibère 42-37 ق.م.)، كان فن العرّافة ممنوعاً خصوصاً في روما، بل كان يُعدّ جنحة فادحة يعاقب عليها القانون بصرامة[1]. ومنهم من يشكّك بهذا التفسير ويعزو اسم الفاتيكان في أصوله إلى مدينة أتروسكية، كانت تدعى (Vaticum) كان موضعها في المكان نفسه أو أن التسمية تعود إلى الإله (Vaticanus) الذي كان يرعى بداية الكلام لدى الأطفال[2] أي (الفاتحة vate) برأينا، والذي كان معبده يرتفع فوق التلة نفسها (Vaticanum) في الموقع نفسه الذي يقع عليه الفاتيكان اليوم. وكانت هذه التلة مركز الإقامة للعرافين (La maison des Vates) لزمن طويل في العصر الما قبل مسيحي في روما[3].

من ناحية أخرى، فإن بعض الفلاسفة والمفكّرين والكتبة والمؤرّخين والجغرافيين والرحّالة... نُسبوا إلى المناطق التي عاشوا فيها (أبو العلاء المعري/ ياقوت الحموي/ الأصفهاني/ الأفغاني/ النيسابوري...) بالمقابل، هناك مناطق عديدة أعطيت إسم مخترع أو عالم كبير كرّمه الأهلون بأن أعطوها اسمه لتخليد ذكراه. وتكثر الشوارع والجادات والطرق والحدائق التي تحمل أسماء عظماء ومشاهير وملوك وأمراء ورجال سياسة ورجال دين لهم قيمة مميّزة لدى أبناء قومهم...

---

(1) Louis Deroy, Marianne Mulon, *Dictionnaire des noms de lieux*, Le Robert, 1994.

(2) Article *« Vatican »*, Dictionnaire de la Langue Française d'Émile Littré.

(3) (Encycl.), *« A Secret History of St. Peter's Basilica and Vatican City »*.

أهمّية المستوى الابتكاري الصناعي

إن الحِرف على أنواعها والصناعات على أشكالها هي نشاطات إنتاجية، عملية، ضرورية لكلّ البشر بحيث تشترك جميع الحضارات والثقافات بوجود صناعات وابتكارات خاصة بها، فكلّ البشر زاولوا الحفر في الحجر والخشب وصناعة الفخار والزجاج والحدادة والنجارة والحرف اليدوية والطب والعمارة... وغيرها من التقنيات والمهارات التي ساهمت في تحسين ظروفهم المعيشية والحياتية والاقتصادية والإنمائية، ولا يستثنى أحد من الأقوام في العالم من هكذا ابتكارات، ولعلّ القبائل التي ما زالت في طور البدائية هي الأكثر محافظة على حرفياتها لعدم وجود بديل لها، وكذلك هو حال المجتمعات المدنيّة ذات الاستهلاك الصناعي الكبير بفعل المصانع والآلة. وهذه الشمولية في ممارسة الصناعة تفيدنا، من خلال دراسة الأسماء واستناداً على معانيها، أن ثمة وحدة لغوية تجمع بين هؤلاء الحرفيين ما يعزّز فرضية الوحدة الحضارية والقومية، أقلّه على امتداد جغرافي واحد، فعائلة الحداد أو النجار أو الفاخوري منتشرة في كلّ الوطن العربي بمختلف أقوامه وشعوبه، ما يعني أن التسمية كانت مشتركة بين كلّ مزاولي تلك الحرف وإن لم يكونوا من أصل عائلي واحد، إلاّ أن التعبير اللفظي الذي يدلّ على الحرفة خاصتهم دلّ عليهم بنفس الإسم. ولكثرة أصحاب المهن والحرف والصناعات، فإن أسماءهم هي الأكثر عدداً والأكثر شيوعاً على صعيد الانتشار الجغرافي.

وتجدر بنا الإشارة في هذا المضمار الإنتاجي والاقتصادي، إلى أنه وبتأثير العولمة، تحصل اليوم إختراقات في الهويات الإنتاجية التي ارتبطت بمكان محدّد واستمدّت اسمها منه، فدخلت مسألة التسميات الجغرافية في مطلع التسعينيات ساحة الصراع الاقتصادي[1]. في هذا الإطار، بات الطرح المهيمن يهدف إلى إلغاء هوية المكان في تحديد هوية المنتج وخصوصيّاته الذاتية الناجمة عن العلاقة المتراصة في الزمن بين الأرض والمعارف الإنتاجية للإنسان المرتبط بالأرض، هذا علماً أن العلامات الصناعية غالباً ما تكون مرتبطة بتسميات ذات طابع اعتباطي وظرفي ومزاجي، فيما التسميات الجغرافية مرتبطة بمنتج يتمتّع بشخصية مركّبة عبر مراكمة المعارف وتطويرها، (مثلاً بورسلين

---

(1) ر. القارح، «التسّميات الجغرافية بين التاريخ والواقع والفعل المستقبلي» (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، آيار 2010).

دو سفير/ Porcelaine de Sèvres)، عبر الزمن وفي ارتباطها بالمكان وعناصر تحديد هويته التي تحمل خصوصية وطنية.

المستوى الاستكشافي والتجاري والتوسّعي

ويشمل هذا المستوى البحث عن الموارد الاقتصادية والبحث عن أسواق تجارية والحاجة إلى التوسّع والاستيطان بفعل التنمية وزيادة السكان والمنتوجات، ينتقل الإنسان حينها من محيط المنشأ إلى أماكن أخرى يتوسّع فيها فيعطيها الأسماء نفسها التي ابتدعها في محيطه وما يلبث المكان المستحدث أن يأخذ الطابع نفسه للمكان الأصيل أو الوطن الأم. وبعد الاستقرار، يبدأ الانتشار الثقافي والفكري حيث تُطبع الأماكن المستوطنة بالإسم وبالفكر الذي حملته معها الجاليات، وهذه الحالة ما زالت إلى اليوم حيث مدن وبلدات سورية ولبنانية وفلسطينة عديدة نشأت في العالم من قبل المهاجرين وأعطيت أسماء بلداتها الأصلية.

وكان الأمر كذلك بالنسبة لإكتشاف العالم الجديد من قبل الأوروبيين، حيث أعطيت الأسماء الأوروبية للأماكن في القارات المكتشفة بشكل كثيف، كما عمّم الأوروبيون ثقافتهم على الشعوب المحلّية التي سيطروا عليها بالاستعمار العسكري والثقافي. ومن خلال الأسماء حاملة الحضارة والفكر، استطاعت الشعوب الأقوى السيطرة وفرض فكرها وثقافتها ولغاتها ويستدل على تلك الحيثيات التاريخية من خلال أسماء الأماكن.

أهمّية المستوى الاستكشافي والتجاري والتوسّعي

لعلّه من أهم المستويات في عملية الانتشار الناقلة للثقافات بكل عناصرها ومميّزاتها، من هنا ما يفسّر تشابه الثقافات العالمية ببعضها البعض، فالحضارة الأقوى هي التي تسعى إلى التوسّع وهي بالتالي التي تفرض مقوّمات ثقافتها على المجتمعات الأقل تطوّراً، وهي التي تفرض لغتها وتضع أسماءها على كلّ المرافق التي تشغلها وعلى كلّ الأماكن التي تستقر فيها وعلى كلّ البضائع التي تصدّرها. وما المفردات التجارية وأسماء السلع الكثيرة التي نقلتها سفن الفينيقيين قديماً إلاّ التعبير الصارخ عن تقدّم المشرق القديم صناعياً على غيره من المجتمعات التي وصلت سفنه إلى سواحلها محمّلة بالمنتوجات والسلع والأواني والحلي والأثاث والأنسجة ومنها ما أعطت اسمها الخاص الذي انتشر في العالم القديم وأصبح ماركة مسجلة لصاحبها التاجر ولمنتجها الصناعي الذي شاع اسمه أين

ما حلّت بضاعته. وما كتبه المؤرّخون القدامى وفي طليعتهم الإغريقي «هيرودوتس»[1] عن التجارة الفينيقية لافت وغني بالمعلومات ويحيط بالموضوع من كلّ جوانبه حتى أنه لم يُعرف الفينيقيون إلاّ بالتجار وملوك البحار لشدة معرفتهم بهذا الحقل الذي طغى على كلّ ما عداه من ابدعاتهم الكثيرة. وقد لفتني تفسير أحد الزملاء عندما تحدثت يوماً عن التجارة القديمة التي كانت تعرف بالمبادلة التجارية، أي بضاعة مقابل بضاعة واستعمال المصطلح الأجنبي (troc)، فبادر بكل عفوية وقال: «هذا طبيعي، فالى اليوم يتلفّظ التاجر عند إنزال البضاعة بعبارة «ترك» أي «اتركها حيث هي فأنا موافق على الشراء». وهكذا يفسّر انتشار حتى الأفعال والعبارات الفينيقية - العربية وليس فقط الأسماء.

وخلال تجوالاتهم وإبحارهم يتيه البحارة وتضيع القوافل، لذا نجد عدداً من الأسماء تدخل في فئة الأسماء المصنفة «تفاؤلية»، أي الأسماء التي تطلق تفاؤلاً بالمكان، مثل «رأس الرجاء الصالح»، الذي أطلقه البحارة العرب على أقصى نقطة في جنوب إفريقيا، وكذلك بحر «بنطس» الذي أطلقه اليونان القدماء على البحر الأسود بمعنى «البحر المضياف». وثمة أسماء قد لا يكون لها معنى على الإطلاق، وخاصة للناس العاديين، ولم يعد يُعرف لها من معنى، ربما أعطيت للأعاصير أو الكوارث التي واجهها البحارة خلال مغامراتهم وصراعهم مع قوى الطبيعة العاتية. وتجدر الإشارة إلى أن تسمية الأعاصير البحرية المدمّرة التي مصدرها المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ وغيرها، ما زالت سائدة إلى اليوم، فقد جرت العادة الجوية لدى علماء الأرصاد الجوية على إطلاق أسماء أعلام أنثوية (ومؤخّراً ذكورية) محبّبة على الأعاصير رغم قسوتها وشدة تدميرها، كإعصار «بيتسي» وإعصار «نانسي» و«جين» و«آن» وغيرها. ويقوم مستكشفو الفضاء بوضع أسمائهم على المجرّات والنيازك والأقمار التي يستكشفونها، على خطى أسلافهم من الفلكيين القدامى الذين ملأوا الكون بأسمائهم، على رأسم «غليليو» (Galilée)[2] الذي أُعطي اسمه لأحد الأجسام الفلكية الصخرية الشمسية (astéroïde) وأيضاً للمركبة الفضائية التابعة للنازا،

---

(1) أسهب المؤرّخ الإغريقي «هيرودوتس» في التحدّث عن تجارة الفينيقيين وتوسّعها وعن طرق تعاملهم مع الشعوب التي وصلت بضاعتهم إليها (Herodotus, *Histoire* III, 107).

(2) غاليليو: عالم فلكي ورياضي إيطالي (ولد في بيزا سنة 1564 وتوفي سنة 1642). نشر نظرية «كوبرنيكوس» ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أوّلاً بإثبات خطأ نظرية «أرسطو» حول الحركة. حكم عليه رجال الدين بالهرطقة، ولكن أعيد إليه الاعتبار حديثاً.

وكذلك لفوهة بركان على القمر وأخرى على المريخ، وسوف يطلق إسم «غليليو» على النظام الأوروبي الفضائي المستقبلي. وقديماً، أعطيت أسماء الآلهة للكواكب (زحل، الزهرة، المريخ، عطارد، المشتري، أورانوس، نبتون.../ Saturne, Vénus, Mars, Mercure, Jupiter, Uranus, Neptune...).

خلاصة القول إنه يبقى هنالك مستويات عديدة أخرى كانت سبباً في نشأة أسماء الأماكن، لا يمكن حصرها كلّها، بل يمكن القول إن كلّ ما يتفاعل معه المرء في بيئته وفي محيطه العملي والفكري هو سبب لتسمية مكان ما، شرط أن تتوفّر السلطة والقرار لفرض هذه التسمية أو تلك والحفاظ عليها. فصاحب القوة[1] (أي النفوذ بمعناه الإيجابي) هو الذي يسمح أن يطلق إسم معيّن على مكان معيّن وأن يبقى مع مرور الزمن ويخلد وأن لا تتم أزالته من قبل اللاحقين فيضمحل إلى الأبد.

ووحدها الشعوب الحرّة ذات السيادة الوطنية الصرفة هي التي تسعى بكل قواها إلى الإبقاء على أسماء مناطقها الموروثة من أصول جديرة بالاحترام، انتقلت إليها عن أجدادها وتضمّنت أسماء عظمائها ورجالاتها وقادتها وأبطالها وكبار نبلائها وصنّاع حضارتها. وحدها هذه الشعوب الحرّة تعمل على أن تبقى أسماء أماكنها في الحفظ والصون وبمنأى عن الأيادي العابثة بالتراث الوطني، لأن الأسماء عنوان هوية حضارية خاصة وذات معنى إنساني يحمل في طيّاته أنفاس الأجداد ونمط تفكيرهم ورؤيتهم ونضالهم وصراعهم من أجل البقاء والحفاظ على الأرض التي سوف تؤول إلى أبنائهم والذين عليهم العمل بالمثل والمقاومة خاصة زمن الاستعمار خشية أن تزال هذه الأسماء من خارطة الجغرافيا والتاريخ وبالتالي من الذاكرة الجماعية. والأهم المحافظة على أصولها اللغوية والكتابية وعدم تحويرها، لأنها ذاكرة وطن.

أما الشعوب الخانعة المستعبَدة والمستبعَدة من الوجود الحضاري فهي التي لا تسعى للحفاظ على هويتها بإهمال أسماء المناطق وهي نفسها التي، على العكس، تحافظ بقدسية على أسماء الأماكن التي خلّفها المستعمِر وراءه وتقاتل وتكنّ العداء لأبناء شعبها ممّن يرفضون تلك الأسماء التي تذكّر بالذل والعبودية، وما تفانيها للحفاظ عليها والعمل

(1) والكيان الصهيوني المغتصِب خير دليل على أن صاحب القوة هو صاحب القرار، وما تهويد القدس وربما فلسطين كلّها، قائم إلاّ لأنها تحت قوة الاغتصاب الدائم من قبل أعداء الأمّة، الصهاينة. (خصّصنا مساحة لهذه المسألة في الفصل الرابع).

من أجل عدم زوالها وحمايتها بقدسية ما بعدها قدسية ، لا بل هي مستعدّة لشنّ الحروب ودعم الإقتتال والتحريض على الفتنة بين أبناء الوطن الواحد ، إلاّ من باب الخوف على تدمير إرث الاستعمار المذلّ والمهين لها أوّلاً وللشعب وللأمّة كلّها . (مخلّفات التتريك والفرنسة والأنكلزة والأمركة والتهويد كثيرة في بلادنا . . .) لا بل وتتفانى إلى حدود الشهادة في الإمعان في التزوير والتعامل ضد إرثها الحضاري ، فتطلق الأسماء الاستعمارية على ما يمكن أن تمتلكه من أماكن ومحلاّت وصناعات ومنشآت بهدف تضييع اللغة والفكر المحلي ، بحجّة قدمه وبلائه وعدم جودته وملائمته للحداثة . وكون هذه الجماعات الموالية للمستعمِر تحمل أسماء وكنيات وتتباهى بثقافة أجنبية ، فلما لا يكون اسم المحلّة أو البناية أو المكان أو المنطقة أو المدرسة أو المعهد أو المحلاّت أو المسرح التي ترتاده أجنبياً كذلك ؟ والعجيب أنها تخدم المستعمر مجاناً وتسوّق له من دون مقابل في أغلب الأحيان ، فقط يدفعها لذلك تعصّبها له ونبذ ثقافتها الأصلية . والأغرب أنها لا تتعظ من المستعمر والمحتل الذي يسعى لبسط سيطرته من خلال تعميم الأسماء الخاصة به على الأماكن التي اغتصبها وتعميم لغته وثقافته فيها ! فكم من عقدة نقص إزاء المستعمر قد تعشّشت في النفوس إلى الأبد ، وهذا مردّه للعبودية والخنوع والخمول . ألم يقل ابن خلدون إن المغلوب يقّلد الغالب ؟ وهل ثمة من يقلّد غير القرود ؟ والفعل الفرنسي «singer» يدلّ بوضوح على ذلك ! والإبقاء على أسماء المناطق التي وضعها المحتل حتى بعد خروجه منها ، يدلّ على ضعف الكيان أو الدولة «المستقلّة» وعدم نهوضها بعد الاستقلال المزعوم لعدم تمكّنها من إحياء إرثها الحضاري أو إنشاء ثقافة بديلة تضع بصماتها الخاصة عليها ما يجعلها عرضة دائماً للالتحاق والسير وراء من استعمرها واستعبدها وسلبَ قوتها وإرثها الحضاري الذي عليه تبنى هوية الدول ذات السيادة .

هذا التخلّي والاستهتار بالموروث الثقافي واللغوي من قبل أهل البلد نفسهم ولحاقهم بثقافات أخرى يجعلهم في فراغ حضاري ، فلا هم حافظوا على إرثهم ولا هم أصبحوا من النسيج الثقافي الذي تبنّوه وله ارتهنوا وتحته يرزحون . وما زالت هذه الجماعات مؤتمرة من الخارج وقد فقدت عزّتها وكرامتها لدرجة الانسحاق فهانت نفسها عليها وهان بالتالي وطنها أيضاً وهذا عنوان ضياع تام ، فراحت تهدم بيوتها بأيديها وأيدي من يأمرها بذلك وهذا الذي يفسّر ضياع آلاف الأسماء الأصلية ومحوها عن البلدات التي كانت تحملها قديماً . والخطورة في الأمر أن هذه الأسماء المكانية التي وضعها المستعمر والتي تعكس فترة

زمنية محدّدة هي فترة سيطرته، لا تعكس سوى ثقافته ولا تمت لثقافة الأهلين والمواطنين الأصليين بصلة، بل هي غريبة بالمطلق ولا تعبّر عنهم بأي حال من الأحوال، ما يجعلهم في غربة لفظية ومعنوية مع الاسم المستحدث، الذي يتعصّب له الموالون للأجنبي عن جهالة، ما يشكّل عامل تفرقة بين أبناء الشعب الواحد، لأن الاسم يذكّر بمرحلة قاتمة من الذل والموت والاستعباد، في حين يصرّ الموالون للمستعمِر المحافظة عليه رغم أنه ليس كما الأسماء الأصلية الموروثة عن الأجداد عاملاً جامعاً يبرهن عن هوية واحدة لأبناء الوطن الواحد، والتي، لهذا السبب، عمد المحتل إلى تغييرها وإزالتها كلّياً من الوجود وهذا دليل على رهبة المستعمِر من العناصر المكوّنة للثقافة المشتركة للأقوام المستعمَرة وضرب رموزها من لغة[1] وصروح ومنشآت عامة وتدنيس لدور العبادة المشتركة وحرق الإرث الأدبي والفكري لهم، وتزوير أسماء عظمائهم وأبطالهم وقادتهم وأدبائهم وفلاسفتهم، فالمعروف أن الوطنيين يستحضرون رجالاتهم العظام زمن الأزمات للتمثّل بهم والسير على خطى ثورتهم ضد المحتل ما يجعل المحتل يعمل جهده لتشويه صور وأسماء وإنجازات هؤلاء الكبار ومحو ذكراهم من التاريخ[2].

وخلاصة القول إن الأسماء الذي كنّى به الأجداد أماكن سكنهم ومناطق بلادهم ينبغي أن تحفظ بقدسية ولابدّ من حمايتها حتى تحفظ الوحدة الوطنية وتحفظ الذاكرة المشتركة والإرث الواحد الموحّد للمجتمع بكل مقوّماته وتنوّعه. والاسم جزء لا يتجزّأ من اللغة وهي «مسكن الكائن»، بحسب تعبير المفكر «هايدغر»، فاللغة هي مهد التاريخ، بدونها لا تاريخ للإنسان.

---

(1) هو نفسه المستعمِر يدرك جيداً أهمّية اللغة ومكانتها في ثقافة بلاده، لذا في حين يعمد إلى تخريب لغة البلاد التي يتسلّط عليها ولو ثقافياً، يعمل جاهداً للحفاظ على أصالة لغته الخاصة وحمايتها من التدهور والتأثر باللغات الأقوى عالمياً. فلنتذكر قانون «طوبون» وزير الثقافة الفرنسي (1995) الذي فرض استعمال اللغة الفرنسية بنسبة 60%، في حين أبقى للّغات الأجنبية 40% وفرض الإعلانات بالفرنسية ومنع العبارت الإنكليزية في المدارس والبرامج الأكاديمية وفي الإعلام.

(2) إن التدمير الممنهج لدور العبادة والمتاحف وتماثيل الفلاسفة والآدباء والفلاسفة وعلى رأسهم أبو العلاء المعري في مسقط رأسه معرّة النعمان واستعمال أسماء القادة العرب والمسلمين الذين صنعوا مجد الأمّة وإلحاقها بألوية العصابات الإرهابية المستخدمة لتدمير الوطن، لهو خير دليل على ضرب الهوية ومعالم الحضارة والثقافة المحلّية ومحو عناصر القوة التي يستمدها المرء من قراءة تاريخه الخاص، والذي غالباً ما يكون مدعاة عزّ وافتخار وعليه تبنى العزائم والهمم من أجل المُضِي بصلابة نحو مستقبل أفضل.

أسباب تغيّر أسماء الأماكن وتبدّلها عبر الزمن

إن الدارس والباحث المطلع يلاحظ في حالات عدّة أن هناك أماكن ومناطق وبلدات تحمل إسمين أو أكثر أو أنها أبدلت اسماً باسم آخر، فما هو سبب هذا التغيير في الأسماء وإلى ماذا مردّه؟ والجواب يحتمل عدّة أجوبة ويشكّل إشكالية كبرى، من أهم تلك الأسباب برأي المختصّين بالأسماء الجغرافية وممّن عملوا على الأرض: التطوّر السريع اللاحق على اللهجات المحلّية بفعل المؤثرات الديموغرافية، تبدّل السكان، تمازج الأقوام، إختلاط السكان المحليين بجاليات أجنبية أقوى ثقافياً، والاختلافات الاجتماعية والثقافية، بحيث أن المحكيات واللهجات واللكنات المحلّية والأصلية تطعّم، بشكل غير مباشر ولا إرادي وأحياناً مقصود وذلك لتبدل العقلية أو لعدم فهم المعاني من قبل الأجيال الجديدة (مثلاً بلدة «الحمّارة» في البقاع، إستبدلت بالمنارة، وبلدة «الفساقين» بالبساتين). وهناك من يدعو باطراد إلى تغيير أسماء أماكن لاعتقادهم أن معانيها مجحفة في حق الوطن أو أنها دخيلة، وهذا ينم، في معظم الأحيان، عن جهل كبير وسطحية مفرطة، فمثلاً، كثُر اللغط حديثاً حول اسم بلدة «شارون»، قرب صوفر، ويذهب البعض في تفكيرهم إلى إلحاقها باسم عدو الأمّة الصهيوني المجرم «شارون» ويطالبون بتغيير اسمها. وهذا الأمر منافي للحقيقة لعدّة أسباب أهمها أن البلدة حملت اسمها منذ أقدم العصور أي قبل مجيء الكيان الصهيوني الغاصب واحتلاله أرض الأمّة (ذُكرت في الوثائق الرسمية الفرنسية وفي الكثير من معاجم أسماء الأماكن القديمة)؛ وفي تفسير اسمها الفينيقي أنها «المنبسطة» ومثلها بلدة «شارني» (فريحة، ص94) وفسّرت أنها من «الشرو» أو «الشروة»، أي «الشق في الصخر» (شرن أو شرم الصخر أي «انشق») في «لسان العرب» (صالح ديب، ص239). ولما لا تكون «الشير الصغير» باعتبار اللاحقة «ون» بالسُريانية هي علامة التصغير؟ وهذا صحيح كونها بلدة صخرية الطابع.

ونتمنّى ممّن لا يفقهون بعلم أسماء الأماكن والأصول اللغوية الفينيقية - السُريانية - العربية أن لا يتناولوا هذه المادة الحسّاسة، الدقيقة بأي شكل من الأشكال وأن لا يسوقوا لإدعاتهم باسم الوطنية والقومية العمياء، وإلاّ حلّت الكارثة وفُقدت الأسماء كلّها، فإذا كانوا قد تيقنوا من اسم «شارون» وتحسّسوا منه وأرادوا إزالته، فهل

يريدون إزالة إسم «شراونة» وهي بلدة بقاعية ومثلها العشرات من المحلاّت في الوطن العربي («شرن» في اليمن/ شرم الشيخ في مصر...) أو قلعة «شيراونة» الأثرية[1] وفي الانتشار الفينيقي العريق (منطقة Charente Maritime، غربي فرنسا وأهم مدنها : La Rochelle/Rochefort) والتي يفيد معناها الصخر، الرأس أو الرؤوس الصخرية/ رويسة العلم (لبنان) رويسة (سورية)؟ وما رأيهم بأماكن تحمل أسماء مثل «جبل موسى» «نهر إبراهيم»، «مزرعة يشوع»، «حام» (لبنان)؛ «النبي يونس» (سورية)؛ «إسحق» (اليمن) الخ، فهل ينبغي إزالتها لأنها برأيهم «يهودية» الأصل، فنمنحها لعدوّنا ببساطة لجهالتنا، وهي سُريانية - عربية الأصل في الحقيقة؟

وبتأثير اللغات الأكاديمية السائدة في التعليم، العربية الفصحى والأجنبية، تفقد الأسماء لفظها الأصلي أو ربما تُنسى نهائياً وتُلغى من التداول. ومن الأسباب أيضاً تبدّل المناخ والأحوال الجوية لمنطقة ما وهذا شائع في كلّ بقاع الأرض وسوف يزداد تدريجياً وفاقاً للتبدّل المناخي الذي يضرب الكرة الأرضية من تصحّر وجفاف وحرارة وبرودة وانحسار مستوى البحار أو ارتفاعها، إلى ما هنالك من تغيّرات تتعرّض لها الأرض لأسباب عدّة من التلوث الصناعي الناتج عنه الإنحباس الحراري (l'effet de serre) وتأثيره على توسيع الفجوة في طبقة الأوزون، ما يجعل بعض المناطق غير قابلة للسكن فتهجر من قبل أهلها وتهمل أسماؤها. ويتوقع علماء المناخ إرتفاع حرارة الأرض في السنين القادمة بشكل متسارع ما يؤدّي إلى ذوبان الكتل الجليدية في القطبين الشمالي والجنوبي وارتفاع مستوى البحار، ويحذّرون من غرق مدن ساحلية عديدة (البندقية/ إيطاليا) وجزر بأكملها (بريطانيا). ومن أسماء المناخ التي تعرّضت للتغيير المتواصل مكان بجزيرة «فرة» في ليبيا والذي كان قديماً يطلق عليه إسم (الثليجية) وهو وصف مناخي يتناسب مع هذا المكان الشديد البرد والصغير المساحة، وتطوّر الاسم وأصبح ينطق من فترة قريبة بالثالجة، ونظراً لتطوّر السياحة والإرتياد الكثيف للمكان، تبدّل اللفظ إلى (التالقة) ويبدو أنه ناتج عن التغيّر السريع للهجات المحلّية المواكب للتغيّر المناخي للمكان[2].

(1) تقع في مدينة «كلار» في جنوب منطقة كردستان العراق، على ضفتي نهر «سيروان» (ديالى)، ويلتحق اسم «شيراونة» واسم «سيروان» باسم سورية و «سور» و «شير» كما أسلفنا.

(2) سعيد، «تجربة مصلحة المساحة في المسمّيات الجغرافية بليبيا»، (المؤتمر العربي الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

واختصاراً، نقول إن هناك أسماء أصلية وأسماء طارئة ومؤقتة، فأي الأسماء التي تزول وأي الأسماء التي تبقى وما أهم أسبابها؟

إسم «بعلبك» نموذجاً

إن أبرز الأمثلة على تغيّر الأسماء، إسم مدينة بعلبك وهو اسمها القديم والحالي ما يعني أنها حافظت عليه، إلاّ أنها أيضاً عُرفت ولزمن طويل باسم «هيليوبوبيس» (Helios + polis) وهو لفظ يوناني برأي البعض ومعناه «مدينة الشمس»، ولكنه ما لبث أن فُقد من التداول الشعبي مع تبدّل الحقبة السياسية وجلاء المحتل عنها، فزال الاسم مع زوال من وضعه. هذا هو التفسير البسيط للمسألة، أما التفسير العلمي فهو أن الاسم الرسمي في العصرين اليوناني والروماني كان «هيليوبوليس» وهو الذي دُوّن في الأرشيف الإداري والبلدي، أما الاسم الشعبي فظل «بعلبك» وكان الأهلون يتداولونه حينذاك وظل يتردّد على ألسنتهم وألسنة أحفادهم لأنه الموروث الأصلي والشفوي، إذن، هو الاسم الأقوى على البقاء، بينما الاسم الرسمي طاريء ولا يستعمل إلاّ من قبل السلطات وفي الوثائق الإدارية وعلى ألسنة المسؤولين فقط، أي أن تداوله قليل نسبة للاسم الأصلي «بعلبك».

في إشكالية أسبقية الاسم

وثمة من يسأل كيف نؤكّد على أسبقية إسم على اسم آخر، فلماذا يكون اسم «بعلبك» أسبق على اسم «هيليوبوليس» وليس العكس؟ ولمعالجة هذه الإشكالية المعقّدة في طرحها والبسيطة الحل من حيث البحث المنطقي، ينبغي تطبيق منهجية التحليل الموضوعية التي استعرضنا نقاطها في مراحل أو مستويات نشأة أسماء الأماكن بالتسلسل المنهجي الذي وضعناه؛ فعلى صعيد المستوى الجغرافي الطبيعي، يدلّ اسم «بعلبك» الذي يتألف من (بعل + بقاع) على عنصر جغرافي هو (بقاع/ السهل الواسع) و(بعل) وهو كما يعرف عنه إله الأرض التي تروي نفسها طبيعياً، بحيث يقال إلى يومنا (أرض بعل). من جهته، فإن اسم «هيليوبوليس» يتألف أيضاً من جزئين (هيلوس) وهو إله الشمس و«بوليس» وهي المدينة، وفيه أيضاً عنصر جغرافي أي مناخي فلكي وهو الشمس، ما يجعله في خانة التسميات الجغرافية الأولى. غير أنه يمثل الترجمة الحرفية لاسم «بعلبك» والتي يظن البعض أنها ترجمة يونانية، إلاّ أن التحليل اللفظي الفيلولوجي الدقيق يبيّن لنا العكس تماماً، فإن اسم «هيليوبوليس»، بحسب تحليلنا دائماً، شرقي بالمطلق ويتألف من

«هيليوس» أي «إلياس» أو «إيل» (بإزالة اللاحقة «S») وهو الإله الفكلي الأكبر في الشرق و «بوليس» وهو يتحدّر من «بعل» أو «بعلة» والتي كانت سيّدة البلدات، فبوليس (بإزالة اللاحقة «S») هي اللفظ المحرّف لكلمة «بلدة»، وهكذا نكون قد أرجعنا اللفظ مدعوماً بالمعنى، أي باعتماد الفيلولوجيا، إلى حالته الأصيلة.

ولكن يبقى السؤال: أيّهما الأسبق «هيليوبوليس» أم «بعلبك» وكلاهما لفظان مشرقيان؟

عند هذا الحدّ، نستعين بالمستوى الحضاري التاريخي واللغوي الذي يفيد النتيجة نفسها وهذا بديهي كون اللغات انطلقت من الشرق إلى الغرب أي من سورية الطبيعية إلى اليونان. ومن الطبيعي أن تتشابه الألفاظ مع تحريف بسيط وتعديل لفظي طفيف يتلاءم مع اللسان الغربي، وبالتالي تتشابه المعاني، لأن الطرف الآخذ يترجم قدر ما يستطيع الكلام الذي يستعيره من غيره. وهكذا تكون النتيجة أن الدراسة المدقّقة للأسماء تبيّن أصالة الحضارة وانتشارها وقوتها وتسمح بتتبّع خطواتها أينما حلّت وتفسّر كيف تبنّتها الشعوب المبتدئة في اكتساب المدنيّة والثقافة. أما سبب زوال الاسم «هيليوبوليس» من التداول فعائد إلى أن اسم «بعلبك» كان الغالب على ألسنة الشعب وكان الأجدر على البقاء لأنه اللفظ الشعبي بامتياز[1].

من البديهي في كلّ دراسة أن ينطلق الباحث من معطى محدّد ويدرسه على ضوء منهج واضح، وعندها تبدأ الصورة تنجلي وتعالج الإشكالية المطروحة على ضوء هذا الوضوح. إنطلاقاً من المعطى الحضاري، نجد أن هذا المعطى يتناول أصل نشأة الحضارة. ومن المسلّم به تاريخياً وعلمياً أن الحضارة نشأت في المشرق القديم في الحدود الجغرافية المتعارف عليها وهي سورية الطبيعية (والتي تشتمل على سورية بحدودها اليوم وبلاد ما

---

(1) ومن بعض الأمثلة على توافق الأسماء لفظاً ومعنى وترجمة أحياناً، نذكر: تربل = تربة أيل/ (Terre belle) ولفظاً وتحريف المعنى أحياناً أخرى، بريتال = برية إيل والتي حرّفت زمن الانتداب الفرنسي إلى (brutal)، ففي حين أن تربل أفادت اللفظ والمعنى معاً، لم تأخذ بريتال لدى المحتل إلاّ تفسيراً يعبّر عن سخطه من أهلها الذين كانوا قساة وغير قابلين للانصياع لأوامره إلى حدّ اتهامهم بالهمج (brute)، فخرج لدينا هنا مثال عن كيفية تحريف أسماء الأماكن بحسب الأهواء التي حوّلت إسماً حاملاً معنى حضارياً وألوهياً سامياً، ينتمي إلى المستوى الزراعي وهو «برّية إيل» ويفيد أنه وُضعت الأرض تحت رعاية الإله إيل وهذه عادات أجدادنا القديمة، إلى بلدة تضمّ «الهمج» بحسب المفهوم الفرنسي الخاطيء بالطبع.

بين النهرين وجزء من فارس ومن الأناضول في أطرافها الشرقية والشمالية؛ ومن جهة الساحل على فينيقيا؛ ومن الداخل على بلاد كنعان أي فلسطين والأردن وعلى العربية السعيدة (اليمن) وكلّ الجزيرة العربية حتى أقصى حدودها الساحلية الغربية والجنوبية). ويعزّز هذا اليقين المقولة الشهيرة التي تردّد دوماً من أن «المشرق هو مهد الحضارة»، أي أن الحضارة نشأت أوّلاً فيه قبل أي مكان آخر على الأرض، حيث ترعرت ونمت وكبرت وامتدّت إلى أصقاع الأرض كلّها. هذه الرقعة الجغرافية الواحدة والشاسعة، تناوبت على السكن فيها والتفاعل على أرضها شعوبٌ وأقوامٌ عديدة انصهرت في قالب مشرقي، حتى غدت متجانسة العادات والتقاليد والثقافات والفكر والمعتقدات وخاصة على صعيد اللغة على تعدّد لهجاتها ولكناتها ومحكياتها المحلّية. وهذه القواسم المشتركة شكّلت وحدة حضارية متماسكة، والأهم متواصلة أي مستمرّة منذ آلاف السنين إلى اليوم؛ فاسم «بعلبك» النموذج الذي ندرسه هنا، هو اسم حضاري قديم جداً يحمل في كنهه كمّاً ثقافياً كبيراً، كفيلاً لوحده بالإضاءة على جوانب عديدة من تاريخ هذه المدينة العريقة في القدم. ولعلّ قدم الاسم يدلّ أكثر ما يدلّ على أن سكان المدينة الأول أسموها بعلبك منذ أن اختاروا موقعها في السهل الخصيب (سهل البقاع) ومنذ أن وضعوها تحت رعاية إله الخصوبة والأرض الخيّرة البعل وهو معبود قديم جداً ومشترك بين كلّ أقوام المشرق القديم أي سورية الطبيعية، ما يعكس وحدة المعتقدات لديهم. ولكثرة تكريمهم للبعل، جعلوا له معابد وهياكل ضخمة تدلّ على الوفرة التي تنعّموا بها من خيرات الأرض على مرّ السنين، فهكذا معابد وهكذا زخارف تتطلّب مجهود سنين من العمل الهندسي والعمراني المتواصل وكذلك تتطلّب مصاريف وتكاليف باهظة الثمن ليس بمقدور الفقراء تأمينها، ما يعكس القوة الاقتصادية التي كانت لأبناء بعلبك حين بدأوا، ومنذ أقدم العصور، بتشييد هذه الصروح التي ما زالت ماثلة إلى الآن تتحدّى الزمن وعوامله وتتحدّى خاصة البشر وأفعالهم المهدّمة.

في الواقع، من المعروف أن الجانب العقدي والإيماني أو العنصر الديني هو من أقوى المحفّزات للنشاط البشري الإبداعي وهو الأكثر صلة بالوجدان الإنتمائي للجماعة وتعلّقها بهويتها، وهو عامل موحّد بين الناس[1]. ويمتاز هذا المستوى الروحاني بشموليته أي أنه يمسّ الجماعة كلّها وليس فقط الأفراد، ويعني الطبقات كافة وليس حصرياً طبقة

---

(1) سبق وذكرنا أهمّيته في معرض حديثنا عن المستوى الديني في تسمية الأماكن، في الفصل الأوّل.

أو فئة محدودة من المجتمع، فالملك والجندي والعامل والشعب كلّهم يتعبّدون للإله نفسه في نفس المدينة حيث مركز عبادته وتكريمه، لهذا كان من الطبيعي أن تتضافر جهود الأهلين كلّهم للوصول إلى أسمى درجات التكريم لمعبودهم، ومن الضروري أن يساهموا كلّهم في منحه أسمى مظاهر هذا التكريم بتشييد أجمل المعابد حيث يمارسون شعائرهم وعاداتهم والمراسم الخاصة بهم كما ارتأوها في الأعياد الخاصة بهذا الإله، فإذا كانوا قد اهتموا إلى هذا الحدّ بالبناء، فكيف لا يكون الاهتمام نفسه باسم مدينتهم التي تحمل إسم إلههم وتضمّ معبده؟ كيف لا يحافظون على اسمها بقدسية ما بعدها قدسية؟ من البديهي إذن، أن الحفاظ على الاسم هو الحفاظ على وجودهم نفسه، فهو يعكس هويتهم وانتماءهم وتجذّرهم الشديد في أرضهم وهذا ما يدلّ عليه بقاء إسم مدينتهم من آلاف السنين إلى اليوم، رغم كلّ ما رافق هذه الزمن من صعوبات وعقبات وتغيّرات لم تستطع إزالة الاسم الحضاري الذي أعطاه السكان لبعلبك، حتى أن الاسم الرديف «هليبوبوليس» الذي يفيد نفس المعنى وهو من أصول شرقية أيضاً، لم يستطع التغلّب على الاسم الأوّل «بعلبك» وهذا ما يبرهن أن هذا الأخير هو الاسم الأصلي والأساسي المتداول على ألسنة سكانها، وهو الأبقى.

واسم «بعلبك»، كونه الاسم الأساسي للمدينة، ينتمي إلى اللغة الفينيقية – السورية التي كانت تلفظ الاسم تماماً كما تلفظه اليوم، ما يدلّ على الاستمرارية اللغوية، وهذه مسألة مهمة جداً تفيد أن لغة الأجداد لم تُفقد وإن تغيّرت بعض الشيء طرق لفظها وحوّرت بشكل طفيف بفعل تغيّر الألسنة واللكنات وأيضاً اندثار بعض الألفاظ والكلمات ودخول ألفاظ ومرادفات حديثة عليها باستمرار، فاللغات كما هو معروف في حالة تغيّر وتجدّد مستمرّة، أي في حالة فقدان واكتساب دائمة.

هذه الاستمرارية اللغوية هي عنوان ثقافة ما زالت ناشطة إلى الآن، ما يثبت أن الشعب ما زال مستمراً في المكان والزمان، وما زال يتكلّم لغة أجداده من خلال استعمال الكلمات والألفاظ نفسها التي لفظوها، فاسم «بعل» لا زال حتى اليوم متداولاً في البيئة الزراعية وفي الأرياف ويفاد به الزرع البعلي الذي لا يحتاج إلى الري من قبل المزارعين، بل أن الزرع يسقي نفسه بنفسه ولعل سهل البقاع المتمثّل بلفظ «بك/ بقع/ بقاع» في إسم «بعلبك»، كان بمثابة بحيرة تصبّ فيها كلّ المياه المنحدرة من سلسلتي الجبال التي يمتد السهل في وسطهما ما جعله من أخصب البقع الزراعية التي تمتد إلى كلّ وادي العاصي في سورية، والذي شهد مجراه أقدم الثقافات في التاريخ ووُضع تحت راية الإله الذي يرمز إلى

ظاهرة الخصب وهو البعل وهو السهل نفسه، حتى أن لفظ «بك/ بقعة» يدلّ أيضاً على الألوهة والسيادة وما زال اللفظ متداولاً إلى الآن على شكل «بك/ بيك» أي الزعيم وكبير القوم.

كلّ هذه الألفاظ حفظتها الذاكرة الشعبية وهي إرث لغوي لا يستهان بقيمته ومن هنا ضرورة حفظه لأن في طياته حُفظت لغة الأجداد التي لم تُدوّن ولم تحفظ كتابياً في أغلب الأحيان.

أما لماذا نجزم أن لفظ «بعلبك» هو اللفظ الأصلي للمدينة، فلأن اللغة الفينيقية – السورية هي الأولى التي سادت في المنطقة وهي لا شكّ كانت تلفظ هذا الاسم كما نلفظه اليوم (وحرف العين «ع» في بعلبك يعزّز هذا التأكيد، فهو اللفظ الفينيقي – العربي والذي لا يلفظ في الغرب)، ما يعني الاستمرارية اللغوية التي كانت لأجدادنا وما فتئنا نلهج بها حتى الآن، فكلمة «بعل» ما فتئت تلفظ وما فتئت تعني المعنى نفسه، بحيث ورد في النصوص الأسطورية والتاريخية أن البعل هو إله الزراعة والخصوبة، وما زلنا نستعمل هذا الاسم في مضمونه الزراعي وكذلك الإجتماعي (الزوج – السيّد – الربّ). ومثلها البقاع أو البقعة هي السهل، فكلا اللفظين عاشا إلى اليوم، لا بل دخلا في اللغة العربية الفصحى ما يعني أن الاسم يحمل البرهان الأكيد عن تطوّر العربية من الفينيقية مروراً بالآرامية والسُريانية، ويدلّ هذا الاستمرار اللفظي على أهمّية اللهجة في عصرها ويعكس زمن قوتها وسلطتها، أي سيطرتها على لهجات أخرى. بالمقابل، فإن «هيليوس» و «بوليس»، وإن كانا لفظين من أصول فينيقية، كما أسلفنا في اجتهادنا، إلاّ أن استعمالهما لم يستمر في اللهجات المحلّية ولا في اللغات المشرقية، وبالتالي، لم ترثهما العربية الفصحى، بل نجدهما في الإغريقية ما يدعونا إلى تعزيز الاعتقاد أن بعض الجاليات التي حملت لهجاتها إلى الغرب واستقرت فيه، أثّرت بشكل مباشر في لغة الأقوام التي انصهرت معها وأعطتها كمّاً هائلاً من الموروث اللغوي، وأن هذا الموروث اللغوي استمر في الغرب، بينما تنوّع في الشرق وذلك لتعدّد لهجاته وتطوّر لغاته. وهذا دليل أن المشرق هو الأصل وهو المؤثر الأساس في التراث الثقافي الغربي. وبما أن لفظة «هليوبوليس» صبغت بلفظ أجنبي فباتت ثقلية الوقع على اللسان المحلي الذي لا حاجة له بها أصلاً، فأهملها لصالح الاسم الأقدم «بعلبك»، ولكنها حفظت مكتوبة بالأحرف اليونانية واللاتينية[1] منحوتة

(1) وهي أصلاً الحروف الفينيقية «الغربية»، أي التي اعتمدها الغرب.

على معابد المدينة.

ويشكّل اسم «بعلبك» حالة نموذجية لدراسة أسماء الأماكن وتفرّعاتها اللفظية وأيضاً ترجمتها وصمودها على الزمن، في حين نجد أن مناطق أخرى فقدت الاسم الأصلي لها ليحلّ مكانه الاسم الدخيل المفروض من قبل المحتل، مثلاً، بلدة «غوسطا» يقال إنها تعود إلى اسم «أوغسطس» (Auguste) القيصر الروماني وبقيت محافظة عليه إلى اليوم ولا يعرف لها إسم آخر. إلاّ ان الدارس المدقّق يجد، في مقاربة تحليلية وعملية بسيطة، ما يدلّ على تشابه الاسم «غوسطا» باسم «بقسطا» في جنوب لبنان و «قسطون» في سورية... وأن هذا التفسير المطروح من قبل بعض المفسّرين من أن «غوسطا» متحدّرة من «أوغسطس» نراه متسرّعاً ولا دلالة له، إذ لا يعقل أن تعطى بلدة صغيرة ونائية إسم إمبراطور أو إسم ابنته، بل أسماؤهم كانت تطلق على العواصم على أقل تقدير، فالمنطقي أن يعطى بالأحرى اسم الحاكم أو اسم ابنته لمدينة من مثل بيروت. يقول فيليب حتّي: «لقد وفّرت مدينة بيروت بيئة صالحة للعلم والمعرفة ولقد كرّمها القيصر «أوغسطس» ورفع من شأنها حين جعلها مستعمرة وسمّاها «جوليا أوغسطا فيليكس» (السعيدة) على اسم ابنته. ومن ثم جعلها مقرّاً لفرقة من الجيش الروماني. وكان ملوك عديدون من الممالك المجاورة ممّن كانوا يتطلّعون إلى الحظوة عند الأباطرة الرومان، يغدقون العطايا على المدن - المستعمرات. وقد أصاب بيروت كثير من هذه الهبات خوّلتها بناء المسارح والمدرّجات والحمامات والأروقة، حتى غدت بيروت في فترة قصيرة مركزاً حضارياً من الأهم...»[1].

إذن، بعض الأسماء تبقى على الزمن ربما بلفظها الأصلي أو بتحريّف طفيف، ولكن تفيد المعنى نفسه والواضح فقط لمن يتمكّن من فهمه، بينما يصبح مبهماً أو ربما مجهولاً تماماً بالنسبة للآخرين (مثلاً أسماء مثل: مغدوشة/ قاديشا/ مقديشو/ قادش/ كاديكس/ قدسيا/ قدس...) كلّها تفيد معنى واحد بلهجات متنوّعة (أي مقدّس) وتتحدّر من أصل فينيقي - سوري واحد لا نعرف كيفية لفظه الأصلي على وجه التحديد ولكنه لفظ بلكنات كثيرة بسبب امتداد الرقعة الجغرافية الحضارية الفينيقية الكنعانية ساحلاً وداخلاً، سهلاً وجبلاً، وليس فقط في المشرق القديم، بل في المستوطنات التي أسّسها الفينيقيون في

(1) فيليب حتّي، «الشرق الأدنى»، ص 176 وص 218.

المتوسط كلّه وعلى ساحل البحر الأحمر وغيره، وإلى الآن تتعدّد اللهجات واللكنات بين الأقوام العربية لدرجة مستعصية الفهم أحياناً.

ما هي حصّة الغزاة من تسمية الأماكن؟

إننا نثير هذه المسألة الإشكالية خصيصاً لمناقشة موضوع شائك تاريخياً مفاده أن هناك العديد من أسماء الأماكن وتحديداً أسماء مدن عريقة، يعتقد أنه أسّسها المستعمرون وأعطوها أسماءهم. لذا ارتأينا إثارة المسألة من أجل حسم هذه الأفكار الموروثة وإعادة الأسماء إلى أصولها[1]، نسبة إلى جغرافيتها وحضارتها الخاصة.

وللإضاءة على هذه المسألة الواسعة النطاق، لأن التاريخ برمّته هو عبارة عن نشاط توسّعي وغزو وحروب مستمرّة، وهي طبيعة الدول في نموّها، بحسب مفهوم الدولة وتطوّرها عند ابن خلدون[2]، وغيره من علماء المجتمع والفلاسفة والمفكّرين، فإنه من الصعب في هذه المجال الضيّق حصر الدول الغازية وما تركته من أسماء في الدول المغزوة، لذا عمدنا إلى الاختصار الشديد خشية الخروج عن موضوعنا الأساس وهو حصة الغزاة من أسماء الأماكن التي احتلوها أو سيطروا عليها. ونذكر أهم الغزاة في التاريخ: الفرس، اليونان، الرومان، الفرنجة، التتر، الأتراك، الأوروبيون. والملاحظ المدقّق يتنبّه إلى أمر في غاية الأهمّية وهو أن كلّ هؤلاء الغزاة هم من الغربيين، ولا ذكر للمشرقيين، أي السوريين العرب بينهم[3]. ونستعرض فيما يأتي بعض القوى الغازية لسورية الكبرى:

---

(1) وكذلك تصحيح العبارات والمصطلحات المغلوطة التي تردّد دونما معرفة أو تسقط سهواً أو يتعمّد استخدامها في المراجع من مثل عبارة «فتح»، فالفتح هو تحرير الأرض من قبل أصحاب الأرض، فكيف يقال: «فتح الشرق» من قبل «الإسكندر المقدوني» وهو غازي قادم من مقدونيا؟

(2) مفهوم الدولة ونشأتها وتطوّرها وتدهورها، راجع: مقدّمة ابن خلدون دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995. يستعرض ابن خلدون أطوار الدولة: الطور الأوّل: طور التأسيس، الطور الثاني: الإنفراد في الحكم، الطور الثالث: طور الفراغ والدعة، الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة، الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. بمعنى آخر، مراحل الطفولة، الشباب، البلوغ، الكهولة والخرف.

(3) كرّس الباحث المفكّر عاطف خليل الحكيم دراسات عديدة للمسألة وعرّفها بمصطلح «حرب شرق/ غرب» أو «غرب/ شرق»، ما يعني أن هذ الصراع الأزلي بين الشرق والغرب سوف يظل قائماً طالما أن للغرب أطماعاً في الشرق وأن الشرق وجهة نظر الغرب أبداً. ولا يعني أن الشرق لم يطأ الغرب يوماً ويستوطنه، وما الحكم العربي في الأندلس، أي في عقر دار الجزر الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) والذي دام قروناً طويلة، إلاّ البرهان على أهداف الشرق التوسّعيّة بامتياز. ولكن الفارق، وبحسب الباحث =

في العام (530 ق. م.)، أضحت فارس إمبراطورية كبرى. أنهى الفرس الأخمينيون حكم البابليين في عهد «قورش» ما جعل سورية تخضع لهم. ثم اتجه الفرس بحروبهم ضد الإغريق. غزا «الإسكندر» الأكبر المقدوني الإمبراطورية الفارسية الأخمينية في العام (334 ق. م.) وبعد انتصاراته في آسيا الصغرى وصل إلى شمال سورية في العام (333 ق. م.) واشتبك مع الفرس مجدّداً في «معركة إسوس» (Issus) (333 ق.م.) في كيليكيا القديمة، الفاصلة والتي قاد الفرسَ فيها الملكُ «داريوس الثالث» بنفسه وأسفرت عن هزيمة منكرة للفرس، فرّ على إثرها «داريوس» تاركاً زوجته وأمه وبناته سبايا لدى «الإسكندر». وبعد هذا الانتصار، سار «الإسكندر» إلى سورية حتى وصل إلى صور في العام (332 ق. م.) وحاصرها حصاراً شديداً نكّل على إثره بأهلها. توفي «الإسكندر» في بابل العام (323 ق. م.) بدون أن يخلف وريثاً، فتقاسم قادة جيشه الإمبراطورية التي خلفها، وكانت سورية من نصيب «لاومدون المتليني» (Laomedon de Mytilène)، وبابل من نصيب «سلوقس نيكاتور»، أما مصر وليبيا وشبه جزيرة العرب فذهبت إلى «بطليموس». وما لبث القادة أن دخلوا في صراع فيما بينهم. بعد هزيمة «أنتيغونوس»؛

= الحكيم دائماً، أن التوسّع الشرقي لا يصنّف غزواً أو حرباً، لأنه توسّع ثقافي فكري حضاري أي إيجابي، مثمر، ممدّن، وإنساني الأهداف، بينما الغزو الغربي حربي الطابع، وسلبي الأهداف لأنه مدمّر ومتجبّر ومستعبد للشعوب وناكر للإنسانية، يقول الباحث: «أبداً نحن السوريين - العرب رسل الحضارة، نحن من نحمل الحضارة للعالم، وأبداً نحن من نبكي على العالم، لأن العالم ابن لنا. نحن نحمل الحياة للعالم، وأبداً أوروبا تحمل الموت للسوريين - العرب. تريدون البراهين هاكم البراهين، ونحن نقدّمها على سبيل المثال وليس الحصر: ألم يحمل «قدموس» السوري الأبجدية السورية إلى أوروبا؟ ألم تنتقل شريعة موسى وقانونه من سورية إلى أوروبا؟ ألم يحمل «أدونيس» الحبّ في شخصه وشخص عشتار إلى أوروبا؟ ألم تنتشر فلسفة المحبة، فلسفة السيّد المسيح في أوروبا؟ ألم يهب النبيّ محمّد العِلم السوري - العربي للأوروبيين وللعالم؟ هذا غيض من فيض! وبالمقابل، ماذا حملت أوروبا للسوريين؟ لقد حملت أوروبا للسوريين الموت، إذ أن أوروبا أبداً تمثل دور ملاك الموت في مسرحية صراع الحياة والموت. ومن الموت الذي نشرته أوروبا في سورية، فإننا نذكر: ألم يدمّر إسكندر اليونان سورية والمشرق القديم كلّه؟ ألم يحرق شيوخ روما قرطاجة؟ ألم يذبح قياصرة روما الأطفال ما دون العشرة في سورية؟ ألم يرم قياصرة روما النساء في النهر قرباناً؟ ألم تدفن روما المرأة وتئدها حيّة في رمال الصحراء؟ . . .» راجع: مقالة «السيّد والعبد»، مجلّة الحقائق، العدد 217، أيلول 2014، ص 30 - 31 (ترجمته إلى الفرنسية د. الشويري، «Le maître et l'esclave»: ونشر في مجلّة الحقائق، العدد 221، شباط 2015، ص 40 - 41).

أمست تحت سيطرة «سلوقس» إمبراطورية شاسعة تمتد من سورية إلى الهند، أي أن إمبراطورية «الإسكندر الأكبر» كانت بأكملها تحت سيطرته باستثناء آسيا الصغرى وتراقيا واليونان ومصر. فعقد «سلوقس» العزم على غزو آسيا الصغرى و«تراقيا» واليونان، وكان له أن غزا آسيا الصغرى ولكنه اغتيل قبل أن يعبر إلى «تراقيا» (العام 281 ق. م.). بعد حصول «سلوقس» على سورية بعد «معركة إيبسوس» (Ipsos) (العام 301 ق. م.) قرب «فريجيا» في آسيا الصغرى، جعل منها مركزاً لإمبراطوريته وأعاد بناء أربعة مواقع على شكل مدن جديدة واستجلب المستوطنين من اليونان ليقيموا في هذه المدن التي عرفت بالتترابولس (Tetrapolis) السوري أو المدن الرئيسية الأربع وهي: «أنطيوخية» على نهر العاصي (Antiochia ad Orontem) وهي مدينة إنطاكية في لواء الإسكندرون، يقال إن «سلوقس» سمّاها على اسم والده «أنطيوخس» (Antiochus) وجعل منها عاصمة لإمبراطوريته، وقد ازدهرت في العصر الهلنستي (القرن الثاني ق. م.) إزدهاراً عظيماً، ممّا جعلها في بدايات الحقبة الرومانية (القرن الأوّل م)، ثالث أكبر مدينة في العالم بعد روما والإسكندرية التي بناها «الإسكندر» في مصر. وغدت إنطاكية إحدى أرقى مدن العالم ومنافسة للإسكندرية على زعامة مدن الشرق[1]؛ «سلوقية بييرية» (Seleucia Pieria) وكانت مرفأ مدينة إنطاكية؛ «لاوديقية» على البحر (Laodicea ad Mare) وهي اللاذقية، سمّاها «سلوقس» على اسم أمه (Laodice)؛ «أفاميا» (Apamea) وتقع على بعد (55 كم) شمال غرب حماة، كان فيها بيت مال الدولة السلوقية وكانت من أهم المدن السورية[2].

ونتوقّف قبل المضي في هذه اللمحة التاريخية عند تحليل هذه الأسماء الأربعة: إنطاكية، سلوقية، اللاذقية، وأفامية، لتبيان أصولها اللغوية السورية الصرفة وإزالة الإشكالية القائمة بتصنيفها يونانية.

(1) تعدّ إنطاكية مركز الديانة المسيحية خارج فلسطين، حيث أن أهلها كانوا أوّل من اعتنقوا المسيحية. وظلت إنطاكية عاصمة لسورية طوال العصر الرومي والبيزنطي حتى الفتح العربي الإسلامي.

(2) ظلت مزدهرة طوال العصر الرومي والبيزنطي حتى دمّرها الفرس الساسانيون أثناء غزوهم لسورية في القرن السابع الميلادي، وبعد الفتح الإسلامي تمّ إعمارها وعرفت باسم «فامية» وظلت مدينة مهمة حتى دمّرها زلزال العام (1152 م) في زمن الحروب الإفرنجية.

في إشكالية هذه المجموعة من الأسماء

اللاذقية: باليونانية (Λαοδικεία)؛ «لاوديكيا»، باللاتينية (Laodicea ad Mare) مدينة سوريّة تقع ضمن شبه جزيرة بحرية على ساحل الشرقي للبحر المتوسط وتشكّل الحاضنة لأكبر مرافئها، ما أكسبها موقعاً تجارياً فريداً. والمدينة تعدّ مركزاً سياحياً هاماً لغناها بالمواقع الأثريّة التي يرقى بعضها إلى العصر الفينيقي (الألف الثالث – إلى القرن الثاني عشر ق. م.)، وأبرزها «رأس شمرا/ أوغاريت، حيث ظهرت الأبجدية الأولى. ويروى أنه في القرن الثاني عشر ق. م.، كان اسمها الفينيقي «أمانثا» (Amantha) وقيل إنها «رماثا» أو «راميتا» من «رام» أي «المرتفعة». وذكرها «فيلون» باسم «راماواثوس» ومعناها «الإله السامي»، وعرفت باسم «الشاطئ الأبيض». وكانت مركزاً هاماً في العصر السلوقي (القرن الثالث م) حيث سمّاها القائد المقدوني «سلوقس نيكاتور» (312 – 281 ق. م.)، بعد أن جدّد بناءها[1]، «لاوذيقيا» أو «لاوذيسيا» نسبة إلى والدته، علماً أن مدناً كثيرة أخذت هذا الإسم. وازدهرت تجارياً في العصر الروماني (القرن الأوّل ق. م.)، وتمييزاً لها عن باقي المدن سميّت بلاذقية البحر، «لاذقية الشام» وشرّفها «يوليوس قيصر» باسم «جوليا»، وأعطاها الإمبراطور الروماني «سبتيموس سيفيروس» (القرن الثالث م) لقب «سيبتيما السيفرية». وإن وقوعها قرب الحدود مع الإمبراطورية البيزنطيّة بعد الفتح العربي – الإسلامي، حيث أخذت إسم «لاذقية العرب»، حوّلها لما يشبه دول الثغور. وفي زمن الفرنجة عرفت باسم (la Liche). ثم تراجعت أهمّيتها ودورها بسبب الإهمال الإداري خصوصاً أبان الحكم العثماني. ولكن، منذ القرن

---

(1) لا يخلو التاريخ من الطرافة لدى من يكتبه لصالح السلطة التي أمرته بذلك، إذ لم يكتف الإخباريون بنسبة المدن إلى مؤسّسين وهميين، بل ألفوا الخرافات والأساطير حول تأسيسهم المدن لدعم ما ابتدعوه (وهنا يطالعنا المستوى الأسطوري لنشأة أسماء الأماكن). واللاذقية التي ينسب بناؤها إلى السلوقيين، وأغلب المصادر العربية أجمعت على أن بانيها هو الحاكم «سلوقس»، لا تشذّ عن هذه القاعدة وحيكت القصة حول تأسيسها كالآتي: عندما عزم «سلوقس» على بناء المدينة، توجّه إلى معبد الإله زوس وقدّم له القرابين سائلاً إياه أن يهديه إلى المكان المناسب لبناء المدينة، وفيما هو غارق في ابتهالاته وتضرّعاته، حطّ على المذبح نسر ضخم واختطف قسماً من الذبيحة وطار بها، فانزعج «سلوقس» وجرى وراء النسر، فقاده المسير إلى صخرة مرتفعة تشرف على البحر، وهناك برز له خنزير بري فهاجمه فانشغل «سلوقس» عن ملاحقة النسر بالتصدّي للخنزير فقتله، ففهم «سلوقس» أن مشيئة الإله زوس بأن يبني المدينة في هذا المكان، فأمر رجاله بأن يخطّوا بدم الخنزير موضع أسوار المدينة، ثم فوق جثته، أقيمت أوّل بناياته وأطلق على المدينة الجديدة إسم والدته «لاوذيسية». ولكي تحظى المدينة ببركة الآلهة، قدم لها قرباناً فتاةً حسناء تدعى «أغاني» ثم أمر بأن ينصب تمثالاً للفتاة ليجلب السعادة للمدينة.

العشرين، إستطاعت أن تصبح مركزاً تجارياً وصناعياً وثقافياً وسياحياً هاماً، واحتفظت باسمها «اللاذقية» إلى الآن.

ونحن إذ نستعرض تاريخ اللاذقية باقتضاب شديد، فلكي نلقي الضوء على تغيّر اسمها تباعاً وعلى أهمّيتها كمدينة حيّة، والتي استعادت الدور الأبرز الذي كان لها منذ نشأتها الفينيقية رغم كلّ الغزوات والدمار الذي تعرّضت له، لتغدو أهم مدن سورية اليوم.

هذه اللمحة التاريخية تضعنا على سكّة فهم اسمها الأصلي والذي نرى فيه لفظاً ومعنى أنه «العتيقة» (Al-‘Atiqua) والتي تلفظ (Lattaquié)، وهو برأينا اسمها الأصلي أي الفينيقي – العربي، وهو الأقرب لفظاً إلى اللاذقية، وهناك من تنبّه غيرنا لهذا الأمر إذ ذكر مرجع وقعنا عليه بالصدفة بعد تحليلنا الشخصي، العبارة التالية (فكلمة اللاذقية بالذال المعجمة مكسورة و(قاف) مكسورة و(ياء) مشدودة ثم (هاء) في الآخر معناها مدينة عتيقة جداً»[1]، ما ينفي عن اسمها سمته اليونانية التي اعتمدته محوّراً لفظياً بإسقاط حرف العلة (أل) وحرف (ع) من أوّله، فطُمس اللفظ الأصلي لدرجة انتفى معه المجال من استشفاف أي صبغة ساميّة–مشرقية فيه، إلاّ للدارس المدقّق والرافض للنقل الببغائي، فنحن نرفض رفضاً قاطعاً أن يكون الإغريق هم من أسّسوا مدينة اللاذقية وهي الأعتق والأقدم بين كلّ المدن الفينيقية والأكثر إبداعاً وابتكاراً. والأصح القول إن الإغريق غزوا أرضاً ذات حضارة عريقة كانت أساس كلّ ما تعلموه من مقوّمات حضارية وأبرزها الكتابة الأبجدية. كما أن نواحي عديدة من سورية كانت تحمل اسم «اللاذقية» من مثل (Laodice ad Libanum / Λαοδίκεια ἡ πρὸς Λίβανου) تقع على نهر العاصي في السلسة الشرقية لجبال لبنان (Coelesyrie/anti-Liban)، وما زالت آثارها، شمال البقاع، على بعد 25 كلم جنوبي غربي حمص (Émèse) وتسمّى «قادش» أو «تل النبيّ مند»، ذكرها «سترابون» (Geogr. XVI)[2]. وبعد تهدّم بيريت/ بيروت (143 – 138 ق.م.)، على يد «ديودوت تريفون» (144 ق.م.)، أعيد بناؤها تحت اسم «لاذقية فينيقا» أو «لاذقية كنعان» ((Laodicée de Phénicie (ou de Canaan)) ودائماً

(1) موقع إنترنت (اللاذقية جزءان) مقال غير موثّق وبلا عناوين ولا أسماء ولا تواريخ.

(2) W. Smith (éditeur), *Dictionary of Greek and Roman Geography*, «Laodicée», London, 1854.

بحسب «سترابون» (Géogr, XVI, 2, 19.) . وهذا يدلّ على أن «اللاذقية» ، أي العتيقة ، كانت صفة لازمة للدلالة على قدم المدن ، لتمييزها عن المدن الجديدة . والجدير ذكره أن عدداً كبيراً من المدن العربية تحمل هذا الإسم ، مثل «عتق» في اليمن . والملاحظ أن أكثر المدن التي أسّسها الفينيقيون في حوض المتوسط أطلقوا عليها إسم «عتيقة» ، منها واحدة في تونس ، وهي عتيقة نسبة إلى قرطاجة أو «القرية الحديثة» ، وأخرى «معتيقية» في ليبيا ، وإثنتان في اليونان : الأولى المنطقة الواسعة (Attique) شمالي «البيلوبونيز» وعاصمتها أثينا والتي غدت المركز الحضاري الأبرز والأقوى في اليونان ، وعنوان ثقافي وفني أي غدت عبارة تعني أسلوباً ذا ميزات محدّدة وذا شخصية وفرادة يونانية الطابع . والثانية (Ithaque) الواقعة على الساحل الغربي الجنوبي من شبه جزيرة «البيلوبونيز» ، وهي البلد الأصلي للبطل «أوليس» أو «أوديسيوس» ، بطل ملحمة «الأوديسة» لهوميروس والذي تاه عشرات السنين في البحار ، بعد حرب طروادة ، باحثاً عن بلدته تلك والتي انتهى بالوصول إليها بعد مغامرات طويلة وشاقة .

وهكذا ، ومع إعادة اسم «اللاذقية» إلى أصوله الفينيقية - العربية بدليل عبارة العتيقة وهي عربية صرفة ، أسقطنا أسطورة تأسيسها على يد «سلوقس» ، وأسقطنا بطبيعة الحال نسبة اسمها لوالدته (Laodicé) والتي تدخل إيضاً في سياق الأسطورة ليس إلا . أو لربما كان الاسم قد اعتمِد منذ زمن بعيد كإسم علم في اليونان بعد دخوله على أيدي الفينيقيين . ولكن هل تفسّر المصادفة بين اسم «لاوديسة» والدة «سلوقس» واللاذقية بغير الخيال الذي كان لمؤرّخي السلوقيين ؟ وهل تكون غير موالفة ذكية من قبلهم؟

إنطاكية : باليونانية (Αντιόχεια) ، بالسُريانية - الآرامية (ܐܢܛܝܘܟܝܐ) ، بالتركية (Antakya) ، هي مدينة تاريخية تقع على الضفة اليسرى لنهر العاصي (L'Orontes) ، على بعد 30 كم من شاطئ البحر المتوسط في محيط لواء الإسكندرون الواقع اليوم تحت السيادة التركية[1] .

(1) انتقلت إنطاكية باتفاق فرنسي - تركي يعود بذيوله إلى معاهدة «سايكس - بيكو» (1916) إلى السيطرة التركية سنة (1929) ، كتكملة لمشروع التجزئة ومثلها لواء الإسكندرون الذي ضُمَّ إلى تركيا تحت إسم «هاتاي» . ويكمل المشروع نفسه الآن لمنح تركيا حلب الشهباء لا بل كل شمالي سورية . ألم يأتِ الرئيس الفرنسي مؤخّراً (نيسان 2016) إلى المنطقة بغاية أن يكرّس «سايكس - بيكو» جديد ولحق به الأميركي بمعونة الروسي لمنعه والاستئثار بسورية كلّها؟!

تعدّ مدينة إنطاكية إحدى أهم المدن في تاريخ سورية حيث أنها كانت، لزمن طويل، عاصمة سورية. في العصر الهلنستي، كانت عاصمة الإمبراطورية السلوقية وفي العصر الروماني، تصاعدت أهمّيتها حتى صارت ثالث أكبر مدينة في العالم بعد روما والإسكندرية. كما وكانت عاصمة لسورية المسيحية. في القرن السابع، نقل العرب العاصمة من إنطاكية إلى واحة دمشق لأسباب لوجستية. تعرّضت إنطاكية في التاريخ للغزو عدّة مرّات من قبل الروم ثم الفرنجة، وبعد انتهاء الحروب الإفرنجية، صارت تابعة لحلب. كما وقعت تحت النفوذ الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى قبل انتقالها إلى السيطرة التركية سنة (1929).

إن عدم معرفة الكثير عن تاريخ إنطاكية قبل العصر الهلنستي، عزّز مقولة إن القائد المقدوني "سلوقس نيكاتور الأوّل" هو من أسّسها (300 ق. م.) ومنحها اسم «إنطاكيا» كذكرى لوالده "أنطوخيوس"، وإنه أعطى هذا الاسم لعدد كبير من المدن التي أسّسها. وعندما يحصي الباحث عدد المدن (15) التي تحمل اسم إنطاكيا وتعود بتأسيسها إلى نفس الفترة، موزّعة بين سورية وتركيا والعراق وإيران وأفغانستان، يزداد لديه اليقين من صحّة هذه المعلومات التاريخية. وتجدر الإشارة أن عدداً من المدن العشر (Decapolis) أيضاً حمل لقب «إنطاكيا» (Antiochie Hippos ou Antiochia ad Hippum, Hippos/Antiochia Semiramis-Gadara, Umm Qais) وكذلك مُنحت هذا الاسم كلّ من جزيرة «أرواد» (Antiochia in Pieria)، وعكا (Antiochie Ptolemaïs ou Antioche de Ptolémaïde)[1].

ولكن، أمام عجز الكثيرين عن إيجاد التفسير الصحيح لاسم «إنطاكية»، أي ردّه إلى أصله الفينيقي – السُرياني، والمتداول تاريخياً أنها «مدينة الله»، رأينا أن نبسّط الأمر بالاعتماد على اللفظ والترجمة من خلال اللغة اليونانية هذه المرّة والتي تعود بنا إلى أصل حضارة إنطاكية الساميّة – المشرقيّة الذي ربما غُيّب تاريخها عمداً، أو لأن التنقيب الأثري لم ينطق بالشيء الكثير عن ماضيها، إلاّ أن اسمها الواضح وضوح النهار هو (αντίκα / antíka)، ما يتوافق لفظاً ومعنى مع اسمها العربي بامتياز «العتيقة»، (وهو هنا أوضح بكثير من التحريف الذي لحق بالعتيقة الأنفة الذكر أي اللاذقية) ما يعطيها مدّاً

(1) وهناك مدينة تحمل اسم «إنطاكيا» في «تينسي» بالولايات المتحدة الإميركية حديثة المنشأ بالطبع، وربما هناك مثلها العديد من المدن في العالم.

طويلاً في الزمن الماضي، وما يدحض التفسيرات الأخرى كلّها (جاء في «لسان العرب»: «نطك»: التهذيب في الثلاثي: إنطاكية إسم مدينة. قال: وأراها رومية»). كما وينفي تحليلُنا، مرّة أخرى، ما ألصق بها من رواية أنها أخذت اسمها من والد الملك «سلوقس»، «أنطوخيوس»، وهي رواية نُسجت توافقاً مع الظرف الاستعماري ليس إلاّ وكُتب التاريخ لصالح الحاكم كالعادة. وهذا يؤكّد أن أسماء العلم اليونانية إنما هي في أصلها سورية – فينيقية المنشأ.

وحمل عدد من المفكّرين والشخصيات التاريخية إسم «أنطوخيوس»، أحدهم معلّم كلّ من المفكّر الروماني «شيشرون» و«بروتوس»، ابن «يوليوس قيصر» بالتبني وقاتله (القرن الأوّل ق. م.)، بالإضافة بالطبع إلى سلالة الملوك السلوقيين في سورية (305 – 64 ق. م.) حيث حمل ملوكها تباعاً إسم «أنطوخيوس». وفي تفسير اسم العلم «أنطوخيوس» الذي لا تفسير له بتاتاً باليونانية، فهو «العتيق» نسبة إلى العتيقة «إنطاكية». وهناك احتمال أن يكون الاسم من «النِطاق»، استناداً للمستوى الجغرافي للكلمة، فالنطاق بالعربية هو المجال الحيوي، فيقال: النِطاقات المناخية، والنطاق النباتي أي الغطاء النباتي في العالم[1]. أي أننا نعود بالمنطقة إلى التسمية الجغرافية، المستوى الأوّل في أسماء الأماكن، الأعتق. وهذا مرجّح في تفسيره على ضوء اللغة العربية التي تراعي اللفظ كما المعنى، ونرى أن اللفظ الأقرب إلى أنطاقية هو «النطاق» و«المنطقة»، أو ربما تكون «الناطقة»، ما يعيد، مرّة أخرى، الاسم، حكماً، إلى أصله المشرقي – العربي.

سلوقية: والأمر ليس بالسهل بالنسبة لتفسير اسم «سلوقية بيرية» (Seleucia Pieria) وهي المرفأ الحيوي لإنطاكية وحملت، كما يقال، اسم الملك «سلوقس نيكاتور الأوّل»، والذي لم نعثر له على معنى باليونانية. أما بالعربية، فالمعاجم كلّها تجمع على تفسير واحد لاسم «سلوق» أو «سلوقي» وهو أنه نوع من الكلاب وهو أجودها ويستخدم في الصيد، وهو خفيف الحركة. وربما يكون من «سلخ»، «مسلوخة»، أي مقتطعة! و«سلوق» قرية باليمن[2].

---

(1) النِطاق ويعرف كذلك بالإمبراطورية وهو أعلى مرتبة تصنيفية في علم تصنيف الأحياء ضمن النظام ثلاثي الأبعاد الذي وضعه في سنة (1990) العالم «كارل وويس» وتنضوي تحته الممالك الست، («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة).

(2) المعجم الرائد، المعجم الوسيط، المعجم الغني...

أفامية: (Afamia)[1] وباليونانية القديمة واللاتينية (Ἀπάμεια, Apameia)، واسمها اليوم «قلعة المضيق»، المشرفة على سهل الغاب الذي يمرّ فيه نهر العاصي (L'Oronte) وتضمّ موقعاً أثرياً كبيراً، وتقع شمال غربي حماة. والنتوء الصخري الذي بُنيت عليه القلعة هو عبارة عن «أكروبوليس» كان موقع المنشآت البشرية منذ العصور الحجرية (مشغل لتقصيب الصوان في العصر الحجري القديم الأوسط؛ استقرار لجماعة ذات سمة زراعية في العصر الحجري الحديث، مكاشط وأزاميل ومناجل...) وقد أثبتت هذه الإكتشافات استمرار السكن فيها منذ العصر البرونزي القديم (الألف الثالث ق.م.)؛ وعند سفح التل، كشف التنقيب عن وجود أساسات أكواخ وأهراءات وقبور. ونتعرّف من خلال توثيق الخزف الكثير الذي اكتُشف من العصر البرونزي الأوسط في موضع «النجا» (Nija) (نيا في رسائل تل العمارنة) على نصوص مصرية وأكادية وحثية تتعلّق بالحملات التي قام بها الفراعنة«تحوتمس الأوّل» و«تحوتمس الثالث» و«أمينوفيس الثاني» (بين القرنين السادس عشر والرابع عشر ق.م.) على شمالي سورية. ارتبطت المدينة بمملكة «أورحلينا» (Urhilina) الحثيّة (القرن التاسع ق.م.)، ثم ارتبطت تحت اسم «فرنكة (Pharnaké) أو (Apharnaké) بمصير الإمبراطورية الفارسية (القرن الخامس ق.م.) وذُكرت «بارنكا» عند المؤرّخ الجغرافي «سترابون». وبعد انتصار «الإسكندر» في معركة «إيبسوس» (Ipsos/ 333 ق.م.)، آوت في قلعتها حامية مقدونية، وإلى هذه الفترة يرجع إسم «بيلا» (Pella)[2] الذي حملته والذي يذكّر بمواضع مختلفة من بينها «بيلا» مدينة «الإسكندر» في مقدونيا. وبعد معركة «إيبسوس» (Ipsos العام 301 ق.م.)، آلت سورية الشمالية إلى «سلوقس نيكاتور» الذي أسّس حوالي

---

(1) اهتم بتاريخ أفامية ودرس آثارها كل من «شارل» و«جانين بالتي»، ولهما مركز خاص بها ودراسات عديدة عنها، راجع منها:

Ch. Balty, *Apamée de Syrie*, (C. B. R. A. A. S. et De Boccard), Paris, 1993; J. Balty (édité par), *Apamée de Syrie*. Bilan des recherches archéologiques 1973-1979. *Aspects de l'architecture domestique d'Apamée* (Actes du colloque tenu à Bruxelles les 29, 30 et 31 mai 1980).

(2) عدد كبير من المدن حملت هذا الاسم، وأشهرها «بيلا» (Pella) عاصمة مقدونيا ومسقط رأس «الإسكندر الكبير»، ولعلّها كلّها مرتبطة به. ولكن يبقى واضحاً اسم «بيلا» أنه فينيقي الأصل وهو «بعلة» بإسقاط حرف (ع) الثقيل على اللسان اليوناني.

(300/ 299 ق. م.)، على الهضبة عند سفح «الأكروبوليس»[1] القديم، مدينة «أفاميا الجديدة» على اسم زوجته الفارسية «أباما»؛ ويبدو أنه أسّس مدناً أخرى أخذت الاسم نفسه مثل (أفاميا - فريجيا[2] وأخرى في «بيثينيا» Bythinie)[3]. وخلال هذه الحقبة، شكلت أفامية مع إنطاكية وسلوقية ولاوديسية المدن الرئيسية الأربع في سورية والتي كانت مكلّفة بحماية المنفذ الوحيد للإمبراطورية السلوقية الداخلية الشاسعة على البحر، وكانت أفامية تلعب، ضمن هذه المجموعة، دوراً عسكرياً هاماً. ثم دخلت المدينة في حوزة الرومان (64 ق. م.)، وآلت بعدها إلى البيزنطيين (340م)، ثم فتحها العرب العام (638م) وفي العصر العباسي، بُني حصن منيع على قمة التل، ثم قام نور الدين زنكي بترميم القلعة بعد زلزال العام (1157 م)، ثم انتقلت إلى الأيوبيين والمماليك من بعدهم، لتفقد أهمّيتها العسكرية في العهد العثماني ولكنها بقيت موقعاً إستراتيجياً، وفيها قرية صغيرة بين أسوار القلعة القديمة تُعرف باسم «قلعة المضيق». وفي عهد السلطان سليمان القانوني الأوّل، تمّ بناء مسجد ومدرسة وخان هو الآن «متحف أفاميا للفسيفساء» ويتبع للمديرية العامة للآثار والمتاحف.

وهكذا، من خلال استعراضنا المقتضب لتاريخ «أفامية»، نرى أنها مرّت بمراحل عديدة تغيّر اسمها على التوالي، ما يعبّر جيداً عن طموح الغزاة لتخليد اسمهم في الأماكن التي يستولون عليها، بإزالة الاسم القديم واستبداله بآخر يدلّ على هويتهم، تماماً كما فعل «الإسكندر» عندما أعطاها اسم مسقط رأسه «بيلا». ولكن الأمر الذي يلفت انتباهنا هو أنه من بين كلّ تلك الأسماء التي توالت عليها، لم تحتفظ المدينة إلاّ باسم «أفامية» والذي، حسب ما ذكرنا مراراً وبحسب المنهجية اللغوية التحليلية، المنطقية، لا بدّ وأن يكون اسمها الأساسي الذي أطلق عليها منذ نشأتها الأولى أي مع الشعب الأقدم الذي سكنها. وبعودة وجيزة إلى الماضي، نرى أنها عرفت السكن منذ العصور الحجرية المتعاقبة أي أنها حاضرة استمر فيها العيش إلى يومنا، وتطوّرت أقوامها حضارياً محتفظة بالاسم نفسه، لأنها ما زالت متواصلة إلى الآن تردّد لغتها نفسها بما فيها إسم منطقتها

---

(1) أكروبوليس (acropolis): التلة العالية التي تبنى عليها قلعة.

(2) حالياً في تركيا وكانت تعرف قديماً باسم «كيبوتوس» (Kibôtos /Cibotus).

(3) في آسيا الصغرى وهي المدينة التي التجأ إليها حنابعل، على أثر خسارته معركة «زاما» (202 ق. م.) وسقوط قرطاجة.

ذاته أي «أفامية» . ويأتي الاسم ليدعم رأينا ، فأفامية عرفت أيضاً بلفظ «فاميا» (Famia) أو «فاميه» (Fâmieh) وكانت المنطقة مشهورة منذ العصور القديمة بخصوبة أريافها «الملائمة بالقدر نفسه للأشجار والقطعان والكرمة» بشهادة عدد كبير من الكتّاب القدماء على رأسهم «سترابون» ، وهي تتميّز بموقعها قرب نهر العاصي الذي يشق مجراه في سهل الغاب المعتبر من أخصب المناطق الزراعية في العالم ويشتهر تحديداً بزراعة الشعير والقمح البعل . ويزيد من اقتناعنا بهذا التفسير ما ذكر عن تفسير اسم مدينة «الفيوم» في مصر ، حيث يعلل الأهلون اسمها أنها هي المدينة التي شهدت تخزين الغلال أيام النبيّ يوسف ، وحيث أن مدّة السنوات السبع تعادل (ألفي يوم) . عليه ، فإن الاسم الذي يفرض نفسه هو الاسم الأكثر ملائمة للإقليم وهو الإقليم الزراعي بامتياز في أفامية . وتزداد قناعتنا أكثر ، بالعودة إلى المعاجم العربية ، فنجد : (الفُومَةُ : السُّنبلة ؛ الحبَّةُ ممّا يخبز ؛ الثُّومةُ ؛ الشيءُ القليلُ تحمله بين إِصبَعَكَ ؛ جمع الجمع فُوَم ، مفرد فُومَة ؛ ثوم ، كُلُّ حَبٍّ يُخبَز ، قمح وكلّها اجتمعت في الآية : ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا ﴾[1] .

وبالنتيجة ، إذا صحَ ما اجتهدنا به من تفسير لاسم أفامية ، على أنها تعني القمح والسنبلة ، ينتفي ، وللمرّة الثانية ، عن الغازي لبلادنا ما سجّله التاريخ الذي أمر هو نفسه بكتابته من أن «أفامية» مؤسّسها الحقيقي هو «سلوقس نيكاتور الأوّل» والذي بناها وأسماها «أفاميا» وبنى معها قلعتها ، لتدخل في الأسطورة المركّبة من خيالات من كتبها ، ولتبقى ، في النهاية ، حقيقة واحدة وهي أن اسمها ساميّ – مشرقيّ وإن غلّفته طبقات من النسيان في الذاكرة الشعبية .

ونواصل استعراض اللمحة التاريخية المقتضبة في تتبع تاريخ سورية ، للوقوف على حجم حصّة الغزاة من تسمية أماكنها وأيضاً لتفنيد حقيقتها وتبيان صحّتها من زيف ادعائهم .

أصبحت سورية ، بدءاً من العام (64 ق . م .) ، جزءاً من الإمبراطورية الرومانية بعد أن اجتاحها القائد الروماني «بومبيوس» (Pompée) مفوّضاً من «يوليوس قيصر» الذي منحها العام (47 ق . م .) بضع إمتيازات خاصة . وعلى الفور ، أعاد «بومبيوس»

---

(1) راجع : معجم اللغة العربية المعاصر والقرآن الكريم (سورة البقرة ، الآية 61) .

(63 ق. م.) نشاط مدن الديكابوليس (Decapolis) أي «المدن العشر»[1]، وكان أغلبها باستثناء دمشق (التي كانت عضواً فخرياً فيها) قد تأسّس تباعاً في العصر الهلنستي، منذ موت «الإسكندر المقدوني» (323 ق. م.) وحتى والغزو الروماني لسورية العام (64 ق. م.)، على صيغة تحالف روماني ضمّ المدن العشر التي كانت تعد أهم مدن منطقة بلاد الشام للوقوف ضد نفوذ الأنباط العرب في الجنوب. وهي: («فيلاديلفيا» Philadelphie (عمّان/ الأردن)؛ «أبيلا» Qweilbeh / Abila (قويلبة/ الأردن) (أو «حرثا» أو «رفانا» Raphana كما ذكرها «بلينوس»)؛ «جراسا» Greasa (جرش/ الأردن)؛ «جدارا» Gadara (أم قيس/ الأردن)؛ «كانثا» Canatha-Qanawat (قنوات - أم الجمال/ سورية)؛ «بيلا» Pella (طبقة فحل غربي إربد/ الأردن)؛ «دايون» Dium أو Dion («إيدون» أو بيت راس/ الأردن، وذكرها «بلينوس» باسم Capitolias)؛ «هيبوس» Hippos/Hippus/Sussita (الحصن/ فلسطين)؛ «سكيثوبوليس» Scythopolis (بيسان أو بيت شان/ فلسطين)؛ دمشق Damas؛ (ومنهم من يضيف إليها بصرى Bostra الشام). هذه المدن التي كان لبعضها شأن عظيم كانت تعدّ البوابة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، من هنا هذا الاهتمام الكبير الذي أولي لها، بحيث وصفت بأنها «من أجمل المدن في المقاطعة الرومانية السورية، بعد روما»[2].

(1) ذكرها المؤرّخ «بلينوس الكبير» (Pline, *NH*, 16/05/74; V, 18).

(2) يتميّز كلّ من التخطيط المدني والعمارة في هذه المدن بتشابهه كبير، في الساحات العامة والمدرّجات والأسواق والبوابات والمسارح والأبنية والمعابد... ولكأنها نسخة عن بعضها البعض.



المدن العشر أو «ديكابوليس»

وفي تحليل بسيط لبعض أسماء هذه المدن العشر التي تنسب من حيث تأسيسها إلى الغزاة الإغريق ومن ثم الرومان، نجد: أن اللفظ «أبيلا» محرّف بحيث أسقطت من اسمها الأصلي وهو «قويلبة» القاف (ق) الصعبة اللفظ على المستعمِر واستبدلت بألف (A)، فانحرف اللفظ إلى «أبيلا»، بينما حافظت «جرش» بنسبة كبيرة على لفظها ومثلها «قنوات». بينما في «بيلا» (فحل) أستعيض عن الباء(ب) بال (p) وهو حرف لاتيني اللفظ، وأسقطت منها الحاء (ح) لصالح (ي) (e) اللاتينية فأصبحت حرف علة صائت.

ونلاحظ مثلاً أن عمّان لا تمت بصلة لفظية لاسمها اليوناني «فيلادلفيا»، ما يعني أنه أسقط على اسمها الأصلي وهو «عمون»، وما يدلّ على أنها كانت موجودة قبل الغزو الأجنبي واستبدل اسمها باسم «فيلادلفيا» الذي يعني (محبّ أخيه) وأنها مدينة لم تؤسّس مع قدوم المحتل بل تغيّر اسمها عمداً. أما معنى اسمها «عمّان»، هذه المدينة العريقة ذات الـ7000 سنة من العمر، والتي تدلّ عليها آثارها التي تعود إلى فترات زمنية متلاحقة حتى العصر الهلنستي ثم الروماني، فهو نسبة إلى العمّونيين[1] مؤسّسيها، أي أنه اسم من المستوى السيادي السلطوي، ومثلها أماكن ومواضع عديدة في المشرق أهمها «سلطنة عُمَان» من دون تشديد وغيرها الكثير. وهناك من ينسب اسم عمّان إلى الإله «عمون» أو «أمون»[2]، ما يجعل اسمها يدخل في المستوى الديني والأسطوري أيضاً.

---

(1) العمّونيون أو أصحاب مملكة «عمون» من الشعوب السامية القديمة التي استوطنت في شمال الأردن منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جانب الأدوميين والمؤابيين، حيث أقاموا حضاراتهم فيه واتخذوا من «عمون» أو «عمّان» عاصمة لهم. ذُكر الاسم في التوراة وكما ظهر في كتابات الحضارات الأخرى مثل الأشوريين، حيث كانوا معروفين بأنهم الشعوب التي تعيش شرق نهر الأردن. (راجع، تاريخ عمّان القديم – العمّونيون موقع إنترنت).

(2) «آمون» إله الشمس والريح والخصوبة، أحد الآلهة الرئيسيين في المعتقدات المصرية القديمة، ويقال إن معنى اسمه «الخفي». وهو معروف باسم «عمون» في سورية. ويؤكّد اللغويون أنه من العسير معرفة كيف كان اسمه ينطق لأن الكتابة المصرية القديمة، الهيروغليفية، كانت تستعمل الحروف الساكنة (الصوامت)، فكان اسمه يكتب «أمِن» ومن الممكن أنه كان ينطق «أَمِن» مع إمالة الكسر إلى الفتح. وهذه الطريقة في إهمال حروف العلة ليست ميزة الهيروغليفية المصنّفة في الساميات فقط، بل استمرت حتى الأبجدية الفينيقية. وهناك مدرستان غربيتان مختلفتان في لفظ الكلمات الشرقية القديمة، وقد اعتمدت في ألفاظها أي لفظ المصوّتات (Voyelles) على لفظ إفتراضي، إصطلاحي خاص: ففي =

وبطبيعة الحال، لنا رأي في تفسير الاسم «عمّان» وهو أنه يتحدّر من «عم» أي القريب (أخ الوالد أو أي شخص مقرّب أو غريب ينادى «عم» بالعربية) أو «ابن عمي» أعطت إسم (بنيمين/ Benjamen أي الأخ الأصغر)، وهي لفظة تحبّبية إنسانية الأبعاد. وتأتي الترجمة اليونانية للاسم «عمّان» لتدعم تفسيرنا هذا، إذ أن «فيلادلفيا» هو لقب بالأساس من اليونانية القديمة (φιλαδελφία, philadelphía) مركّبة من («فيلو» = محب و «دلفي» = أخ)[1]، ما يعني أن المستعمر، في هذه الحالة، أخذ بمعنى الاسم فترجمه واعتمده من حيث معناه وحتى حسب لفظه، فالاسم اليوناني حسب تحليلنا هو نفسه من أصل سُرياني - عربي ونرى فيه (ذا + «وليف») بالسُريانية العربية أي «الوليف» وتلفظ أحياناً «ولي» بالعربية الفصحى[2]. ما يعزّز المعنى الفيلولوجي للاسم، أي ما يرمي إليه في أبعاده الأخلاقية. (فيلو = value/valeur أي قيمة أخلاقية. ونجد اللفظ مصحوباً بالمعنى من خلال العبارة العربية «ليس بذي بال» أي لا قيمة له (no value). وهذا الانسحاب اللفظي والمعنوي مردّه إلى تأثر كلّ اللغات باللغة الفينيقية - السُريانية -

= حين اعتمدت المدرسة الفرنسية لفظاً خاصاً لنقل المفردات والأسماء القديمة مثلاً في «أمون» وهو (O) كقولنا (Amon)، فقد اعتمدت المدرسة الإنكليزية لفظ (E) كقولنا (Amen) وهذا اللفظ الأخير يشبه، لفظاً ومعنى «أمين» بالعربية، ولفظه هو هكذا بالقبطية وهي اللغة المصرية القديمة، والتي اعتمد عليها في لفظ وتفسير الهيروغليفية. عليه، تكون المدرسة الإنكليزية أقرب للمدرسة المشرقية السُريانية من المدرسة الفرنسية، فلفظ «لبنان» بالسُريانية هو (لبنن: ܠܒܢܢ) وبالإنكليزية هو (Lebanon) بينما بالفرنسية هو (Liban) أي أدغمت النون (راجع بالنسبة للقواعد الهيروغليفية:

J.-F. Champollion, *«Lettre à M. Dacier relative à l'alphabet des hiéroglyphes phonétiques»*, (27 septembre 1822); G.Maspero, *Introduction à l'étude de la phonétique égyptienne*, Paris, H. Champion, 1917; A.H. Gardiner, *Egyptian Grammar* (An Introduction to the Study of Hieroglyphs), London, 1973; G.Lefebvre, *Grammaire de l'égyptien classique*, Le Caire, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1955.

(1) ومثلها فيلسوف (philosophe) أي (philo + Sophia) أي «محبّ الحكمة» أو «أخ الحكمة» أو «صاحب الحكمة». وقد أخذت العبارة «فيلادلفيا» الكثير من اهتمام الباحثين الفيلولوجيين واللغويين الذين شدّدوا على فحواها الأخلاقي والإنساني وأبعادها الدينية المتعلّقة بالإلفة والمحبة (راجع:
Joseph Bonsirven, *Théologie du Nouveau Testament,* 1951 *(Elle comprend la bonté et la bénignité, la philadelphie; elle entraîne une parfaite sympathie: elle commande la paix et l'unité et elle exclut divisions querelles et inimitiés).*

(2) ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (سورة فصلت، 34).

العربية القديمة وهو ليس حديثاً. ما يعني أن المستعمر من حيث لغته وكتابته هو المتأثر أساساً بالحضارة الثقافية اللغوية والفكرية التي سبقته، أي أن الإغريق تأثروا بالفينيقيين منذ القدم وقبل غزوهم بلادهم لاحقاً. وما عبارة «هذه بضاعتنا ردّت إلينا»، أي أن لغتنا ردّت إلينا، إلاّ التعبير الأكثر دقّة عن هذه المسألة.

إسم «طرابلس» (Tripolis) نموذجاً

في شرقي المتوسط، هناك منطقة الطرابلسية (La Tripolotaine): وهي منطقة تاريخية في ليبيا، يقال إن اسمها يعني «المدن الثلاث» باليونانية القديمة وهذه المدن هي: «إويا (Oea)، «لبدة الكبرى» (Leptis Magna) و«سبراطة» (Sabratha) وهي المدن الرئيسية الأهم منذ القدم. والطرابلسية هي التي أعطت اسمها لاحقاً لطرابلس وهو الاسم الحديث لأويا (Oea)، والتي تعرف اليوم بطرابلس الغرب (Tarābulus) بالعربية وبالإيطالية (Tripoli) وهي عاصمة ليبيا وأكبر مدنها والمرفأ الرئيسي فيها والمركز التجاري والصناعي الأوّل ومركز الحكومة ومدينة جامعية. توصف بعروس البحر الأبيض المتوسط لجمال بساتينها ومبانيها البيضاء. سمّيت بطرابلس الغرب للتمييز بينها وبين طرابلس (Tripoli) المدينة اللبنانية الساحلية التي تعدّ العاصمة الثانية لأهمّيتها التجارية والاقتصادية والسياحية. وذكرت كلّ من المدينتان، الليبية واللبنانية، في المراجع الغربية: «تريبولي» (Tripoli) أو (Tripoli de Barbarie) أي منطقة (Tripolitana Regio): مدينة إفريقية على المتوسط ومدينة في آسيا، في «سورية» (La Sourie)، في المقاطعة التي سمّيت قديماً فينيقيا، على البحر المتوسط، (ذكرت في كتاب المكابيين، 14) وإسمها باليونانية المدن الثلاث لا تبعد عن بعضها إلاّ بضع كيلومترات، الأولى كانت للأروادين، والثانية للصيدونيين والثالثة للصوريين. وذُكر أن المدن الثلاث لم تكن إلاّ واحدة وأن أبنيتها متشابهة[1].

أوردت المراجع الأجنبية[2] عدّة مدن حملت إسم «تريبوليس» (Tripolis)، من بينها واحدة: «تريبوليس»: (باليونانية واللاتينية Tripoli ,Τρίπολη أو ,Τρίπολις

(1) A.-A. Bruzen de La Martinière, *Le grand dictionnaire géographique et critique*, 1732, (B. Pasqueli) 1741, p.333; *Le grand dictionnaire géographique historique et critique*, 1768 (Livre numérique Google).

(2) المرجع نفسه.

(Tripolis وقديماً (Tripolitza, Tripolizza أو Tripolitsa Tropolitza : وباليونانية
Τριπολιτσά) هي مقاطعة في منطقة «أركاديا» (Arcadia) في وسط شبه جزيرة
«البيلوبونيز» (Péloponnèse) باليونان، تقع على سفح جبل «أبانو - كريبا» (-Apano
Khrépa) في هضبة «مينال» (Ménale) في وسط سهل خصب، في منطقة «لاكونيا»
بالبيلوبونيز. وأخرى في «تساليا» (Thessalie) ذكرها المؤرّخ الروماني «تيتليف»
(Tite-Live, liv. 42, c. 53) وقد أخذت اسمها من المدن الثلاث (,Azorum
Pythium, Doliche)، ويحدّد «إيتيان» الجغرافي (Etienne le Géographe) موقعها في
«بيربيا» (Perrhébie). وذكر أن «تريبوليسي» (Tripolissi) هو شعب عاش في منطقة
«الأبير» (Epire) اليونانية. والظاهر أنه نفس قبيلة «تريبالي» (Triballi)، وهو أيضاً
إسم جزيرة في نهر»الدانوب»، والاسم عائد لتلك القبيلة الكبيرة في منطقة البلقان،
ويقال إن «الإسكندر الكبير» لم يستطع الدخول إليها لشدة بأس أهلها. ذكرها كلّ من
«بطليموس» و«بلينوس»؛ وهناك «تريبوليس» في آسيا الصغرى تقع على نهر «المياندر»
(Méandre)[1]، وهي المدينة الأولى في «كاريا» (Carie) بحسب «بطليموس» الجغرافي؛
وهناك «تريبوليس» موقع محصّن في منطقة «البونت» (Pont) ذكرها المؤرّخ «بلينوس»
(liv. 6, c. 4) ويحدّد موقعها المؤرّخ «أريان» (Arrien) على نهر «البونت أوكسين»
(Pont-Euxin).

وتجدر الإشارة، في هذا السياق وفي تنويه منا إلى أهمّية أسماء الأماكن في التعرّف
على الانتشار الحضاري لشعب ما، أنه تكثر مثل تلك المدن التي تحمل لفظ «طرابل» أو
«تربل» وهي منتشرة في محيط البحر الأبيض المتوسط الغربي بشكل خاص، ونستعرض
معظمها هنا، والتي لا شكّ أنها كانت أكثر عدداً قديماً، وعُرّفت كلّ منها بميَزاتها خاصة
الزراعية، من مثل: «تريبوليوم» (Trebulium) في بلاد التركمان (Turcomanie) قرب
بلاد فارس؛ «تريبولا» (Trebula): مدينة في منطقة «كمبانيا» (Campagnie) بإيطاليا؛
«تريبينيا» (Trebigna/Trebigno) أو (باللاتينية Tribulium): مدينة في «دلماسيا»
(Dalmacie رومانيا)، تقع على نهر «تربينسكا» (Trebinska)؛ «توربولي» (Torbolé):
مدينة في منطقة «ترنتين» (Trentin) في شمالي إيطاليا والمنطقة من أخصب الأراضي
الزراعية وتنتج القمح والزيت والخمور؛ «تريبولويوم» (Tribulium): موضع محصّن في

(1) المرجع السابق نفسه.

«ليبورنيا» (Liburnie) ذكره «بلينوس» من بين الأماكن التي خاض فيها الرومان معارك ضارية[1]، ويُذكر الموضع في مراجع أخرى (Triburium)؛ «تريوبالا» (Triopala): إسم نهر ذكره (Vibius Sequester)؛ «تريبلادا» (Tripalda): قرية في إيطاليا قرب «نابولي» (Naples)[2]؛ «تريبولوس» (Tripolus): موضع في جزيرة كريت، ذكرها «هزيود» في «الثيوغونيا»؛ «تريبيلوم» (Tripylum): موضع في «كاريا»، وفي هذا الاسم يتوضّح معنى الركائز أو الأعمدة الثلاثة، كان الموضع جزءاً من مدينة «هاليكرناس»، بحسب المؤرّخ «أريان» (Arrien)؛ «تروفيل» (Trouville-sur-Mer): في «نورموننديا» بفرنسا، واسمها يعني «الحقل الريفي» (domaine rural)[3]؛ «تيرفولا» (Tervola): مقاطعة تقع جنوبي «لابونيا» (Laponia) بفنلندا ذات الطابع الأرخبيلي الساحلي، و«تيرفولا» هذه طابعها زراعي بامتياز، يجري فيها نهر «كميجوكي» (Kemijoki).

وفي تفسير اسم طرابلس لنا اجتهادنا الخاص، قياساً على ما يقوله أحدهم: «كم هي تعيسة فكرة تفسير إسم طرابلس بانه يوناني (Tripolis) أي المدن الثلاث، إذ لا وجود لمدن ثلاث في طرابلس، فيما يتعاكس هذا التفسير مع تكرار إسم طرابلس على الأقل في ثلاثة أمكنة: لبنان، ليبيا، صقلية الإيطالية. في حين أن عائلات طرابلسي تتكرّر في لبنان، وعشائر الطرابلة ما زالت في سورية حتى اليوم. وجبل طربل قرب مدينة طرابلس، وكذلك في البقاع، فاسم طرابلس مشتق من عشائر الطرابلة أو من شكل الجبل القريب (طربال – طربل)[4]، وحيث (السين) عائدة للهجة اليمينية، مثل أسماء (إلياس/ إليا، يونس/ يونان)»[5]. نلاحظ هنا ربط إسم طرابلس بالمستوى العائلي السيادي نسبة إلى

(1) وهذه الملاحظة هامة إذ تعكس الطابع القبلي (tribal) المقاوم للمحتل والذي يدخل في تفسير أسماء الأماكن تلك.

(2) لاحظ الشبه مع «نابلس».

(3) Albert Dauzat et Charles Rostaing, *Dictionnaire étymologique des noms de lieux en France*, Librairie Guénégaud 1978. p.688a.

(4) «طربل» في المعجم العربي وفي «تاج العروس» وفي «لسان العرب»: (الطِّرْبَال): عَلَم يبْنَى فوق الجَبَل. وكلُّ بناءٍ عال كالمنارة ونحوها وكلّ قطعة من جبل أو حائط مستطيلة في السّماء؛ طرابيل (الطَّرْبيل): النَّوْرج الذي يُدَقّ به ما يُحْصَد.

(5) فرج الله صالح ديب، مزوّقات من كلام العرب في اللغة الفرنسية، نوفل، 2001، ص47، هامش 5.؛ واليمن هي الأصل – الجذور العربية للأسماء، 1988، ص 261.

«الطرابلة»، وننوّه أنه لا تشذ أسماء العائلات عن قاعدة أسماء الأماكن والتي كما ذكرنا وثيقة الصلة ببعضها، فإما المكان أعطى اسم العائلة أو أن العائلة أعطت اسم المكان، وأسماء تلك العائلات انتشرت في العالم مثل أسماء الأماكن تماماً بفعل الانتشار الفينيقي - السوري القديم (والهجرة العربية الحديثة)، فالعديد من أسماء العائلات (Patronymes) الأجنبية تُنسب لإسم «طرابلس» أو «تربل»، من مثل العائلات الفرنسية (Trabelsi, Triboulet, Thoroval, Trovalet, Travaille, Triballier, Tribouillard, Troupel, Turpault, Tourville). ولا نهمل المستوى الجغرافي المتمثّل بالطربل وهو شكل الجبل (هناك معبر «طريبيل» الحدودي بين الأردن والعراق). وأقرب صيغة للاسم، برأينا، تعود إلى المستوى الديني العقدي هي «طور بعل» أي جبل بعل، وممكن أن يكون «تربة إيل» أيضاً والذي يعني الأرض الخصبة التي يرعاها «إيل» ما يتناسب جيد جداً مع البيئة الزراعية لبلدة «تربل» البقاعية، وقد نقل لفظها ومعناها الفرنسيون إلى (Terre Belle) وهو يتناسب جيداً، لفظاً ومضموناً، مع الاسم الأصلي لها ولكلّ البلدات التي ذكرناها أعلاه ذات الطابع الزراعي الريفي. كما ويحتمل الاسم لفظ (tour/tower) بمعنى البرج العالي أو العزال وهو معنى طربيل في «لسان العرب»[1]. ومن الواضح أن كلّ من اسمي طرابلس وتربل يحتويان على اسم «تربة». وقد لاحظنا أن كلّ المدن والمناطق التي ذكرناها أعلاه ساحلية أو تقع قرب أنهار أو في سهول ما يعني ارتباطها بالتربة والأرض والخصوبة ما استدعى تسميتها بذلك. ولا شكّ أنها من رواسب الانتشار الفينيقي العريق في المتوسط وكلّ أصقاع الأرض، حيث خلّد الفينيقي - السوري أسماء بلاده الأم في الأماكن التي سكنها وطوّرها وحضّرها بفضل الزراعة والعلوم والفنون والفكر.

وهنا نتساءل عن مفرد «ثلاثة» في إسم طرابلس ولا يسعنا إلاّ أن نستحضر مفرد «تريبل» (Triple) بمعنى ثلاث/ (trio) أو ثلاثي، وهذا يجعلنا نفكر كون التسمية مرتبطة بالتربة، بالأرض الكثيرة الخصوبة والتي تسمّى «دلتا» (delta) وهي نفسها حرف

(1) قال الأَزهري: ورأَيت أَهل النخل في بَيضاء بني جذيمة يَبْنون خِياماً من سَعَف النخل فوق نُقْيان الرِّمال يَتَظَلَّل بها نواطيرُهم ويُسَمُّونها الطَّرابيل والعرازيل وقال شمر الطَّرابيلُ الأَميال واحدها طِرْبال وقال ابن شميل هو بناءٌ يُبْنَى عَلَماً للخيل يُسْتَبَق إِليه ومنه ما هو مثل المنارة وبالمَنْجَشانِيَّة واحد منها بموضع قريب من البصرة»، راجع «لسان العرب»، «طربيل».

(دالت) بالفينيقية و(دولات) بالسُريانية (وهي العدد 3 ويلفظ تلوتو)[1]، ويعني الرقم «الثالث»، وشكلها مثلث. وكيف لا نفكر بدلتا مصر المثلثة الشكل وهي أخصب المناطق الزراعية في العالم بفضل تكدّس طمي النيل كلّه فيها؟ وهكذا يتوضّح لنا لماذا تلك المدن حملت إسم طرابلس وفسرت بالمدن الثلاث أو الروافد الثلاث التي تصبّ فيها، فلأن شكلها ثلاثي كما الدلتا، وكما هو شكل الخليج الممتد في البحر حيث موضع طرابلس الغرب القديمة على الساحل الليبي وكذلك طرابلس لبنان ذات الرأس الثلاثي الممتد في البحر وغيرها من المدن التي سبق وأشرنا أن أغلبها ساحلية:



طرابلس الغرب القديمة



طرابلس لبنان

(1) لعلّه في لفظ العدد (3) يظهر بوضوح الشبه الكبير بين الحرفين (ل) و(ر) حتى عُدّا حرفاً واحداً.
«تلوتو» بالسُريانية «ثلاث» بالعربية، تلفظ «تريو» (trio) باللاتنية وبالإيطالية (terzetto).

وبالعودة إلى اللمحة التاريخية، في العصر البيزنطي الذي تلا انتقال مركز القوة السياسية في الإمبراطورية الرومانية إلى القسم الشرقي وعاصمته القسطنطينية نهائياً، وذلك بعد سقوط العاصمة الغربية روما بأيدي البرابرة، تميّز التاريخ الجديد للروم في الشرق بطابع فكري جديد وذلك بعد إقرار المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الذي مهّد له الإمبراطور «قسطنطين الكبير». ولقد استمر العصر البيزنطي في سورية من القرن الرابع الميلادي وحتى الفتح العربي الإسلامي لسورية الذي تمّ في عهد الإمبراطور «هرقل» في العام (636م). وفي ظل حكمهم، إحتفظ الروم بالتنظيم الإداري والقانوني وحتى باللغة اليونانية التي اعتمدت سابقاً خلال الإحتلال الروماني للشرق، فلم تتبدّل التقسيمات الإدارية للمناطق ولم تتغيّر أسماؤها كلياً عما كانت عليها سابقاً، بل إن هذا التبدّل سوف يحصل بشكل جذري لاحقاً.

وصلت الحملة الإفرنجية[1] الأولى إلى الشرق، ودخلت مدينة الرها في 6 فبراير من العام (1098)، ثم غزت إنطاكية في أغسطس من العام (1098). إستمرت هذه الحملات المنهجة أوروبياً والتي قام بها «الفرسان» وكبار الإقطاعيين الغربيين، من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (1096 – 1291)، وكانت نتائجها مدمّرة على المشرق[2] وعلى كلّ الصعد.

---

(1) هي الحروب الإفرنجية (Guerres des Francs) ونرفض تسميتها بالصليبية (Croisades) كما أدرجتها المراجع الأوروبية مردّدة عبارة من افتعلوها باسم الصليب زوراً، مبرّرين هجومهم البربري لتحرير المسيحيين في الشرق، وممّن؟ من المسيحيين أنفسهم، في إجرام لا يشبهه إلاّ التدمير الذي يكرّروه اليوم في بلادنا وتحت أسماء وشعارات أخرى. كما أن عبارة «صليبي» لم ترد لدى الإخباريين العرب من مثل ابن عساكر وغيره. في الواقع، إن النصوص التاريخية العربية لدى الإخباريين العرب وفي كل المصادر العربية والإسلامية خلت من استخدام وصف «الصليبين» للحملات «الصليبية»، وإنما أسمّتها «حروب الفرنجة» نسبة إلى فرنسا لأن أول حملة (1096–1099م) خرجت من فرنسا. فمثلاً، ابن الأثير(توفي 630هـ/ 1232م)، تحدّث عن «الفرنج» من خلال كتاب «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، كما أن عبارة «الصليبيين»، لن تظهر إلا في القرن الخامس عشر والتي لا تتواجد في اللاتينية وهي تعود إلى اللهجات المحلّية (langues vernaculaires) ولم تكن قد ظهرت إلاّ في مجمّع «لاتران» الرابع (1215)، وقبل ذلك، كان يشار إلى المقاتل «الصليبي» بعبارة «الحاج المسلّح»، راجع:

Nicole Bériou (dir. et rédacteur), Philippe Josserand (dir.) et al. (préf. A .Luttrel & A. Demurger), Prier et combattre: *Dictionnaire européen des ordres militaires au Moyen Âge*, Fayard, 2009, p.1029.

(2) راجع: ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، دار التقدّم، موسكو، 1986؛ وكتب أمين المعلوف عن الحروب الصليبية كما رآها العرب (A. Maalouf, *The Crusades Through Arab Eyes*, Published by Schocken,1989).

في تحليل بعض أسماء الأماكن «الإفرنجية» (toponymes francs)

في شمالي سورية

كثيراً ما تذكر المراجع الأجنبية منها والعربية التي تتناول تاريخ المدن السورية بما فيها اللبنانية والأردنية والفلسطينية، أسماء هذه الأماكن بالصيغة التي أطلقها عليها الفرنجة، ممّا يعني أن تغييراً كبيراً طرأ على أسماء الأماكن في ظل احتلالهم للشرق. وعدد من الباحثين اهتموا بدراسة تلك الأسماء التي تعود إلى العصور الوسطى (القرن الخامس – القرن الخامس عشر Moyen Âge)، وأفردوا لها صفحات بل ومجلّدات بغية دراستها وتفسيرها[1].

من الملاحظ أنه في شمالي سورية والمناطق المجاورة، وصولاً إلى الحدود التركية الحالية، من الصعوبة بمكان أن نقع على أسماء أماكن تعود إلى العصور الإفرنجية، ويبدو أنه لم يستمر أي اسم، إلاّ القليل النادر، من هذه الحقبة التاريخية[2]، ويُعلّل الأمر لدى بعض الدارسين على قلتهم أن الأبحاث بهذا الشأن قليلة على الأراضي التركية مقارنة بالسورية، إذ قام «كاهين» في ربيع العام (1937) بجوّلات تفقّدية في منطقة قيليقيا، إنطلاقاً من «الرها» (Édesse) أو «أورفا» أو «البيرة»، الواقعة على الضفة اليمنى للفرات، والتي كما ذكرنا آنفاً هي أولى النقاط التي حطّت فيها الجيوش الإفرنجية، وللمفارقة لم يجد أي إسم من تلك الحقبة، وكلّ ما وقع عليه هو أسماء الأماكن العربية (لا ننسى الأثر السُرياني في هذه المنطقة ذات الثقافة السُريانية العريقة والمتواصلة إلى اليوم تحديداً في الرها وفي حرّان «Carrhae»)، ولكن أيضاً التحويل الحديث العهد والواسع النطاق إلى الأسماء التركية المسيطرة على المنطقة)، باستثناء إنطاكية التي تعذّر على «كاهين» معرفة اسمها بالعربية. ويقول إن الفرنجة كما كلّ من سبقهم، ترجموا الأسماء، ولكنها عادت بطبيعة الحال إلى لفظها الأصلي بعد رحيلهم. وقد واجه الباحث صعوبة في التقريب اللفظي لتلك الأسماء مع ألفاظ لاتينية محتملة، وباءت محاولاته كلّها بالفشل،

---

(1) Ch. Kalifé, *Étude des toponymes arabes en français dans les récits des croisades*, XIIe-XIVe siècle, 1983; N. Faucherre, J. Mesqui, N. Proudeau, J. Richard, *La fortification au temps des croisades,* 2004; R. Dussaud, *Topographie historique de la Syrie médiévale*, 1927.

(2) C. Cahen, *La Syrie du Nord à l’époque des croisades et la principauté franque d’Antioche*, 1ère partie, p.109.

وباعتقاده لم تسهّل له المواقع المهمة فلا شواهد مادية، باستثناء الكنائس والأبراج العديدة ولعلها الوحيدة التي تدلّ من خلال أسمائها على وجود الفرنجة، ولا أسماء قرى متشابهة يمكن أن تضعه على السكة الصحيحة[1].

من بعض الأماكن ذات الأسماء المحوّرة لفظياً في الأناضول، منطقة «دولوك» الواقعة على سفح الجبل بالقرب من مفترق طريق «مرعش»، في وادي نهر «كرزين»، وكانت في العصر الروماني مركزاً دينياً كبيراً كُرّم فيه الإله «جوبتر دوليخانوس». وكان اسمها (Doulouk) في العصرين الروماني والبيزنطي (باليونانية Dolichè) وبالبيزنطية الحديثة (Telouch) وباللاتينية أي الإفرنجية (Tulupe) و«ديلوك» (Dilok) بالكردية، وتقع على بعد 10 كلم من «عينتاب» (Aïntâb‘) باللاتينية (Hatap) التي تحوّل اسمها بالتركية الحديثة إلى «غازي عنتاب» (Gazinatep)[2].

ولدينا هنا مثل عن التحريف الذي يتعرّض له الاسم عبر اللفظ المتباين من لسان إلى آخر. والمكانان (دلوك وعينتاب)، من حيث أصل إسمهما، عربيان واضحان، برأينا، وهما على التوالي «تل حوش» يكتب (Telouch) و«عين الطيبة»، ما يضع حدّاً لكلّ التكهّنات الأخرى. ويبيّن لنا تحليل الإسمين أنهما من المستوى الجغرافي الأوّل، مرتبطان بالبيئة الحرشية المائية، فالمنطقة هي الأغنى بمجاري وأحواض المياه، يجري فيها نهر «الساجور»[3] (Sadjoûr)، وكذلك غنية بالهضاب الخصبة، لذا تكثر فيها التلول السكنية القديمة جداً، مثل «تل بشير» (Tal Bachir) وعُرف باللاتينية (Turbassel)[4] واليوم

---

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) اليوم «دولوك» هي نفسها «عينتاب» ضمن الأراضي التركية. أما تسمية «غازي عينتاب» من قبل الأتراك فتحمل مضموناً عسكرياً متعمّداً، فغازي من غزا - يغزو، ويريدون بها «المنتصرة»، بعد أن تصدّت للحلفاء العام (1920) كما يزعمون («ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة - إنترنت). بينما نحن نرى العكس فالعثمانيون كانوا يعرفون العربية وما أسموها «غزو عينتاب» إلاّ لتخليد غوزهم لها.

(3) أو «الساغور». ونجد في المعجم تفسيراً ربما يكون هو المعنى المقصود: «السجر» صوت الرعد الشديد، شبيه بالزجر. ومثله الشاغور ومشغرة، بقلب (س) (ش).

(4) تكثر الأسماء اللاتينية الإفرنجية للأماكن السُريانية - العربية التي لُفظت محرّفة واعتمدت هكذا في المراحل اللاحقة: «تربل» (Terbol/Terre Belle)؛ «بريتال» (Brutal)؛ «بلمند» (Belmont)؛ «جونيه» (Juine)؛ أو مترجمة: «نهر الدامور» (Flumen Amoris)؛ «حونين» (Chateauneuf)؛ أو تقريبية: «الشوف (Le Schoul)؛ «كفر عكا» (Cafaraca)، إلخ... من البحاثين من وضع لوائح طويلة عن تلك الأسماء الإفرنجية، راجع: =

(Tilbechar). وفي زمن الفرنجة، كانت منطقة مروية جداً وكثيرة الخصوبة، شهيرة بجنائن الخوخ المميّز فيها، ويعتقد أن القلعة التي ترتفع على التل الشاهق تعود إلى القرن الحادي عشر وأنها من بناء الفرنجة، ولكن عدم بقاء أي من معالمها الأساسية لا يؤكّد شيئاً. ويقال إنه كان بجانبها خان وكنيسة على اسم القديس «رومين» (St-Romain)[1].
وعلى سفح «تل بشير»، بين حلب والبيرة، كانت ترتفع قلعة صغيرة اسمها «تل خالد» (Tal Khaled)، عرفت (Trihalet) باللاتينية، تعود إلى القرن العشر، وقد تضرّرت كثيراً بفعل زلزال العام (1114) ويرجّح أن الفرنجة رمّموها.

ومن الأسماء التي فقدت لفظها صريحاً وتحوّلت كلّياً، «برج الرصاص» (Bourdj ar-Raçâc)، في عفرين، الذي ترجم إلى اللاتينية (Turris Plumbea) وتفسيره بحسب القاموس اللاتيني (turris = tour و plombea = balle de plomb)، يفيدنا المعنى نفسه وليس اللفظ، ويمكن أن يكون العكس هو الصحيح، أي ترجمة عربية للاسم اللاتيني. والبرج بيزنطي البنيان، رمّمه الفرنجة، حسب ما هو متداول. وعلى مرتفع في عفرين، تقع قلعة «روندان» (Râwandân) واسمها باللاتينية (Château de Ravendel) وهي تعود للقرن الحادي عشر.

بالنتيجة، إن أكثر ما يثير الإنتباه في هذه المنطقة الشمالية من سورية هو تداخل أسماء الأماكن الكبير بين السُرياني والعربي واللاتيني والكردي والتركي والأرمني، إلاّ أن الباحث المدقّق ما يلبث أن يكشف عن أصل الاسم الشرقي. وهذه الأصالة في الأسماء تبيّن الإنتماء القومي، ما يعني أن منطقة الأناضول هي أراضي سورية – عربية بامتياز منذ أقدم العصور وقبل التقسيمات السياسية المتعاقبة تاريخياً. ولعل أكثر ما يدلّ على ذلك منطقة «عين العرب»، التي أصبحت شهيرة مؤخراً بعد غزو البرابرة الجدد لها وتدميرها، والتي لا تحتاج لتفسير، بينما اسمها الآخر «كوباني» لا يعني شيئاً ذا قيمة تاريخية، والبعض اعتقد أنه كردي ولكن لا معنى له بالكردية أيضاً. وبعد البحث، وجدنا أن «كوباني» ما هو إلاّ اللفظ المحرّف لكلمة أجنبية هي (compagnie)، أي شركة النفط الألمانية التي استثمرت منذ فترة ليست بعيدة في المنطقة، فدرج الاسم على ألسنة العامة. من هنا أهمّية دراسة الأسماء للعودة إلى معرفة الحضارة الأصلية للبلدان.

= E. et F.-X. Féghali, *Toponymes du Liban médiéval; Toponymes du Liban au Moyen Age*, Citadelle 1999-2015.

(1) كاهين المرجع السابق، ص 112.

ومن الأسماء السُريانية – العربية التي حرّفت بالتركية، قلعة «مرزبان» (Marzabân) حسب ما تكتب عادة بالعربية، ومعناها الفارس الشجاع أو أمير الفرسان، بحسب المعجم العربي وذكرها ياقوت، في «معجم البلدان» باسم (Barzaman) وهو لفظ يحاكي السُريانية – الآرامية (Pharzman)، تقع شمالي شرقي «عينتاب» و «تل بشير»، وتعود إلى القرن الثاني عشر، وحرّفت بالتركية إلى «مرزمان» (Tchaï Merzemen)، والتسمية التركية هذه حافظت، بصورة غير مباشرة على الاسم السُرياني المفقود مثلما فقدت القلعة. ومثلها اسم (Araban Tchaï) الذي يُذكّر أن «رعبان» (Ra'ban) كان الاسم القديم لقلعة (Altountach Kale) الحالية، وهي القلعة التي تصفها النصوص بالعظيمة والتي لم يبق من أثرها شيء على التل حيث كانت تنتصب، لأن المغول أحرقوها، ثم أعاد بناءها ملك قيليقيا الأرمني (Héthoum I, 1226-1270)، ليعود فيهدّمها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (1221 – 1260).

وهذا يقودنا إلى إكمال اللمحة التاريخية عن الغزو الذي تعرّضت له سورية وتغيير أو تحريف أسماء أماكنها جرّاء ذلك. ولكن الملاحظ أن القوى التي سوف تجتاحها وتعيث فيها خراباً، لم تترك أي أثر لأسماء خاصة بها ذات شأن يذكر، ولكأن التدمير الذي جاؤوا من أجله كان الهدف الأوّل والأخير.

استطاع المماليك (1250 – 1517م) إستعادة سورية وقسّموا بلاد الشام إلى ست نيابات، ثلاث منها في سورية الحالية هي دمشق وحلب وحماة.

في عهد جينكيزخان[1]، إجتاح المغول الشرق وسقطت العاصمة بغداد العام (1258م/ 656هـ) وأزالوا الدولة العباسية من الوجود وذلك بعد استيلائهم على المشرق وفارس حيث قامت لهم دولة معروفة تسمّى «الأيلخانية»[2] وتسمّى إيضاً «الإيلية». والمغول في الأصل قبائل بدوية جافة مواطنها الأصلية في الشرق الأقصى، ثم بدأت تزحف وتجتاح البلاد المشرقية والعربية بقيادة «هولاكو»[3]، ومع اجتياح المغول لبغداد

(1) جينكيزخان (1165 – 1227م) ومعنى اسمه بالتركية «ملك الترك الأعظم».

(2) وأوّل من أطلق عليهم هذا الاسم المختزل المؤرّخ العراقي ابن الفوطي (1244 – 1323م).

(3) هولاكو خان (1217 – 8 فبراير 1265م) حاكم منغولي (مغولي) إحتل معظم بلاد جنوب غرب آسيا. بعد أن قتل الملايين من أهلها. توسّع جيشه كثيراً في الجزء الجنوبي الغربي للإمبراطورية المنغولية، مؤسّساً سلالة الخانات بفارس. ومعنى اسمه الخنزير أو الذئب باللغة المغولية.

عاصمة الخلافة العباسية، قُضي بشكل كبير على معالم الحضارة العربية - الإسلامية. ثم إجتاح «تيمورلنك»[1] الشرق، وسيرّ جيشه المغولي وعاث خراباً في المدن. بدأ «تيمورلنك» غزواته باكتساح «قراباغ» بين أرمينيا وأذربيجان فقتل وسبى أعداداً كبيرة من سكانها. ثم توجّه إلى «تفليس» عاصمة «الكرج» في (القوقاز) ونهبها في جمادى الآخرة العام (802هـ/ 1399م) ثم توجّه إلى «سيواس» في (5 محرم 803هـ)، وقبض على مقاتليها وهم ثلاثة آلاف نفر، فحفر لهم سرداباً وألقاهم فيه وطمرهم بالتراب، ثم وضع السيف في أهل البلد وخرّبها حتى محا رسومها. ثم سار إلى «عينتاب» ففتحها، واتجه إلى حلب، فسقطت بسبب رفض مماليك مصر مساعدة أهل الشام نتيجة صراعهم على الحكم. وبلغ عدد القتلى فيها عشرين ألفاً والأسرى أكثر من ثلاثمئة ألف.

وبعد عمليات النهب والحرق والسبي والتخريب التي قام بها «تيمورلنك» وجيشه، اتجه إلى حماة والسلمية ولم يكن حظّها بأحسن حال من حلب، وواصل زحفه إلى دمشق حيث بذل أهلها جهوداً مستميتة في الدفاع عن مدينتهم، لكن ذلك لم يكن كافياً لمواجهة جيش جرّار يقوده قائد محنّك، فاضطروا إلى تسليم دمشق. ولمّا دخل «تيمورلنك» المدينة، أشعل فيها النار ثلاثة أيام حتى أتت على ما فيها، وأصبحت أطلالاً. وبعد أن أقام بها ثمانين يوماً، رحل عنها مصطحباً أفضل علمائها وأمهر صُنّاعها، واتجه إلى طرابلس وبعلبك فدمّرهما. وعند مروره على حلب أحرقها مرّة ثانية وهدّم أبراجها وقلعتها. ثم دمّر ماردين، ولم تسلم منه إلاّ مدينة حمص. واتجه «تيمورلنك» بعد ذلك إلى بغداد، وكانت تحت حكم الدولة الجلائرية؛ فهاجمها بعنف ما له من مثيل، ودمّر أسوارها، وأحرق بيوتها، وأوقع القتل بعشرات الآلاف من أهلها، وألزم جميع من معه أن يأتيه كلّ واحد منهم برأسين من رؤوس أهل بغداد، فكان عدّد من قتل في هذا اليوم من أهل بغداد تقريباً مئة ألف إنسان. وهذا عدا من

---

(1) تيمور (بالفارسية العربية: تيمور) (باللغة الأردوية: تيمور) والمعروف بتيمورلنك (1336 - فبراير 1405م) قائد أوزبكي من القرن الرابع عشر ومؤسّس السلالة التيمورية (1370 - 1405م) في وسط آسيا وأوّل الحكام في العائلة التيمورية الحاكمة والتي استمرت حتى العام (1506م). وتعني كلمة «لنك» = «الأعرج» نتيجة لإصابته بجرح خلال إحدى معاركه. أما كلمة «تيمور» فتعني بالأوزبكية «الحديد». كان «تيمورلنك» قائداً عسكرياً فذّاً، قام بحملات توسّعية شرسة أدّت إلى مقتل العديد من المدنيين وإلى اغتنام مجتمعات حضارية بأكملها.

قُتل في أيام الحصار، ومن قتل في يوم دخول «تيمور» إلى بغداد، ومن ألقى نفسه في نهر دجلة فغرق، وهو أكثر من ذلك.

إثر معركة «مرج دابق» (1516) بين المماليك والعثمانيين، دخل السلطان سليم الأوّل إلى حلب ومنها انتقل إلى دمشق، فدخلها يوم 26 أيلول/ سبتمبر (1516) وأضاف إمام المسجد الأموي عبارة «خادم الحرمين الشريفين» على اسم السلطان. دام حكم العثمانيين في الشرق أربعمئة سنة ونيف، عاثوا فيه خراباً وتنكيلاً وافتعلوا مجازر بشرية وثقافية وحضارية وفكرية، حتى دخول الحلفاء (فرنسا - بريطانيا) (1916م).

والجدير ذكره أن كلّ هؤلاء الغزاة الذين لم يتركوا أثراً حضارياً يذكر، ولا حتى إسماً واحداً، هم الذين أخذوا بمقوّمات هذه الحضارة السورية العربية العريقة وتبنّوا ثقافتها، وليس العكس، إذ ليس لهم من أثر في البلاد التي غزوها وعاثوا فيها تدميراً بل هم من تأثروا! فهل لهم والحال هكذا من حصّة من أسماء الأماكن في المشرق؟

كيفية انتقال أسماء الأماكن وانتشارها

نرصد في دراستنا للتاريخ حركة ذهاب وإيّاب غير منقطعة عبر الزمن، فإذا كان من المستحيل، بحسب ما يكرّره بعض الباحثين، أن تهاجر القبائل والجماعات والعشائر التي تعيش في المناطق الخصبة على ضفاف الأنهار الكبرى إلى المناطق القاحلة الصحراوية، فإن العكس ممكن وضروري أي أن الأقوام يمكنها أن تهاجر من المناطق القاحلة والتي تصحّرت أو التي خرّبت بفعل الكوارث والانهيارات والجفاف والفياضانات نحو المناطق الأكثر خصوبة واستقراراً. والبشر، بشكل طبيعي، هم في حركة عبور دائمة من أقدم العصور إلى اليوم[1]. والمنطقة العربية هي أكثر المناطق التي عرفت هذه

(1) نشير في تسميات: العبرية/ العبران/ العبريون أو العابرون إلى تلك الأقوام التي من صفاتها العبور وأبرزهم البدو الرّحل وهم من العابرين الذين لا يمكثون طويلاً حيثما حلوا؛ ومنهم الغجر، وأصلهم هندي، وما زالوا إلى اليوم من الشعوب المترحّلة. والترحال حالة عابرة أي غير مستقرة وغير منتجة لتنوّع ابتكاري مهم، وحده الإستقرار المدني كفيل برفد النشاط الثقافي والفكري والإبداعي بالظروف المناسبة من أجل تحقيقه وازدهاره. من هنا انتفاء أي حضارة عن «العبرانيين» وزيف ما يدّعون. كما أن العابر هو حالة ولا يمكن أن يكون اسماً من هنا رفضنا لتسمية شعب بالعبريين أو العابرين. كما أن كلّ شعب يمكن أن يعبر من دون أن يأخذ هكذا اسم.

الظواهر البشرية المتنقلة على أرضها. من هنا ضرورة أن تكون الشعوب قد نزحت وانتقلت وهجرت وعبرت في حركة ذهاب وإياب غير منقطعة ودائماً من شبه الجزيرة العربية باتجاه سورية الغربية وبالعكس أي من سورية الشرقية أو البادية إلى شبه الجزيرة العربية وما وراءها. والدليل أن نفس أسماء القبائل والأماكن تتواجد في كلّ من سورية وشبه الجزيرة العربية الوسطى والجنوبية (اليمن)[1]. وسورية بما فيها فينيقيا لم تكونا الوجهة الغربية الوحيده للهجرات والتنقلات والعبور العربية، بل كانت هناك مناطق عديدة خاصة في المتوسط الغربي، بدءاً بقبرص، فاليونان، فإيطاليا، فإسبانيا، فالأطلسي وما ورائه.

في الواقع، ليست الكوارث فقط ما يحثّ المرء على الرحيل خاصة إذا كان صاحب حضارة كبرى كالتي كانت في اليمن، بل إن التجارة هي من أكثر العوامل التي دعت إلى التنقل في كلّ أرجاء المعمورة، بحراً، وبرّاً (واليوم جوّاً). كما أن ظاهرة التوسّع والانتشار مردّها في الأساس إلى حركة التجارة وازدهارها، ما يستدعي الاستيطان في الأراضي الجديدة المقصودة وإيجاد الأسواق الضرورية لهذه التجارة. ونحن من الذين يقولون إن التجارة هي ناقلة الثقافات والحضارات بالدرجة الأولى وهي عابرة للقارات، بفضلها انتقلت الأقوام حاملة لغاتها، وكتابتها، وعلومها، وصناعاتها، وتقاليدها، وعاداتها ونشرتها بين الأقوام التي نزلت بين ظهرانيهم، فحصلت عملية تبادل ثقافي متزامنة مع التبادل التجاري ما يفسّر تشابه البشر في كثير من مقوّمات الثقافة والفكر والعمران والعادات في كلّ الحضارات، وما الأسماء المتشابهة في كلّ بقاع الأرض إلاّ عنصر من عناصر تلك الثقافات المتبادلة وهي الدليل على حركة التنقل والتقاء الشعوب ببعضها وتلاقح ثقافاتها.

ومن أسباب انتقال الفرد أو الرحيل النهائي عن مسقط رأسه وانقطاعه النهائي عن جماعته، الخلافات العائلية وغيرها من المشاكل بين أبناء القبيلة الواحدة من قتل وثأر... ولدينا في الحكايات العربية أمثال متعدّدّة عن هذه المسألة، من بينها ما يروى عن المشكلة التي افتعلتها قبيلة حُمير بغاية بيع أراضيها قبل انهيار سد مأرب، وهي

(1) أ. المقحفي، معجم المدن والقبائل اليمنية، 1985؛ صالح ديب، اليمن هي الأصل، الجذور العربية للأسماء، 1988.

النموذج الواضح الذي يفسّر ناحية جانبية أخرى من أسباب النزوح الجماعي. وهذا ما ركّزت عليه الميثولوجيا اليونانية التي تذكر عدداً كبيراً من الأفراد رجالاً ونساء نُفيوا بسبب تصلّب زعمائهم إزائهم[1]، فأسّسوا في أماكن أخرى ممالك إزدهرت، وأعطوها أسماءهم وطبعوها بطابع ثقافة بلاد المنشأ من حيث قدموا. وما تكرار الاسم نفسه في أماكن عدّة متباعدة، إلاّ الدليل على التنقل أو الإنتقال الجماعي لنفس القوم واستقرارهم في أمكنة مختلفة (نابلس، نابل، كفر نبل، نبُّل، نابولي...) هذه الأسماء تظهر الأثر التاريخي للشعوب التي سكنت المنطقة أو مرّت بها وامتداد الأفراد أو القبيلة أو العائلة إلى خارج مواطنها الأصلية.

لا ننسى ما كان لدور الجيوش القديمة (تحديداً الجيوش السورية) من تأثير على تسمية المعسكرات التي تحوّلت إلى قرى حافظت على الأسماء الأصلية إلى الآن. فهل يعقل أن يبقى حنيبعل الفينيقي - القرطاجي لعشرات السنين مع آلاف الجنود في محيط جبال الألب الإيطالية ولا يؤثّرون فيها بشيء؟ لقد لفتنا أن الأغلبية العظمى من أماكن هذه الجبال الإيطالية تحمل أسماء فينيقية صرفة، ففي دراستنا لأسماء الأماكن في أوروبا، تبيّن لنا أمرٌ جدّ مهم وهو أنه نادراً ما يكون اسم مكان واحد فينيقي الأصل، بل يكون جزءاً من مجموعة أسماء موزّعة على منطقة بكاملها، تشكّل مجمّعاً متجانساً، ما يعني أن الاستيطان واسع وطويل الأمد، تعاقبت عليه أجيال متتالية كانت تتوسّع في محيطها محافظة على لغتها وثقافتها الأصلية. ولاحظنا أن هذه الحالة تتكرّر في الكثير من المناطق الأوروبية، فمثلاً، في جبال الألب، نقع على أمكنة موزّعة حول بحيرة «كونستانس» التي تحدّها كلّ من سويسرا وألمانيا والنمسا، تقع على ضفافها المواضع الآتية: رحمن (Rehmen)؛ بعل (Boll)؛ ربي (Rubi)؛ موري (Muri)؛ أبنَة (Ebnat)؛ ابنِة (Ebnit)؛ ولدي (Waldi)؛ عربون (Arbon)؛ سالم (Salem)؛ سلمنو (Selmnau)؛ قبيل (Kappel)؛ مارول (Marul) أي (سيدي ايل)؛ آو (Au)

---

(1) تُخبر الأسطورة اليونانية أن «أجينور» منع ابناه (قدموس وفينيق) من العودة إلى بلدهما من دون أختهما «أوروبا» تحت طائلة الموت، فلما لم يجدا لها أثراً بقيا في الغربة وراحا يأسّسان المدن؛ وكذلك تروي المصادر الرومانية (فرجيل «الإنيادة») أن «ديدون» ويعني «الهاربة» هو لقب «إليسار» التي رحلت مكرهة ومتخفّية عن بلادها وحلّت في تونس حيث أسّست مدينة قرطاجة. (ولكن وجه الحقيقة لهذا التاريخ الفينيقي المروي من قبل غيرهم، أن هدف هؤلاء كان تأسيس المدن ليس إلاّ).

(أي إله)؛ ريض (Reid)؛ دورين (Doren) (دار أون أو دارنا) وغيرها الكثير. ولاحظنا أن للبحيرات أهمّية كبرى من حيث قابلية السكن بجوارها لما توفّره من ميّزات طبيعية وجغرافية، فالأقوام أو الجاليات الفينيقية - العربية المتنقلة أو النازحة أدركت تماماً أهمّية هذا الأمر واختارت في تمركزها السكني ضفاف البحيرات والأنهار، ففي أماكن أخرى تتكرّر نفس الظاهرة على غرار تجمّع بحيرة «كونستانس»، كما لاحظنا أنه في أماكن عديدة من العالم وخاصة في إفريقيا، مثلاً بحيرة «التشاد» وبحيرة «فيكتوريا» وعلى طول النيل بإفريقيا، هناك كثافة أسماء أماكن فينيقية - عربية وهي قريبة جغرافياً من بعضها البعض، خاصة تلك الأسماء التي تتضمّن أسماء آلهة مشرقية الأصل، مثل (بعل وهدد).

وأخيراً، فإن أحد الدوافع الأبرز والأرقى التي دفعت الدول الأقوى حضارياً إلى التوسّع والانتشار، هو رغبتها في انتقال فكرها وثقافتها وعلومها إلى الآخرين، ونشر التقدّم والارتقاء في العالم. وما أسماء مثل: «قدموس»، «فينيق»، أوروبا، إليسار، ملقرت، هرقل، حنون، داجون... إلاّ عيّنة من تلك الشخصيات القيادية الرائدة، التي لم تعد تتسع لها أرضها الأم لكثرة إبداعاتها، فحملت لغتها وفكرها السامي وانتقلت لتؤسّس لنهضة إنسانية قلّ مثيلها والدليل أسماء الأماكن التي حملتها معها من سورية وزرعتها في العالم بأسره.

نماذج لانتشار اسم مكان بعينه في العالم

إن أسماء الآلهة أكثر ما أعطت أسماء أماكن وهي الأكثر انتشاراً في العالم، مثلاً «بعل»

عربي	أشوري	سُرياني	آرامي	عربي جنوبي	موقعه في سورية	معناه العربي
بعلول Balloul	بلو	بعلا	بعل	بعل	لبنان	إله المطر والخصوبة

انتشار الطوبونيم (بعل) في قارات العالم، علماً أن الاسم يلفظ في البلد الواحد بأكثر من لهجة.

آسيا	أوروبا	أميركا	إفريقيا	أستراليا
Baal (لبنان، الحجاز)	Baal (ألمانيا، بلجيكا)	Bailey (الولايات المتحدة؛ باهاماس)	El Baal (الجزائر، تونس)	
Ballouna (لبنان)	Boal (إسبانيا)			Bellolo (بلولو)
Buol (أندونيسيا)	Boil (فرنسا)	Belau (جزر كارولينا، المحيط الهادي)	Buale (أثيوبيا)	
Balae (ماليزيا)	Bual (إسبانيا)		Buol (السودان)	
Balay (كزخستان)	Boil (رومانيا)	Belle (الولايات المتحدة)	Bol (السودان)	
Bual (الفيليبين)	Boll (سويسرا)		Beul (السنغال، الكامرون)	
Balao (الفيليبين)	Bole (السويد)			
			Bailey (جنوب إفريقيا)	
			Balao (التشاد، سنترإفريقيا)	

آسيا	أوروبا	أميركا	إفريقيا	أستراليا
			Balayi (الكونغو)	
			Balayo (ساحل العاج)	
			Balaw (الصومال)	

الطوبونيم «صور» (Tyr)

عربي	أشوري	سُرياني	آرامي	عربي جنوبي	موقعه في سورية	معناه العربي
صور ، ثور ، Tyr	شورو	تورا	شور	صور	لبنان ، الساحل الجنوبي	سور/ جبل صخر حصن – ثور

انتشار الطوبونيم (تور) في قارات العالم (الثور بالفرنسية : Taureau)

آسيا	أوروبا	أميركا	إفريقيا	أستراليا
Turziah (لبنان)	Turis (أسبانيا)	Troias (البرتغال)	Tyérassa (النيجر)	Tuross (إسم نهر)
Toros (روسيا)	Toras (أسبانيا)	Torroes (البرازيل)	Torosso (النيجر ، مالي)	
Tourossa (بيلاروسيا)	Toroso (أسبانيا)	Touros البرازيل	Tauris (غينيا)	
Tyros (البحرين)	Troias (رومانيا)	Terese (الولايات المتحدة)	Kafrit at Tawarsa (مصر)	
Taurus (الأناضول)	Tyros (اليونان)			
Tiris (أندونيسيا)				
Teraas (أندونيسيا)				
Tauris (بابوازيا)				

قرن (Chronos إله الزمن)

لفظ عربي مركّب	أشوري	سُرياني	آرامي	جنوبي عربي	موقعه في سورية	معناه العربي
قرن + إيل	قرنو	قرنا	قرن	قرن	لبنان ، قرنايل	دهر الله

انتشار الطوبونيم (قرن) في قارات العالم بلفظه المتعدّد .

آسيا	أوروبا	أميركا	إفريقيا	أستراليا
قرنايل Qurnayil قرنو ايل ؛ Carnoil (لبنان)	Carnello (إيطاليا)	Coronel (تشيلي)	Garrin Wali (النيجر)	Kurrana Well (آبار)
Kornulu (تركيا)	Cornille (فرنسا)	Coronel (الأرجنتين، البرازيل)	Qurunlow (الصومال)	Corinella (أستراليا)
Karnala (الهند)		Cornell (الولايات المتحدة)		
		Coronal (المكسيك)		

«ود» أو «آد» أو «هدد» (إله الرعد والمطر والعطاء)

عربي	أشوري	سُرياني	آرامي	عربي جنوبي	موقعه في سورية	معناه العربي
ود/ يود وادي Wad	ود	يد	يدد هدد أدد	ود	العراق سورية لبنان فلسطين	إله المطر، الخير، الدلال، التصغير

انتشار الطوبونيم (ود/ يود) في قارات العالم وتعدد ألفاظه .

آسيا	أوروبا	أميركا	إفريقيا	أستراليا
Wadiyah (العراق)	Wadaw (رومانيا)	Wadu (جزر المالديف)	Wade (نيجيريا)	
Wad (الجزيرة العربية)	Widawa (بولندا)	Wade (فلوريدا)	Wadi (بوركينا، البنين، الكاميرون)	
Wadiya (سريلانكا)		Waddah (واشنطن)	Wedo (أثيوبيا)	
Wado (أندونيسا)			Wadda (السودان)	

الفصل الثّالث

علم أسماء الأماكن وعلم اللغة

إرتباط أسماء الأماكن باللغة

من المعلوم أنه لا يمكن فصل دراسة أسماء الأماكن عن دراسة اللغة وتفرّعاتها وتطوّرها عبر الزمن، فالأسماء جزء لا يتجزّأ من اللغة. وقد تبيّن معنا من خلال التحليل المتبع في دراسة الأسماء نقطة أولى وهي أن أصل اللغة ومنشأها هي من الفينيقية في الأصل والتي كتبت بالقلم الأبجدي[1]، ومن ثم بتفرّعاتها اللاحقة الآرامية والسُريانية ومن ثم العربية، وما إسم «بعلبك» الذي حلّلناه آنفاً، إلاّ المثال الأبرز على أن أساس اللغة هو سامي مشرقي وما تفرّعاتها ومنها العربية الفصحى وهي الصيغة الأخيرة زمنياً، إلاّ لغة ساميّة مشرقية. وقد تعرّفنا إلى تلك اللغة الأم عبر النقوش الكتابية التي تركها لنا الأقدمون.

(1) وفاقاً لما أورده «فيلون الجبيلي» (ذكره «أوزيبيوس» القيصري)، فإن «طاوط» أو «طاوطس» كان إله الكتابة عند الفينيقيين وهو من اخترع رموزها الأولى. و«طاوط» هو نفسه «تحوت» إله الكتابة عند المصريين (هرمس/ مركور/ عطارد) ممّا يعني وحدة المعتقد بين الشعبين وبالتالي وحدة الثقافة واللغة. ويأتي «فيلون» نفسه ليدعم رأينا هذا، إذ يقول (مقطع 1، 5) إن الكاهن «سنخونياتن» الذي عاش قبل حرب طروادة (يحدّد «إراتوسيتن» تاريخها حوالي 1184 ق. م.)، كتب «التاريخ الفينيقي» من خلال الذكريات الموثّقة والمحفوظة في أرشيف المعابد. فقد اكتشف «سنخونياتن» في «قدس الأقداس» المعابد، «كتابات سرّية محفورة على نصب» أو كما يترجم البعض نص «فيلون» اليوناني «كتابات أو رسائل سرّية صيغت بخط الأمونيين» (R. Dussaud, Syria, XV, p.297). ويعرّف البعض الأمونيين هؤلاء أنهم سكان جبل «أمانوس» وكان إلهه «بعل حامان»، وأن هذه الكتابات ما هي إلاّ نصوص بخط أوغاريت الأبجدي المسماري. أما «دوسو» (المرجع نفسه) فيقول إن النصوص السرّية تلك التي وقع عليها «سنخونياتن»، يمكن أن تكون قد كُتبت على الحجر بالكتابة «الشبه - هيروغليفية» (pseudo-hiéroglyphique) المكتشفة في جبيل (موريس دونان، حول كتابة جبيل، *Byblia grammatica*، ص191)؛ وإن الأمونيين هم عبدة الإله أمون (Syria, XV, p.297) وهي تسمية للجبيليين عبدة الإله الحامي للكتابة. وأمون هو إله المصريين الأكبر وقد عُبد في طيبة. ويقول «بلينوس» إن الكتابة اختراع سوري وأن مخترعها اسمه «مينين» أو «مونون» (Menen-Monon)، والاسم شبيه بأمون المحفور اسمه على تمثال له وجد في جبيل. فهل يكون هو نفسه مخترع الكتابة فيها، أم يكون شخصاً مبدعاً أُلّه على هيئة الإله أمون كما أُلُّه «إمحوتب» الوزير الحكيم في مصر؟ (دونان، ص192). وبرأينا، فإن هؤلاء الأمونيين الذين عثر «سنخونياتن» على رسائلهم السرّية في المعابد ما هم إلاّ «الأمناء» وكان هو واحداً منهم.

يشيد أفلاطون بالمصريين الذين يبقون على كلّ شيء كما ورثوه لأنه مقدس ولا يمسّ. ويعيّر على الأغريق تغييرهم المستمر للأشياء وخاصة للفنون. ونحن نقول إنه لولا هذا التغيير لما تطوّر شيء.

وتبيّن معنا أيضاً من خلال نفس التحليل اللغوي نقطة أخرى وهي استمرارية الشعب نفسه على الأرض ذاتها، أي دونما انقطاع، رغم ما كلّ ما يتعرض له البشر من الأسباب المختلفة التي تجبر السكان على الرحيل الجماعي (من مثل الكوارث الطبيعية[1] والزلازل والأعاصير والبراكين والفياضانات وكلّ الظواهر الطبيعية الأخرى... الخ وأيضاً الحروب والاجتياحات والنزاعات والكوارث والمشاكل على أشكالها) أدّت مثلاً إلى انقراض السكان الأصليين ما سبّب ضياع تراثهم وإرثهم الحضاري وبالتالي لغتهم، بل على العكس تماماً، فهذا الاسم «بعلبك» الذي حفظه اللسان المحلي على أرض الأجداد الذين نطقوا به يشهد على ذلك. ومثل «بعلبك» كما كلّ أسماء الأماكن والمناطق في «الشرق الأوسط» التي ما زالت محافظة على أسمائها بلهجاتها الأولى رغم انحصار العديد من تلك اللهجات المشرقية انحصاراً كبيراً وزوال معظمها من المحكيات الشعبية لصالح اللهجة العربية الفصحى التي حافظت على نسبة كبيرة من تلك اللهجات ولكن بلكنات مختلفة. هذا الإرث اللغوي المتمثّل في أسماء الأماكن لا بدّ أن يعود إليه الباحثون المهتمّون باللغات الفينيقية والآرامية والسُريانية والعربية على مختلف لهجاتها من أجل التوصّل إلى نتائج علمية حقيقية في أبحاثهم بدل الاعتماد الكلي على الاجتهادات الغربية، الغريبة أصلاً عن اللسان المشرقي الذي ما زلنا ورثته ونلهج به.

في الحقيقة، إنه من الأخطاء الشائعة فيما يتعلّق بدراسة اللغات القديمة، أن يلجأ معظم الباحثين الغربيين إلى «العبرية» (المزعومة) كنقطة ارتكاز لدراساتهم اللغوية معتبرين أنها أم اللغات السامية وهذا بديهي للغربيين لأنه يصبّ في مصلحتهم، رغم أنه خطأ فادح يكمن في أن «العبرية» الحديثة منحوتة عن الآرامية - السُريانية نفسها والتي سلبها الصهاينة (حتى أنهم أخذوا من اسم المكان «تلة صهيون» في القدس ذريعة شرعية لوجودهم) وارتكزوا عليها لنحت لغة قومية لكيانهم الصهيوني، فالمتوجّب على الباحثين العرب التنبّه للأمر واستعمال مصطلح فينيقي - آرامي - سُرياني - عربي بدل «عبري»، وهكذا تصوّب الأمور علمياً ومنطقياً ويحترم التطوّر الزمني للّغات.

---

(1) تعدّ جغرافية سورية الطبيعية من أكثر المناطق ثباتاً وأمناً على الكرة الأرضية أي أنها غير معرّضة بشكل كبير ومتكرّر للزلازل والهزّات الأرضية كونها بعيدة عن الحزام الناري ومواطن الاهتزاز في الصفائح الأرضية، كما وأنها من المناطق الأكثر اعتدالاً على الكرة الأرضية ما جعل الأطماع بها كثيرة على مرّ التاريخ ولما تزل.

إذن، من كبيريات الأخطاء المتعمّدة من قبل الغرب أنه حين نفتح القاموس اليوناني- الفرنسي مثلاً تطالعنا الجملة التالية : «(A) ولفظه (ألفا alpha) هو أوّل حرف في الألفبائية اليونانية، مأخوذ عن العبرية»، وهذا تزوير فاضح والأصح القول : مأخوذ عن الأبجدية الفينيقية وهذه حقيقة تاريخية موثّقة في المصادر الإغريقية القديمة كلّها، ولا يختلف حولها اثنان. يقول «بلينوس الكبير»[1] إن الفينيقي له الشرف أنه اخترع الحروف الأبجدية، وقال قوله الكثيرون من الإغريق والرومان[2]. وردّد القدامى التعبير نفسه بحسب ما جاء عند «سترابون» وغيره الكثيرين.

والفاضح أن الباحثين «اللغويين» العرب يلحقون بالسياق الأجنبي دائماً، إمّا لعدم معرفتهم بعلم اللغات القديمة أصلاً وهم نقلة ومترجمون في معظمهم للأسف، وإمّا يدركون المسألة على حقيقتها ولكنهم يتعامون عمداً ويتجاهلون الحقيقة في تصنيف أسبقية لغات أجدادهم التاريخية لسبب وحيد وهو أنهم يشعرون بنقطة الضعف اتجاه الغرب الذي يعدّونه مدرسة يجب أن يحذوا حذوها من دون جدل وهنا الطامة الكبرى. ولكن لا يخلو الأمر من باحثين جيّدين يكرّسون جانباً لا بأس به للأمور الإيجابية، فأنيس فريحة يعدّ قاموسه عن أسماء الأماكن والمناطق مرجعاً، وهو يكرّر لفظ «أرامي - سُرياني - عبري» في معرض ردّ الأسماء إلى أصولها اللغوية القديمة، وأحياناً كثيرة يذكر في أصول الأسماء بالفينيقية أو الآرامية أو السُريانية والعربية التي أخذت عنها «العبرية الحديثة»[3]، بطبيعة الحال. وهذا نادر في كتب أخرى تناولت أسماء الأماكن. بيد أنه لنا بعض التحفّظ على تفسيرات عديدة خرج بها الباحث، كما ولا نؤيّد مطلقاً ما أورده في أصل بعض التسميات مثل «سورية»، واعتبار أنها أسماء غريبة، وذلك لجهله التام بأصولها، فهو يذكر

---

(1) هو (Pline l'Ancien, Caius Plinius Secundus/23-79) كاتب وعالم طبيعيات روماني.

(2) على سبيل المثال، نورد هذه الأبيات المعبرّة للروماني «لوقيان»، التي نقشت على قبر «قدموس»، معلّم الأبجدية للإغريق :

«C'est de lui que nous vient cet art ingénieux

De peindre la parole, et de parler aux yeux

Et par un heureux choix de figures tracées,

Donner un corps aux mots, la figure aux pensées.» (Lucain, 1er siècle.av.J.-C., trad. Brébeuf).

(3) لا وجود للّغة عبرية قديمة وما يعرّف بها اليوم ما هي إلاّ الفينيقية - الآرامية المربّعة.

في أكثر من مكان أن اسمها غريب عن أهلها[1]، نذكّر نحن أن الأهلين هم من يعطون الأسماء لمناطقهم ولا أحد غيرهم ولا تنتظر الحضارة الأقدم آلاف السنين لكي تعطى اسماً من قبل الحضارة الأحدث، من هنا وجوب مراجعة كمّ كبير من الطروحات التي درجت خطأً وتصويبها للحد من انتشارها مغلوطة. وإذا كان ثمة اسم ورد في الوثائق اليونانية فلا يعني هذا أنه لم يوجد من قبل، بل أن الوثائق الأخرى عنه فقدت.

ويبقى الأخطر ما شيّعه المستعمرون وما حفظه السكان المحلّيون في معظم المناطق في «الشرق الأوسط»، فعندما تسألهم عن ضريح أو قبر أو أثر حجري أو كتابة متبقيّة في بلدتهم، يجيبون أنه «عبري» أو «يهودي»، فإذا كان اليهود الصهاينة نفسهم لم يعثروا إلى الآن على أي شيء يدلّ على العبريين الذين يربطون تاريخهم بهم زيفاً، وكذلك لا يوجد أي شيء يدلّ على اليهود في الأرض التي اغتصبوها، فلسطين، والتي ما برحوا ينقّبون فيها من أجل العثور على أقل برهان يثبت وجودهم فيها قديماً، فكيف يذهب المحلّيون من أبناء شعبنا إلى القول إن هذه الآثار يهودية؟ للأسف! يقولونه جهلاً ويروّجون دعاية مغرضة ضد هويتهم، تماماً كما يقول عدد من الأقوام السورية الأصلية مثل السريان، علماً أن كلّ قوم هم مكوّن أساسي في القومية الوطنية السورية – السُريانية، إنهم ليسوا عرباً، وهذا ما زرعه المستعمر والمنتدب في أذهانهم وكرّره مراراً حتى علق في ذاكرة أحفادهم خطأً! وإذا كنّا نعذر السكان البسطاء ومجملهم من الأميين أو من الجاهلين بالتاريخ وعلومه، فهل يُعذر من يدّعي العلم والمعرفة وسمي عالماً وما أكثرهم؟!

وإن تنوّع اللهجات واللكنات السورية – العربية يعكس غنى وسعة ما بعدها سعة

---

(1) يقول: «واسم سورية غريب عن سورية، إنها تسمية بابلية للمنطقة الواقعة غربي الفرات الأعلى والأوسط، ثم أطلق الاسم على الكل، وقد سمّاها الأغريق (Syria)، والسريان (سورية) وفي رسائل أوغاريت (Shyrn) (2200 ق.م.)» (فريحة، أسماء القرى، صXIV). ومن يقرأ جيداً هذه الجملة لأنيس فريحة يرى التناقض الواضح ولكأن الكاتب لا يعي ما يكتب. فإذا كان اسم «سورية» قد ذكر «شيرن» في أقدم الوثائق الأوغاريتية وهي المدينة السورية الساحلية العريقة، فكيف يكون اسمها غريباً عنها؟ وإذا كان السريان أي سكان سورية (باعتراف الكاتب نفسه، صX) قد سمّوها «سورية»، فكيف يكون اسمها غريباً عنها؟ وأما أن يسمّيها البابليون «سورية» فأين الغرابة في ذلك وهم من سكان سورية الكبرى؟ أليس هذا أيضاً اعتراف بأصول اسمها؟ ونستغرب هذا الشكّ لدى الكاتب بالأصول السُريانية للفينيقيين، حين يقول إن اسمهم يعود للإغريق، إلاّ أنه يستطرد بالقول «إلا إذا كان من جذر «فنق»، (المرجع نفسه) وهو كذلك وبكل تأكيد (المؤلّفة).

حتى أن الكلمة أو الاسم الواحد له مرادفات كثيرة لا تعدّ ولا تحصى[1] كون اللغة العربية ذات دلالة بالدرجة الأولى، أي تعتمد على المعنى والذي يأخذ دلالات وأبعاداً لا نهاية لها (من مثل: عبارة «أبلى بلاءً حسناً» ومعناها إيجابي، بينما كلمة «بلاء» تعني كارثة في سياق سلبي للمعنى). كذلك، فإن تحريك النص وضبطه له من الأهمّية في العربية ما هو عظيم، وإلاّ يقلب المعنى إذا جاء الإعراب مغلوطاً، فيقلب الفاعل مفعولاً به وينتفي معنى النص ويضيع وهذا أمر خطير في النصوص القانونية والعقدية، تنبّه له الأقدمون من واضعي قواعد الصرف والنحو[2]. ومن هنا التأثير الكبير للمعنى في القواعد العربية ونحو اللغة وفقهها ومن هنا الحالات الكثيرة الشاذة عن القاعدة والتي تحفل بها هذه القواعد العربية التي تتبع المعنى بالدرجة الأولى، بدليل أننا نردّد كثيراً عبارة: (تقديره كذا...)

ضف إلى ذلك أن اللغة العربية جمعت، بالإضافة إلى الأسماء والكلمات والمفردات والمعاني، قواعد وأوزان وتفعيلات وجذور واشتقاقات اللغات السابقة أو اللكنات واللهجات القديمة كما المعاصرة لها، بدءاً من الأكدية والأشورية والنبطية والآرامية والسُريانية والألسن العربية المتعدّدة، وهذا ما جعل منها لغة ليست بمحدودة وتتحمّل

(1) إن المتصفّح للقواميس العربية «لسان العرب»، «تاج العروس»، والمناهل والمنجد والقواميس الحديثة على كثرتها يهوله الكم الكبير للمرادفات التي تفسّر الكلمة الواحدة وهذا برهان على أن اللغة العربية الفصحى جامعة، كونها جمعت أغلب اللهجات العربية حتى لا نقول كلّها لتعذّر ذلك بالطبع بسبب كثرة القبائل والعشائر، وهذه اللهجات توحّدت في لهجة قريش ومنها الفصحى الحالية. وما عبارة «لغة الضاد» التي تتصف بها العربية إلاّ الدليل على المعنى وتضاده.

(2) كان أبو الأسود الدؤلّي علاّمة عبقرياً وكانت الإمبراطورية العربية الإسلامية تتسع ومعها كثر العجم فصار كلّ واحد يستعمل لغته الخاصة. وشعر أبو الأسود الدؤليّ عالم اللغة بهذا. والقصة الأشهر هو أنه مرّ برجل يقرأ القرآن الكريم فيقول: «إن الله بريئ من المشركين ورسولِه»، فقرأ «ورسولِه» مجرورة، فأصيب الدؤليّ بالهلع. وفي يوم دخل على ابنته في يوم حار، فقالت: «ما أشدُّ الحر»، فردّ عليها بأن أشدّ الحر شهر ناجر الذي هو شهر صفر قديماً، أي أنه ظن أنها تسأله، ولكن كان من المفروض أن تنصب أشدَّ للتعجب. فقصد الدؤلي الإمام عليّ بن أبي طالب وشرح له وجهة نظره، فتناول الإمام عليّ صحيفة وكتب فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام إسم وفعل وحرف، الاسم هو ما أنبأ عن المسمّى؛ الفعل هو ما أنبأ عن حركة المسمّى؛ الحرف هو ما ليس إسماً ولا فعلاً». وقال الإمام عليّ للدؤليّ: «انح نحو هذا»، ومن هنا جاءت كلمة (نحو)، وبعد شهور عاد للإمام عليّ ومن ضمن ما عرضه عليه حروف النصب (إن وأن وليت ولعل وكأن)، فقال الإمام عليّ: «لماذا لم تضع (لكن)؟» فقال الدؤلي: «لم أحسبها منها»، فقال الإمام «بل هي منها، زدها»، (موقع إنترنت).

أوجهاً متعدّدة وشواذات كثيرة. وهذه اللغات التي ذكرنا هي كلّها من اللهجات العربية القديمة بالطبع، ولكنها تُذكر بحسب تطوّرها الزمني والعصر السياسي الحاكم الذي اعتمدها كلغة رسمية من دون غيرها، فمنها من كان له شأن كبير فعمّ تداوله كونه كان اللغة الرسمية المعتمدة من مثل الأكدية[1]، التي عمّت المشرق القديم في الألف الثاني ق.م. وانتشرت في بلاد فارس ومصر وبلاد الحثيين (الأناضول)، وتبعتها الأشورية التي كتبت بواسطة قلمها المسماري وثائق حربية وسياسية عديدة تسمّى «الحوليات الأشورية» والتي يعتمد عليها الباحثون لقراءة تاريخ تلك الفترات (حتى الألف الأوّل ق.م.). وتباعاً، لما تطوّر الخط المسماري المقطعي الأكدي[2] إلى الخط الأبجدي الفينيقي الذي تطوّر بدوره من الأبجدية الأوغاريتية المسمارية القلم[3]، إلى الأبجدية الجبيلية الهجائية

---

(1) إنتشرت اللغة والكتابة الأكدية (المسمارية المقطعية) من الألف الثاني إلى الألف الأوّل ق.م.، وكانت لغة المشرق القديم المعتمدة رسمياً لغة وكتابة وبها كتبت المواثيق والمعاهدات والقوانين والنصوص الرسمية في تلك الفترة، ولعل أشهرها «مراسلات تل العمارنة» في مصر، التي وجدت منقوشة على الرقم الطينية (أكثر من 400 لوحة طينية) بالخط الأكدي. ألواح «تل العمارنة» الأكدية القلم هذه، هي مراسلات بين فراعنة مصر وملوك المشرق القديم خاصة سورية وفينيقيا. وهي من أهم الوثائق التي تعكس ما كانت عليه الأحوال السياسية والاجتماعية حسب تقلّبات الممالك والقوى في تلك الأزمنة (القرن الرابع عشر ق.م.). وتعكس كذلك العبادات المشرقية التي تظهر وحدة المعتقدات السورية من خلال ما تضمّنته من أسماء آلهة مشتركة، عبدت في عدّة مدن سورية وردت أسماؤها في هذه المراسلات، مثل المدن الساحلية: عكو (عكا)، صوري (صور)، صيدونا (صيدا)، بيروتا (بيروت)، جبلة (جبيل)، سمورا أو سموري (قرب مصب نهر الكبير شمالاً) وأرواد. والمدن الداخلية: دمسقا أو دمسقي (دمشق)، قطنا (قطنة) قرب دمشق وبابل وغيرها. وكثيراً ما ورد ذكر سفن جبيل وبيروت وصيدا التي كانت تمخر عباب بحر «أمورو» (المتوسط) وتنقل منتوجات البلاد إلى أماكن شتّى.

(2) إن الكتابة، كما اللغة وربما بدرجات أعلى، هي أكبر دليل على وحدة الأمّة في المشرق القديم، بحيث نجد أن الخط المسماري على تنوّعه، كان منتشراً في كلّ سورية وبلاد ما بين النهرين وفارس والأناضول. بينما نجد كتابات شبه الجزيرة العربية المتعدّدة (الصفوية وهي الأقدم والثمودية والحميّرية واللحيانية...) لديها قواسم مشتركة مع كتابة سيناء وكتابة جبيل الأبجدية التي أضحت الأبجدية المبسّطة للأقلام العربية مجتمعة، راجع:

M. Dunand, *Byblia Grammata*, p. 183-189.

(3) كتبت أوغاريت بخط مسماري أبجدي مؤلّف من 30 حرفاً هجائياً، يعود بتاريخه إلى القرن السادس عشر ق.م.، واستمر حتى خراب المملكة في بداية العصر الحديدي، حوالي 1200 ق.م. بعض الباحثين يرى أن خط أوغاريت تزامن مع خط جبيل ثم عمد الجبيّليون إلى اختزال عدد الحروف =

الفينيقية القلم[1]، إلى الآرامية المربّعة[2] وهو الخط الذي عمّ استعماله في كلّ المشرق

= الأوغاريتية الشبيهة (ثلاثة حروف أوغاريتية تلفظ «ألف»، اختزلت في حرف واحد) وحذفوا الأخرى. كما اختزلوا المسامير في رمز واحد. وقد لاحظ الباحثون الشبه الكبير في عدد من الحروف بين الأبجدية الأوغاريتية والأبجدية الجبيلية وهي (ج، هـ، ز، س، ع، ش)، ما جعلهم يتأكّدون من عملية الاختزال الذكية للجبيليين الذين اقتصرت هجائيتهم على 22 حرف فقط. (راجع:
Ch. Virolleaud, *La légende de Danel*, p.76s. cf., M. Dunand, *Byblia Grammata*, p.181.

(1) يرى البعض أن أبجدية جبيل ظهرت حوالي 1000 ق.م. (ناووس أحيرام)، وبهذا تكون أحدث من عصر «إيلي ميلكو» و«سنخونياتن» وهما كاهنان فينيقيان من حفظة المعابد وأمناء المكتبات القديمة. راجع:

(Eissfeldt O., *Sanchunjation von Berut und Himilku von Ugarit*, Halle (Saale), 1952; Eissfeldt O., *Ras Schamra und Sanchunjaton*, Halle (Saale), 1939.

ونحن نرى أنها أقدم من هذا التاريخ وقد عرفها هذان الكاهنان والدليل أن «قدموس» حملها إلى الغرب قبل حرب طروادة (1450 ق.م.) بعدة قرون، إلاّ إذا اعتبرنا أن «قدموس» إسم سلالة معلمين وليس شخصاً عاش في زمن معيّن. ويأتي «دونان» مرّة ثانية لدعم رأينا، فهو من الذين يقولون بقدم الكتابة الأبجدبة الجبيلية ويجعل تاريخ ظهورها حوالي القرن الرابع عشر ق.م. على أبعد تقدير، بدليل أنه عثر على كتابات في جبيل ضمّت الحروف نفسها التي نُقشت على ناووس أحيرام وعددها أيضاً 22 حرفاً، أي الأبجدية الجبيلية كاملة، إلاّ أنها أقدم منه عهداً وترجع، حسب «دونان»، إلى القرن الرابع عشر ق.م.، وتتمثّل في نقش الملك الجبيلي «شفطبعل» ونقش «أسدوربعل». راجع:

(M. Dunand, *Byblia Grammata*, p.146; p.153; p.155).

(2) منهم من يعتبره الخط العبري، ولكن العكس هو الصحيح فالعبرية الحديثة نقلته حرفياً. وهذه الكتابة الآرامية المربّعة هي الأكثر انتشاراً في المدن الآرامية السورية، استعملت تحديداً في تدمر (Palmyre) وفي الحضر (Hatra) على الفرات. ووجدت شواهد كثيرة من الآرامية بخطوط متنوّعة كلّها تتحدّر من أصل واحد هو الفينيقية، في ما سمّي بالممالك الآرامية وهي في الحقيقة عواصم ليس إلا. ومعنى «آرام» يقابله بالعربية «الرم» أي العالي (عرمرم)، تسمية من المستوى الجغرافي الأوّلي، ويتحدّر من فعل (رمى - يرمي) أي «يصبو»، هذا ما يجعل اللغة الآرامية، وإن تعدّدت أقلامها، لهجة عربية توزّعت في أنحاء واسعة من سورية الكبرى («فدّان آرام» وعاصمتها حرّان؛ «آرام النهرين» بين الفرات والخابور؛ «بت بخياني» وعاصمتها «غوزانا» على نهر الخابور؛ «بت عديني» وعاصمتها «تل بارسيب» في الجزيرة السورية؛ «بت أغوشي» وعاصمتها «أرفاد» (تل رفعت) شمالي حلب؛ «سمآل» في جبال «الأمونوس» شمال غرب سورية؛ «آرام حماة» وعاصمتها حماة؛ «آرام معكا» في الجولان؛ «صوبا» في سهل البقاع؛ «حبشور» جنوب دمشق حتى نهر اليرموك؛ «آرام دمشق» وعاصمتها دمشق. (للمزيد راجع: فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، 1995؛ وأيضاً «معنى تسمية آرام»، موقع «كلاديا»، 8 كانون الأوّل، 2010).

القديم، ومن ثم احتكاكه مع النبطية العربية[1]، وتحوّله إلى السُريانية التي تميّزت بربط الأحرف لأوّل مرّة في تاريخ الكتابة المشرقية وكذلك وضع الحركات فوق الكلمات، ما ثبّت طريقة لفظها وخوّل وضع قواعد لها[2]، وهي التي أخذت عنها الكتابة العربية مباشرة.

وكون جميع تلك اللهجات جُمعت في لغة واحدة هي العربية الفصحى (لغة قريش) جعل الأمور تلتبس على البعض، إذ اعتقد أن العربية الفصحى هي من فصيل لغوي مستقل أو مستحدث، وهذا خطأ كبير، والأخطر أنه ساد الاعتقاد عند البعض أن العربية الفصحى هي الأصل ومنه تفرّعت اللهجات الأخرى وهذا أيضاً خطأ كبير. ويعود السبب في هذا الاعتقاد إلى مقولة إن اللغة العربية أقدم اللغات، وهذا صحيح جداً ولكن المقصود ليس اللغة العربية الفصحى، بل اللهجات العربية المحكية وألسنتها عديدة لا تعدّ ولا تحصى، لأن كلّ قبيلة وكلّ ناحية من شبه الجزيرة العربية ومن سورية الكبرى ككل، كان لها محكيتها الخاصة وحتى لسانها الخاص الذي يختلف بلكنته عن لسان قبيلة أخرى، وهذا ما يجعل جمعها بالأمر الصعب والشاق وربما المستحيل، وهذا ما يفسّر الأعداد الكثيرة للمفردات والألفاظ وتعدّد المعاني في اللغة العربية الفصحى، التي تعدّ، منطقياً، آخر مرحلة من مراحل تطوّر اللغة العربية. والدليل أنها فصحى أي منحوتة أي لها قواعد وأسس نحوية موضوعة على يد دارسين في فقه اللغة وأصولها وهذه ميزة الفصحى وليس العامية، ففي الفصحى تجتمع اللغة والكتابة في نطاق منهجي متكامل إذ تتبع الكتابة ما وضع من أصول لفظ اللغة الفصحى بشكل ثابت لا يمكن الخروج عنه وهذا ما يسمّى «القواعد». أما المحكيات لا قواعد لها ولا كتابة لها، فالإنسان تكلّم قبل أن يكتب وما أن كتب حتى وضع أصولاً لكتابته، أي أسساً وقواعد. إذن، فقط اللغات المكتوبة تدرج في خانة الفصحى (آكدية، آرامية، نبطية، سُريانية) وهي قليلة نسبة إلى المحكيات التي لا عدّ لها ومنها ما بقي متداولاً

(1) ساد هذه الخط في العربية (البتراء) وكلّ المنطقة الجنوبية من سورية والشواهد عنه كثيرة (نقش أم الجمال مثلاً) وميزته أنه رُبطت فيه الأحرف ببعضها البعض.

(2) هناك عدّة مدارس للّغة السُريانية تختلف من حيث لفظها بين غربية وشرقية ويتفاوت شكل الحرف في طريقة كتابتها أيضاً وإن بشكل طفيف.

إلى اليوم من قبل الجماعات والأقوام المتبقية والتي حافظت عليه، ومنها ما اندثر نهائياً واستبدل كلّياً بلغة أخرى.

والمعروف أن طريقة اللفظ تتفاوت بين الأقوام وتختلف بين جماعة وجماعة وحتى بين ناحية وناحية وبين حي وحي، رغم أن كلّ السكان يلهجون بمحكية واحدة، فلنأخذ اللهجة اللبنانية على سبيل المثال، فكم من اللكنات يمكن عدّها؟ مئات اللكنات بالطبع وذلك ضمن المنطقة الواحدة وهذا ما يفسّر أن الشخص تُحدّد منطقته من خلال لهجته، فيقال إن هذا جنوبي وهذا حصباوي وهذا بشراوي وهذا بعلبكي وهذا كسرواني وهذا زحلاوي وهذا صيداوي وهذا بيروتي... من خلال لكنته التي تحدّد المنطقة التي يعيش فيها. وتختلف اللهجة اللبنانية عن الدمشقية، والدمشقية عن البغدادية وبدورها عن العمّانية وكلّها متقاربة نسبة إلى الخليجية المختلفة عن المغربية حيث يصبح الأمر صعباً جداً حتى يستعصي فهم تلك اللهجة على عرب «الشرق الأوسط». ناهيك عن اللهجات البدوية وهي لكنات وألسنة لا تعدّ ولا تحصى وبعضها غير مفهوم من البدو أنفسهم رغم أنهم، كما يقال، يشكلون وحدة قومية واحدة وإن توزّعوا على رقعة جغرافية شاسعة وتباعدوا فيما بينهم. هذا الأمر لا يمكن حلّه إلاّ باستعمال اللغة المشتركة بين تلك الأقوام جميعاً وهي العربية الفصحى التي من أهم ميزاتها أنها وحّدت، ليس فقط اللهجات بل وأيضاً القوميات، وأزالت الفوارق والحدود والاختلافات بين تلك القوميات وجعلتهم أمّة واحدة. ومن هنا دورها الأساسي: التوحيد. ولم تقتصر العربية على توحيد العرب، بل تعدّته إلى استقطاب أقوام أخرى أعجمية إلى بوتقتها الثقافية والحضارية وكان الإسلام هو العامل المحرّك لهذا التلاقي بحيث اعتمدت الأقوام غير العربية التي انضوت تحت لواء الإسلام، كتابه (القرآن الكريم) ولغته العربية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة: يوسف - الآية 2). ومن الطبيعي أن يكون لها الأثر الكبير في تطعيم تلك اللهجات والألسنة كلّها، حتى أن العديد من الأقوام بدّلت لهجتها بنسبة 80% لصالح اللغة العربية الفصحى لكثرة استعمالها وذلك من خلال التدريس الممنهج لهذه اللغة في المدارس منذ الطفولة، ما جعل تلك اللهجات واللكنات المحلّية تتطعّم بشكل ملحوظ بعبارات من الفصحى دخيلة، فاللهجة اللبنانية اليوم هي أقرب إلى اللغة العربية الفصحى من تلك اللهجة

التي كانت لأجدادنا منذ خمسين عاماً وما قبل (بسبب المدارس والتعليم الإجباري المفروض اليوم)، والذين كانت لكنتهم وألفاظهم تحوي على العديد من المفردات التي اضمحلت اليوم بسبب عدم استعمالها[1]، كما أن اللهجة نفسها أصبحت مطعّمة بعبارات وألفاظ فصحى لم يستعملها الأجداد قط في محكيتهم، فعبارات مثل: (مبدئياً، تلقائياً، نادراً، عفوياً، طبيعياً، حتماً، حكماً، تحديداً، بالضرورة، خاصة، خصوصاً، بالأخص، جملة وتفصيلاً، شرعاً، قانونياً...) تلفظ بالتنوين أي بالفصحى على ألسنة الجميع الآن وهي كانت مجهولة بهذا اللفظ بلسان أجدادنا حتى الأقرب إلينا زمنياً، لأنهم لم يرتادوا المدارس والتي كانت نادرة.

(1) من يلفظ بعد عبارة «أتون» الفينيقية: وهو التنور أو القرص الحار (الشمس)؟ من يعرف اليوم معنى عبارة «فرحة بشوشتك»؟ والشوشة هو الشعر. من يعرف ما معنى عبارة «فتشت عنه حكر حكر»، وهي سُريانية بحتة؟ و«حكر» أو «حقر» من «حاقورة» وهي ما جاور البيت من رقعة صغيرة. وهناك آلاف المفردات والعبارت الفينيقية والسُريانية تردّد من دون معرفة معانيها، مثل (دومري) وهو الشخص الذي كان يضيء الطرقات ويدلّ الناس ليلاً، و«لا يعرف كوعو من بوعو»؟

لماذا الأغلبية العظمى من أسماء الأماكن في المشرق فينيقية – آرامية[1] – سرُيانية؟

يقول أنيس فريحة: «غير أن السائد فيها (سورية ولبنان) الأسماء الآرامية، لأن هذه البلاد، سورية الطبيعية، كانت بلاد آرام، والتوراة لا تعرفها باسم سورية، ولا ذكر لسورية في التوراة (ولا تنسى أن التوراة من أقدم المصادر التاريخية) بل تذكر لنا التوراة دويلات آرامية أهمها آرام دمشق»[2]. ونحن نتحفّظ على هذا الكلام وعلى كلّ من ذهب

---

(1) هي الآرامية وليست «العبرية» إذ لا صحّة علمية ولا إثبات حضاري أكيد على صفة «عبرية» أو «عبرانية» التي يكرّر الباحثون الخطأ نفسه، متبعين التضليل الغربي بالارتكاز عليها في تفسير الأسماء، لسبب وجيه أنها لم تكن معروفة قديماً، بل هي منحوتة حديثاً على يد من سميّوا بالصهاينة مؤسّسي الكيان «العبري» المفتعل، بحيث نُحتت اللغة التي اعتمدوها تحت اسم «عبرية»، عن الآرامية والسُريانية بمجملهما. لم يكن للعبريين الذين ذكروا في التاريخ القديم من استقرار مدني الطابع، بل كانوا من الجماعات المترحّلة، غير المستقرة لا عمرانياً ولا مدنياً وبالتالي كانوا يجهلون الكتابة والتدوين. والاسم واضح الدلالة فعبري من «عَبَرَ» أي مرّ، والمرور والعبور هما صفتا قبائل الترحّل بامتياز. أما من دخل من العبريين القدامى تخوم المدن وسكن بجوارها فقد تأثر بالآراميين والكنعانيين والفينيقيين وأخذ عنهم قديماً. ومن يدّعون أنهم من سلالة العبريين من صهاينة محدثين ما هم إلاّ عصابات أجنبية سطت على التراث السُرياني بكل عناصره ومقوّماته ونسبته إليها وادّعت ملكيته زوراً، ولم تكتف بذلك بل اغتصبت الأرض السورية – الفلسطينية وقتلت شعبها أيضاً وجعلت من بقي منهم تحت الخيام مهجّراً في أرض أجداده. ودليلنا الأهم عن زور العبرية أن الصهاينة نفسهم يريدون التخلّي عنها لصالح «الدولة اليهودية»، بعد أن ضاقوا هم نفسهم ذرعاً بفشل ادعاءاتهم، فيعمدون اليوم إلى كذبة وخدعة جديدة!

(2) أنيس فريحة، أسماء القرى والمدن اللبنانية، ص xxxi، xxxii. ويتابع فريحة: «أما سورية فلفظة بابلية (سوري) كانت تطلق على مقاطعة تقع إلى الغرب من الفرات الأعلى (ربما المنطقة من الرقة، أبو كمال، دير الزور، وغرباً إلى حمص، حماة، حلب) ثم عمّ هذا الاسم على مبدأ تسمية الكل للبعض منه. والظاهر أن الإغريق أطلقوا هذا الاسم على سورية ومنهم من يعتقد أنها تحريف للفظة «أشور = أسور» وسمّوا أهلها سريان...» وهنا يلفتنا مرّة ثانية هذا الكلام المتناقض لفريحة، فكيف يكون اليونان أطلقوا اسمها على سورية وهو نفسه، أي فريحة، يذكر في الجملة عينها أنه لفظة بابلية «سوري»؟ وفي هذا السياق، نتساءل: هل قرأ مؤرّخونا على الأقل التاريخ الفينيقي – السوري كما ورد عند الغربيين قبل أن يجتهدوا؟ إذ يلفتنا الكلام المعبّر وذا الحجّة الصائبة لأحد العلماء الغربيين في معرض حديثه عن نشأة مدينة «موناكو» (Monaco) الساحلية جنوبي فرنسا وأصل اسمها الفينيقي الواضح (وبرأينا، اسمها هو «منيحة» أو «منيعة» لفظ حرف (ح) أو (ع) (ك) غربياً)، معترضاً على أن تكون تسمية يونانية فيقول إنه ليس منطقياً بالمطلق أن يكون مؤسّسو المدينة، وهم الفينيقيون، قد استعاروا =

مذهب أنيس فريحة، فالتوراة ليست المقياس الوحيد لمعرفة حضارة سورية كما أن لا فرق بين الآرامية والسُريانية وكلاهما لهجتان سوريتان، نسبيتان بحسب المناطق التي توزّعت فيها الأقوام التي تلهج بهما، وكنّا نتمنّى لو أن الباحثين العرب، ومن بينهم فريحة، وفّروا علينا كلّ هذا اللغط وقالوا بالحرف الواحد إن سورية الكبرى وحدة ثقافية ولغوية واحدة هي السُريانية وهي نفسها الآرامية.

من الأسماء الآرامية: (ميسلون، مضايا، حرستا، جبّاتا، صلخد وغيرها). وفي أصلها «فينيقية/ آرامية/ سُريانية على حدّ سواء وتعكس تلك اللغات بلهجاتها المتعدّدة والمتعاقبة زمنياً والتي سادت لغةً وكتابةً في سورية والمشرق القديم كلّه لآلاف السنين قبل العربية الفصحى، حتى راحت تنحسر شيئاً فشيئاً أمام اللغة الأقوى التي انتهت بالسيطرة نهائياً، بينما انحصرت اللهجات الأخرى في أقلّيات قومية ظلت محافظة عليها خاصة في تقاليدها الدينية (الآرامية في معلولا وصدد وجبعدين بسورية/ السُريانية في القامشلي وطور عبدين، الأشورية في سورية والعراق (الموصل)، والقبطية في مصر والسُريانية – الحبشية في أثيوبيا...)[1]، وهذا ما يفسرّ أن تكون الأغلبية العظمى من أسماء الأماكن

= اسمها وهو (Herculis Monoeci portus)، وقد ذكره كلّ من «بلينوس» (Pline, Liv.III, ch.V) و«إتيان» البيزنطي (Étienne de Byzance, voce Heraclea) و«سترابون» (Strabon, Liv.V) و«أميان مرسولين» (Ammien Marcelin, Liv.XV, ch.LI) من الإغريق منافسيهم لإجلال إلههم الوطني «هرقل» وهو نفسه «ملقرت»، وقد بنوا له معبداً في المدينة على غرار معبده الأصلي في صور السورية وقد أجمع المؤرّخون القدامى على أن هرقل هو باني «موناكو» بعد أن شق مرفأها على الطريقة الفينيقية المعروفة ووضع الأساسات الأولى. ويتحدّث «فيرجيليوس» عن هذا المعبد – القلعة وعن روعة زخارفه (Virgile, Énéide, VI, v.830-831) وكذلك «لوقين» (Lucain, La Pharsale, I, v.408s.). راجع:

Jean Joseph Léandre Bargès, *Recherches archéologiques sur les colonies phéniciennes*, Leroux, Paris, 1878, p..52s.

(1) والسُريانية والآرامية لا تقتصران على الطوائف أو ما يسمّى خطأً «الأقليات» وليستا حكراً على مذهب من دون غيره حيث بقيتا إلى اليوم، ولا يمكن حصرهما بالمسيحيين فقط، «فهناك من لا يزال يستخدم الآرامية كلغة تخاطب في معلولا وقرى مجاورة لها شمال دمشق رغم أن بعض سكان هذه القرى مسلمون» (اللغة الآرامية لهجاتها وفروعها، أخبار السريان، 29 ت2، 2010). ورد عند أحد المستشرقين: «قضى «رايخ» ثلاثة أشهر بين ظهرانيهم ولاحظ أن الآرامية لغة المسيح لم تعد محكية في سلسلة جبال لبنان الشرقية إلاّ من قبل سكان ثلاث قرى، واحدة كلّها مسيحية تقريباً، والأخريان =

فينيقية/ آرامية/ سُريانية لأنها ببساطة أقدم من العربية زمنياً ومرحلياً أي تسبقها بمراحل قبل التطوّر الذي لحق بها. وبما أن الأسماء تُحفظ بقدسية كونها مسألة هوية، فقد بقيت هذه الأسماء على شفاه الأهلين إلى يومنا هذا معانِدةً وصامدةً، تتحدّى كلّ التغيّرات مهما كان نوعها. وأسماء الأماكن ذات الأغلبية السُريانية الأصل هي الدليل القاطع على أن السكان المحليين كانوا كلّهم، من دون استثناء، يتكلّمون تلك اللهجات السورية العريقة القدم وكانوا بالطبع يفهمون معانيها كما ورثوها عن أجدادهم، ولكن مع مرور الزمن ومع تطوّر السكان وتراجع لهجاتهم تلك أمام اللغة العربية الفصحى المنتشرة بشكل مكثّف، بدأت الأجيال تنسى تباعاً المعنى الأصلي للكلمات، حتى أن بعضها ضاع نهائياً من ذاكرتها. يقول الدكتور الباحث عاطف الحكيم: «واللغة ليست مجموعة ألفاظ أو مفاهيم أو رموز وحسب كما يعرّفها ابن خلدون، بل هي تاريخ فكري وتاريخ حضاري وتاريخ سياسي. عليه، فإن جميع أسماء الأماكن وأسماء العلم هي سُريانية ومنذ فجر

= ذات أغلبية مسلمة»، راجع:

M.S. Reich, *Études sur les villages araméens de l'Anti-Liban*, Beyrouth, 1937, p.196, cf., Claude Cahen, *«La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche»*, in Fougères M., Mélanges d'histoire sociale, 1943, vol.3, n°3, pp.117-118.

وتحكى السُريانية أيضاً في المناطق ذات الكثافة السُريانية في القامشلي والحسكة وغيرها من مناطق الجزيرة الفراتية. أما في العراق، لا تزال السُريانية لغة التخاطب في المناطق والقرى ذات الغالبية السُريانية/ الكلدانية في الموصل ودهوك، وكذلك تعتبر لغة النطق في طور عابدين، جنوب شرق تركيا حالياً. وكذلك فالسريان الذي هاجروا خلال القرن العشرين، اعتمدوا اللغة السُريانية في تخاطبهم اليومي، خصوصاً في السويد (المرجع السابق). وعلى الرغم من عدم استعمال السُريانية كلغة تخاطب بين أغلبية السكان، فإن تأثيرها في اللغة العربية المحكية في بلاد الشام قوي وواضح، كذلك الحال بالنسبة لأسماء الأماكن («طريق بيروت - عمّان والأسماء السُريانية»، موقع «أولاف»، 29 ت2، 2010). ونعلم أن أغلب القرى والمدن في بلاد الشام اشتقت أسماؤها من اللغة السُريانية: «حلب» مثلاً تعني بالسُريانية «المثلث الأخضر الخصب». ويقول أنيس فريحة في أسماء القرى، ص xxxi، xxxii، الهامش(1): «وفي اللهجة السورية اللبنانية آثار آرامية عديدة ولا يعتقدن أحدنا أن هذه البقايا اللغوية تنحصر في اللهجات المسيحية، ولا سيّما المارونية منها في شمالي لبنان، بل هي شائعة في لهجات كلّ الطوائف. ولا صحّة لملاحظة المونسنيور م. فغالي في كتابه:

(*Syntaxe des Parlers arabes actuels du Liban*, p.XI).

على أن الدروز يتكلّمون لهجة بعيدة عن السُريانية. ومعلولا مختلطة ما زال أهلها يتكلّمون الآرامية».

التاريخ الحضاري. وُجِدَت وتبقى. ومهما حاولنا تشويه الأسماء بعلّة التهذيب فهي لا تقبلُ التشويه»[1].

في الحقيقة، إن الدارس المدقّق مع شيء من المعرفة باللغات القديمة تلك، لا يلبث بتحليله أن يقع من خلال لفظ تلك الأسماء على المعنى المخفي وبمقارنة مع العربية نفسها يمكنه أن يستنتج التشابه الكبير بين العربية وأخواتها السابقات كونها تتحدّر منها مباشرة، ولكن مع فارق جوهري ألا وهو طريقة اللفظ المغايرة تماماً، وهذا طبيعي بحيث أن اختلاف الألسنة شيء بديهي في مسيرة اللغات وتطوّرها وهو موجود في كلّ لغات العالم، فاللاتينة أمُّ الفرنسية ورغم ذلك تختلف عنها لفظياً كما وأن الفرنسية اليوم هي غيرها فرنسية العصور القرطوسية ولا يستطيع إلاّ الدارس المختص معرفة كيفية قراءتها ولفظها وحتى تفسير معانيها[2]، والأمر نفسه ينسحب على الإنكليزية والألمانية والإيطالية... ولا تخرج العربية عن هذه القاعدة.

وهنا تكمن أهمّيّة أسماء الأماكن لأنها أتتنا، في الغالبية العظمى منها، على الشكل الذي لُفظت فيه حين وُضعت من قبل أصحاب الأرض الأول، وهذا ما يُلزمنا الحفاظ عليها كما ورثناها وينبغي منع تحريفها لفظاً وكتابة، لكي نمنع تشويه آخر ما وصل إلينا من إرث لغوي، لفظي لا يعوّض أبداً إذا ما فُقد[3].

والجدير بالذكر أنه، في «الشرق الأوسط» كما في كلّ حوض المتوسط، بقيت معظم الأسماء كما وضعها الأوّلون، ولكن المفارقة أنه في حين أن الأسماء المشرقية يمكن تفسير معانيها بردّها إلى جذورها اللغوية السامية، فإن المسألة صعبة أو شبه مستحيلة حتى لا نقول مستعصية في الغرب وذلك لعدم وجود جذر أو أصل لغوي لها بلغة أهل تلك

---

(1) عاطف خليل الحكيم، «اللغة والأسماء»، المؤتمر الخامس لتوحيد الأسماء الجغرافية، بيروت، 2010.

(2) نحن بصدد وضع كتاب عن أصل وتطوّر اللغة الفرنسية وهو مقرّر في قسم اللغة الفرنسية وآدابها في الجامعة اللبنانية، قمنا بتدريسه بعنوان: *Origine et Évolution de la langue française*

(3) تسعى قوى الاستعمار جاهدة لضرب ما تبقى من إرث لغوي موروث عن الأجداد وما ضرب السريان في شمالي سورية (طور عبدين/ مردين، الرقة، القامشلي، الموصل...) على يد العثمانيين (1915) ومن ثم تقطيع أوصال مناطقهم أبان معاهدة «سايكس - بيكو» (1916) والتي سرّعت هجّرتهم من بلادهم الأصلية. وما الاعتداءات على معلولا وتهجير أهلها، وضرب الأشوريين وتهجيرهم اليوم، إلاّ تكملة للمشروع الاستعماري للقضاء على التراث الإنساني الأصلي لسورية الطبيعية (بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية) نهائياً.

المناطق[1]، فمن يستطيع مثلًا من سكان «مرسيليا» نفسهم أو من غيرهم من الفرنسيين تفسير المعنى الحقيقي لمدينة «مرسيليا» (Marseille) الساحلية الفرنسية؟ وجلّ ما يمكنهم الاجتهاد به أنها تتحدّر من «ماسيليا» (Masillia) أو (Massalia) وتعني «العطايا المقدسة»، وأنها كانت مستعمرة يونانية أُنشئت في القرن الخامس ق.م.، وأنه أعطاها الإغريق هذا الاسم[2]، أمّا عن معناه الأصلي ومن أين يتحدّر لفظياً ولغوياً، هنا تكمن المعضلة، لأن كلّ تحليل على أساس اللغة اليونانية يبقى غير مجدي والإجتهاد في هذا

(1) والأمر نفسه بالنسبة لأسماء العلم الأخرى مثل أسماء العائلات وتحديداً أسماء الأشخاص المنتشرة في الغرب والتي في معظمها لا يُعرف لها معنى عندهم (باستثناء الأسماء الدينية المنسوبة للقديسين والأنبياء) وهي نفسها تتحدّر من أصل مشرقي سُرياني بحت: مثلاً:
(Jean /John /Juan /Jeanne /Johannes /Gina) كلّها صيغ متعدّدة اللهجات لأصل واحد سُرياني (يوحنا/ حنا/ حنة/ حنين...) حتى بات يلفظ محرّفاً بالعربية «جان» وهو نقل لفظي وكتابي عن الغربي. والأمثلة كثيرة (عيسى/ يسوع Jésus/ إيليا Elie/ أراميا Jéremie/ أيوب/ Job مرقس Marc/ لوقا Luc/ يعقوب Jacques/ متى Matthieu/ رفقا Rabecca/ حكيم Joachim/ إبراهيم Abraham/ رحيل Rachel/ مريم Marie-Miriam/ حليم أو ملحم William/ يوسف Joseph/ ميخائيل Michel-Michael/ جبرائيل Gabriel/ عمانوئيل Emmanuel)؛ وبعضها اعتمد مترجَماً مثل «منصور» (Vincent). ومهما تعدّدت هذه الأسماء وتحوّرت بلفظها بفعل البعد الجغرافي والزمني عن منشئها ومهما اختلفت بلفظها بحسب لسان الأقوام، فهي تدلّ على أصل واحد وهو المشرق مهد الحضارات والديانات.

(2) من المستغرب أن الباحثين المعاصرين ما فتئوا يردّدون نفس الأغلاط الشائعة ونتعجّب أن لديهم نقصاً ذريعاً تماماً كما زملائهم العرب في قراءة المراجع القديمة والحديثة التي أضاءت كثيراً وبوفرة على تاريخ الاستيطان الفينيقي في المتوسط من مثل هذا البحث القيّم، رغم أنه لا يخلو من المغالطات إلاّ أن قيمته تبقى كبيرة من حيث الاعتراف للفينيقيين بتأسيس وتسمية المدن في غربي المتوسط، وهو:
Jean Joseph Léandre Bargès, *Recherches archéologiques sur les colonies phéniciennes*, Leroux, Paris, 1878, p.57s.
الذي أفرد فصلاً خاصاً (ch. XII, p.57s.) لتحليل اسم «مرسيليا» مستغرباً اللغط القائم حول أصله وتالياً تاريخ تأسيسها الفعلي، أي قبل مجيء «الفوقيين» (Phocéens) والذين إليهم ينسب اسمها «مساليا»، ويقول إن تلك المغالطات الكثيرة ليست مستعصية لأن حلّها يكمن في إسم «مرسيليا» نفسه الذي ينسبه إلى الاستقرار الفينيقي القديم جداً فيها (القرن العاشر ق.م.)، داعماً رأيه بالشواهد المادية الأثرية والكتابية من خلال بعض النقوش الفينيقية التي درسها والتي تفيد وجود معبد لبعل في مرسيليا (المرجع نفسه، ص 103). كما يؤكّد على أن أغلب الأسماء وخاصة أسماء البضائع كلّها من أصل فينيقي، مرتكزاً على ما جاء عند «هوميروس» وعلى ما أورده المؤرّخون القدامى، ولكن رغم كلّ الحجج التي قدمها لم يتوصل إلى تفسير اسم «مرسيليا» الفينيقي وأبقى على رأيه أنه من أصول سلتية!

المنحى يفسّر الماء بالماء ليس إلا، ولأن اليوناني نفسه لا يعلم بالظبط أصل الاسم الأوّل في بلاده الأم ولذا لا يمتلك الأداة اللغوية لربطه بجذر لغوي خاص به، لأنه، بطبيعة الحال، مفقود في تراثه اللغوي، إلاّ إذا ردّه إلى اللغة - الأم أي الهندو - أوروبية والتي في أغلب الحالات لا تفي بالغرض كون أسماء الأماكن، بعكس اللغات واللهجات الغربية، ليست من أصل هندو - أوروبي في ثمانين بالمئة منها، بل لها منشأ آخر مؤسّسٌ؛ فهل من أحد فكر أن يردّها إلى جذرها الأساسي السامي الفينيقي؟ لم يفكر الباحثون أصلاً بهذا رغم أنهم يعلمون علم اليقين أن الفينيقيين كانوا قد استوطنوا المنطقة مئات السنين قبل قدوم اليونان إليها، وقد بيّنت التنقيبات الأثرية عن كمّ كبير من آثار الفينيقيين البحرية الطابع كونهم من الملاحين ويردّون تلك البقايا إلى التجارة دائماً. ولكن هل التجار، عابرو السبيل، هم من يعود إليهم الأمر وحدهم بتسمية الأماكن وهم لا يستقرّون طويلاً في المكان في أغلب الأحيان؟ بالطبع لا، والفينيقيون ليسوا كلّهم من التجار، بل أن جماعات كبيرة منهم من البحارة والمستكشفين والعلماء والنازحين كانت تنزل في أماكن محاذية للبحر لتأسيس مراكز سكنية وتجارية ثابتة ودائمة (comptoir)، وكلّها أضحت مرافيء كبيرة توسّعت وامتدّت إلى الداخل لتشكّل مدناً بحدّ ذاتها، توفّرت فيها كلّ مقوّمات المدنيّة والعمران. وهذا الأمر يدلّنا عليه اسم مدينة «مرسيليا» نفسه الذي استعاد لفظه السامي - الفينيقي الأساسي، في حين نُسي اللفظ اليوناني المحوّر (ماسيليا)، وعادة ما تقلب (الراء) (لام) بحكم اللفظ الملغوط، فمرسيليا إذا ما رُدّت إلى الفينيقية، تعني «مرسى إيل»[1] وهذا الأمر بديهي بحيث أن الفينيقيين كانوا يطلقون اسم إلههم الأكبر «أيل» (El) على كلّ المواقع التي كانوا يحلّون بها. ومثل «مرسيليا»، «سردينيا» وهي المحطة التجارية الأهم للفينيقيين في جنوب فرنسا واسمها واضح مؤلّف من «سري» و«الدين» وهي عائلة ما زالت إلى اليوم في لبنان. يذكر «فيكتور بيرار»، إستناداً إلى جملة للمؤرّخ الجغرافي اليوناني «بوزانياس» (Pausanias, IIème s. ap. J.-C.) في كتابه «رحلة عبر اليونان» (Description de la Grèce) أو «وصف اليونان»، أن سكان سردينيا يتحدّرون من أصول فينيقية، وأكثر دقّة هم أحفاد سلالة البحارة «شردان»

(1) من الجيد أن الموسوعة الحرّة «ويكيبيديا» (إنترنت) تذكر المعنى العربي لمرسيليا على أنه «مرسى» «أيل» وتستشهد بالمرجع الذي ذكره وهو:

Paul Noujaim, *La Question du Liban*, Paris, n.d., 1961 [1908], p.3.

(Šardanes)[1] (الشاردون برأينا)، أو الذين يعدّون من شعوب البحر وشاركوا معهم في الهجوم على مصر في عهود «رمسيس الثاني» و«مرنبتاح» واستقرّوا بعد ذلك في جزيرة سردينيا التي سمّيت على اسمهم[2].

اللغة السُريانية تحديداً[3] وأهّميتها في علم الأماكن وعلم الآثار

قلنا مراراً وما فتئنا نكرّر بغاية التأكيد والتوكيد والتثبيت حتى تبقى الحقيقة جليّة، إن جغرافية المشرق، هي نفسها جغرافية سورية الكبرى أو سورية الطبيعية، بمعنى أن هذه الرقعة الشاملة، هي مهد الحضارات المشرقية كلّها من دون استثناء، تعاقبت على أرضها على مراحل وأخذت أسماء شتّى. والتسمية الأكثر صحّة لسكانها هي السوريون أو السريان نسبة للجغرافيا، وهي التسمية الأولى من حيث مستوى أسماء الأماكن، كما أسلفنا. وهذه الحقيقة المنطقية تجعلنا نتحفّظ على كلّ تفسيرات أخرى لإسم سورية مهما كانت درجة التفسير المعقول فيها[4]. وذلك منعاً للجدل البيزنطي الذي

---

(1) V. Berard, *Les navigations d'Ulysse*, tome I, p.68.

(2) Leonardo Melis, *Shardana-1 Popoli del mare*, 2002, 2005; Jean Faucounau, *Les peuples de la Mer et leur histoire*, Edition L'Harmattan, 2003.

(3) ونقول «تحديداً» لسبب أساسي يجب الانتهاء منه في زمننا وهو تغييب السُريانية بشكل متعمّد لدى البحاثة، فمثلاً أحدهم يقول: «وتشمل اللغة العربية (أو العروبية) الكنعانية والفينيقية والسبئية والحميرية والعربية المضرية التي ما تزال تحافظ بأصول تدلّ على أنها اللغة الأم، وإن هذه اللغات بمثابة لهجات للّغة الأم أو العربية الأولى»، (الزقوطي، «الأسماء الجغرافية والحروف الرومانية التي ليس لها مقابل في اللغة العربية»، 2010) ولا يذكر الباحث السُريانية، لا ندري لماذا، لجهل أم عن قصد منه؟

(4) يذكر الكثيرون أن تسمية «سورية» و«السريان» و«السُريانية» هي تحريف فارسي يوناني للاسم «آثور» أو «آشور» مستندين في ذلك إلى ظاهرة تبادل الأصوات (ش-س) أو (ت-ث) بين اللهجتين الشرقية والغربية، فتكون التسميتان السُريانية والآشورية كمترادفتين تعني أحدهما الأخرى. ويعتبر السريان أو السوريون اليوم ورثة شعوب المنطقة القديمة وورثة اللغة الآرامية - السُريانية، مستندين إلى كتابات سُريانية قديمة لدعم رأيهم كقصيدة للشاعر «نرساي» (437 - 507) يتحدّث فيها عن بلبلة الألسنة أثناء بناء برج بابل، فيذكر أسماء شعوب مختلفة قريبة وبعيدة، ويغفل ذكر الآشوريين والكلدان والبابليين والآراميين والفينيقيين مكتفياً بذكر السريان (ܣܘܪܝܝܐ). كذلك في تاريخ البطريرك السُرياني ميخائيل الكبير (1126 - 1199) يعدّد هذا الأخير الأمم والشعوب المعروفة آنذاك ويقول: «وبنو سام الآثوريون، الكلدان، اللوديون، الآراميون، وهم السريان»، راجع: (خوشابا شليمون (الأب) يوخنا عمانوئيل بيتو (الأب)، زهريرا، قاموس عربي - سُرياني، 2000، وكذلك حول اسم سورية، راجع: وديع بشور، سورية صنع دولة وولادة أمّة، دار اليازجي، دمشق، 1994).

درجت عليها أوساطنا العلمية منذ قرون، فلم ينتظر السوريون عندما حلّوا بأرضهم وتطوّروا في حضارتهم، أي شعب آخر (لا الفرس ولا اليونان ولا غيرهم) ليسمّيهم أو يسمّي أرضهم[1]، بل إنهم هم من أطلقوا التسميات مباشرة وتناقلوها شفهياً، وأن عدم وجود شواهد كتابية عنها أو أنها اندثرت ليس برهاناً على عدم أصالة الاسم وأقدميته. وبالعودة إلى أهمّية اللغة السُريانية، فهي تنبع من أنها أصيلة أي ابنة الأرض وهي الكفيلة بتفسير كلّ ما يتعلّق بتلك الأرض من مكوّنات وخصوصيّات سوريّة، حضاريّة. ولا يجهل أحد أن اللغة السُريانية أداة هامة للمنقّبين الآثريين والمؤرّخين تخوّلهم الاطلاع على الوثائق والمخطوطات القديمة التي غالباً ما كُتبت بالسُريانية والتي كانت هي الوسيط لنقل التراث الأدبي القديم[2].

في التراث العربي الإسلامي يشير بعض الفقهاء إلى أن السُريانية هي لغة «أهل القبور»، من بين هؤلاء حافظ السيوطي وعلم الدين البلقيني الذي فسّر سبب ذلك بكون «السُريانية لغة الأرواح والملائكة»[3]. ويشير كلّ من ابن حاتم وابن شيبة إلى أن السُريانية هي لغة يوم القيامة على أن يتكلّم داخلو الجنة لاحقاً العربية[4]. وبعض الفقهاء

(1) أغرب ما نقرأ في بعض المواقع التي تنقل عن المراجع عشوائياً جملاً كهذه «سورية: كلمة يونانية تعني الشمس...»

(2) أحمد هبو، «تدريس اللغة السُريانية ضروري للمهتمّين بالدراسات الأدبية المقارنة»، صحيفة الفداء، 29 - 4 - 2010.

(3) نجد فيه تفسيراً سطحياً يخلو من البعد المنطقي، ولعل المراد من العبارة، برأينا، أن السُريانية هي اللغة التي تحيي الأموات فيتكلّمون عن ماضيهم وتجعل التاريخ مكشوفاً وواضحاً، تماماً كما يفعل عالم الآثار عندما ينقّب في القبور عن الزمن الماضي، فيجعله ينطق.

(4) جاء في مصنّف ابن أبي شيبة (10/ 474): «حدّثنا جرير، عن بيان، عن الشعبي، قال: «كلام الناس يوم القيامة السُريانية». وقال السيوطي في «الدر المنثور» (6/ 31): «وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن سفيان الثوري»، قال: «ولسان يوم القيامة السُريانية، ومن دخل الجنة تكلّم بالعربية». وقال أيضاً في «الدر المنثور» (7/ 109): «يبعثهم الله يوم القيامة على قامة آدم وجسمه، ولسانه السُريانية، عراة حفاة غرلاً كما ولدوا». وفي تفسير ابن أبي حاتم (9/ 15) عن سفيان الثوري، قال: «لم ينزل وحي إلاّ بالعربية، ثم يترجم كلّ نبيّ لقومه بالسُريانية، قال: ولسان يوم القيامة السُريانية، ومن دخل الجنة تكلّم العربية».

كابن حنبل رأوا أن السُريانية كانت لغة النبيّ آدم أو النبيّ نوح[1]. وعلى أية حال، ومهما يكن من تفسير وتأويل لما جاء على لسان الإخباريين العرب، فإن اللغة السُريانة لم تُتجاهل من قبل أحد والكل تحدث عنها بإجلال وقد بيّن أهمّيتها، والدليل ارتباطها بالأنبياء وبالصالحين ما يدلّ على قدمها وأصالتها، وإذا كانت السُريانية قديمة قدم الحضارة فكيف يكون اسم الأرض التي نشأت فيها أحدث؟ ألا يُنسب القوم ولغتهم إلى أرضهم، فكيف تكون السُريانية لغة آدم ونوح ويرد عند البعض أن اليونان[2] أو الفرس هم من أعطوا سورية اسمها، أو أقله حرّفوا اسمها عن «أثور»؟ والأصح القول إن «أثور» أو «أشور» أو «أسور» أو «أسيرا» (Assyrie) أي «السورية» أو حتى «صور» أو «طور» أو «تور»، هي كلّها طرق لفظية لمسمّى واحد هو «سورية»، ولكن اختلف لفظه على ألسنة الأقوام المتعدّدة، كلّ بحسب طريقة نطقه. و«سورية» تسمية أصيلة لأنها تُنسب إلى المناخ والتضاريس والوضع الجغرافي أي للأرض أي للمستوى الجغرافي البدائي، وليس للشخص الطارئ على هذه الأرض والذي يحلّ في المرتبة الثانية من حيث مستويات نشأة الأسماء كما ذكرنا أعلاه. والعكس صحيح، أي أن الأشخاص هم من يُنسبون إلى الأرض، كأن نقول سوري وهو من أرض السور أو الشير أي الصخر الطبيعي أو صوري (Syrien) أو طوري (Tyrien) أي من الطور وتعني الجبل، و«تور» تتوضّح أكثر في إسم «تير» – «تيرا» (terre /Tyr) الفرنسية ومعناها الأرض. من هنا يتبيّن لنا أقدمية الاسم الجغرافي وأسبقيته على كلّ ما تلاه من أسماء لاحقة.

وهذا يقودنا إلى مسألة غاية في الأهمّية وهي كيفية لفظ الاسم بغاية اعتماد كتابة موحّدة له ما يبدو مستحيلاً لأن الاسم هو حضارة بحدّ ذاته أي تراكم حقبات، تبدّل

(1) جاء في الجزء الثامن من كتاب «العلل ومعرفة الرجال» (5822) للإمام أحمد بن حنبل الحديث الآتي: «حدّثني نصر بن عليّ قال: حدّثنا نوح بن قيس قال: حدّثنا الأشعث بن جابر عن الحسن قال: خرج آدم من الجنة ولغته السُريانية». وفي حديث آخر: أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس، وهو أوّل من خطّ بقلم، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيّك يا أبا ذرّ، وأوّل نبيّ من بني أنبياء إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأوّل النبيين آدم، وآخرهم نبيّك».

(2) يتردّد هذا الخطأ في أكثر من مرجع وقد ذكرنا ذلك آنفاً، يقول يوسف الدبس في كتاب «تاريخ سورية» المجلّد الأوّل، ص 11: «وأوّل من سمّى هذه البلاد سورية هم اليونان»، وعلى هذا المنوال سار الكثيرون دونما تدقيق منهم. ولعل الأصح القول إن اليونان دوّنوا اسم «سورية» نقلاً عن السوريين أنفسهم، فحفظ الاسم على التاريخ (المؤلّفة).

لفظه خلالها عشرات المرّات ولا يمكن إزالة أي طبقة منها وفاءً للتاريخ. وتوحيد الأسماء مسألة معقدة وشائكة لا زالت محط جدل كبير ولن ينتهي، وأضحت إشكالية لا مخرج بسيط لها، خصوصاً من ناحية اعتماد تفسير الأسماء واعتماد أحدها من دون غيره، لفظاً وكتابة ومعنى، كما يبغي بعض الباحثين والطوبوغرافيين لتسهيل عملهم في الميدان الجغرافي[1].

في إشكالية اعتماد تفسير أسماء الأماكن

كيف يفسّر الاسم؟ ولماذا يفسّر على نحو دون غيره؟ ولماذا يُعتمد تفسير على حساب تفسير آخر؟ وهل يمكن اعتماد تفسير أو تفسيرين أو كلّ التفاسير؟ وفي الجواب: لا يمكن اعتماد أي تفسير دون آخر، بل من الضرورة أن تؤخذ كلّ التفسيرات بعين الإعتبار، لا بل هناك تأويلات بشكل مستمر وتفسير دائم، وتدعمه أسطورة موازية تعلله، ولا يمكن تجاهلها لأن في ذلك تغييب متعمّد للرؤية الشعبية صاحبة الأرض. ففي الواقع، كثيراً ما يخترع الناس حكاية خرافية لمحاولة تفسير أصل الاسم الذي يحمله المكان الذي يسكنونه، لجهلهم المعنى الحقيقي أو عجزهم عن فهمه، ما يُعرف في علم اللغة بظاهرة «التفسير الفولكلوري» (folk etymology) لأصول الكلمات بما فيها الأسماء، فيخرج من بنات خيالهم روايات متنوّعة، غالباً ما تقترب من عالم الخيال والخرافات، ولا يمكن تصديقها أكثر الأحيان[2]، ولكن ينبغي الأخذ بها وإن كانت تفتقر إلى كلّ دليل علمي. لنأخذ المثل الأشهر في محاولة تفسير اسم المدينة العراقية «سامرّاء» والذي فسّر عربياً في المراجع الأكثر مصداقية بأنها تسمية منحوتة ومدغمة من «سُرّ من

---

(1) لنا عودة مفصّلة حول هذه المسائل في ما يلي من هذا الفصل.

(2) يورد معتز شكري في هذا السياق: «وبالرغم من أن غالبية أسماء المدن والقرى في مصر ذات أصول مصرية قديمة، ومنها (دمنهور) المنسوبة للإله «حور»، يقول العوام إن سبب تسمية المدينة بهذا الاسم إنه كان فيها في قديم الزمان طائفتان متنافستان وقعت بينهما صراعات ومعارك طاحنة جرى فيها (الدم نهور)، أي سالت الدماء أنهاراً، فسمّيت (دمنهور). أو يقولون مثلاً إن (الفيوم) هي التي شهدت تخزين الغلال أيام سيّدنا يوسف، وحيث إن مدّة السنوات السبع تعادل (ألفي يوم) سُمّيت المدينة (الفيوم)، ويقال إن «الفيوم» هي من عبارة (بي يوم) التي تفيد وجود البحيرات بها. وبنفس طريقة التفسير الفولكلوري هذه، يقولون مثلاً إن إبراهيم عليه السلام أقام في موضع ما وحَلَبَ بقرة له شهباء، ثم جاء أناسٌ للعيش في المكان وأرادوا تسميته، فقالوا: هنا إبراهيم (حلبَ الشهباء)، فسمّيت مدينة (حلب) في سورية بهذا الاسم.» (إنترنت).

رأى» بمعنى أنها دهشة للعيون، ولا شكّ أن هذا التفسير يتطابق لفظاً ومعنى مع ميزات المدينة التاريخية ومعالمها الأثرية (من بينها مئذنتها المستديرة) وطيب العيش فيها. إلاّ أنه، في البعد الحضاري، لا يمكن فصل سامراء عن الحضارة السومرية ولعلّها كانت من أهم مدن «سومر» الكبرى. ولا تشذ مدينة «السامرة» في فلسطين عن هذه القاعدة، أي أنها حضارياً مرتبطة بسومر، ومثلها «رأس شمرا» على الساحل السوري، وهي الحاضرة العريقة مبتكِرة الأبجدية. وفي الحقيقة، لا يمكن حصر المدن المشرقية العربية التي تحمل اسماً شبيهاً بسومر، وهي كثيرة جداً ومنتشرة في كلّ الأصقاع العربية وعلى امتداد الجغرافيا السورية الحضارية. وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على سعة الحضارة السومرية والتي توسّعت لتشمل كلّ سورية الكبرى وإن التشابه الثقافي وعلى رأسه الكتابة المسمارية (ابتدأت في سومر، تطوّرت مقطعيةً في بابل وفي أكد وفي آشور، وانتهت أبجديةً في رأس شمرا – أوغاريت). وهذا الترابط الثقافي يدلّ على وحدة الأمّة السورية منذ أقدم العصور.

إسم «بيروت» نموذجاً

اشتهرت بيروت في الأسطورة والأدب قديماً باسم «بيروه» وهي إحدى الحوريات، بنات البحر[1]. و«بيروه» (Beroé) «البارة» تعني أيضاً «برّية» لارتباطها باليابسة. و«البراث» جمع «برث» تعني «الأماكن اللينة، السهلة»[2]. وإلهة بيروت «بارات» إشتق اسمها من الكلمة الفينيقية (برت) أي الروح وهي كذلك الريح التي تتلاعب في البراري (prairie). والإله «بوري» (Borée) في الميثولوجيا اليونانية، هو إله الريح البرية التي تهبّ على السواحل، وهو إله فينيقي الأصل كان يرافق البحارة الذين يعتمدون على هبوبه للإبحار. وتشتهر بيروت بغابة الصنوبر، واسمها يتحدّر من كلمة صنوبر نفسها، فالاسم الآرامي الذي يدلّ على شجرة الصنوبر هو (beroth) أو (berosh)، ويعني تحديداً صنوبر حلب التي عرفت باسم «بيروه» مثل بيروت. وهو بلا شكّ إسم حورية الصنوبر بالفينيقية، إذ كان لكلّ شجرة حوريتها الخاصة. وشجر الصنوبر هذا

(1) R. Dostalova-Jenistova, Sur *«Les Dionysiaques» de Nonnos de Panopolis, chants XLI-XLIII*, in Tyros a Bejrut, V, Dionysiakah Nonna Z. Panopolie Listy Filol, V, 1, 1975.

(2) يراجع الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، 334.

المسمّى (brutia)[1]، عرفه الإغريق وذكر عند «هوميروس»، («الألياذة» و «الأوديسة») وعند «هيزيود»، («الثيوغونيه») وعند «هيرودوتس» («التاريخ»)، وغيرهم.

وذُكرت بيروت في وثائق «تل العمارنة» باسم «بيروتا»، وبحسب سياق النص ما يؤكّد أن بيروت - فينيقيا هي المعنية، حيث ذكر «عمونيرا» أنه كان حاكم بيروت (القرن الرابع عشر ق. م.)، وكان قد التجأ إليه ملك جبيل «رب عدي»، فأرسلت كلّ من بيروت (Bi-ru-ta) وصيدا (Si-du-na) تطلبان من فرعون مصر «أمنوفيس الرابع» «أخناتون»، أن يُسرع لنجدة جبيل التي أصبح الضغط على أميرها شديداً من قبل «عبد عشيرتا» وابنه «عزيرو» الحثيّن، لكنه لم يستجب لندائهما[2]. هذا ويرتبط اسم بيروت ببئر لكثرة الآبار فيها. وأسماء الأماكن التي تحمل لفظ ومعنى بئر عديدة في كلّ بلاد سورية (بئر السبع في فلسطين، البيّارات في تدمر، والبيرة يتكرّر في أكثر من مكان في كلّ سورية...) أما عند «سنخونياتن» الذي يبقى المصدر الأساسي للعقائد الدينية البيروتية، فيظهر إسم «براتي»، والأرجح أنها بيروت، بين الجبال العملاقة التي أخذت أسماء (قاسيون؛ لبنان؛ أنتيلبنان؛ براتي) وهم من ذرية كنعان كما يقول. و «سنخونياتن» يعتبر بيروت وعليون أم وأب كلّ الآلهة[3].

وبيروت مرفأ تجاري كبير عُرف منذ أقدم العصور وهذا ما يدلّ عليه اسمها «بورتا» الذي أعطى اسم (port) أي (بر = مرفأ) ومنها (porte) أي (باب) و(porter) أي (حَمَلَ)، وكلّها مفردات تتعلّق بالملاحة وهذا دليل انتشار اللغة من بيروت إلى العالم المتوسطي الذي تبنّى مفردات البحارة الفينيقيين. والمفردات الفينيقية كثيرة في اللغتين

(1) Guyot L. / Gibassier P., *Les Noms des Arbres, Que sais-je,* n° 861, PUF, Paris, 1966, p.32.

(2) C. Bezold / E.A.W., *Budge The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum*, London, 1892.

(3) يُعتبر الكاهن البيروتي «سنخونياتن» (القرن الرابع عشر ق. م.، ذكره «فيلون الجبيلي») أن بيروت أم الآلهة وعليون أب كلّ الآلهة. ونرى أن الآلهة الفينيقية حملت أسماء رجال أسياد أصبحوا آلهة. فقد كان لهم شأن عظيم في خدمة بلادهم فألّهوا وكرِّموا وهم من أعطوا للحضارة أسماءهم. بناءً عليه، تكون بيروت أم الحضارة الفينيقية وسيدة مدنها منذ أقدم العصور ولقبها «أم الشرائع» ليس حديث العهد، بل أنها معطية القوانين والأنظمة المدنيّة الأولى، وكذلك الحرف والكلمة والفكر. راجع: فيفيان الشويري، «بيروت عاصمة الفكر وناشرة الحرف في العالم»، في إطار بيروت عاصمة عالمية للكتاب، دار الحداثة، 2009، ص 103-126.

اليونانية واللاتينية، وفي اللغات الأوروبية الحالية كافة. والبيرة هم تجار البرتقال على السواحل اللبنانية، ومنهم جاء اسم البرتغال الواقعة على ساحل الأطلسي، والفينيقيون أوّل من وطأوا سواحله وأبحروا وراء أعمدة ملقرت/ هرقل. ونرى أيضاً أن البرتغال تعني «بوابة ايل»، أي «برية ايل» أو «بر أيل» بلفظ (غ) (ي)، ومثلها «بريتال».

والمعروف تاريخياً أنه كانت جاليات البيروتيين تخرج تباعاً إلى البحار بغاية تأسيس المدن والمحطات التجارية وتأهيل المناطق الصالحة للسكن. وكان هؤلاء البحارة البيروتيون من أتباع أبي زيدون، وتقول الرواية أنه امتناناً لتزويجهم بيروت له، منحهم بوزيدون نعمة الإبحار بأمان والذهاب في البحر تحت رعايته[1]. وكانوا قد أسّسوا لهم مستوطنات عديدة في المتوسط وخاصة في بحر إيجه، وباتوا يعرفون بالبوزيدونيين من قبل السكان المحليين، حيث كانوا يطلقون على نفسهم لقب «بوزيدونيين» حسب ما ورد في نقوش جزيرة «ديلوس» (Délos) الكتابية (العصر الهلنستي). وكانت جاليتهم تحتل المكانة الأبرز على الصعيد الإجتماعي والتجاري ممّا يعني أنها كانت مستوطنة قديمة جداً. وتحتضن «ديلوس» المعابد الصغيرة المسماة «خزنة» (trésor) جعلتها بمثابة مدينة مصرفية لإيداع أموال المدن[2]. وعُرفت «ديلوس» بارتياد الحجّاج لمعبد «أبولو» الذي كان مركزاً للوحي والنبوءة. كما كان البيروتيون قد بنوا معبداً لبعلة بيروت عشتروت، إذ كانت تحتل

---

(1) بوزيدون أو بوصيدون هو إله فينيقي كان سيّد البحار وزوج «بيروه». نقرأ لدى «نونوس البانوبولي» بأن بوزيدون كان ينافس «زفس – أدونيس» (وهو باخوس في الملحمة) على بعلة بيروت. وفاز بشروط حمايتها من زلازله («نونوس»، «ديونيزياكا» 43: 118 – 124). وتخلّد مسكوكات بيروت البرونزية (العصر الهلنستي، القرن الثالث ق. م.) هذه الرواية، بحيث نقش عليها صورة بوزيدون وهو يجرّ «بيروه» من يدها (N. Jidejian, *Le Liban à travers les images*, p.58). وهذا يعكس الأهمّية البحرية التي كانت لبيروت وموقعها الجغرافي المميّز، ما جعل حتى الآلهة تتصارع من أجل امتلاكها. وورد عند «هوميروس» في «الإلياذة» (القرن التاسع ق. م.) أن بوزيدون يقيم في أعماق البحر في إيجيا (13 : 121). وإيجيا بلدة فينيقية في كيليكيا كما ذكرها «هيكاتاوس» (جون براون، لبنان وفينيقيا، نص 8، نقلاً عن ي. الحوراني). واسم بوزيدون دخيل على اللغة اليونانية وهو في «الكوسموغونية» نظرية التكوين الفينيقية، أخ لصيدون وابن «بونتس». وعلى الشاطيء اللبناني ميناء يحمل اسمه «بوزيد» قرب صيدا.

(2) M.J. Baslez, *Recherche sur les conditions de pénétration et de diffusion des religions orientales à Délos*, Paris, 1971; Ph. Bruneau, *Exploration archéologique à Délos*, Paris, 1972; *«Cultes et dévotions des Phéniciens en Grèce. Les divinités marines»*, Studia Phoenicia IV, 1986, pp. 289-305.

مكانة خاصة لديهم باعتبارها إلهة بيروت[1]. ويشهد الوضع الديني في جزيرة «ديلوس» على نشاط البيروتيين في محيط هذا المعبد الذي كان بمثابة مركز متكامل (تجاري، اقتصادي، ثقافي...) وُضع تحت حماية إلهيّ بيروت بوزيدون وعشتروت - أفروديت. وأفروديت هي بيروت نفسها، وتماثيلها انتشرت في مستوطنات البيروتيين حيث عثر على العديد منها تبرزها بشكل مسرحي هي والإله الماعز «بان» (Pan)، رمز الأحراش والغابات، وهو يحاول إغراءها وهي تصدّه برفع حذائها بوجهه[2]، أو مع رمز الحب «إيروس» (Éros). وعثر على مثل هذه التماثيل في بيروت[3]. وفي تماثيل أخرى تبدو أفروديت - بيروه «ابنة الزبد» عارية تخرج من الحمام، تتلألأ ببياضها الذي اشتهرت به. ونقرأ عند «نونوس» (البيت 225، ترجمة الحوراني، ص 37): «وقامت الأورخومينيات، تابعات البافيّة (القبرصية) بجلب المياه من العين الذكية، العزيزة على ربّات الشعر التسع (Muses)، من أجل استحمامها». هكذا تعمّدت بيروت بماء الحكمة والشعر والفن والموسيقى والإبداع وأصبحت هي نفسها الملّهمة، وهذا الدور الريادي إحتفظت به طيلة تاريخها وما زالت حتى اليوم. يقول حتي[4]: «إذا كان لإنطاكيا عاصمة سورية أن تفاخر بنشاطها السياسي، وإذا كان لبعلبك أن تباهي بمنجزاتها الدينية، فلبيروت أن تفخر بالمستوى الفكري الذي بلغته. ومن هذه الزاوية نفسها، كانت بيروت تختلف كذلك عن سائر المدن البحرية التي كانت مراكز تجارة وصناعة. وعند مطلع القرن الثالث، أصبحت مركزاً لمدرسة حقوق ظلّت إلى منتصف القرن السادس أشهر مدرسة من مدارس المقاطعات الرومانية. ويغلب الظن أن مؤسّس مدرسة الحقوق هو الإمبراطور السوري «سبتيموس سيفيروس» (حكم من 193 إلى 211)»[5].

وفي الأونومستيكا حافظت بيروت على اسمها من خلال اسم العلم النسبي «ألبرتو»

---

(1) Ch., Picard, *«L'établissement des Poséidoniastes de Berytos à Ephèse et Claros»*, Syria IV, 1923, p. 334; Bruneau Ph., *«Les cultes de l'établissement des Posédoniastes de Berytos à Délos»*, in Hommages à Vermaseren I, 1978, p.160.

(2) J. Marcadé, *Guide de Délos*, 3ème éd. École Française d'Athènes, 1983, p.72, figs.75, 47.

(3) N. Jidejian, *Beirut through the ages*.

(4) فيليب حتّي، «الشرق الأدنى»، ص218.

(5) Paul Collinet, *Histoire de l'École de Droit de Beyrouth*, Paris, 1925; H. Lammens, *La vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas - Empire*, Cairo, 1921.

أي البيروتي. ونبرهن في أبحاثنا (معجم «آلهة وآماكن») أن البيروتيين هم من أعطى إسم «البروتون» (Bretons) لسكان منطقة «بريتانيا» (La Bretagne) الفرنسية الواقعة على الساحل الغربي شمالي فرنسا، ومرفؤها هو بوابة البلاد من الشمال؛ وإسمها يعني «بلاد البروتون» (Le Pays de Bretons)، ويكتب أحياناً (Brittania). والبيروتيون الفينيقيون هم أيضاً من أعطوا اسم «بريطانيا» (La Grande Bretagne) للجزيرة الكبيرة (المملكة المتحدة اليوم) وكانوا أوّل من اكتشفوها عبر أسفارهم، بحثاً عن المعادن ونشروا الحضارة والحرف والفكر بين سكانها. ونرى أن المنطقتين «بريتانيا» (شمالي فرنسا) و«بريطانيا» (العظمى) هما امتداد حضاري واحد وهما قريبتان جغرافياً، ما يعزّز تأسيسهما من قبل الفينيقيين ولكن للأسف، فالأمر معتّم عليه من قبل المؤرّخين ولم يُؤتَ على ذكر ذلك إلاّ نادراً[1]. ومن المعروف تاريخياً أن سكان بريطانيا (إنكلترا) نزلوا بسفنهم إلى منطقة «الأرموريك» (Armorique) (ومعناها البلاد المواجهة للبحر) في المنطقة الساحلية الواقعة شمالي غربي فرنسا، وكانت تسمّى مقاطعة «غاليا» (La Gaule) في العصر الروماني، واستوطنوا في جزء منها سمّي «بريتانيا». وظلت تلك المنطقة الساحلية المجال الجغرافي الحيوي لتنقلهم ومصالحهم لزمن طويل[2].

وتُظهر الصورة التالية مراكز انتشار البيروتيين في شمالي غربي فرنسا وصولاً إلى بريطانيا «العظمى»:

---

(1) لعل أجرأ كتاب وأوضحه حيث يبرهن كاتبه أن «البروتون» وغيرهم يتحدّرون من الفينيقيين، هو:
L.A. Waddell, *The Phœnician Origin of Britons, Scots and Anglo - Saxons*, London University, 1924.

(2) Jacques Briard, *La Protohistoire de Bretagne et d'Armorique*, J.-P. Gisserot, novembre 1991; Joël Cornette, *Histoire de la Bretagne et des Bretons*, 2 tomes, Le Seuil, 2008; Léon Fleuriot, *Les origines de la Bretagne*, éditions Payot, 1980, p.103.



مراكز البريتانيين في القرن السادس

ولاحظ المهتمّون بالطوبونيميا الغربية الكمَ الكبير للأسماء البروتونية (brittoniques) والتي يتوقّف وجودها عند جهة الشرق لكوزنون (Couesnon) في «بريتانيا» الفرنسية[1]، بينما تندر تلك الأسماء ذات المنشأ الشمالي وذات الطابع الأنكلو-اسكندينافي في ناحية أخرى من «بريتانيا» نفسها، مثلاً في (Avranchin)، ما يعني أن الجاليات القادمة نزحت مع المستعمرين الشماليين (colons nordiques) في القرن السادس. والملاحظ أيضاً أن أسماء الأماكن في منطقة «نورمنديا» (Normandie) الفرنسية تضمّ أسماء مثل «بريتوس» (Brittus) و«بريتانوس» (Brittanus) سابقة على دخول الجاليات الأنكلو-اسكندينافية، في القرن الحادي عشر. كما عاين المختصون أسماء أماكن تضمّ جذر «برت» في أنحاء كثيرة من فرنسا، من مثل «برتيني»، وتكتب (Brétigny / Bretini)، و«برتينيول» وتكتب على حدّ سواء (Brétignolles / Bretignolles / Bretagnolles / Bretegniollis) بمنطقة «الأور» (Eure)، وهذا يدلّ على وجود البروتون في «غاليا» في نهاية العصر الروماني. ويدخل الطوبونيم أي إسم المكان (Brittanus) في أسماء أمكنة لاتينية مركّبة مع اللاحقة اللفظية (val) مثل «بريتنفال» (Brittenevalle) واسمها يُفسّر (Val Breton) أي السهل البروتوني على اسم المستعمرين الذين قدموا من بريطانيا العظمى (إنكلترا)[2]، واسمها الحالي (Berneval-le-Grand) وهي بلدة ساحلية في «نرمانديا العليا»[3].

وفي معرض حديثه عن المستوطنات الفينيقية، يذكر «برجيس» قومَ «البريتيني» (Les Beritini)[4] الذي يعيش قرب مصب نهر «الفار» (Var) ويقول إن اسم هذا الشعب يبدو مرتبطاً باللغات السامية، وبالنتيجة، يعزو لهذا لشعب أصولاً مشرقية وقد خدع هذا الاسم العديد من الجغرافيين واللغويين والفيلولوجيين: الأمر يتعلّق بالبريتيني الذين كانوا يسكنون، وبحسب «فالكناير»، جنوبي منابع «نهر الفار» بجوار «البريغنتي» (Les Brigantii)[5]. وإحدى الكتابات القديمة التي وجدت في وادي «القديس بطرس

---

(1) E. Nègre, *Toponymie générale de la France*, vol.II, Librairie Droz, 1990, p.1010.

(2) Elisabeth Ridel, *Les Vikings et les mots; l'apport de l'ancien scandinave à la langue française*, éditions Errance, 2009, p. 243.

(3) Catalogue: *«Berneval le Grand, à la Belle Époque»*, Déville-lès-Rouen, 2011; Jean Renaud, *«Vikings et noms de lieux de Normandie». Dictionnaire des toponymes d'origine scandinave en Normandie*, éditions OREP, 2009.

(4) Jean Joseph Léandre Bargès, *Recherches archéologiques sur les colonies phéniciennes*, Leroux, Paris, 1878,ch. XIX, p.47s.

(5) Walckenaer, *Géographie ancienne des Gaules*, tome II, partie II, ch. 3, p. 40.

والبين» (Vallée Saint-Pierre et de la Penne) تدلّ على تموضعهم في هذه الناحية كما أن اسمهم حفظ في تسمية البيروتين (Les Berotins) التي أعطيت منذ عهود سحيقة لسكان هذا الوادي حسب ما ورد عند «بابون»[1]، الذي كان قد نوّه منذ وقت طويل، إلى بعض من يقول بالأصول الفينيقية لهذا الشعب حيث ذكر: «إلى شرق مدينة «أنتروفو» (Entrevaux) وعلى الضفة اليمنى لنهر «الفار» في أراضي «البين»، نجد «البريتيني» (les Beretini) المعروفين بنذرهم الذي قدموه إلى الإله «مارس» (Mars) الملقب (Jeusdrino) أي «آخذ المدن»، وهذه الأسماء تحيل بلفظها إلى أصول مشرقية ما عزّز الاعتقاد أن السكان الأوائل لهذه الناحية أتوا من مدينة «بيريت» (Bérite) في فينيقيا وأنهم قدموا إلى المنطقة بقيادة أحد الكنعانيين المدعو «جوس» (Jeus)، لأنه من المعروف أن الكنعانيين كانوا يمارسون التجارة وأنه كانت لهم مستوطنات على سواحل المتوسط وأنهم انتشروا في اليونان، وفي إفريقيا وفي إسبانيا وفي الجزء الجنوبي من «غاليا» حسب ما يحكى. لذا يعتقد أن فرقة من هؤلاء قدموا للاستقرار في «البين». ويعزّز هذا الاعتقاد، يضيف «بابون»، أن الوادي حيث بنوا قريتهم يحمل اسم «كنعان» وأنه من بين الاحياء المختلفة أحدها يحمل إسم «منسيس» (Manassès)، وآخر «بلد سليمان» (Le Pays de Salomon) وثالث «حقل آوربيل» (Le Champ d'Uriel). واللافت أن هذا الحقل مليء بحجارة الصوان المشطوبة وأن «أور» تعني بالكلدانية «النور» أو «النار». وأخيراً، يقول «بابون»، هناك جبل يسمّى «أدون»، فهل نحتاج للمزيد للبرهنة أن الفينيقيين قدموا للسكن في هذا الوادي؟[2]

وكثيرون هم الباحثون والأدباء[3] الذين ألقوا الضوء على أهمّية «بيروت» وانتشار اسمها في العالم ووصول الفينيقيين إلى ما وراء البحار والأميركيتين. فقد دُعي العالم النمساوي «لودفيك شوانهاغن» إلى إلقاء دروس في بعض الجامعات، وكان قد بقي خمسة عشر عاماً ينقّب في ولايتي «مارانيون» و«بياوي»، فألقى سلسلة من المحاضرات عن استيطان الفينيقيين للبرازيل. وفي كتاب «تاريخ البرازيل القديم»، خلاصةٌ لتنقيبات هذا العالم ولها أهمّية خاصة. ويرجّح «شوانهاغن» أن يكون الفينيقيون قد دخلوا الإكوادور وخليج المكسيك وتركوا في «هايتي» و«سان دومينيك» (دومنغ) آثاراً جمّة، واجتازوا

---

(1) Papon, *Histoire générale de la Provence*, tome I, p.108-109.

(2) بابون، المرجع السابق نفسه.

(3) على رأسهم الشاعر سعيد عقل، في كتابه «لبنان إن حكى».

نهر الميسيسبي (الولايات المتحدة). أما المؤرّخان الأمريكيان «سكيار» و«ديفس» فهما صريحان ومباشران في مؤلّفاتهما الصادرة العام (1848)، حيث يقولان إن «الفينيقيين دخلوا أميركا الشمالية». ويدعم هذا الرأي المؤرّخ «بريتون». ويقول «شوانهغن»: «بعد سقوط صور بيد «الإسكندر»، عَهَدَ المقدوني إلى قائده «بروتولوماو»[1]، بالاستيلاء على مستعمرات فينيقية على أن يساعده الأسرى الصوريون. وصلت العمارة الغازية إلى شواطيء «أميريم» العام (328 ق.م.)، ولكنها غرقت في مصب «ريوبرتا». وفي العام (1898)، عُثر على كتابة فينيقية تؤكّد الحدث وإليك ترجمتها: «عندما كان «الإسكندر بن فيليب» ملكاً على مقدونيا، أرسل قائده «بروتولوماو»، في بعثة بحرية إلى مستعمرات فينيقية في الأطلسي. وقد عثر على كتابة في «مونت فيداو» في مقدونيا... أصبح متعارفاً عليه بفضلها أن مستعمرات الفينيقيين قديمة جداً في البرازيل، ونقش فيها: «إنتهى الفينيقيون إلى البرازيل عقب حرب طروادة في الألف الثاني ق.م.، ومكثوا فيها ثمانمئة سنة»[2].

في الحقيقة، لقد انكب الكثيرون من البحاثة على موضوع استيطان الفينيقيين للبرازيل وعدد من المناطق في أميركا الجنوبية، حيث خلّد الفينيقيون كتاباتهم على الصخور، أهمّها النص الشهير المعروف باسم «نقش بارايبا» والذي كُتب بالعامية الصيدونية ومطلعه يبدأ هكذا: «نحنا أبناء كنعان من صيدون... المملكة تمارس التجارة... قذف بنا إلى هذه السواحل البعيدة...»[3] واليوم أصبحت المسألة محسومة كلّياً.

وهكذا يتجدّد اسم بيروت في «برازيل» التي نرى فيها (برية - إيل) كما في «بريتال»، وقلب حرف (ز) إلى (ت) وارد ويظهر جلياً في اللاتينية (مدينة «بوتولي» الإيطالية تكتب Puzzoli، وتلفظ Butcholli/Buttoli).

---

(1) نرى أن اسمه يتضمّن (برت+ إيل)، ولعله من أعطى اسمه للبرازيل.

(2) س. عقل، «لبنان إن حكى (الفصل الأخير).

(3) نشره وعلّق عليه عبد الله الحلو في كتابه «الفينيقيون وأميركا، فصول شغلت العالم»، دار فكر، بيروت، 1991، وضمّنه عدداً كبيراً من المراجع، نذكر منها:
F.M. Cross, *«The Phoenician Inscription from Brazil»*, in Orientalia 37, 1968, p.437-460; C.H. Gordon, *«The Canaanite Text from Brazil»*, in Orientalia 37, 1968, p.425-436; L., Delekat, *«Une nouvelle copie du texte de Paraiba»*, in Linguistica Biblica 15-16, 1972, p.25-35.

ونرى أن اسم «برازيل» يتضمّن الجذر «برت» أو «برية» (يابسة) أو «بورت (مرفأ)، وقد لفظت «برث» و «برس» و «برز»، بحسب النطق واللسان. بمعنى أن الحروف (ث) و(س) و(ز) تعادل في قيمتها اللفظية الصوتية والكتابية الحرف (ت) نفسه الذي يلفظ مختلفاً بحسب طريقة «اللغط» عند كلّ شخص وهذا عائد إلى تركيبة الفم والأسنان ولكن أيضاً إلى البعد المكاني والزمني عن الاسم الأساسي والذي من الطبيعي أن يحوّر.

كانت عادة الفينيقيين تسمية المدن والأماكن وخاصة المرافيء منها بأسماء آلهتهم الكبرى وعلى رأسهم «إيل» إله سورية الأعظم. من هنا تسميات عديدة يدخل فيها إسم (بيروت + إيل) ويعني «مرفأ إيل» أو «برية إيل» مثل: «بريتيل» في البقاع اللبناني و «بيرتوليون» (Pertoulion) في اليونان؛ و «بيرتولا» (Bertola) في إسبانيا؛ و «بيرتولي» (Brittoli) في إيطاليا و «بورتيلو» (Portelo) في البرتغال، وأيضاً «باريسال» (Paraisal) بالبرتغال، ومثلها «الفرزل» في البقاع اللبناني وغيرها الكثير في حوض البحر الأبيض المتوسط تتضمّن اسم «إيل» مثل «مرسيليا» أي «مرسى إيل»[1]. وأسماء عديدة يدخل فيها جذر «برت» مثل بحيرة «برت» (Bert) في كندا؛ بورتوريكو (Porto rico) أي المرفأ الغني؛ و«بورتو» (Porto) مدينة ساحلية في البرتغال، وغيرها الكثير.

في اعتماد اللفظ وكتابة أسماء الأماكن

إن هذا الاختلاف الذي يطرأ على طريقة اللفظ ويبدّل الألسنة يؤثر في طريقة لفظ أسماء الأماكن والتي جاء التدوين ليزيد في تحوير لفظها أضعافاً مضاعفة[2]، مثلًا، في كتابة اسم «سورية» هل يجوز كتابته هكذا: «سوريا»؟ نحن من الذين يحبّذون كتابة أسماء المدن العربية، على وجه الخصوص، بالتاء المربوطة لأنها في أغلبها صفة أو تعبّر عن النسبية ما يستوجب التعامل معها على قاعدة المؤنث، أي أن تنتهي بالتاء وليس بالألف والتي هي طريقة نقل الاسم باللاتينية. لذا، علينا كتابة «سورية» وليس «سوريا»؛ «إنطاكية» وليس «إنطاكيا»، «جبلة» وليس «جبلا»... إذ لا يجوز إبعاد تلك الأسماء

---

(1) هذه ليست سوى عيّنة صغيرة من مجموعة ضخمة من الأسماء الفينيقية وقد أفردنا لهذا الموضوع دراسة معجمية واسعة في كتابنا «آلهة وأماكن» (قيّد الطبع). ويراجع أيضاً:

D. Neiman, *«Phoenician Place - Names»*, JNES 24, 1965, pp. 113-115; S. Losique, *Dictionnaire étymologique des noms des pays et des peuples*, éd. Klinckrieck, Paris, 1971.

(2) عرّف الأديب «فولتير» الكتابة بأنها: «صورة الصوت، وكلّما كانت أكثر شبهاً به كانت أكمل».

عن معناها لأنها «صفة ل . . .» أو «نسبة إلى . . .» ، فسورية نسبة إلى الشير/الصخر (المسوّرة) ، وإنطاكية صفة ومعناها «العتيقة» ، وإن هذه الأسماء النسبية أو الصفة تدلّ على معناها الأصلي الصحيح ، فتكتب سورية بالتاء المربوطة لأنها صفة مؤنثة وليست إسماً ، ولأنها ذات جذر عربي وليست أعجمية كما فرنسا أو ألمانيا . بالمقابل ، لا يجوز كتابة «ألمانية» بل «ألمانيا» ، وليس «فرنسة» بل «فرنسا» . غير أن هناك من يصرّ ودائماً ، على ضوء قواعد اللغة العربية ، كتابة أسماء العلم بالألف أي «سوريا» لأنها اسم علم لتمييزها عن الصفات والنعوت ، وترتكز هذه القاعدة على أن اسم العلم هو نسبة إلى شخص[1] ، لذا يكتب بالألف وليس بالتاء .

وتطالعنا أيضاً هنا مسألة حسّاسة : هل أن الاسم مؤنث أم مذكّر ؟ قد تبدو المسألة في ظاهرها بسيطة لا تحتاج للتحليل ، ولكن إذا ما أخذنا بالحسبان أن أسماء الأماكن تنتمي إلى اللغة وأن كلّ اللغات لها قواعدها ونظمها من الصرف والنحو ، يختلف الأمر عندها وتصبح المسألة دقيقة ومعقدة جداً . ففي حالة إسم «لبنان» مثلاً ، هل هو مذكر أم مؤنث ؟ فهل نقول : «جئت لبنان للسياحة ، إن لبنان جميلة أو جميل ؟» بينما لا مشكلة مع أسماء سورية ، فلسطين ، مصر ، الجزائر أو غيرها من كلّ أسماء الدول العربية ، فبالنسبة للّبنانيين ، «لبنان» مذكر ، قياساً ربما على الفرنسية (Le Liban) ، ويتباهون أنه المذكر الوحيد بين كلّ أسماء الدول العربية ، بينما يلفظ مؤنثاً لدى كافة العرب . وهذا الإلتباس مردّه بالأساس إلى أن الاسم مرتبط بكلمة «بلد» ، فهل البلد مؤنث أم مذكر ؟ بالفصحى الأمر محسوم إذ يقال «هذا البلد» (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين)[2] ، بينما يقال «هذه البلد» بالمحكية . في حين لا تطرح المسألة عربياً بالنسبة لأسماء المدن ، لأن المدن كلّها مؤنثة ، هذا لأن «اللغة العربية تميل إلى التأنيث ، وتندرج تحت ثلاثية مؤنثة (القرية ، المدينة ، العاصمة)»[3] .

والمسألة مطروحة أيضاً في اللغات الأجنبية ، ففي حين أن أسماء البلدان الأوروبية كلّها محدّدة لا تقبل التغيير (La France, La Belgique, Le Danemark, Le

(1) يسود الاعتقاد أن اسم سورية يعود إلى «سيروس» ، وهذا برأينا مجرّد تخمين لا سند تاريخي له ، ولكن يبقى مرجّحاً .

(2) القرآن الكريم ، سورة التين ، الآية 3 .

(3) محمّد عبد المطلب ، «المؤنث والمذكر في اللغة العربية» ، مجلّة دبي الثقافية ، العدد 95 ، ص 113 .

(Canada, Le Mexique...)، فإن الالتباس حاصل في أسماء المدن، فهل أسماء باريس ولندن وطوكيو . . . مذكر أم مؤنث؟ فماذا نقول للتعبير عن أن «باريس جميلة»: (Paris est beau) أو (Paris est belle)؟ في الحقيقية، تقول القاعدة[1] إن أسماء المدن يمكن أن تكون مونثة ومذكرة على حدّ سواء، ولا قاعدة ثابتة في ذلك، إذ يمكن أن يتغيّر جنس اسم المدينة بحسب المضمون، وهناك لائحة من القواعد والشواذات لا نهاية لها، تتغيّر تباعاً بحسب ما يفكر به الكاتب وأغلب الأحيان يفكر في المدينة وليس في الاسم بحدّ ذاته، أي جوازاً تقديره هي (المدينة)، مثلاً نقول (Le vieux Bruxelles)، بينما (Bruxelles est belle (ou) beau). ونقول: (Le vieux Londres) بينما لا يجوز أبداً قول: (La vieille Londres). ويعتقد أنه يقصد حي لندن القديم وليس مدينة لندن القديمة. في حين ينبغي قول: (La Londres des années 90) ولا يجوز القول: (Le Londres des années 90). وينبغي أن يقال: (Paris brûle-t-il?)، بينما (Paris est traversée de parfums d'arbres). كذلك نقول: (La Rome de César est plus belle que le Rome de Mussolini). وهكذا نجد أن تحديد جنس المدينة أمر صعب في اللغة الفرنسية تحديداً، وتبقى المسألة جدلية فيما يتعلّق بالأماكن الفرنسية وكلّ الأسماء التي تتعلّق بالعالم الفرنكروفوني. أما بالإيطالية فالأمر محسوم: إن المدن الإيطالية قد بقيت متّصلة بجنسها المؤنث والسبب يعود إلى أن جنس المدن هو في الأصل، أي باللاتينية، مؤنث، حتى مع عدم وجود ما يدلّ على علامة التأنيث الخاصة في نهاية الاسم، مثلاً: («لا نوفا تورينو»/ la nuova Turino أي تورينو الجديدة) أو («لا فيشيا فيرنزي»/ la vecchia Firenze أي فلورنسا القديمة).

إن أهمّية كتابة اسم المدن في الثقافة والتاريخ الإيطالي، والنمط «المؤطلَن» (على تفعيلة المعرّب) اعتمدت كتابته بالفرنسية، إبتداءً من عصر النهضة، بطريقة محدّدة وكان له الدور الأساس في هذا المنحى وحسمت النتيجة لصالح الصيغ التي وضعت آنذاك. وبناءً عليه، نقول: (فلورنسا [مؤنث] عائلة المديشي (la Florence des Médicis)، بينما نقول: (فلورنسا [مذكر] فوستر/ Le Florence de Foster)، ذكرت في رواية «الغرفة المطلّة على المنظر» (*[A Room with a View]*) ونقول: (روما العتيقة la Rome antique أو روما الباباوات/ La Rome des papes) وهي في هذه الحالة (مؤنث)، في حين نقول:

(1) Dictionnaire de l'Académie française, 9ème édition informatisée (en cours).

(روما فيليني/ le Rome de Fellini) وهي هنا (مذكر)، ومثلها (روما باسوليني/ le Rome de Pasolin) . ونقول : (ميلانو عائلة فيسكونتي/ la Milan des Visconti) (مؤنث)، بينما نقول (ميلانو الغادا/ le Milan de Gadda) (مذكر) . وقيل في تفسير ذلك إن صيغة المؤنث تغرِّب الاسم عن الواقع المعاش، وتعيدنا إلى حقبة سابقة، محفورة في الرخام، أي ميتة ولكنها مثالية القيمة . أما صيغة المذكر فهي تعيد لنا صورة معاصرة، محسوسة وملموسة أكثر وهي أكثر انتشاراً بحيث نقول على التوالي وفي الجملة الواحدة : (روما = هي/ مؤنث) القيصر أجمل ممّا يبدو روما = هو/ مذكر) برلوسكوني/ La Rome de César est plus belle que le Rome de Berlusconi) .

أما في مسألة تحوير اللفظ، فالمشكلة أكبر وأدق، فمثلاً هل نلفظ اسم «بعلبك» (Baalbak) أو (Baalbek) أو (Baalbik) ؟ كلّها واردة بالطبع وربما صحيحة، لأن لكلّ شخص لفظه المختلف عن الآخر والألفاظ متنوّعة بتنوّع اللكنات[1]، ولكلّ الحق فيما ينطق بلسانه[2]، ولا خلاف على لفظها لأنها كلّها متشابهة ولكن مع فارق طفيف في اللفظ، فأيّها الأصح ؟ وما هو الضروري لكتابتها أي نقلها من اللغة إلى الكتابة على صورة واحدة ؟ برأينا، الصحيح هو ما يلفظه أهل بعلبك نفسهم، أي بلهجتهم الأصلية وليس المحرّفة وهكذا ينبغي نقل أي اسم كتابياً . والأصح الرجوع إلى أصل الاسم أو التسمية الملفوظة على لسان الأهلين نفسهم (وكبار السن تحديداً) . وإنه من غير الجائز أبداً التحوير الأعمى الحاصل اليوم عشوائياً في حق كلّ الأسماء العربية، إذ لا يجوز أبداً

(1) «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» (سورة الروم، 22) . لقد جاء رجلٌ إلى النبيّ محمّد غاضباً يشكوه أمراً وهو أن فلان يلحن في قراءته . أجابه محمّدٌ : إن لحنَه صحيحٌ، اذهبوا واقرأوا القرآن، فقد يقرأ على سبعة وجوهٍ» . والبعض يصل بهذا العدد إلى سبعة عشر وجهاً .

(2) «بابل وتشعّب اللهجات : بلبلة الألسن اليوم ليست جديدة، البلبلة الأولى الموثقة هي بلبلة برج بابل – العراق . وحين نقول الموثقة نعني أن هناك بلبلات كثيرة سبقت بلبلة بابل . وإذا اعتبرنا أن برج بابل يعني مركزاً، عاصمةً، فبالتالي فإن اللغة هي أيضاً الأصل والمركز للّهجات التي تدور في فلكها . وما يصحّ على برج بابل يصحّ على برج «إيڤل» – باريس، وأبراج ناطحات السحاب – نيويورك، باعتبارها عواصم كوسموبوليتية (cosmopolitiques/cosmopolitaines) متعدّدة الأقوام واللغات أيضاً، وما هو سائد اليوم كان سائداً في الماضي، وهذه حقيقة عامة . . .»، راجع، عاطف خليل الحكيم، «اللغة والأسماء»، (المؤتمر الخامس لتوحيد الأسماء الجغرافية، بيروت، 2010) .

قول : «هسين» بل «حسين» ، ولا يجوز قول «ألي» ، بل «عليّ» ولا يجوز قول «أومر» ولكن «عمر» ، ولا يجوز قول «أدل» ، بل «عادل» ، لأنها أسماء عربية بحتة أي عربية المنشأ ولا يجوز تحويرها لصالح أي سبب كان .

ربما يظن البعض أن الأمر بسيط ولا يستحق هذا الاهتمام المبالغ فيه ، ولكن إذا ما أدرك هذا البعض محاولات جهات معيّنة تسعى إلى تحوير وتزوير أسماء الأماكن لأهداف شتّى (سياسية ، إنتخابية ، إستعمارية بالدرجة الأولى) ، يمكنه أن يتفهّم حينها سبب اهتمامنا بأدنى التفاصيل في لفظ وكتابة اسم المنطقة بأصوله اللفظية المحلّية وليس بالتحريف . هذا التحريف مضرّ بالأسماء لأنه كفيل لوحده أن يخرّب الاسم كلّياً ويحوّره لدرجة لا يعود فيه شيءٌ يثبت لفظه الأصلي . وما الدعوة إلى كتابة الأسماء المشرقية : السُريانية والعربية بالحرف اللاتيني إلاّ من باب خدمة هذا التحوير ، ففي المؤتمرات التي تعنى بالأسماء الجغرافية وطريقة كتابتها بحجّة توحيدها ، فرضت الأمم المتحدة على الدول العربية إهمال الحروف العربية كلّياً (الحاء (ح) والعين (ع)) ، ونأمل أن لا يُفرض مستقبلاً إهمال حروف النقل (transcription) أو النقحرة[1] ، واعتماد فقط الحرف اللاتيني الغربي ، إذ تكون نتيجة ذلك ، إذا ما طُبّق هكذا قرار دولي ، أن يكتب (balbek) بدل (B'albek) أو (Baalbek) ، فتلفظ «بلبك» (Balbek) وليس «بعلبك» ، بحيث يهمل الحرف (ع) العربي لصالح (أ/ A) الغربي . عندها ، هل يعود بعد من إمكانية لمعرفة عن أي «بلبك» نتحدّث وأين موقعها على الخارطة الجغرافية ؟ (ومثلها «معلولا» فإن كتبت Malula بإسقاط العين (') فهل من يعرفها ؟ ومثلها «حمّانا» و «عمان» إذا ما كُتبتا هكذا (Amana/Aman) فكيف نميّز بينهما ، إذا أسقطنا حرفي (ع / ') و(ح/ ḥ) ؟ فهل هناك من خطة لضرب الأسماء أخطر من هذه ؟ ألا تصبح كلّ مناطقنا غربية المنشأ حينها ؟

---

(1) النقحرة أو النقل الحرفي هو نسخ الحروف ورسمها بنظام كتابة آخر ، أي إيقاع تقابل بين لغتين ومبادلة كلّ حرف بحرف وحرف واحد كلّما أمكن ، فهو محاولة للتوسّط بين المنطوق والمكتوب . عندها يقال «نسخت الكلمة عن الكلمة» ، وهو اصطلاح نحته منير البعلبكي في «المورد» ، وأشاع استخدامه عليّ فهمي خشيم في معظم مؤلّفاته . يجوز للنقحرة أن تسمّى أيضاً النسخ القياسي ويقابله السماعي المعروف بالنسخ اللفظي . يقال له كذلك «المناقلة» ، راجع : (عليّ القاسمي ، مصطلحات علم المصطلح) والإحراف والتحرف ، راجع : (أحمد شوقي بنبين ، «النسخة الأصلية والنسخة الأم ؛ لغة العرب ، تحرّف وترسم») . النقحرة والنقل الحرفي وربما سمّي التدوين ، كلّها ترجمة إقتراضية لعبارة (transcription /transliteration) .

هل أدركتم مدى خطورة هكذا قرار يؤيّده للأسف عدد كبير من المتفرنجين لجهلهم بمخاطره أو لرفضهم لغتهم وهويتهم الخاصة وازدرائهم بلهجتهم لصالح ما اكتسبوه من ثقافة ولغة غربية؟ واللغة منهم براء لأنها تعرف أصولها وتنبذ الدخيل عليها. من هنا وجوب كتابة اسم المكان بحرّفيته اللفظية، تماماً كما يلفظ على لسان سكان المنطقة. ولكن، للأسف المسألة أضحت إشكالية مطروحة جداً اليوم!

في إشكالية اللفظ وكتابة الأسماء

في الحقيقة، ومن منطلق اختصار المسألة، إن مسبّب هذا الإشكال في لفظ الأسماء وحتى كلّ الكلمات والعبارت في اللغات القديمة، مردّه الأساسي إلى جهلنا بحروف العلة (أ – و – ي) و(voyelles) = (a-o-e-u-i-y) ويضاف إليها حروف أخرى تلفظ أصواتاً في عدّة لهجات أوروبية خاصة الأنغلو – سكسونية كما اللاتينية من مثل (j-w) التي تتحوّل إلى (ي) و (و).

يقول الباحث باللغة السُريانية الدكتور عاطف الحكيم: «للّغة وجهان: فصيحٌ وعامي وجميعنا متّفقون على الفصيح ومختلفون حول العامي وما اللغة المحكية إلاّ اللغة السُريانية. كذلك جميعنا متّفقون على الكتابة، إنما مختلفون حول اللفظ. عليه، نحن في كلامنا نخلط بين الفصيح والعامي، وبين المكتوب والمصوت، أو الصامت والصائت؛ منذ أربعة الآف سنة والمشكلة قائمة. لذلك اتفقوا قديماً على أن: جميع أسماء الأماكن مذكر؛أكثر الأسماء مُركّبة؛ جميع الأسماء الُمركّبة مُدغمة؛ تكتب كما هي وتلفظ كما يلفظها العامة». ويتابع: «القاعدة الذهبية للنطق أي لفظ أسماء الأماكن بالألفاظ السُريانية تخضع للحركات السُريانية الستة وهي: (ܰ) فتَاح (أَبرُهم)؛ (ܽ) زُقاف (أُدوم)؛ (ܺ) رِباص، إشعيا؛ (ܶ) حِباص (إِيسحق)؛ (ܳ) عُصاص (أُوريا)؛ (ساكن، دون حركة) ܐܒܘܗܝ). وهناك الحروف التي تُكتب ولا تلفظ وهي: الألف الأخيرة في الكلمة، مثلاً: (دينوا: ܕܝܢܘܐ) وبعض الحروف والتي نضع تحتها أو فوقها خطاً صغيراً، مثلاً: (سنتوا، أو شنتوا: ܫܢܬܘܐ)، حرف الياء والهاء الأخيرة ونضع تحتها أو فوقها خطاً صغيراً، مثلاً: (شبقتوني: ܫܒܩܬܘܢܝ)، الحروف المشدّدة، أو المكرّرة، مثلاً: (الأمواج: ܓܠܠܐ)، الحرف غير المحرك خاصة الألف، حرف اليود (ي) غير الُمحرّك وقبلها حرف مُحرك». والحروف التي تكتب ولا تقرأ قد تطوّرت من اللغة السُريانية إلى العربية حيث قد أصبحت حرف الشدّة (ّ)».

شكل الحركة	صوت الحركة	اسم الحركة	اسم الحركة ع	اسم الحركة E
ܰ	A	ܦܬܳܚܳܐ	فتوحو	Phtoho
ܳ	O	ܙܩܳܦܳܐ	زقوفو	Zkofo
ܶ	E	ܪܒܳܨܳܐ	ربوصو	Rboso
ܺ	I	ܚܒܳܨܳܐ	حبوصو	Hboso
ܽ	Ou	ܥܨܳܨܳܐ	عوصو	Ososo

ويتابع الحكيم: «إذاً، كلّنا نتكلّم ونتحدّث السُريانية وبلهجات مختلفة، مثلاً: لفظ الجمع المؤنث السالم لدى بعض السكان في «فتوح كسروان»، هو (ياء، تاء) بدل (أ، تاء)، فيقولون «بنيت» بدل «بنات» . . . أو «يعيت بدل «يعات»، أو «بعبديت» بدل «بعبدات» (ومثلهم سكان تونس) أي تُستعمل الإمالة التي لا وجود لحركة خاصة بها بالعربية الفصحى ويعادل الإمالة باللاتيينية حرف (e)، فنقول طالب (taleb)، وليس (talib). وبالنسبة لجمع التكسير فيقولون: «أعليم» بدل «أعلام» أو «النيقورة»، بدل «الناقورة». حتى أن حرف (الألف) في أغلب الأحيان وعند جميع السكان، يقلب (ياء)، مثلاً: «مال: ميل . . . أو «الخيم»، بدل «الخيام». أما سكان الشمال، الكورة مثلاً، فيضمون جميع الكلمات، فيقولون «كورو» بدل «كورا»، وفي حصرون، يقولون «عول» بدل «عال» أو «الروم» بدل «الرام». أما سكان دمشق فيمّدون الألف ويفتحونها بمبالغة (A) في كلامهم، فيقولون: «وَلاد» بدل «ولد» . . .»[1]

ويلفت الحكيم إلى بعض التباين بين السُريانية والعربية: التشديد على حرف (ياء) في نهاية الكلمة؛ إسقاط حرف (الياء) وإبداله بألف مقصورة؛ التشديد على صوت (الواو) في نهاية الكلمة مع عدم كتابتها؛ كتابة (الألف) وإسقاط لفظها في نهاية الكلمة؛ كتابة

(1) عاطف خليل الحكيم، «اللغة والأسماء، اللغات المحلّية التي أتت الأسماء الجغرافية منها»، (المؤتمر الخامس لتوحيد الأسماء الجغرافية، بيروت، 2010)؛ وللباحث كتاب متخصّص بعنوان، اللغة السُريانية، تاريخ، حضارة وهوية، المكتبة البولسية، حاريصا، لبنان، 2010.

الهمزة وإسقاطها لفظاً؛ كتابة الهمزة ولفظها؛ قلب (الألف) الطويلة إلى (واو) في نهاية الكلمة أو إلى (ياء) في حالة جمع التكسير وجمع المؤنث السالم؛ قلب الحروف مثلاً (فاء) تصبح (باء)، و(سين) تصبح (شين)، و(كاف) تصبح (خاء)، و(تاء) تصبح (ثاء) و(غين) تصبح (عين)، مثلاً مغارة/ معارة بآرامية معلولا، وغنّية/ عنّية، من هنا المعنّى. ولا يتوقّف الأمر على قلب بعض حروف الأبجدية بل الأبجدية برمّتها؛ إدخال حرف (شين) على نهاية الكلمة لتحقّق النفي؛ «ياء» النسبة تصبح «جيم» النسبة؛ «أل» التعريف العربية هي (ذ) بالسُريانية.

وينوّه الباحث أن هذه القواعد أو المبادئ ليست تحريفاً أو انحداراً أو تدهوراً للّغة بقدر ما هي لهجات تعكسها البيئة الاجتماعية، وهي ذات جذور سُريانية وهكذا كانت وهكذا كان معمولاً بها[1].

ومقارنة مع اللغة العربية، يشير الباحث إلى أن اللغة العربية اليوم، والمتطوّرة عن السُريانية كتابة وقراءة ومحادثة، لها الخصائص السُريانية عينها مثلاً: تكتب العربية كالسُريانية من اليمين باتجاه اليسار؛ وما يؤكّد على أن الكتابة العربية هي عين الكتابة السُريانية هو أشكال الحروف وكتابتها، إذ يكاد أن يكون شكل الحرف واحد بين الأبجدية العربية وأشكالها والأبجدية السُريانية وأشكالها؛ تخضع العربية لقواعد الصرف والنحو السُريانية ذاتها إلاّ ما قلّ وندر (مثلاً لا يوجد في السُريانية مثنى، - تختلف بعض علامات الجمع، - أحرف المضارعة ثلاثة: نون، ياء، تاء، في السُريانية وليس أربعة...)؛ تخضع لقواعد البلاغة نفسها وخاصة بلاغة الكناية، فأهم مبدأ من مبادئ السُريانية الكناية وهذا ما تتميّز به اللغة العربية؛ الشعر العربي الموزون العامودي هو عين الشعر السُرياني ويثبت تلك الحقيقة قانون تقطيع الشعر، قانون العروض، وذلك من أجل معرفة صحيحه من فاسده إلى جانب معرفة بحره ونوعه، إذ ليست الكتابة العروضية إلاّ اللحن السُرياني المغنّى، ومن المغنّى يصدر المعنى[2]. وخلاصة القول إن اللغة السُريانية فيها ظواهر لغوية تبدأ من الأصوات والأسماء والأفعال والجملة، وبذلك نستطيع من خلال دراستها أن نفسّر ظواهر لغوية كثيرة في اللغة العربية[3]، ما يدعو بالضرورة لتدريسها في أصول اللغة العربية وتطوّرها.

---

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) أحمد هبو، «تدريس اللغة السُريانية ضروري للمهتمّين بالدراسات الأدبية المقارنة» (موقع إنترنت).

ܐܬܘܬܐ ܕܠܫܢܐ ܣܘܪܝܝܐ

أحرف اللغة السُريانية

الترقيم	لفظ الحرف English	لفظ الحرف عربي	الحرف بالانكليزي	الحرف بالعربي	الحرف بالسرياني
1	Olaph	اولف	A	أ	ܐ
2	Beth	بيت	B	ب	ܒ
3	Gomal	جومل	G	ج	ܓ
4	Dolath	دولت	D	د	ܕ
5	Hei	هيه	H	هـ	ܗ
6	Waw	واو	Ou	و	ܘ
7	Zai	زاي	Z	ز	ܙ
8	Heith	حيت	7	ح	ܚ
9	Teith	طيت	T	ط	ܛ
10	yod	يوذ	I	ي	ܝ

20	Kof	كوف	K	ك	ܟ
30	Lomad	لومد	L	ل	ܠ
40	Mim	ميم	M	م	ܡ
50	Noun	نون	N	ن	ܢ
60	Semkath	سمكت	S	س	ܣ
70	3ein	عين	3	ع	ܥ
80	Fei	فيه	F	ف	ܦ
90	Sode	صوده	S	ص	ܨ
100	Kof	قوف	K	ق	ܩ
200	Rich	ريش	R	ر	ܪ
300	Chin	شين	Ch	ش	ܫ
400	Taw	تاو	T	ت	ܬ

جدول مفردات سُريانية وردت في المصادر العربية[1]

السُريانية بحرف عربي	حرف سُرياني/ آرامي	معناها بالعربية	المصدر
أبّـا	ܐܒܳܐ	ثمر ناضج طيب	القرآن
زقفونا	ܙܩܦܘܢܐ	صلبونا	رسالة الغفران، المعري
يقلسون	ܡܩܠܣܘܢ	يمدحون	تاريخ البلاد
كوفة	ܟܘܦܗ	الكوفة، شوكة	تاريخ البلاد
الحيرة	ܐܠܚܝܪܗ	القصر	تاريخ البلاد
المعرّة	ܐܠܡܥܪܗ	المعرة، المغارة	تاريخ البلاد
تكريت	ܬܓܪܝܬ	التجارة	تاريخ البلاد
أحب	ܐܚܒ	أحبّ	منشورات الجامعة اللبنانية
أيلي أيلي لما شبقتني	ܐܝܠܝ ܐܝܠܝ ܠܡܢܐ ܫܒܩܬܢܝ	إلهي، إلهي لماذا تركتني	الإنجيل
صلو له عمن	ܨܠܘ ܠܗ ܥܡܢ	صلى الله عليه وسلم (صلعم) ربما هناك بعض تحريف	عامة الكتابات العربية الإسلامية بعد ذكر النبيّ محمد
القرطاس	ܩܪܛܝܣܐ	القرطاس، الورق	المتنبي
الأنوار	ܢܘܪܐ	الأزهار، أو الربيع	نهج البلاغة
أَيُّهَا النَّاسُ...، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي المَجَالِسِ: **كَيْتَ وَكَيْتَ**[2]، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: **حِيدِي حَيَادِ**![3]	ܟܝܬ ܘܟܝܬ، ܚܝܕܝ ܚܝܕ.	أدناه الهامش	نهج البلاغة
هدر فنيق	ܦܢܝܩܐ	الفحل من الإبل	نهج البلاغة

(1) منقولة عن كتاب عاطف الحكيم، المرجع السابق نفسه.

(2) كَيْت وكَيْت: كلمتان لا تستعملان إلاّ مكررتين: إما مع (واو) العطف وإما بدونها، وهي كناية عن الحديث.

(3) «حِيدي حَيادِ»: كلمة يقولها الهارب عند الفرار، وهي من الحَيَدَان: الميل والانحراف عن الشيء، وحيادِ مبني على الكسر كما في قولهم «فِيحي فَيَاحِ»، وهي من أسماء الافعال كَنَزَالِ. (ع. الحكيم، المرجع السابق نفسه).

والسُريانية أبجدية مشتقة عن الفينيقية ، هذا في تطوّر أنظمة الكتابة في الشرق :



الحروف الأبجدية الفينيقية التي تطوّرت منها السُريانية

أما في الغرب ، فانتشرت الأبجدبة الفينيقية الجبيلية (واعتمدها الإغريق)

translitération	Proto cananéen	Phénicien ancien	Interprétation	Grec
'			'aleph	A
b			Beth	B
g			gimmel	Γ
d			daleth	Δ
h			he	E
w			waw	Y
z			zayin	Z
ḥ ch			heth	H
ṭ t			teth	Θ
y			yodh	I
k			kaph	K

translitération	Proto cananéen	Phénicien ancien	Interprétation	Grec
l			lamedh	Λ
m			mem	M
n			nun	N
s			samekh	Ξ
'			'ayin	O
p			pe	Π
ṣ c			tsade	M
q			qoph	ϙ
r			reš	P
š ś			šin	Σ
th			taw	T

مقابلة بين الأبجديات الثلاث : ما قبل الكنعانية ، الفينيقية واليونانية

وفي عودة تاريخية سريعة إلى الوراء، إلى زمن اختراع الأبجدية، نعلم أن «قدموس» هو الذي أدخل الحروف الصوتية إلى الأبجدية في بلاد الإغريق، وذكر «هيرودوتس» المؤرّخ الإغريقي (القرن الخامس ق. م.) أن معلّم الأبجدية الفينيقية، «قدموس»، عدّل الحروف لتتفق مع اللغة اليونانية (Hist. 5: 58). ويُعتبر إدخال الصوت الحرفي على الأبجدية من أهم إبداعات الكتابة. وقد طرأت تعديلات كثيرة على الأبجدية اليونانية المأخوذة عن الفينيقية التي تكتب في أصلها من اليمين إلى اليسار، بحيث قُلِبَ الاتجاهُ في الغرب لتُعتمد طريقة الكتابة من اليسار إلى اليمين، علماً أن بعض الكتابات المشرقية كالأوغارتية والأكدية كانت تكتب من اليسار إلى اليمين، باستثناء بعض الحالات النادرة[1]. والحروف اليونانية نقلت الأصوات الفينيقية نفسها. وكما كلّ اللهجات السامية الأخرى، تتضمّن الفينيقية حروفاً حلقية (gutturales (āleph, hē [h, e, a], ḥēth [ħ], et ‘ayin) ليس لها حرف موازي باليونانية. من بين تلك الحروف، فقط حرف «الحاء» (ḥēth [ḥ]) حُفظ باليونانية كحرف صامت (consonne) وكحرف محرّف (H aspiré) أي (هـ وليس ح). في حين أن الحروف الفينيقية الأخرى أصبحت صوائت (voyelles: alpha, epsilon, omicron)؛ بينما أحرف العلة (:matres lectionis waw (ou) et yōdh (i)) تحوّلت إلى الصوائت (upsilon et iota) أو إلى أنصاف صوائت (semi-voyelles “w”, “y”). من ناحية أخرى، تحوّلت الأحرف التي لا تلفظ باللسان اليوناني إلى قيم صوتية أخرى: (العين) أصبحت «الواو الصغرى» (omicron «petit o»)؛ «التاء» أصبحت «ثاء» (ṯēth = [th] grec)، ووضعت نقطة «القاف» (qōph = koppa / qoppa (Q))؛ وحرف «الواو» حوّل مرّات عديدة (digamma = F waw/wau) قبل أن يزال نهائياً. في الفينيقية توجد أربعة حروف أسنان (sifflantes)، بينما لا تعدّ اليونانية إلاّ حرفاً واحداً، وحرف (السين sāmekh) أعيد استعماله بصوت شبيه ([ks] (ksi))، في حين أن (sigma = sāmekh) تستمد من «سين» اسمها ولفظها. ويوجد باليونانية حرف من أصل غير معروف (sampi (ϡ)) يشبه لفظ ([ts] ou [ss]) ولكنه ما لبث أن زال بدوره. بالمقابل، أضيفت رموز جديدة إلى اليونانية (upsilon, phi, khi, psi) أدرجت في نهاية الأبجدية، أي بعد التاء (tau). وتحوير الحروف هو عبارة عن

(1) M. Dunand, *Byblia Grammata*, p. 183.

مزج يتناسب واللسان اليوناني للضرورة اللفظية . وهذه الألفاظ التي أدخلت بها يتلاءم واللغة اليونانية الغربية هي : (في Φ phi ؛ خي X chi ؛ بسي Ψ psi ؛ كزي Ξ xi) :

Son	Vieil attique	Ionien
[ḥ]	H	(-)
[ɛː]	E	H (eta)
[eː]	E or EI	EI
[ɔː]	O	Ω (omega)
[oː]	O or OY	OY
[kʰ]	X	X (chi)
[pʰ]	Φ	Φ (phi)
[ks]	ΧΣ	Ξ (xi)
[ps]	ΦΣ	Ψ (psi)

Alphabets

Phénicien		Grec	
𐤀	’āleph	Α	alpha
𐤁	bēth	Β	bêta
𐤂	gīmel	Γ	gamma
𐤃	dāleth	Δ	delta
𐤄	hē	Ε	epsilon
𐤅	wāw	F	digamma
		Υ	upsilon
𐤆	zayin	Ζ	Zêta
𐤇	ḥēth	Η	êta
𐤈	ṭēth	Θ	theta
𐤉	yōdh	Ι	iota

𐤊	kaph	**Κ**	kappa
𐤋	lāmedh	Λ	lambda
𐤌	mēm	Μ	mu
𐤍	nun	Ν	nu
𐤎	sāmekh	Ξ	xi
𐤏	ayin	Ο	omicron
𐤐	pē	Π	pi
𐤑	ṣādē	Ϻ	san
𐤒	qōph	Ϙ	qoppa
𐤓	rēš	Ρ	rho
𐤔	šin	Σ	sigma
𐤕	tāw	Τ	tau
		Φ	phi
		Χ	chi
		Ψ	psi
		Ω	omega

خطر تحوير لفظ وكتابة الأسماء

هي مسألة شائكة كانت ولا زالت ممارسة أكان بشكل عفوي أو بشكل متعمّد ومقصود لغايات تدميرية وتشويهية شتّى في حق اللغات المحلّية، وأسماء الأماكن هي المعنية تحديداً، إن من حيث لفظها الصحيح أم من حيث كيفية كتابة هذه اللفظ بشكل غير مغلوط يحافظ على أصالتها. من هنا وجوب الحرص وتوخي الحذر في اعتماد الحرف العربي في كتابة الأسماء العربية أم نقلها إلى الأجنبية حيث القاعدة توجب اعتماد حرف النقل (transcription) الخاص بالخط العربي. وهذه المسألة أثارت وما زالت الجدل الكبير في أواسط اللغويين خاصة الفئة الرافضة رفضاً كلّياً لاستبدال الحرف العربي باللاتيني: «وأما قضية الحرف العربي واستبداله بالحرف اللاتيني مع إيجاد رسوم جديدة لبعض الحروف اللاتينية لتتوافق نطقاً من الحروف العربية التي لا وجود لها في الأحرف اللاتينية، فأمر لا يجوز مجرّد التفكير به، لأن حرفنا العربي هو جزء من كياننا ورثناه عن أباء كرام، لهم ما لنا من المميّزات والصفات، ولا يمكننا التخلّي عنها أو التبرؤ منها، فإنها عميقة الجذور في نفوسنا ووجودنا عمق الحرف العربي في التاريخ الذي أخذت عنه الأحرف اللاتينية وهي ملتصقة بنا التصاق الحرف العربي بكل ما يميّزنا كأمّة مستقلّة حيّة لها طوابعها الخاصة، فهو انعكاس لذاتنا، وفي حناياه لآثار منا، وأشكاله تمثل طبائعنا. وزيادة على ذلك تلك الحرية التي تركها نطقه إلى اللسان يتحرك كما يشاء في الفم دون تحدّب أو تقعير، ممّا جعل العربي قادراً على لفظ أي لغة في العالم والتكلّم بها كأحد أبنائها. خلافاً للحرف اللاتيني الذي يجبر اللسان على التحدّب والتقعّر ممّا أفقد غير العربي النطق السليم للّغة العربية حتى ولو كان من جهابذتها»[1].

قواعد كتابة الطوبونيم

طرق كتابة أسماء الأماكن بالعربية

كتابة أسماء الأماكن العربية على الخرائط: هناك قواعد لكتابة الأسماء الصادرة عن الهيئة الوطنية المسؤولة عن الأسماء والمصادق عليها من الجهات المختصة ذات الصلاحية، وفقاً لأهمّية الاسم ونوعه وموقعه.

---

(1) أحمد رضا (الشيخ)، رسالة الخط العربي، نشأته وتطوّره والمذاهب فيه، (تحقيق نزار أحمد رضا)، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦، ص 16.

كتابة الأسماء بالأحرف العربية: يراعى تشكيل الأسماء أي تحريكها للدلالة على كيفية لفظها (المُعيتيقية – المُحيدثة – الجُديدة . . .)

كتابة الأسماء باللاتينية: تراعي اعتماد النظام العربي المعترف به من قبل الدول الأعضاء في الشعبة العربية للأسماء الجغرافية وتطبيق القواعد التطبيقية المرفقة واعتماد النظام المبني على اللغة العربية المفهومة من قبل جميع الدول العربية، وليس على اللهجات المحلّية («قرنايل» وليس «إرنايل» كلفظ القاف (أ) في أغلب المناطق اللبنانية وفي اليمن (Gha) أو (ج المصرية). لذا، فالمقياس هو اللغة العربية الفصحى غير المحرّفة، وكتابة حرفها الأصلي، ولا يجوز إضافة أي حرف غريب إلاّ إذا كان متعارفاً عليه من قبل المجامع العلمية وأقرّته رسمياً وعمّمته.

بالنسبة للرومنة[1] (romanisation) فهي نسخ الحروف العربية باستعمال الحروف اللاتينية، أو نقلها إلى الحروف اللاتينية (transcription/transliteration)، وقد ظهرت مجموعة من الأنظمة الدولية والإقليمية اهتمت بكتابة الأسماء العربية بحروف لاتينية. ويوجد حالياً على الساحة عدّة طرق أو مواصفات للرومنة ومن أهمها:

- مواصفة مكتبة الكونغرس الأمريكية (L.C) ولعلها الأكثر شيوعاً
- المواصفة البريطانية للرومنة (BS4280 / BSI)
- المواصفة الخاصة بدائرة المعارف الإسلامية
- المواصفة الخاصة بالأيزو (ISO)
- المواصفة الخاصة بالمجلّة الدولية لدراسات الشرق الأوسط (IJMES)
- المواصفة الخاصة بمعهد الدراسات الإسلامية بجامعة «مكجيل» بكندا.

والجدير بالذكر، وهذا ربما يدعو للدهشة، بأن كثيراً من الباحثين لا يستخدمون أياً منها بل أن بعضهم ربما يبتدع طريقته الخاصة للرومنة[2].

---

(1) من «ويكيبيديا» الموسوعة الحرّة.

(2) أحمد شرف الدين أحمد، «حول حوسبة «رومنة» أسماء الأعلام العرب»، القاهرة (موقع إنترنت). وحالياً، ونتيجة لانتشار الإنترنت والهواتف المحمولة يستخدم أسلوباً طريفاً للرومنة وذلك في الاتصال على شبكة الإنترنت (سواء في البريد الإلكتروني أو على شبكة المعلومات أو في غرف المحادثة) أو في الرسائل القصيرة على الهاتف المحمول (الجوال): تمثل (الهمزة/ ء = 2)؛ (ح = 7)؛ (ع = 3)؛ (خ = الرمزين '7) وباقي الحروف تنطق كما تكتب.

جدول لأنظمة النسخ أو الرومنة المتعدّدة

عربية الدردشة	Arab TeX	BATR	IPA	Buck-walter	SM بحاجة لدقّة أكثر	SAS بحاجة لمصدر	Qalam	ISO/R	ISO 233	DIN	ALA - LC	UNGEGN	SATTS	اسم	Unicode	حرف
2	'	e	/ʔ/	'	'	ʾ	'	—, ʼ	ˈ, ˌ	ʾ	—, ʼ	ʼ, —	E	hamza	0621	ء
a	a	aa or A	/a(ː)/	A	aa	a, i, u; ā	aa	ā	ʾ	ā			A	ʼalif	0627	ا
b	b	b	/b/	b	b	b	b	b			b		B	bāʼ	0628	ب
t	t	t	/t/	t	t	t	t	t			t		T	tāʼ	062A	ت
th	ṯ	c	/θ/	v	ç	ṯ	th	ṯ			th		C	ṯāʼ	062B	ث
j/g	ǧ	j	/ʤ///g/	j	j	ŷ	j	ǧ			j		J	ǧīm, jīm, gīm	062C	ج
7	ḥ	H	/ħ/	H	ḥ	ḥ	H	ḥ			ḥ	ḩ	H	ḥāʼ	062D	ح
7'/kh	ḫ	K	/x/	x	x	j	kh	ḫ/ẖ		ḫ	kh		O	ḫāʼ	062E	خ
d	d	d	/d/	d	d	d	d	d			d		D	dāl	062F	د
th/z	ḏ	z'	/ð/	*	đ	ḏ	dh	ḏ			dh		Z	ḏāl	0630	ذ
r	r	r	/r/	r	r	r	r	r			r		R	rāʼ	0631	ر
z	z	z	/z/	z	z	z	z	z			z		;	zāy	0632	ز
s	s	s	/s/	s	s	s	s	s			s		S	sīn	0633	س
sh/ch	š	x	/ʃ/	$	š	š	sh	š			sh		:	šīn	0634	ش
s/S	ṣ	S	/sˤ/	S	ṣ	ṣ	S	ṣ			ṣ	ş	X	ṣād	0635	ص
d/D	ḍ	D	/dˤ/	D	ḍ	ḍ	D	ḍ			ḍ	ḑ	V	ḍād	0636	ض
T/t/6	ṭ	T	/tˤ/	T	ṭ	ṭ	T	ṭ			ṭ	ţ	U	ṭāʼ	0637	ط
Z/z/6'	ẓ	Z	/ðˤ/	Z	đ̣	ẓ	Z	ẓ			ẓ	z̧	Y	ẓāʼ	0638	ظ
3	ʻ	E	/ʕ/	E	ř	ʿ	`	ʿ			ʻ		`	ʻayn	0639	ع
gh/3'	ġ	g	/ɣ/	g	ğ	g	gh	ḡ	ġ		gh		G	ġayn	063A	غ
f	f	f	/f/	f	f	f	f	f			f		F	fāʼ	0641	ف
q/2/k	q	q	/q/	q	q	q	q	q			q		Q	qāf	0642	ق
k	k	k	/k/	k	k	k	k	k			k		K	kāf	0643	ك
l	l	l	/l/	l	l	l	l	l			l		L	lām	0644	ل
m	m	m	/m/	m	m	m	m	m			m		M	mīm	0645	م
n	n	n	/n/	n	n	n	n	n			n		N	nūn	0646	ن
h	h	h	/h/	h	h	h	h	h			h		~	hāʼ	0647	ه
w	w	w or uu	/w/,/uː/	w	w; o	w; ū	w	w			w		W	wāw	0648	و
y/i	y	y or ii	/j/,/iː/	y	y; e	y; ī	y	y			y		I	yāʼ	064A	ي
a/aa	'A	eaa	/ʔaː/	|	'aa	ā		ā, ʾā	ʾâ	ʾā	ā, ʼā	ā	AEA	ʼalif madda	0622	آ
a/ah	T	t'	/a/,/at/	p	ŧ	t; —	h, t	h, t	ẗ	h, t	h, t		@	tāʼ marbūṭa	0629	ة
a/aa	Ā	aaa	/aː/	Y	à	à	ae		ỳ	ā	y		/	ʼalif maqṣūra	0649	ى
la	lA	laa	/lː/		laa	lʾ; lā	la	lā	lả	lā	lā		LA	lām ʼalif	FEFB	لا
l -/ double conson-ant	al -	Al -	var.		al- ; ál-	al-	al	al-	ʾˈal	al-	al-		AL	ʼalif lām		ال

في مسألة توحيد كتابة أسماء الأماكن، النقل والرومنة[1]

تشكّل هذه المسألة قضية بحدّ ذاتها، ويجب الاعتراف الصريح أن كتابة الأسماء العربية بالحروف الأجنبية هي مشكلة قائمة، من أسبابها عدم وجود معيار موحّد للكتابة متّفق عليه، وكما هو معروف مدى الحاجة لمثل هذا النظام الموحّد لنقل الأسماء العربية إلى اللاتينية، وذلك من أجل الاستعمال في الخرائط الجغرافية والوثائق الرسمية كجواز السفر والبطاقات المصرفية وتذاكر السفر وغيرها ونقل المعلومات الشخصية أي بطاقة الهوية والوثائق الثبوتية (ولادة، تسجيل في الجامعات، عقد زواج...)، حيث أن اختلاف كتابة الاسم بطرق متعدّدة ونقله عشوائياً إلى كتابة أجنبية يسبّب مشاكل للفرد وللجهات الرسمية والأمنية على حدّ سواء[2]. لذا عمد المعنيّون إلى وضع قواعد موحّدة لكتابة أسماء الأماكن، بالاتفاق مع الأمم المتحدة، واتفق على عقد المؤتمرات الدولية بهذا الخصوص. وقد أولت الأمم المتحدة أهمّية كبيرة للبحث في أسماء الأماكن نظراً لأهمّيتها ومن منطلق حساسية المسألة، ودعت إلى عقد المؤتمرات لتُبحث فيها الموضوعات العامة لمختلف التقارير لبلدان تعمل على هذا الموضوع، وخاصة النظر بالتشريعات المتعلّقة بأسماء الأماكن. من بينها مؤتمر الأمم المتحدة العالمي المعني بتوحيد الأسماء الجغرافية[3]. وإثر تلك المؤتمرات، إلتزمت الدول المشاركة بالعمل وأبدت كلّ الإستعداد للتعاون وراحت تولي الاهتمام الكبير بمشروع التسميات الجغرافية وأعطته الجهد الكافي، عملاً بالتوصيات الموحّدة التي تخرج بها تلك المؤتمرات. ومن تلك المقرّرات والتوصيات وأهمّ بنودها على الإطلاق، الأخذ بالإعتبار خصوصية اللهجات واللغات على رأسها العربية المتضمّنة ألفاظاً وحروفاً (ح - ع) وتنوين وحركات وقواعد خاصة، ولا نستثني أي لغة من الخصوصية ولكن العرب وحدهم من يلفظ العين والحاء ولا يلفظون (V/P) مثلاً لأنها لا تدخل في لفظهم ولا في لغتهم، بعكس كلّ شعوب الأرض الأخرى.

وبشأن اللغة العربية على وجه التحديد، عُقدت عدّة مؤتمرات دورية للبتّ بمسألة

---

(1) النقل: transcription/ النسخ: romanisation.

(2) لو أخذنا اسم «محمّد» لوجدنا أنه يكتب بعدة صيغ أجنبية (Muhammad, Mohamad, Mohammed, Mohamed, Mohammad, Muhammed, Muhamed, Muḥammad, Muhamad...)، فأي منها يُعتمد؟

(3) مثلاً مؤتمر نيويورك في 21 آب/ أوغسطس 2007.

توحيد الأسماء الجغرافية، نظّمتها الشعبة العربية لخبراء الأسماء الجغرافية (ADEGN) بتفويض من الأمين العام للجامعة العربية. من أهداف تلك المؤتمرات العربية[1]:

- البحث في خطة عمل لتطبيق تدابير موحّدة لمعالجة الأسماء الجغرافية في جميع الدول العربية
- توحيد الأسماء الجغرافية أي وضع قواعد موحّدة لتنظيم الأسماء الجغرافية
- تنظيم معاجم وأطالس عربية موحّدة
- وضع الخريطة العربية الموحّدة
- وضع المعجم الوطني للأسماء الجغرافية
- كتابة الأسماء الجغرافية بطريقة موحّدة على لافتات المدن والقرى العربية
- لفظ الأسماء الجغرافية بالأحرف العربية الفصحى وليس باللهجات العربية المتعدّدة
- المحافظة على الأسماء الجغرافية كإرث ثقافي للشعوب
- منع تهويد الأسماء العربية
- المحافظة على الأسماء من الترجمة والطمس
- إظهار المصدر التاريخي للأسماء الطوبونيمية
- إستخدام الأسماء العربية كمؤشرات اقتصادية
- وضع معجم الأسماء التراثية العربية وآخر سياحي الطابع

وتوحيد الأسماء الجغرافية هو إصادر السلطة المعنية بالأسماء لواحد أو أكثر من الأسماء المعيّنة مع الشكل المضبوط لكتابتها، بحيث تطبّق على معلم جغرافي محدّد وكذلك تُحدّد شروط الاستخدام. وتوحيد الأسماء هو أيضاً قيام الهيئة المخصّصة بوضع مجموعة من المعايير والقواعد لكتابة الأسماء الطوبوغرافية والتسميات الطوبونيمية. ويُعتمد لتنفيذ ذلك منهج «الستندار» (Standard/standardiser) أي الموحّد، والاسم الموحّد هو اسم أقرّته السلطة المعنية بالأسماء، باعتباره الاسم المفضل المختار من ضمن عدّة أسماء مرادفة لمعلم ما.

(1) حسب ما حُدّدت في المؤتمر العربي الخامس لخبراء الأسماء الجغرافية، الذي عُقد في بيروت، بتاريخ (26 – 29 أيار، 2010).

وعلى رغم كلّ الجهود والمساعي الحثيثة التي تبذل في مسألة توحيد الأسماء الجغرافية، تبقى المسألة عالقة، صعبة وشائكة وذلك بسبب خصوصية كلّ لغة وميّزاتها الخاصة التي لا تتوافق مع أي لغة أخرى مهما اقتربت منها لفظياً. يقول أحمد شرف الدين أحمد: «رأينا أن نظم الرومنة متعدّدة وأن أياً منها لا يستوفي كافة الشروط المتوقّعة من نظم الرومنة، إذ أن بعضها يحاول المحافظة على التشابه أو التماثل الصوتي على حساب بعض الأمور الأخرى مثل التناظرية بين الحروف العربية والنظير الروماني. ولعلّه من المناسب أن نبيّن أن هذه المشاكل ليست قاصرة على رومنة الأسماء العربية فحسب، بل إن معظم اللغات الطبيعية تشترك في هذا»[1]. وقد بيّن الباحث باختصار مميّزات ونواقص هذه النظم المختلفة، ولاحظ في سائر الأعمال أنه، من جهة:

- تقوم بالرومنة مع مراعاة التماثل أو القرب الصوتي بين الاسم المروّمن (romanisé) والاسم العربي.
- تقوم بالتعرّف، وبنسبة متفاوتة من النجاح، على الأسماء التي رومنت بطرق مختلفة.
- معظمها لا يحتاج لتشكيل الاسم العربي مسبقاً.
- يقوم معظمها ببناء قاعدة بيانات للأسماء.

من جهة أخرى، فإن هناك بعض الملاحظات عليها:

- أنها لا تلتزم بالتناظر (1 – 1) بين الحرف العربي والحرف الإنجليزي أو اللاتيني.
- أنها لا تشمل كافة الحروف والحركات الموجودة والمستخدمة في اللغة العربية المعاصرة. على سبيل المثال بعضها لا يعرف همزة الوصل ولا يفرّق بين التاء المربوطة والهاء المربوطة وهكذا. أيضاً، هناك حروف تكتب، خاصة في القرآن الكريم، ولا تتناولها هذه النظم. كما أن بعض الحروف، وإن لم تكن عربية أصلاً، إلاّ أنها أصبحت شائعة الاستخدام حالياً مثل (الفاء) ذات ثلاث نقاط (ڤ) والتي تنطق (V) ومثلها (پ) (P).

---

(1) أحمد شرف الدين أحمد، «حول حوسبة «رومنة» أسماء الأعلام العرب»، القاهرة (موقع إنترنت).
M. J. Ridley, «A code for bibliographic records transliterated from Greek», Literary and Linguistic Computing, Vol. 7, pp.27-29.

- أنها لا تراعي الاختلافات البينية في اللغة العربية المعاصرة بين البلدان العربية المختلفة.
- أنها صعبة الكتابة باستخدام لوحة المفاتيح.
- أنها قد تفشل أحياناً في التعرّف على الاسم المروّمن[1].

ومن المشاكل التي تعترض نظام الرومنة أو النسخ بالحرف اللاتيني للأسماء العربية، مشكلة اللفظ خاصة لفظ الفرنسيين لحرف الراء (R) (غ)، فمثلاً، «رياق» يلفظونها «غياق»، «الرملة» (الغملة). وتحفل اللغة الفرنسية بالكلمات التي نقلت عن العربية خطأ بهذا اللفظ مثلاً (غزوة) أي حرب، نقلت كتابة (razzia) بينما تلفظ «غازيا». ولعلهم يلفظون «غزير»، ويكتبونها (Razir)، والأصح كتابتها (Ghazir).

بالنسبة لأنظمة الرومنة، يجدر التنويه إلى أنه هناك العديد من الإقتراحات المستحدثة في هذا المضمار والتي تراعي إلى أقصى الحدود نقل الأسماء من العربية إلى اللاتينية، وتحافظ بوفاء كبير على أصالة الاسم الجغرافي بلفظه الأصلي، كما تحافظ على الحروف العربية وتبرزها وتنقلها بشكل لا يمسّ بخصوصيتها المحلّية، مثال: (عيدمون ʻAydamūn؛ بتخناي Btikhnāy؛ الوادي Al-Wādī؛ أبو قير Abū Qir؛ سوداء Sawdāʼ؛ باب المندب Babul Mandeb؛ بعلبك Baʻlabak؛ بئر السبع Biʼr As Sabiʻ؛ عكا ʻAkkā؛ عُمان ʻUmān؛ عمّان ʻAmmān؛ عاريا ʻĀrayyā؛ شننعير Shananʻir؛ مسعودية Masʻūdiyyah؛ لؤلؤة Luʼluʼah؛ البتراء Al-Batrāʼ؛ بيت علَو Bayt ʻIllaw؛ حوران Ḥurān؛ خالد Khāled؛ خالدية Khālidiyyah؛ بيروت Bāyrūt؛ جسر الباشا Jisr Al-Bāshā؛ الدّوار Ad Duwwār؛ الشمس Ash Shams؛ برمانا Brummānā؛ جبيل Jubayl؛ معاد Maʻād؛ سد مأرب Sadd Maʼreb؛ معروب Maʻrūb؛ الدار البيضاء Ad Dār Al Baydāʼ، إلخ...[2]».

---

(1) أحمد شرف الدين أحمد، «حول حوسبة «رومنة» أسماء الأعلام العرب»، القاهرة (موقع إنترنت).

(2) نقلاً عن النظام الموحّد لنقل الأسماء الجغرافية من الأحرف العربية إلى الأحرف اللاتينية، المؤتمر 3 لتوحيد الأسماء الجغرافية، بيروت 2007، وجُدّد التأكيد عليه في المؤتمرين 4 و5، بيروت 2008، 2010. (كما جرى الاتفاق عليه من قبل خبراء العرب)؛ راجع: الزقرطي إبراهيم، أسس الأسماء الجغرافية، المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1997.

أبجديَة نقل الأحرف العربيَة إلى الأحرف اللاتينيَة

ARABIC TRANSLITERATION ALPHABET

Romanization	Arabic Character	Romanization	Arabic Character
Q	ق	A	أ
K	ك	B	ب
L	ل	T	ت
M	م	TH	ث
N	ن	J	ج
H	هـ والتاء المربوطة في نهاية الكلمة	H̲	ح
W, Ū	و	KH	خ
Y, Ī	ي	D	د
a	فتحة قصيرة	DH	ذ
ā	فتحة طويلة	R	ر
ā	ألف ممدودة (آ)	Z	ز
a′	ألف مقصورة (ى)	S	س
u	ضمَة قصيرة	SH	ش
ū	ضمَة طويلة	S̲	ص
i	كسرة قصيرة	D̲	ض
ī	كسرة طويلة	T̲	ط
		DH̲	ظ
’A ’U ’I ’	همزة ’ { مع الفتحة مع الضمَة مع الكسرة مع السكون	‘A ‘U ‘I ‘	ع ‘ { مع الفتحة مع الضمَة مع الكسرة مع السكون
Doubling the letter	شدَة	GH	غ
		F	ف

في نقل أسماء الأماكن الأجنبية إلى العربية

في الواقع، لا يوجد نمط يمكن تتبّعه للحروف المقابلة لحروف ليست في اللغة العربية، بل استبدلت حروف لها نظير في اللغة العربية بحروف عربية أخرى، أي أنه لم يضف حرف جديد على حرف عربي، ويظهر هذا في المصادر التاريخية والمسالك والرحلات ومعاجم البلدان. قد رأى «سيبويه» (القرن 2هـ/ 8م) أن يستبدل الحرف الأجنبي بأقرب الحروف العربية مخرجاً. وتنبّه البيروني (القرن5هـ/ 11م) للأصوات التي لا وجود لها في اللغة العربية، وأوّل من حاول معالجة الأمر ابن خلدون (ق8هـ/ 14م) في تاريخه، إذ أنه في لغة البربر أصوات ليست في اللغة العربية، فوضع نقطة على الحرف العربي الأقرب شبهاً بالحرف البربري، أو رسم حرفاً داخل حرف عربي للدالة على أن الصوت أجنبي[1]. ويذكر الجواليقي (القرن 6هـ/ 12م) أنهم في استعمال الأجنبي يبدّلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً. واليوم هناك عدّة اتجاهات:

1- إستخدام حروف عربية من دون أية إضافات مقابل الحروف اللاتينية (Gج المصرية، (ك)، الفارسية، P, V). أصحاب هذا الاتجاه يتفقون على استخدام (ب = P، ف = V)، ولكنهم يختلفون حول الحرف العربي المقابل للحرف (G)ج المصرية أو القاهرية، فمنهم من يدعو إلى اعتماد الحرف (غ) باعتبار أنه الأقرب صوتاً ولفظاً، أو اعتماد الحرف (ج) أو اعتماد الحرفين (ج، غ) على حدّ سواء.

2- يتمثّل هذا الاتجاه بإضافة نقط إلى حروف عربية مقابل الحروف التي لا مثيل لها وسمّيت «الحروف الزائفة»، أي إضافة نقط إلى حروف عربية مقابل الحرفين

---

(1) إبراهيم الزقوطي، «الأسماء الجغرافية والحروف الرومانية التي ليس لها مقابل في اللغة العربية»، (المؤتمر العربي الخامس للأسماء الجغرافية»، بيروت، 2010). وللمناسبة، نتساءل من جانبنا إذا ما كان ابن خلدون عرف كتابة البربر وهو خط «التيفيناغ» عبارة عن خط أبجدي قديم انتهجه المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. وهو الخط الذي تبنّاه النظام التعليمي في المغرب لتعليم الأمازيغية في بعض المدارس الابتدائية وهو وليد الأبجدية الفينيقية حسب «أوكونور»، راجع:

M. O'Connor, *The Berber scripts. The World's Writing Systems*, New York, 1996, p.112-116.

بينما يرى «هيجوني» أن الكتابة اخترعها الأمازيغ ذاتهم ويرى «كوهين» أن أصل الكتابة يبقى غير معروف وأن محاولات تأريخ اشتقاق أصل الكتابة من الكتابة الفرعونية، الإغريقية، الفينيقية، أو غيرها تبقى غير ناجحة، راجع:

Riduane Ziri, *«Quelle est l'origine de l'alphabet?»* (www.mondeberbere.com).

(P = پ/ V = ڤ)، ولكن الاختلاف يبقى حول (G، ج المصرية) : إما اعتماد (غ) أو اعتماد (چ) مقابلها .

3 – لا يوجد فيه نمط محدّد يتمثّل باعتماد الحروف الأقرب صوتاً ولفظاً وفي نفس الوقت إضافة نقط لحروف عربية (G=غ، ڠ، چ، ج، ك أو P /V) (J ف، ڤ) . مثلاً (غانا – چانا / غابون – جابون – چابون . . . باريس – پاريس . . . هافانا – هاڤانا . . .)

في طرق كتابة أسماء الأماكن بالفرنسية

فرنسا :

إن طريقة نقل الطوبونيم الرسمية الفرنسية (تلك المتعلّقة بالوحدات الإدارية : المناطق، المقاطعات، الأحياء، الكنتونات، القرى . . .) تتعلّق بقرار من المرسوم الأحدث من القانون الجغرافي الرسمي الذي أصدره (Insee: insee. fr, Code officiel géographique 2007) . وهذه أبرز القواعد الطوبوغرافية الأساسية :

– كلّ أسماء العلم والصفات تبدأ بحرف كبير (majuscule) .

– إن (أل) التعريف وحروف الجر والربط وظروف المكان والزمان تبدأ بحرف كبير في بداية الاسم وبحرف صغير داخل الاسم، باستثناء لفظ (Hors) الذي يبدأ دائماً بحرف كبير وحروف الجر والربط والعطف الواقعة في نهاية الطوبونيم والتي تبدأ أيضاً بحرف كبير .

– إن الطوبونيم الرسمي للأماكن الإدارية المنظّمة تتضمّن شرطة بين كلّ الألفاظ، إلاّ بعد (أل) التعريف الأصلي أو عند وجود (apostrophe)، وإن جمع أسماء البلدات أدّى إلى تسميات تطويلية من مثل :

(Saint-Rémy-en-Bouzemont-Saint-Genest-et-Isson).

في بعض الأسماء مثل :

(L'Île-Rousse, La Roche-sur-Yon, Saint-Vincent-et-Grenadines, Villeneuve-d'Ascq)

وفي بعض الاستثناءات، مثل :

(Pays de la Loire, Territoire de Belfort; Provence-Alpes - Côte d'Azur).

- لا توضع شرطة في الجزء غير الرسمي من الطوبونيم، مثلاً : (Saint-Paul de Vence) أو في الصفة الجغرافية، مثلاً : (la Côte d'Azur).
- ثمة قاعدة إجبارية ينبغي أن تكتب على اللوحات الرسمية (المحاطة بإطار أحمر) الخاصة بالبلدات (communautés) على مدخل إحدى التجمّعات السكنية، المقاطعات والمناطق (إلا في الحالات المذكورة سابقاً)، ولكنها لا تزال غير مطبّقة بصورة متجانسة على اللوحات الأخرى (أماكن مسماة lieux-dits، مباني حكومية وإدارية؛ أسماء الأنهار (la Sèvre niortaise)؛ أسماء الجزر (l'Île d'Yeu وتعني الجزيرة التي تتبع لها عدّة بلدات، غير أنه لا يمكننا قطع كلمة (Île) من الطوبونيم) وأيضاً (mont) للجبال (le massif du Mont-Blanc) بينما (le mont Blanc le) (mont Sainte-Odile) والتمييز يبدو ضرورياً أحياناً مع أسماء البلدات (le mont d'Or) وهو إسم التل الجغرافي، بينما (le Mont - d'Or) هو إسم البلدة.
- أسماء وحدات سياسية وإدارية : إن نفس القوانين التي تُطبّق على الطرقات تُطبّق على الوحدات الإدارية والسياسية الفرنسية أو تلك ذات الاسم المفرنس، أكان جزئياً أم كلّياً. ونفس القاعدة تُطبّق أيضاً على عدد من الأسماء الخاصة بميدان الجغرافيا الفيزيائية.
- إن الربط (unionisation) يستدعي ظهور الحرف الكبير في كلّ الأسماء والصفات في العبارة. والشرطة والحرف الكبير هما الأداة التي يُنحت بواسطتها الاسم المركّب للوحدات الإدارية والسياسية، مثلاً :

(Loire-Atlantique, Scey-sur-Saône-et-Saint-Albin, Basse-Normandie, Côtes-d'Armor, Rhénanie-du-Nord- Westphalie, Virginie-Occidentale, Chanteloup-les-Vignes, Cap-Vert, Bohême-du-Sud, États-Unis, …)

- إن الجزء من الاسم الذي يصبح «مربوطاً» هو ما يسمّى الخاص أو اسم العلم (nom propre)، بمقابل الاسم العام (générique/nom commun) مثلاً، في إسم مقاطعة (Pas-de-Calais) هو الاسم العام بينما، (Pas-de-Calais) هو الاسم الخاص. وفي (pas de Calais) فإن «pas» هو الاسم العام بمعنى مضيق بينما «Calais» هو الاسم الخاص. وكذلك، يمكن التمييز بين مقاطعة (l'Île-du-Prince-Édouard) و(l'Île du Prince-Édouard) التي أعطت اسمها للمقاطعة. و(le massif du Mont-Blanc) و(le mont Blanc) وجمهورية (Cap-Vert) ورأس (le cap Vert)

ومنطقياً، إن تطبيق هذه القاعدة كان دائماً مرعي الإجراء، إلاّ أنها تستدعي التفريق بين (l’Afrique du Sud) كمرادف و(«Afrique australe») و(l’Afrique-du-Sud) الدولة؛ وكذلك («Timor oriental») و(«Timor-Oriental») و(«Îles-Salomon») .

- لم نعد نجد كتابة مثل («Irlande-du-Nord») وكذلك (Provence-Alpes - Côte-d’Azur, Mecklembourg - Poméranie - Occidentale, Frioul - Vénétie-Julienne) فهي لم تعد الصيغ الكتابية المعتمدة . إن استعمال القاعدة الجديدة في كتابة الاسم المركّب لم تعد تعتمد كذلك تلك الصيغة التي سمحت التفريق بين (le pays basque) كمنطقة سكانية وتاريخية و(Pays-Basque) كوحدة إدارية وهي المقاطعة المستقلّة (la Communauté autonome basque) .

بالنسبة لتطوّر هذه القاعدة كتب «لاكرو» : «إن التقليد الفرنسي كان شفافاً جداً، وكان هذا جدّ جميل . إلاّ أنه ما لبث أن تدهور تباعاً إلى درجة أنه أصبح غريباً وشبه مبهم وغير واضح . إنه من «المستحب» اليوم أن تعالج بطريقة مختلفة تلك الوحدات القابلة للمقارنة، وأن تُطبّق على أسمائها القواعد التي إلى الآن خُصّصت للتسميات الخاصة . وإن مختصّين أعضاء في اللجان الرسمية لعلم الألفاظ والمرادفات (terminologie) من وزراء وغيرهم يعلمونا أن الصيغ الآتية («Cap-Vert, Pays-Bas») المفروضة بفعل الممارسة المقدر أنه «أركايكي» أو قديم وفيه شيء من «الفانتازيا»، هي نوع من الحالات الشاذة عن «القاعدة» التي تفيد أن الصفة (postposé) تحافظ على الحرف الصغير الأصلي (مبدأ صحيح يُطبّق على عدّة فئات من التسميات الخاصة) ولا يوصل بشرطة وصل إلى الاسم الذي يسبقها . (هذه «القاعدة» لا توجد إلاّ في عِرف هؤلاء الذين هم على استعداد لتعقيد «القواعد الكتابية» («grammaire orthotypographique») لهدف وحيد وهو توطيد كلّ آفات الاستعمال السيء، فإن («Cap-Vert» ou «Pays-Bas») ليسا إلاّ الصيغة الشاذة ولكن للصيغ التي تحترم القاعدة الفرنسية . ينبغي أن نتحلّى بالجرأة للاعتراف أن استعمالها (بفعل العادة) هو الذي فرضها، بينما «القاعدة» هي أخرى . وإن المزعج في المسألة أن المهتمّين بالتنفيذ (les greffiers de l’usage) هم نفسهم غير منسجمين (داخلاً وخارجاً) مع هذا التجديد الذي يوصف أنه مخلّ بالاستعمال»[1] .

---

(1) Jean-Pierre Lacroux, *Orthographe & typographie française*, Dictionnaire raisonné, p. 134.

وتدخل أسماء الأماكن في عدد من أسماء المنتوجات الفرنسية التي تعكس ميزة المناطق من حيث صناعاتها وتسمّى هذه الأسماء أو الماركات «الأنتوزماز» (Antonomases) وهي أسماء العلم المستعملة كأسماء عامة أو العكس وهي تشكّل التسميات الأصلية التي تكتب بحرف صغير، ولها قاعدة محدّدة في الكتابة، بحيث يبدأ اسم المكان - الماركة بحرف صغير، على سبيل المثال :

un verre de bordeaux; une coupe de champagne; du saint-émilion; un morceau de camembert; du roquefort; du saint-nectaire; un havane; un très beau sèvres .

في حين يبدأ اسم المكان بحرف كبير في هذه الأسماء :

les vins de Bordeaux; le vignoble de Saint-Émilion; la tomme de Savoie; la porcelaine de Limoges.

بعض الأسماء تطبّق القاعدتين على حدّ سواء، مثلاً :

un camembert de Normandie; du brie de Meaux.

كندا (كبيك Québec)[1] :

في كندا الفرنكوفونية، إن القاعدة التي وضعتها الحكومة الفيدرالية ترمي إلى أن الطوبونيم (ومن بينها أسماء المدن) لا تُترجم (لا من الفرنسية ولا من الإنكليزية) باستثناء بعض الطوبونيم لمصلحة كندية (pancanadien). ويمكن أن نسجل الاستثناء في بعض أسماء المدن الكبرى التي لها صيغة فرنسية معتادة :

(Saint-Jean (Nouveau-Brunswick) et Saint-Jean (Terre-Neuve-et-Labrador).

إن الخصوصيّات في الطوبونيم الفرنسية في كندا هي أنها دائماً موصولة بشرطة وصل مثل :

(Sainte-Anne-de-Bellevue; chemin de la Côte-des-Neiges; lieu historique national du Commerce-de-la-Fourrure-à-Lachine).

وهكذا يمكننا التكلّم عن (l'Île du Prince-Édouard) وهي جزيرة تسمّى («Prince-Édouard») ولكن (l'Île-du-Prince-Édouard) هي جزيرة تسمّى («Île-du-Prince-Édouard»).

---

(1) http://geonames.nrcan.gc.ca/info/tra_f.php; Commission de toponymie de Québec: http://www.toponymie.gouv.qc.ca/.

إن الأسماء التفخيمية (Les particules nobiliaires) لا تحتمل وجود شرطة الوصل، بل حرف كبير

(rue Jean-De La Fontaine, ruelle Nick-Auf Der Maur, rue De La Gauchetière, rue De Castelnau;

ولكن نقول: (avenue de l'Église)، والخصوصية هي: («Église»)

غير أن الخصوصيّات في اللغة الإنكليزية لا تتضمّن شرطة وصل رغم كونها داخل أسماء طوبونيمية فرنسية مثل:

(Kirkland Lake; Ayer's Cliff; l'avenue McGill Collège; la rue City Councillors; la côte du Beaver Hall (Québec).

بينما تكتب:

(la rue Terry-Fox, le chemin Queen-Mary, l'église Saint- James).

بلجيكا(1):

إن القاعدة تقضي أن لا يوصل الاسم الثاني (prénom) والأوّل (nom) بواسطة شرطة مثلاً: (Place Eugène Flagey) وليس (Place Eugène-Flagey)

إن الاستثناء يختص بأسماء القديسين. فيما يتعلّق بأسماء الأماكن أو الأعياد (وفقط في تلك الحالات) يستعمل دائماً الحرف الكبير وشرطة وصل في أسماء الكنائس والأديرة والمعابد والكاتدرائيات والبازيليك، إلخ، مثلاً:

(la cathédrale Saint-Paul, la cathédrale Saints-Michel-et-Gudule).

وعندما يدخل اسم قديس في إسم مدينة، مكان أو صرح أو شارع، مثلاً:

(les cliniques universitaires Saint-Luc).

اللوكسمبورغ:

يُعتمد عدم وصل الأسماء بشرطة وصل في أسماء الشوارع والجادات، إلخ، مثل ما هو معتمد في بلجيكا. في حالة أسماء القديسين تشكّل هي أيضاً استثناءً. في حين أن المنشآت والصروح العامة تكتب بحرف صغير للدلالة، ولكن بالحرف الكبير وشرطة الوصل لاسم العلم، مثلاً: (lycée Michel - Rodange)، باستثناء (l'Université du Luxembourg)، كونه معهداً فريداً.

(1) Joseph Hanse, *Nouveau dictionnaire des difficultés du français moderne*, page 591.

أسماء الأماكن : القانون، الهيئات، المؤتمرات والمهام

في الوطن العربي

إن أسماء الأماكن ترتبط ارتباطاً لا جدل حوله بمؤسّسات الدولة الرسمية وليست من عمل الأفراد، بل هي شأن وطني عام.

ففي لبنان مثلاً، أنيطت مهمة دراسة الأسماء الجغرافية بمديرية الشؤون الجغرافية في الجيش اللبناني[1]، كما نظّم القانون (رقم 522/ 96) مهنة الطوبوغرافيا وإنشاء نقابة الطوبوغرافيين. والمرجعية القانونية الأولى تبقى وزارة الداخلية. ومن بين المعنيين هناك مصلحة المساحة التي لا تؤول جهداً في الاستعانة بأحد الأهالي من كلّ منطقة لجمع الأسماء الجغرافية.

المسؤوليات المناطة بالهيئة الوطنية:

- جمع الأسماء الجغرافية من مصادرها.
- وضع آليات وتنظيم قواعد بيانات رقمية ويدوية لمعالجة توحيد الأسماء الجغرافية.
- دعم وتطوير نظم موحّدة لكتابة الأسماء الجغرافية باللغة العربية وبالحرف اللاتيني.

في الأردن مثلاً، أنيطت المهمة باللجنة الوطنية للأسماء الجغرافية التابعة للمركز الجغرافي الملكي[2]، الذي تأسّس العام (1975)، ترأسه اللجنة الوطنية للأسماء الجغرافية وهي الجهة المخوّلة رسمياً بهذا الموضوع. وقد تشكّلت في العام (1984) بموجب قرار صادر من مجلس الوزراء، وأعيد تشكيلها بتاريخ (12/ 6/ 2000)، لتضم مختصّين ومعنيين وتتألّف من مندوبين من: وزارة الداخلية، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدّسات الإسلامية، وزارة السياحة والآثار، وزارة الشؤون البلدية والقروية والبيئة، دائرة الأراضي والمساحة، مجمّع اللغة العربية، المركز الجغرافي الملكي الأردني، أمانة عمّان الكبرى، أعضاء من القطاع العام والخاص، ويمكنها الاستعانة بمختصّين في مجال عملها، ويوكل إليها كلّ ما له علاقة بالأسماء الجغرافية في الأردن. ومن واجبات اللجنة:

---

(1) موقع الجيش اللبناني على الإنترنت: www.lebarmy.gov.lb/ar/d_a_g/?200

(2) إبراهيم عبد الجابر، «إنتاج الخرائط والفهارس والأطالس في المركز الجغرافي الملكي الأردني» (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

- توحيد كتابة الأسماء الجغرافية في الأردن.
- إدامة فهرس الأسماء الجغرافية الأردنية ونشره. ويتولى إصدار وتحديث الأطلس الجغرافي الأردني العام، ومن أهم إنجازاته أطلس القضية الفلسطينية في خرائط، والوثائق التي تضمّ المعلومات عن القضية الفلسطينية من أوائل القرن الثاني عشر ق.م.، مروراً بالتقسيمات الإدارية في أوائل العهد الإسلامي وأوائل نهاية العهد العثماني والمشاريع البديلة لتوطين اليهود، ثم خرائط ومعلومات عن الثورة العربية الكبرى واتفاقية «سايكس-بيكو»، والخطط الصهيونية والعالمية لتقسيم فلسطين، كذلك خرائط ومعلومات عن سكان فلسطين في سنوات زمنية مختلفة، كذلك المدن والقرى الفلسطينية والمستوطنات في فلسطين وتطوّر أعداد المستوطنات الصهيونية. كما يضمّ الأطلس معلومات وخرائط عن القدس وموضوعات أخرى لها علاقة بالقضية الفلسطينية. آخر طبعاته، الرابعة (1984)، ويجري العمل حالياً على تحديثه.
- التنسيب لرئاسة الوزراء بالأسماء المقترحة والبديلة، لأسماء المواقع الجغرافية التي يوافق على تغييرها، أو عند إطلاق أسماء جديدة لمواقع لا أسماء لها.
- إعتماد نظام كتابة الأسماء بالحروف الرومانية (الرومنة) أو الأسماء العربية، وفق النظام المعتمد لدى هيئة الأمم المتحدة.
- توفير بنك معلومات للأسماء البديلة أو الجديدة تضمّ الأحداث التاريخية والشهداء والشخصيات السياسية والأدبية والتي لها دور بارز في الحياة الاجتماعية.
- متابعة ما يستجد في الدول العربية والعالم فيما يخصّ الأسماء الجغرافية.

في تونس، أنيطت مهمة دراسة أسماء الأماكن بالمركز الوطني لرسم الخرائط والاستشعار عن بعد[1]. أهم مهام المركز تتمثّل في:

- إعداد الخرائط الأصلية والخرائط البحرية والخرائط الفضائية والخرائط الموضوعية وجمع الوثائق المتعلّقة بذلك، قصد تكوين محفوظة وطنية ونشرها بموافقة وزارة الدفاع الوطني.
- القيام بأنشطة التصوير الجوي على كامل التراب الوطني والإشراف عليها.

(1) محمّد البشير الشك، «المركز الوطني لرسم الخرائط والاستشعار عن بعد وعلاقته بالأسماء الجغرافية في تونس»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

- التنسيق مع ديوان قيس الأراضي والمسح القاري، وشبكة قيس الجاذبية بصفة مضبوطة تغطي كافة المناطق.
- إنجاز الأشغال المتعلّقة بالمعلومات الجغرافية خاصة منها تقنيات التموقع الجغرافي بواسطة الأقمار الاصطناعية والاستشعار عن بعد (prospections) وإنشاء قواعد معطيات جغرافية وطوبوغرافية.
- إنجاز الخرائط الطوبوغرافية والموضوعية والبحرية لفائدة الهياكل التابعة لوزارة الدفاع الوطني.
- متابعة ما يستجد في الدول العربية والعالم فيما يتعلّق بالأسماء الجغرافية.

على صعيد الدول العربية

هناك الشعبة العربية لخبراء الأسماء الجغرافية (مقرّها بيروت) لها تنظيم وصلاحيات مدرجة في النظام الداخلي كما أُقرّت في المؤتمر العربي الثالث للأسماء الجغرافية من قبل الخبراء العرب (بيروت، 30 – 31 أيار 2007). وهي تشكّل جزءاً من مجموعة خبراء الأمم المتحدة المعنيين بالأسماء الجغرافية (UNGEGN) التابعة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي (ECOSOC). من لجانها: لجنة مصطلحات لتوحيد الأسماء الجغرافية؛ لجنة معاجم الأسماء الجغرافية؛ لجنة نظم نقل الأسماء الجغرافية؛ لجنة النطق بالأسماء الجغرافية... من أهم أهدافها:

- وضع الأسس والقواعد اللازمة لجمع وضبط وتوحيد واستخدام الأسماء الجغرافية العربية على الصعيد الوطني والإقليمي والعالمي وحلّ جميع المشاكل اللغوية والصوتية التي تعترض توحيدها.
- إصدار المعجم الجغرافي الموحّد.
- صناعة الخرائط الموحّدة.
- ضبط الأسماء الجغرافية في الوطن العربي وتوحيدها وتمكين جميع الدول الأعضاء في الشعبة العربية من استخدامها ومتابعتها بطريقة موحّدة.
- إبراز الفوائد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والسياحية والدينية الناتجة عن جمع وضبط وحفظ وتوحيد الأسماء الجغرافية.

على الصعيد العالمي

في معظم بلدان العالم، تألفت هيئات وطنية تعتني بتوحيد الأسماء الجغرافية من أعضاء ذوي علم وخبرة، حيث الصلاحيات والقرار ليست لشخص وإنما تمثل مختلف مؤسّسات الدولة وفي بعض الدول مطعّمة من أعضاء يمثلون المؤسّسات غير الحكومية. تتألّف الهيئة من رئيس وأمانة عامة ومدير المؤسّسة المعنية بوضع الخرائط ومدير الشؤون العقارية والمساحة ومدير الشؤون البلدية والقروية وإدارة الإحصاء المركزي والمدير العام للآثار والمدير العام للسياحة ومندوب غير دائم عن كلّ محافظ. من مهماتها صياغة الأسماء الجغرافية بشكل موحّد على جميع أراضي الدولة وفي الدول المجاورة وعالمياً. وهنالك الأمانة العامة للهيئة الوطنية للأسماء الجغرافية، تتألّف من الأمين العام وقسم المعلوماتية وإدارة المعلوماتية وقسم إعداد المعاجم والأطالس، قسم النشر وقسم الإعلام والإدارة والتنسيق وأعضاء: مهندسون، طوبوغرافيون، صانعو خرائط (cartographes)، مهندسو معلوماتية (Data Managers)، مهندسو إتصالات (I.C.T.)، مجازون في العلوم الإدارية و«المناجمنت» (Manager Project)، خبراء في إدارة المعلومات وصناعة الخرائط وإدارة شبكات المعلوماتية والاتصال. مثلاً، لجنة الطوبونيميا (Commission de toponymie) التابعة لل (IGN) تمثّل الحكومة الفرنسية خلال جلسات الأمم المتحدة من أجل تعميم منهج كتابة الأسماء الجغرافية. والمحاضرات والمناقشات التي يجري تداولها لها هدف دراسة ومراجعة المشكلات المطروحة من أجل استعمال الأسماء الجغرافية في المواصلات الوطنية وأيضاً الدولية، واقتراح الحلول من أجل التعميم من ناحية نقلها كتابياً على الوثائق الخرائطية، الطوبوغرافية.

حول سياسة التعميم (normalisation)

إن اعتماد صيغة واحدة معمّمة من أسماء الأماكن دُرست على الصعيد العالمي من قبل فريق خبراء من الأمم المتحدة (GENUNG) لوضع مقياس أو منهج موحّد للأسماء الجغرافية. هذا الفريق يتضمّن عدّة شعب: الشعبة الفرنكوفونية التي تأسّست العام (1998)؛ الشعبة الرومانو – هيلينية؛ الشعبة الجرمانوفونية والنيرلندوفينية؛ شعبة أوروبا الوسطى الشرقية وأوروبا الجنوبية الشرقية؛ الشعبة الشمالية؛ الشعبة البلطيقية. ومجموعة

(GENUNG) تتضمّن عدّة فرق عمل ولها عدّة مهام: جمع أسماء البلدان؛ الأسماء الأجنبية (الإكزونيم Exonymes)؛ وضع قاعدة المعلومات الطوبونيمية (Bases de données toponymiques)؛ إدارة الإعلام والتمويل (Publicité et financement)؛ الرومنة أو اللتننة (Romanisation)؛ إقامة دورات تأهيلية في الطوبونيميا.

والتوحيد العالمي للأسماء هو نشاط هدفه الوصول إلى أقصى حدّ علمي من التوحيد للأسماء الجغرافية الأرضية لفظاً وكتابة عن طريق التوحيد على الصعيد الوطني والتطابق بين مختلف اللغات ونظم الكتابة ولفظ وكتابة الاسم الموحّد. وتُعرّف عملية توحيد الأسماء الجغرافية بأنها:

- قيام سلطة مختصة بوضع مجموعة محدّدة من المعايير أو القواعد للصياغة الموحّدة للأسماء الجغرافية.
- إصدار الأسماء الجغرافية بالشكل المضبوط لكتابتها بحيث تطبّق قواعد موحّدة وشروط استخدام على جميع الأسماء.

أهمّية الأسماء الجغرافية الموحّدة

في العصر الحديث وفي ظل استخدام الحواسيب وأجهزة الاتصال بواسطة الهوائيات الأرضية أو الأقمار الصناعية، من الواجب استخدام الأسماء الجغرافية بصورة موحّدة وثابتة ومستقرة وتجنّب تغييرها أو تغيير قواعد معالجتها من أجل استخدامها في شتّى المجالات كالتبادل التجاري، وفي تعداد السكان والإحصاءات الوطنية وفي وضع المخططات الشاملة للتنمية المستدامة والمحافظة على البيئة، وفي تحديد وحفظ حقوق الملكية الأصلية والتبعية وتسجيلها في السجلات العقارية، وفي وضع الأطالس والخرائط وتنظيم المعاجم الجغرافية والعلمية، وفي عمليات الإغاثة والإنقاذ في حال الحوادث والكوارث الطبيعية والاصطناعية وتلقّي المساعدات. كما وتستعمل في استراتيجية الأمن والدفاع والعمليات العسكرية وحفظ السلام والملاحة وفي شركات توزيع البضاعة والبريد.

ومن المشاكل التي يمكن لمشروع توحيد الأسماء الجغرافية حلّها، هي الطريقة التي تستخدمها كلّ دولة منفردة لجمع الأسماء الجغرافية وفق تصوّر منفرد، ونتيجة لعصر الاستعمار، فما زالت بعض الدول العربية تستخدم المعايير الأوروبية لتوثيق تلك الأسماء،

في حين أن آخرين يستخدمون القواعد والتشريعات المحلّية لتوثيقها. هذا الوضع يخلق الكثير من العقبات أمام العمل الجماعي ليس على مستوى الوطن العربي فقط بل على مستوى التعامل مع المنظّمات والمؤسّسات العالمية، لذلك فمن المهم توحيد المعايير العربية ذات الطابع الدولي في جمع وتوثيق الأسماء الجغرافية في جميع البلدان العربية. وللوصول إلى نتيجة نوعية، تمّت الاستعانة ببرنامج (الأكسس) لمقدرته على التعامل مع البيانات الجغرافية ولتوفّره كرابط تلقائي ضمن منظومة برامج النوافد. وكذلك لمعرفة غالبية المؤسّسات المعنية بعلم الخرائط التعاملَ مع هذا البرنامج[1].

ومن المبادئ العامة التي ينبغي مراعاتها في عملية توحيد الأسماء الجغرافية:

- عدم تغيير الأسماء إذا لم يكن هناك ضرورة.
- تهجئة الأسماء بشكل مطابق للفظها الأصلي والأخذ بعين الإعتبار اللهجات المحلّية.
- إختيار اسم رسمي من بين عدّة أسماء معروفة لمكان واحد واعتماده.
- إستخدام نظام موحّد ومستقر لنقل الأسماء إلى الأحرف اللاتينية.

(1) سيف سالم القايدي، بناء قاعدة بيانات آلية للمدن العربية باستخدام دليل بيروت للكتابة بالحروف اللاتينية: الواقع والطموح، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

الفصل الرّابع

أسماءُ الأماكنِ هويةٌ وانتماءٌ

في هذ الفصل، نتوقّف عند مسألة شديدة الأهميّة والحساسية وهي إشكالية بحدّ ذاتها وتحمل قضية قومية ووطنية، ألا وهي تغيير الأسماء المُتعمّد على يد الاستعمار، كما ونعرض نتائجها والحلول المطروحة للمعالجة.

ونشير بداية، إلى أننا لن نتطرّق بإسهاب وتطويل إلى مسألة جدلية وخطيرة متداولة اليوم وهي من أهم الأسباب المؤدّية لتغيّر الأسماء بشكل مباشر، تلك التي تُدرج في ما اعتبر، جهلاً وتعسّفاً، «أسماء تمسّ أو تخدش بالذوق العام»، فراح روّاد المؤتمرات يعملون على تغييرها والمطالبة بتعميمها وإدراجها كبند أساسي في مقرّراتهم. عجباً! كيف لا يعرفون معنى تلك الأسماء ولا يفقهون مصدرها اللغوي ويدعون إلى تغييرها! وهم بذلك إنما يتناقضون مع أهداف مؤتمراتهم ألا وهي المحافظة على أصالة الأسماء كعنوان هوية وتراث الأجداد! وهل هؤلاء الأجداد كانوا من الإسفاف إلى درجة إعطاء أسماء لمناطقهم وبلداتهم «تمسّ بالذوق العام»؟ المس بالأسماء مرفوض بالمطلق لأنه عملية نسف ممنهجة للهوية وللخصوصية. والأمثلة التي يسوّقونها لا عدّ لها، نرفض ذكر لوائحهم تلك لإننا لا نراها كما هم يدّعون، بل لنا اجتهادات مطوّلة حولها قائمة على مبدأ المنهجية العلمية التي عرضنا لها بتفصيل آنفاً ولعل مرتكزها الأوّل يبقى اللغة.

وعلى سبيل المثال، نسأل: من صنّف مدينة «أتابوليس» في ليبيا بأنها تسمية «شاذة» على حدّ تعبير خبرائهم ممّا يدّعون التنزيه؟ هل فقهوا معنى اسمها الأصلي؟ وتقضي المسألة أن يحلّلوا اسمها على ضوء المنهج اللغوي الموضوعي حتى يتبيّن معهم عكس ما ظنّوه إنفعالياً والذي بنوه على التزمّت والجهل ورفض العودة إلى اللغات الأم، فهذا الاسم «أتابوليس»، بتقديرنا، رنّ في آذانهم شبيهاً بإبليس فرفضوه رفضاً قاطعاً، بينما نحن فسّرنا الاسم على النحو المعاكس وهو: «عطا بعل»، أي عطاء الرب أو السيّد، أو مدينة العطاء وقد لُفظ لاتينياً «أتابوليس»! وهذا ما يعكِس معنى الاسم كلّياً ويعبّر عن أصالته الحضارية. وهل، إذا نحونا نحوهم، نلغي كلّ اسم يتضمّن اللاحقة (س) لأنه يرن شاذاً في أذانهم؟

في الأسباب الأساسية والمباشرة لتغيّر أسماء الأماكن

من أهم لأسباب التي تؤدّي إلى تغيّر أسماء الأماكن، سبب أساسي يختصر كلاماً كثيراً وهو الاستعمار، فإن المستعمر حين يجتاح منطقة ما يعمد إلى تغيير ثقافتها وعاداتها وتقاليدها بما فيها لغتها في الطليعة، ليحلّ لغته وثقافته محلّها، ولهذا يعمد إلى أن يستقر فيها مطوّلاً، ناشطاً في استمالة شعبها نحو نمط تفكيره من خلال فرض لغته والتسويق والترويج لها بأفضل مظاهرها، فالمعروف أن اللغة هي نمط تفكير قبل أن تكون ألفاظاً، وذلك لكسب وجدان من استعمرهم ولدرء الثورات ضده والتي تصبح، ما أن يعتمد المحليون لغة سيّدهم وما أن يألفوا فكره ويبدأوا بممارسة عاداته وتقاليده، أمراً ثانوياً وربما مرفوض الجدل فيه كلّياً.

ومن أخطر المبادرات التي يعمد المستعمرلإدخالها كشاهد على وجوده، هو إنشاء المدن الجديدة التي تحمل اسمه، من مثل «الإسكندرية» التي أسّسها «الإسكندر المقدوني» أبان اجتياحه للشرق (333 ق. م.). كما وأسّس مدن أخرى في كلّ آسيا حملت اسمه يقال إنها ثلاث عشر مدينة أو أكثر ما زالت تحمل اسم «الإسكندرية». ومن ثم يعمد المحتل إلى تغيير أسماء المناطق بدءاً بالعاصمة، مثلاً: «القسطنطينية» التي أسّسها الإمبراطور الروماني قسطنيطن الكبير (330م)، وعُرفت «بروما الجديدة»، والتي أضحت لاحقاً «إسلام بول/ إسطمبول» (مدينة الإسلام) عندما دخلها السلطان محمد الثاني «الفاتح» العام (1453م). أو أنه ينقل مركز العاصمة إلى مكان آخر يعطيه اسماً خاصاً به يعكس وجوده فيه، مثلاً مدينة «سان بترسبورغ» سُمّيت على اسم الإمبراطور «بطرس الكبير» (1709)، ولاحقاً تحوّل اسمها من «بتروغراد» إلى «لينينغراد» (1924) تكريماً للزعيم «لينين»، أحد رواد و «أب الثورة البولشيفية» (1917). وما كاد الزمن السياسي يتغيّر مع زوال الإتحاد السوفياتي (1991)، حتى عادت إلى اسمها «بطرسبورغ» أو «بتروغراد». كذلك، فإن آل سعود أطلقوا اسم قبيلتهم على الجزيرة العربية بأكملها فصارت «السعودية» حين استأثروا بالحكم بمعونة الإنكليز لهم. وما أن ابتدأ الإنتداب الفرنسي، إثر معاهدة «سايكس- بيكو» (1916) والتي قُسِّم «الشرق الأدنى» بموجبها وقطعت أوصال سورية الكبرى إلى دويلات، من بينها إنشاء «دولة لبنان الكبير» (1920)، حتى بدأت السلطة الفرنسية بتغيير أسماء شوارع العاصمة بيروت إلى أسماء قادتها الفرنسيين من زعماء الحرب العالمية الأولى من مثل «المارشال فوش» (1851 – 1929) الذي ربما،

ولا ندري بالظبط، لم تطأ قدمه الشرق ولا لبنان أبداً وما عرف شيئاً عنه! وهكذا راحت فرنسا تطلق أسماء مدنها تلك التي لها خلفية عسكرية وتاريخية حربية، على شوارع بيروت وجاداتها، مثلاً «فردان Verdun»، وذلك تيمّناً بمعركة «فردان» (1916) ضد ألمانيا. ولا ندري ما الذي يحاكي وجدان اللبنانيين في معركة حصلت في القسم الغربي من أوروبا بين قوتين غربيتين ولا دخل لهم فيها! والأخطر أننا لا ندري سبب تمسّكهم بالاسم حتى بعد زوال الإنتداب وجلاء المحتل! ولعل أخطر كلّ هؤلاء المستعمرين، الصهاينة، فقد جعلوا من «تل أفيف – تل أبيب» التي حلّت محل «يافا»[1] الفلسطينية، عاصمة كيانهم الغاصب إسرائيل (1948) وما فتئوا مستمرّين بسياسة التهويد إلى الآن[2]، وعلى هذه السياسة يقوم وجودهم أوّلاً وأخيراً.

إذن، الأسباب الدافعة لتغيّر الأسماء متعدّدة، والأمثلة كثيرة في العالم كلّه، تتعدّد بتعدّد الانقلابات والحروب والثورات والاجتياحات، ففرض الأسماء بقوة الاحتلال يدلّ على التمركز والهيمنة والانتقال من عصر إلى عصر والانتهاء من الماضي، بحيث يعمل المحتل جهده لتنفيذ مخططه وإنجاحه، واضعاً نصب عينه التغيير الكامل للهوية المحلّية وإحلال هويته الخاصة مكانها، وما تغيير الأسماء المحلّية إلى أسماء من هويته الخاصة إلاّ التعبير الأوضح على سياسته المنهجة في طمس معالم من قهرهم باحتلاله، حتى ولو استعمل أكثر وسائل الدمار والخراب والوحشية في سبيل تنفيذ مشروعه. وفي الواقع، تترافق سياسة تغيير أسماء الأماكن بعملية تدمير ممنهج للمعالم والصروح التراثية والأثرية والدينية والحكومية وكلّ المنشآت العمرانية التي تعود إلى عصور ما قبل المستعمر والتي تمتّ للأصالة المحلّية بصلة، من أجل تغيير معالم المدن المحتلّة ومحو ذاكرة ماضيها وتاريخها إلى الأبد.

وفي عودة إلى التاريخ، يتبيّن بوضوح أن مؤسّسي هذا النوع من الاستعمار هم الأوروبيون بامتياز حين خرجوا بسفنهم لاستكشاف العالم الجديد ما وراء البحار (1492)، فراحت هذه القوى تستعمل طريقة التطهير العرقي (من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر) والاستعباد وتدمير إرث تلك الشعوب المحلّية الأصلية التي

(1) يعني إسم «يافا» (المكان الجميل أو المنظر البديع)، فتكون «تل أفيف» ومعناها (تل الربيع)، نقلاً لفظياً ومعنوياً عن يافا التي أضحت اليوم جزءاً منها بعد تهجير أهلها بقوة المجازر وضمّها سنة (1949).

(2) لنا عودة لهذه المسألة الخطيرة في الموضوعات اللاحقة.

هجموا عليها بهمجية حيوانية وبقوة النار والبارود، حتى قضوا على هويتها بالكامل وذلك في قارات عدّة: إفريقيا وأستراليا والأمركيتين الشمالية والجنوبية، حيث أُبيد السكان المحليون ممّن سمّيوا بالهنود الحمر بفعل سياسة الأوروبيين القاتلة والذين راحوا يدمّورن آثار تلك الشعوب، العمرانية منها والكتابية والروحية والفنية والتاريخية، متبعين برنامج تدميري طُبّق بحذافيره، فراحوا ينهبون ثوراتهم وينقلونها إلى بلادهم، فتنافست ممالك أوروبا لكسب القراصنة والمجرمين لصفوفها حتى تطال أكبر غنائم ممكنة. ومن المعروف أنه كان لملكة إنكلترا فِرق قراصنة خاصة بها شخصياً ترعاها وتحميها من المنافسين الأوروبيين من أسبان وبرتغال وفرنسيين وقد نشبت الحروب الضارية بين تلك العصابات مرّات عديدة من أجل اقتسام الغنائم والكنوز لصالح ممالكهم أو لهم شخصياً. وهكذا عمّروا أوروبا بما نهبوه من تلك الشعوب وبنوا أمجادهم على جثثهم. وراحوا يغيّرون ثقافة السكان الأصليين من لغة ودين ومعتقدات بحدّ السيف وبالإكراه والقتل والنار والبارود، حتى نسيت تلك الشعوب حتى كنيتها وأسمائها وكلّ عناصر حضارتها الأصلية، فباتت تسمّى اليوم باللاتينوس أو الشعوب اللاتينية (نسبة للاستعمار الإسباني) وهي في الأصل لا تمّت لأوروبا الجنوبية اللاتينية ولا للغتها بصلة[1]. والأهم أن تلك القوى المستعمرة الأوروبية عمدت إلى إلغاء أسماء الأماكن بالكامل في أستراليا والقارتين الأميركيتين الشمالية والجنوبية وفي كلّ جزر المحيط الاطلسي وراحت تطلق أسماء مدنها وأماكنها ومناطقها الأوروبية عليها، من هنا وجود ملايين الأسماء المشتركة بين أوروبا وأستراليا والقارة الأميركية بقسميها الشمالي والجنوبي، وهي نفسها أسماء المدن الإنكليزية والإيرلندية والفرنسية في أميركا الشمالية وأسماء المدن والمناطق البرتغالية والإسبانية في أميركا الجنوبية التي لم تعد تعرف إلاّ بأميركا اللاتينية لشدة تغرّبها عن أصولها، حتى نسيت لغاتها القديمة وما ورثته عن الأجداد وراحت تلهج بلغات المستعمرين، ولم يتبق من أقوامها إلاّ القليل من القبائل التي تسمّى أقليات أثنية «بدائية» (في الأمازون والأدغال الجنوبية) وحالها كحال القبائل الأسترالية من «الأبوريجين» (aborigènes) الأصليين،

---

(1) هناك أغنية ساخرة لأحد المغنين السود (Henri Salvador) وهو من (Cayenne /Guyane) المستعمرة الفرنسية في أميركا الجنوبية، عنوانها: «Nos ancêtres les Gaulois» أي «أجدادنا الغاليين» وهم أجداد الفرنسيين بالطبع، وهو في الأصل إفريقي المنشأ ولا يمت لشعوب أميركا الأصلية بصلة، جلبَ الاستعمارُ الأوروبي بسفنه أجدادَه إلى هناك.

ومثلها الإفريقية (Pygmées) التي وُسِمت بالهمجية والمتخلّفة، وعدّت في أوج عهود الاستعباد، من جملة الحيوانات المكتشفة! واليوم، تعمل «الأونيسكو» على حمايتها، باسم ما يسمّى حقوق الأقليات وما ابتدعه الأوروبيون المجرمون أنفسهم من قوانين وحقوق ومن ادعاءات باسم الإنسانية المزعومة، أما حمايتها فتبقى حبراً على ورق رغم كلّ الأصوات التي تدعو للعدالة الإنسانية وما يسمّى «حقوق الإنسان»، وهي أصوات هؤلاء المجرمين أنفسهم! والسؤال: إذا نجح الأوروبيون من خلال الاستعمار الدموي الذي انتهجوه في تغيير هوية آلاف الأقوام وملايين الأسماء المنتمية لحضارات عريقة القدم واستطاعوا تغريبهم عن أصولهم وجعلهم «غربيين» و«غرباء» باسم التمدّن والتحضّر بالقوة، فلماذا لا يكون الأمر كذلك في الشرق وفي آسيا كلّها وقد جرّبوا مراراً وتكراراً ولا يزالون؟ ألا نباد نحن سكان المشرق العربي اليوم بعد أن تشرذمنا إلى زقاقات وأُبدنا كلغات وثقافات وعاثوا فينا تهجيراً وتدميراً وتحطيماً لمواقعنا الأثرية ولإرثنا التاريخي بحجّة العدالة ونشر الديموقراطية والقضاء على الإرهاب؟ ومن اخترع الإرهاب كأداة استعمارية غيرهم؟

هذا ما يجري تحديداً في الحقبة الحالية من تاريخ أمّتنا المتدهور باضطراد، وما فتئت القوى المحيطة بالعرب والحاملة لواء الدين المتطرّف تسعى جاهدة بمعونة الاستعمار الغربي إلى تحقيق ما خطّطت له ومارسته خلال سلطتها الماضية (السلطنة العثمانية واستيلائها على الشرق منذ العام (1516)، حتى العام (1916) وما عمل الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) على سلبه منها، أي الشرق، بعد تعاونه معها، حيث سبق ذلك سلسلة من المذابح والتنكيل والإبادات الجماعية (شعوب سورية كلّهم: الأرمن، الكرد، السريان، العرب) بغية القضاء على الشعوب الأصلية، صاحبة الأرض السورية، وضرب الهوية واللغة وذلك باسم التعصّب الطائفي الذي شرذم تلك الأقوام وأبعدها عن هويتها القومية[1]، فسهّل ما افتعلته قوة الاستعمار من إجرام في حق الأقوام السورية كافة.

---

(1) والطامة الكبرى أن البديل أصبح أكثر فعالية من الأصيل، أي أن الأقوام بدل التمسّك بقوميتها الحضارية وثقافتها الجامعة، إلتزمت على العكس بجانب واحد من تلك الثقافة أي بدينها وأكثر تحديداً بمذهبها وأكثر تخصيصاً بزعيمها الروحي والسياسي، حتى تفكّكت العقدة الوطنية كلّياً. وبهذا عملت تلك الأدلجة الدينية المتطرّفة التي ابتكرها الاستعمار فعلها. والمشكلة القائمة اليوم أن شعوبنا مقسّمة بين مؤيّد ومدافع عن تلك أو تلك القوة الاستعمارية بدل رفضها كلّها كونها مستعمِرة، وذلك بسبب =

وتراها تكمله اليوم، بتواطؤ متقن وخبيث وبمعونة هذا الغرب نفسه، كونها ما زالت، مع قوى أعجمية جارة وعدوة للعرب، هي دائماً تلك اليد المنفّذة للغرب الاستعماري في الشرق.

يقول الباحث القارح: «التسمية هي عملية تحديد الهوية ووصف ميّزاتها، ولقد لعب التوحّد اللغوي والتشارك الحضاري والتاريخي دوراً أساسياً في بناء عصب التماسك الوطني في ظل العثمانيين. كانت التسميات الاستعمارية المسقطة على الوطن العربي موازية لأعمال عنفية وقهرية شديدة أدّت إلى كسر وإخضاع الأليات الذاتية لهذه المجتمعات ولو بصورة مؤقتة إلى حين اندلاع الثورات الوطنية في الوطن العربي واستعادة السيطرة السياسية على الذات الوطنية والقومية (لنا هنا المثال الحي في الجزائر) ترافقت حركات التحرّر الوطني التي تنامت في خضم الحرب العالمية الثانية بما فيها الوطن العربي مع استعادة التسميات الوطنية المستلبة، فعادت الهند الصينية إلى تسميتها الأصلية «فيتنام» واستعاد المغرب العربي تسميته فيما كان يعرف عنه في الفترة الاستعمارية «بإفريقيا البيضاء». كانت الشبكة الفرنسية تتأرجّح بين تسميتين: «الشرق الأدنى» والمشرق، فيما اعتمدت القراءة البريطانية تسمية «الشرق الأوسط» الذي امتد وفق الرؤية الأنكلوسكسونية من مصر إلى حدود الهند (حيث تبدأ منطقة الشرق الأقصى)...»[1].

آثار التغيير الجذري الذي تعرّضت له أسماء الأماكن على يد الاستعمار

للإضاءة على هذه المسألة، نورد هذا النص كاملاً لمحمد وليد الجلاد، بعنوان «الكتابة الفرنسية مصدر تفكّك أسماء الأماكن والأعلام بالجزائر»، علّنا نتدارك ما ينتظر أمّتنا العربية من ضياع هوية وزوال تاريخ، إذا ما أزعنّا للمشروع العالمي في رفض الهوية

= انتمائها وولائها لها. أما الأمّة فما من يناصرها بل الكل يكنّ لها العداء ويرفض لمّ الشمل والوحدة. وهكذا بدل أن يكون المستعمر حجّة للوحدة الوطنية، أصبح الإنتماء له وتبرئة أفعاله الشغل الشاغل لأبناء شعبنا، لا بل أصبح هذا النهج مدعاة فخر واعتزاز. والسؤال: هل سوف يأتي جيل يكنّ الولاء للصهاينة ويدافع عن كيانهم المغتصب ويستميت من أجلهم؟ والجواب: ألم تكن كلّ من فرنسا وبريطانيا اللتان زرعتا هذا الكيان بدورهما كياناً مغتصباً؟ والولايات المتحدة وغيرها من الأدوات التي تحرّكها تلك القوى الاستعمارية، أليست هي كذلك؟

(1) ر. القارح، «التسميات الجغرافية بين التاريخ والواقع الفعل المستقبلي»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، 2010).

وإهمال كلّ من اللغة والأسماء العربية، دونما مراعاة لشروط نسخها باللاتينية حسب القواعد التي تحفظ خصوصيّات اللغة العربية. واخترنا الجزائر لما لها من تجربة استعمارية مريرة، دامت أكثر من مئة سنة وكلفت البلاد تزعزع هويتها ووحدتها. ولم يقتصر هذا التشويه على أسماء الأماكن، بل طال أسماء الأشخاص (Onomastique) أيضاً.

كتب الجلاد: «تسبّبت الكتابة الفرنسية خلال الفترة الاستعمارية في تفكّك مهم لأسماء الأماكن والأعلام بالجزائر حسبما أبرزه اليوم الأربعاء، بوهران، المشاركون في الملتقى الوطني المخصّص لموضوع «الدراسة اللغوية للأسماء والأعلام بالجزائر: سياسات وممارسات، 50 سنة بعد الإستقلال».

لقد عرفت «أسماء الأشخاص وخاصة أسماء العائلات تفكّكاً مرتبطاً بالنسخ الفرنسي خلال الفترة الاستعمارية» حسب ما أوضحته السيّدة وردية يرمش عضو في اللجنة العلمية والمنظمة لهذا اللقاء المنظّم من طرف مركز البحث في الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية لوهران. وذكرت بأن هذه الاختلالات تعود بوجه خاص إلى ظهور السجل المدني في العام (1882) الذي أعطى للإدارة الاستعمارية حرية التصرّف في منح أسماء إلى الأشخاص الذي كانوا يرفضون اختيار الاسم العائلي. ولم تكن الأسماء التي كانت تمنح للجزائريين من قبل أعوان مصالح الحالة المدنيّة تتطابق دائماً مع الثقافة والدين الإسلامي ممّا أدى إلى ظهور أسماء محرّمة ومعيبة وشائنة أو تشوّهات بعيدة كلّ البعد عن الأشكال الأصلية. وأشارت إلى أن هذه الاختلالات لا تزال قائمة إلى اليوم وتسبّب الكثير من المتاعب للأشخاص المعنيين «خصوصاً منذ إدخال جوازات السفر الإلكترونية («بيوميترية») التي تتطلّب لاستلامها وثيقة الحالة المدنيّة (12 ج). وأبرزت السيّدة يرمش أنه «عند سحب هذه الوثيقة، نلاحظ أن الكثير من الأسماء لا تكتب بنفس الطريقة ضمن العائلة الواحدة»، مضيفةً أنه «بين الأب والجد والأبناء غالباً ما تكون الكتابات مختلفة ولا يمكن أن يتمّ وضع التسلسل قبل أن يضطر هؤلاء الناس اللجوء إلى العدالة لتصحيح هذه الأخطاء في الكتابة». وأكدّت على كون التسميات (دراسة الأسماء) هي علم فتي نسبياً وأن هذا الاختصاص يعرف بالجزائر المزيد من الاهتمام على المستويين المؤسّساتي والأكاديمي. وفي هذا السياق أوضحت يرمش، وهي عضو بوحدة البحث حول أنظمة التسمية بالجزائر، أن فريقها حقّق عملية نموذجية حول حالة أسماء الشوارع (أسماء الأماكن: الشارع والساحة والمباني) بمدينة وهران. وقد سطر هذا المشروع بالشراكة

مع مصالح ولاية وهران «التي تسعى إلى سدّ النقائص المسجلة في مجال التسمية». وقد أظهرت هذه التحقيقات أن «حوالي ثلثي الأماكن وطرقات المرور والساحات والميادين لم يتمّ بعد تسميتها».

ومن جهته، أكد الباحث إبراهيم عطوي على حاجة مدينة بأكملها إلى تكريم، كأولويّة، الشخصيات البارزة التي ميّزت تاريخها وتاريخ البلاد بإطلاق أسمائهم على الأماكن والمباني والطرق. كما اعتبر أن أي مدينة ينبغي أن «تنفتح على عالمها وفضائها الوطني والدولي وتكرّم كبار هذا العالم الذين قدموا من خلال أعمالهم إسهاماً كبيراً في التنمية والرفاهية الإنسانية. هذا ويشكل تأهيل الهيئات الوطنية المستعملة لأسماء الأماكن وإنشاء جمعية علمية جزائرية متخصّصة في أسماء الأماكن والأعلام الأهداف الرئيسية من خلال هذا الحدث العلمي»[1].

ولأن الوضع في تونس ليس بأفضل من الجزائر، وأيضاً بالنسبة لكلّ بلد عرف الاستعمار وأهواله وممارساته الطامسة لمعالم الثقافة المحلّية وللهوية، إخترنا هذه المقاطع من دراسة للباحثة نعيمة فريحة، تستعرض فيها تأثير لغة الاستعمار على الاسم الجغرافي في تونس: «بداية القرن التاسع عشر، كان للفترة الاستعمارية التأثير السلبي كلّياً على كلّ هياكل المجتمع التونسي بما ذلك الأسماء الجغرافية. وأصبح الاسم الجغرافي الذي كانت له مهمّة اجتماعية - اقتصادية مرتبطاً بقانون التقسيم الإداري والتسجيل العقاري الذي فرضه القانون الاستعماري، حيث صار الاسم الجغرافي لفظاً أساسياً لملكية الأرض مثل (هنشير سعيد، أولاد سيدي عليّ بن عون)، فقد فرض المستعمر الفرنسي، بصفة مباشرة، أسماء خاصة في المناطق التي تزدهر فيها الحركة الاقتصادية، فحملت الأماكن أسماء المستعمرين الأوائل مثل: (Michaud) (غزالة)؛ و(Fermes Fabre et Cailleux) (بو سالم). كما أُطلقت أسماء القديسين (Ste Marine/ (تيبار) .St Louis /Ste Marguerite) ورجال دولة (La Fayette) على منطقة «جندوبة». وظهرت في «السباسب» أسماء مثل (Pavillier) وكذلك (Pichon) (حفوز) و(Henriville) (العلم)... كما كان للاستعمار تأثير غير مباشر حيث ساهم في الحدّ من تنقلات البدو الرحل بحثاً عن المرعى بشكل قبائل، ممّا ضاعف الأسماء القبلية وخلق أسماء جديدة

---

(1) محمّد وليد الجلاد، «الكتابة الفرنسية مصدر تفكّك أسماء الأماكن والأعلام بالجزائر» (موقع إنترنت).

خاصة لها صلة بالموارد المائية، فظهرت أسماء أخرى مثل «غدير» (عقلة/ قاع الوادي)؛ «حاسي» (حفرة بمجرى الوادي) «بئر عين فوار»، إلخ...

كما كان للامتداد الأوروبي في البحر المتوسط، من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، تأثير كبير على تحريف و«فرنسة» الأسماء الجغرافية على غرار:

1 - أسماء دخيلة مثل (Cap Blanc, Cap Bon, Cap Afrique)

2 - ترجمة الأسماء إلى لغات إيطالية مثل (Cap Negro / La Goulette)

3 - تعريف الأسماء: «الكاف» (Le Kef)؛ «الكريب» (Le Krib)؛ «الشابة» (La Chebba)

4 - إدخال حروف متحرّكة جديدة: «قليبية» (Kelibia)؛ «بنزرت» (Bizerte)؛ «قابس» (Gabès)؛ «النفيضة» (Enfida)؛ «ثالجة» (Seldja)؛ «القصرين» (Kasserine)؛ «بني خداش» (Beni Khaddech).

5 - وقد اعتمد هذان الحرفان (غ) (gh) و(خ) (kh) سنة (1893) بقرار من المصلحة العسكرية الفرنسية. وفي سنة (1922)، اعتمد (Rh) لحرف (غ) مثل: «وادي غزالة» (Oued Rhezala) و(kr) لحرف (خ) مثل: «جبال خمير» (Kroumirie).

ولعلّ التغييرات الأكبر هي التي حوّرت الاسم كلّياً لتحوّله إلى اسم دخيل (exonyme)، مثل: «النفيضة» (Enfidaville)؛ «جبل خمير» (Kroumirie)؛ «أم العرايس» (Moularès). هذه الفرنسة بكل أريحية للأسماء أدّت إلى تزييف بعض الأسماء العربية مثل «الحوض» الذي سمّاه المستعمر (El Houd) وعرّبه التونسي في فترة الاستقلال «الهود»، فأفقده تماماً معناه الأصلي وهو «حوض الماء». ثم تلتها فترة الإصلاح فاستبدلت الأسماء المفرنسة بأسماء لزعماء وللشهداء الذين قاوموا المستعمر لتصبح (Ferryville) «منزل بورقيبة» و(Pavillier) «منزل مهيري»... بينما أطلقت أسماء تاريخية مثل (أملكار، حنيبعل، يوغرطة، عليسة...) على المركبات السياحية. وسنة (1969) اعتمدت رسمياً وكجزء من التراث الوطني بعضُ الأسماء التاريخية من أصل بربري والتي كانت منسية من قبل سكان تلك المناطق مثل (حيدرة، تلبت، أوتيك «عتيقة»، شمتو وبولاريجيا...)

ويبقى أنه يرافق الاسم عدّة مستويات للتعبير والنطق والكتابة العربية واللاتينية،

ما يجعل الإشكالية قائمة، فمثلاً الاسم الرسمي لقلعة سنان يُنطق (Galâat Snen)، يكتب «قلعة السنان» أو «قلعة الأصنام» أو «قلعة الصنم» وكلّ له تفسير. وأصل الاسم خليط من اللوبية والبربرية وكان يسمّى في القرن الحادي عشر بقلعة السكة (Qalâat Es Sikka) وفي القرن الثالث عشر (Goûb Bellil)، بينما أشار إليه ابن خلدون بقلعة سنان التي ترتبط بأحداث أواخر القرن الثالث عشر»[1].

في قضية «تهويد[2] القدس»

منذ العام (1949)، نسمع كلّ يوم عن تهويد القدس، (أورشليم، مدينة السلام)، في محاولة من الكيان الصهيوني الغاصب للأرض والمنكّل بالفلسطينيين، أصحاب الأرض الأصليين والمُقتلعين منها، تغيير هوية المدينة العربية العريقة التاريخ وتحويلها إلى «عبرية»، بهدف جعلها عاصمة الدولة «العبرية» بشكل نهائي ومن دون مشاركة من العرب ومنع أي محاولة مستقبلية في المطالبة بأحقّيتهم فيها. ولا يؤول الاحتلال جهداً في تغيير معالم المدن الفلسطينية العربية كلّها وتأسيس ثقافة يهودية «عبرية»، مستحدثة وذلك على مرأى ومسمع من العالم أجمع ومع غياب الدول العربية أو تغييبها وهي المعنية المباشرة بالقضية الفلسطينية، والعالم بأسره مؤيّد سياسة الإجرام ومنطق القوة، فما فتئنا نسمع بتهويد القدس ولا أحد يبالي وإن لم تستدرك المسألة سريعاً من قبل الوطنيين العرب ومن بقي من الشرفاء، فإن المسألة سوف تكون قاضية في ضياع الهوية الفلسطينية العربية إلى الأبد.

وكما يساعد التغريب قلع الجذور، هكذا يساهم التهويد في القضاء على الهوية الوطنية. والتغريب هو أن يأخذ المرء بهوية عدوه ويعتمدها، ناكراً جذوره القومية ومتخلياً عن هويته الوطنية.

ومسألة تهويد القدس ليست جديدة، بل إنها كانت وما لبثت مسألة عقدية،

---

(1) نعيمة فريحة، «تأثير اللهجات المحلّية واللغات الأجنبية على تغيير الأسماء وكتابتها على الخرائط وعلى لافتات المدن والقرى والشوارع»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

(2) التهويد يعني إعطاء أسماء يهودية يحملها الصهاينة، وليس كما هو ملتبس على البعض إعطائها أسماء توراتية أو ما يسمّى خطأً «عبرية»، من هنا خطورة التهويد، فهو تغريب كلّي لأسماء الأماكن السورية - العربية.

إيديولجية، أوروبية المنشأ. من هنا كان تفعيل دور أسماء الأماكن ودراستها علمياً على يد الغربيين. في الواقع، كون علم أسماء الأماكن علماً لم ينشأ في الشرق، بل هو علم غربي المنشأ، كما أسلفنا في بداية هذه الدراسة، فيمكن القول إنه في فلسطين تحديداً، كانت المدرسة التوراتية (L'École Biblique) هي التي مهّدت لتنشيط هذا العلم، بحيث كانت السبّاقة في السير على خطى التوراة متتبّعة الأسماء الجغرافية المذكورة فيها. وقد نشطت أعمالها من نهاية القرن السابع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وهي أكثر من اهتم بأسماء الأماكن على أرض فلسطين بل وفي سورية الكبرى كلّها.

يقول الباحث ر. القارح: «تدخل عملية تهويد الأسماء والمعالم العربية التي تقوم بها بصورة منهجية ومبرمجة سلطات الكيان الصهيوني في هذا السياق الاستعماري العام وباتت تمثل الدولة الصهيونية الشكل الدولتي الأخير للحقبة الاستعمارية بعد انهيار نظام الفصل العنصري في إفريقيا الجنوبية. تتماهى هذه العملية مع الرؤية الاستعمارية القائمة على الفضاء المجرّد من الأسماء والهوية، والتي تختزلها المقولة المزيفة التي زعمت أن فلسطين «أرض بدون شعب لشعب بلا أرض». وإن عملية تهويد الأسماء العربية في فلسطين هي استكمال لمسار تاريخي بدأ قبل انطلاق الصهيونية السياسية وباشرته التيارات الأنكلوسكسونية التي أطلقت عملية تهويد للأسماء في فلسطين للعمل على تطابقها المزعوم مع الأسماء التوراتية. أنيطت هذه العملية في القرن التاسع عشر لمؤسّسة استكشاف فلسطين التي قامت منذ (1870) بمسح آلاف القرى والبلدات الفلسطينية من أجل إسقاط أسماء توراتية عليها. والخرائط التي أُعدّت آنذاك تشكّل الشبكة التي على أساسها تعمل سلطات الكيان راهناً من أجل رفع وتيرة تهويد الأسماء القائمة على الإلغاء والسطو والتحوير وانتحال التسميات. في إطار دعم «الدولة العبرية» والطابع «العبري» للدولة بهدف إلغاء الوجود الفلسطيني وطمس الأسماء الفلسطينية العربية. وعمد المحتل إلى جعل الأسماء المهودة تُعتمد في وسائل الإعلام العالمية والعمل الدبلوماسي. فمثلاً: «الخليل» أصبحت «هبرون» في لغة معظم الوكالات العالمية»[1].

وتقول الباحثة الحسيني: «الصهاينة يقومون بهدم القرى وتدميرها وبناء المستوطنات، بالحفريات أسفل المسجد الأقصى، ويعمدون إلى شطب أسماء المدن والقرى

---

(1) ر. القارح، «التسميات الجغرافية بين التاريخ والواقع، الفعل المستقبلي» (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، 2010).

العربية وفرض وقائع التهويد على الأرض، ومحو من الخرائط غالبية القرى العربية التي أقيمت تلك المستعمرات على أراضيها وعمدت السلطات إلى نسبة معالم أو مواقع فلسطينية إلى المستعمرات الصهيونية. كلّ ذلك مقدّمة إعلان «يهودية الدولة»، حيث تُطمس هذه الأسماء من الذاكرة والتاريخ، لمنع أي تفكير بإعادة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم التي هجّروا منها قسراً. وكذلك امتدّت سياسة التهويد لتطاول أسماء المدن العربية داخل الأراضي المحتلّة العام (1948) والضفة الغربية واستبدالها بأسماء عبرية، فتحولت «اللد» إلى «لود» و«عكا» إلى «عكو» و«أسدود» أصبحت «أشدود» وبئر السبع «بيرشيفع» والخضيرة «جديرة» و«الجت» أصبحت «كريات جات» وحي العباسية صار اسمه «أهود» و«يافا» أصبحت «يافو».

إن الاغلبية العظمى لأسماء الأماكن التي تزعم المصادر اليهودية أنها عبرية هي أسماء كنعانية انتحلها الكيان الصهيوني من مثل «يردن» (الأردن)، «عكو» (عكا)، «يافو» (يافا) «نصريت» أو «نتسريت» (الناصرة)... حسب هذا النمط، جرى تحريف الأسماء العربية واستخدمت عوضاً عنها ألفاظ عبرية مع إبقاء بعض الحروف الأصلية في هذه الألفاظ. وعلينا الانتباه إلى واقع قائم وهو أن معظم الخرائط الجغرافية في العالم بدأت تستعمل المسمّيات العبرية بدلاً من العربية، فعندما يتحدّث الإسرائيليون عن «يهودية الدولة» فإنهم يرون أنها يهودية إسماً وثقافة وحاضراً وتاريخاً، وإن كان مزيّفاً، الأمر الذي سيؤدّي، في النهاية في حال استمراره، إلى إسقاط التاريخ الفلسطيني وطمس هويته وحذف اللغة العربية. ويراهن الإسرائيليون بذلك على أن تنسى الأجيال العربية القادمة، مع مرور الزمن، الأسماء الحقيقية للمدن والقرى الفلسطينية، بعد أن يثبّتوا لها أسماء عبرية، لاعتقادهم أنها وحدها هذه الأسماء تمثل جسراً للذاكرة العربية بين الأجيال المتعاقبة. وعليه، فإن في تغيير الأسماء الجغرافية من عربية إلى عبرية خطورة كبرى توازي التهجير والتطهير العرقي والإبادة، خاصة أنه بدأ الفلسطينيون التعاطي معها فعلاً، من باب فرض الأمر الواقع»[1].

وإزاء سكوت العرب والعالم، فالعمل ما زال جارياً إلى الساعة لطمس الأسماء ومعالمها في فلسطين المحتلّة ومكينة تغيير أسماء الأماكن العربية تعمل ليلاً ونهاراً، ولا

(1) أمل الحسيني، «صهينة الأسماء الجغرافية في فلسطين المحتلّة وسياسة الأمر الواقع»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت 2010).

نسمع إلاّ الشكاوى والتبكبك ولا من وسيلة لمكافحة هذه الهجمة المدمّرة بغية المحافظة على التراث اللغوي، بحيث لن يتسنّى للأجيال القادمة التعرّف على جذورها وأصولها اللغوية والوطنية الخاصة، فتتغرّب عن تراثها وتعتمد التسميات الصهيونية المفتعلة. وإذا كان لا بدّ من التصدّي للهجمة التهويدية التي تجتاح فلسطين اليوم، فينبغي اعتماد الإجراءات الكفيلة أن تضعنا على سكّة المواجهة الصحيحة من خلال المعرفة الحضارية قبل السلاح والقوة.

قضية تهويد القدس: جهل حضاري لا صراع حضاري

نحن العرب نؤيّد كلّ من يتبنّى فكرنا وثقافتنا وحضارتنا، ولكننا ضد من يأتي باسمها ليستعمر أرضنا على نهج الأميركيين والصهاينة، حديثاً والفرنجة قديماً، كما أن الدين بكتبه، على تعدّدها، لا يخوّل الشرعية في الأرض لأن الدين هو جانب متقلّب وليس ثابتاً من جوانب الحضارة ولا يحدّد القومية والتي نعرف أن من إحدى مقوّماتها الأساسية الجغرافيا صانعة التاريخ، أي أن الجغرافيا هي أساس القومية وليس أي شيء آخر. وبما أن الدين لا يحدّد القومية، فنحن نرفض أن تُستعمر أرضنا باسم التوراة وهي بكل الأحوال كتاب من كتب حضارتنا، مثلما حاول المستعمرون الغربيون قديماً استعمار أرضنا باسم الصليب الذي هو من صميم حضارتنا أيضاً، والذي استُغِلَّ كحق يراد به باطل، إذ تخيّلوا أن الفرنجة الغربيين أتوا ليحرّروا الأراضي المقدسة، وممن؟ من سكانها الأصليين، من أصحاب الأرض الذين فيهم ظهر المسيح السوري العربي وصلب بإيعاز من أسلافهم الرومان، أي أرادوا تحريرها من سكان أرض السيد المسيح نفسه. من هنا، فإن تكرار نفس الحيلة من قبل الصهاينة الغربيين بإيعاذ من أوروبا وتشجيع منها (وعد «بلفور» ومعاهدة «سايكس-بيكو» واليوم خارطة الطريق وتقسيم الوطن العربي...) للتخلص من اليهود على أرضها واستعمالهم إلى اليوم كأداة تخريبية وإرهابية في سبيل استعمار جديد للشرق، أمر مرفوض وكلّ ما تدّعيه الحكومة «العبرية» الصهيونية من شرعية في الأرض هو مرفوض أيضاً، لأن الصهاينة وإن انتموا إلى الدين اليهودي، فلا يخوّلهم ذلك أن يكونوا أصحاب الأرض العربية، كما لو أن صينياً مسلماً أتى باسم القرآن الكريم ليدّعي أن شبه الجزيرة العربية حيث نشأ الإسلام هي أرضه، أو مثلاً أن تدّعي أميركا أو كندا، باسم اللغة والدين والعرق، ملكية بريطانيا أو فرنسا...

أما في مسألة الاعتماد على أسماء الأماكن القديمة كردّ على السياسة التدميرية في حق الأسماء الفلسطينية العربية والتي عمدت الصهونية إلى تحويرها بما يتلاءم واللسان «العبري» الحديث، والتي تدّعي اليوم أنها أسماء يهودية المنشأ لكي تُثبت من خلالها شرعية الاحتلال، معتمدة على تخريب المعالم وإعادة إنشاء ما يعتبرونه تاريخاً يهودياً أصيلاً، فهو أمر باطل بالمطلق للأسباب الآتية:

أوّلاً: لا علاقة البتّة بين «عبرية» ويهودية لأنهما تاريخياً لا يتزامنان، فعبري صفة لمن عبر والعابرون دائماً هم العرب الرحل. والعابرون في التاريخ هم الآراميون الذين عبروا مع إبراهيم الخليل من «أور» إلى الهلال الخصيب، والنبيّ إبراهيم[1]، وهو آرامي اللسان، تكلّم بالعربية وما الآرامية إلاّ إحدى لهجاتها القديمة، وهو آرامي نسبة إلى الرام أي الأراضي العالية، المرتفعة وليس نسبة لاسم عرق، بل نسبة إلى الجغرافيا، ولا دخل لليهود بالعبريين لأن كلمة يهود لا دخل لها أصلاً بالعابر إبراهيم الخليل[2]. وبلاد «آرام» هي نفسها سورية حسب ما ورد عند «هوميروس»، إذ أشار إلى سكان سورية باسم «آراميين»[3].

أما ادعاء البعض، إستناداً إلى التوراة المحرّفة، أن يعقوب ابن إبراهيم سمّي «إسرائيل»، فهذا خطأ مردّه إلى الترجمة الخاطئة لعبارة «إسرائيل» حيث فُسّر الاسم «صارع أيل ودحره»، وهذا خطأ لغوي فادح، فهل يعقل أن يصارع بشري الإله وينتصر عليه ويسحقه ويغيّر اسمه؟ أما الصحيح فهو أن «إسرائيل»، في معناها بالفينيقية الآرامية، ونكرّر أنها لهجات سورية متحدّرة من اللغة السُريانية – العربية الأم، فتعني «أسرة أيل» أي «جماعة إيل»، مثل «إسمعيل» ومعناها «إسمع يا إيل». وإيل هو إله

---

(1) ذُكر في 25 سورة و68 آية في القرآن الكريم، مثلاً: في سورة الحج، الآية 78: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

(2) لعلّ مردّ هذا ما جاء عند الإخباريين العرب من أن لأرفخشذ بن سام بن نوح ولد اسمه «عابر بن أرفخشذ بن سام» ومن ذرية عابر «العبرانيون أو العبريون» جماعة نبيّ الله إبراهيم. وبعض الإخباريين العرب يقولون إن «عابر» هو نبيّ الله «هود» وهو جدّ العرب العدنانيين والقحطانيين وكذلك جدّ العبريين جماعة نبيّ الله إبراهيم. ويجعلون لعابر سلسلة نسب كالآتي: «عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نبيّ الله نوح».

(3) يوسف الدبس، تاريخ سورية، المجلّد الأوّل، ص 11.

الساميين الأكبر، والساميّون هم الشاميّون (بلفظ الشين سيناً أو العكس وهما حرف واحد في اللغات السامية القديمة)[1]، أي هم سكان الشام، وبلاد الشام هي البلاد السامية أي العالية نسبة إلى البلاد المنخفضة وهي بلاد غور الأردن، أعمق منطقة عن سطح البحر، امتداداً إلى وادي النيل جنوباً والتي سكنها السوريون الفينيقيون الكنعانيون، أهل الكنانة. وهؤلاء الفينيقيون الآراميون، على اختلاف تسمياتهم، كقولنا (بيروتي، شامي، صعيدي، حلبي، كويتي، بغدادي، إلخ...) كلّهم سوريون يتعايشون في الأمّة الواحدة وكلّهم بالنتيجة عرب.

ثانياً: اليهودية ليست قبيلة غربية بل قبيلة عربية من شبه الجزيرة العربية ربما تكون نسبة إلى النبيّ هود، وقد ذكر القرآن الكريم «هود» كمعنى يراد به اليهود[2] ويوجد فيه سورة باسم «هود» (سورة 11 وعدد آياتها 123). ويقال عن هود، في التاريخ، إنها قبيلة صغيرة والأرجح أنها لم تكن ذات شأن حضارياً ولم يعرف عنها سوى طابعها الرعوي، والشيء القليل جداً وذلك بسبب قلّة المعلومات عنها وندرتها. وبكل الحالات، ورغم ظهور إسم يهوذا ومملكة يهوذا بعد السبي إلى بابل وغيره من التاريخ المرتبط بحروب الملك البابلي «نبوخذ نصر» ضد فارس ومحاولات «قورش» سنة (555 ق.م.) استعمال جماعة المسبيين هؤلاء لينشطوا تخريباً ضد سورية «بلادهم» ومنحه لهم مملكةً شرط أن يكتبوا تاريخاً ودساتير خاصة بهم استقوها من تراث سورية نفسه وجعلوا اسمها التوراة[3] أي التورية أو المعنى المخبّأ والمكمون والباطني، يبقى أن جماعة المسبيين هؤلاء، سوريّة المنشأ، تعاملت ضد أرضها وشعبها وأرادت الإنفراد بالسلطة وهذا الأمر طبيعي في كلّ الأمم والدول، وما الإنشقاقات السياسية والإصطفافات الحزبية والولاءات لدول شتّى طامعة في أرضنا اليوم، إلاّ خير دليل على ما كانت الأحوال عليه من أزمات وانشقاقات في صفوف الشعب الواحد، واختلاف الأخوة على ميراث أبيهم هو المثل الأفضل عن هكذا صراعات بين أبناء الوطن الواحد. ولكن هذا لا يعني أن لكلّ واحد منهم ثقافة

---

(1) ويُنسب الساميّون إلى سام بن نوح، الجدّ الأعلى للشعوب الساميّة واسمه من السمو والعظمة (فريحة، ص XXIV).

(2) ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ (سورة البقرة، الآية 135).

(3) والتوراة ترد في خمس سور وفي 16 آية في القرآن الكريم. مثلاً سورة آل عمران، الآية 48: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، ما يعني أصولها العربية القديمة.

مختلفة عن أخيه، بل يشتركون كلّهم في نفس الحضارة ويمتلكون على حدّ سواء مكوّناتها، رغم أن كلاًّ يدّعي ملكيتها وحده من دون غيره.

ثالثاً: إن ما يسمّى «اللغة العبرية» ما هي إلاّ اللغة الآرامية لغة إبراهيم الخليل الآرامي اللسان، وما «العبرية الحديثة» التي استحدثها الصهاينة إلاّ نقل عن تلك اللغة القديمة أي السُريانية - الآرامية نسبة إلى تسمية الأرض والجغرافيا، وكلّها لهجات مشتقة عن اللغة السامية القديمة. إذن، هي ليست حكراً على يهود اليوم، بل تمتد بجذورها إلى التراث السوري القديم المشترك. من هنا المناعة والحصانة التي لأسماء الأماكن ذات الأصل المشترك والتي هي وحدها كفيلة أن تحافظ على الإرث الحضاري لبلادنا، عليه مثلاً، فإن «تلة دان» التي تطل على الحرم الشريف في القدس والتي يدّعي الصهاينة أقدميتهم في الوجود على أرض فلسطين بناءً على نسبتهم لتلة «دان» المذكورة، لأنها ذُكرت في التوراة، ومحاولتهم تشريع وجودهم على أساسها ليبنوا ما يسمّى «هيكل سليمان»، هي فينيقية بالمطلق، وتعني (تلة القاضي) لأن «دان» هو القاضي بالفينيقية، وجذره العربي واضح (دان/ يدين/ إدانة)، وليست ملكاً للذمر والعصابات الصهيونية الحديثة التي تدّعي الانتماء إليها اليوم. والفينيقيون موجودون حضارياً منذ أقدم العصور في المشرق، وتسميتهم مردّها إلى اسم جدّهم «فينيق» الصوري أو السوري، أخِ «قدموس» وهذا ما سطّره التاريخ المشرّف لهذه الأمّة، وهي ليست تسمية يونانية محدثة كما يدّعي المخرّبون. و «دان» تتشابه مع «ودّان» منطقة في شبه الجزيرة العربية، ويمكن أن تعني «عدن» التي نُسبت إليها إحدى القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية، وهي قبيلة «عدنان»، ويمكن أن تعود بنسبها إلى «أدون» أو «دون» وهو السيّد بالفينيقية، وأدون المعروف بأدونيس ربما هو أحد قادتها المؤلّهين، وكان سيّد المشرق القديم كلّه. وكلمة «دان ايل»، ومعناها «قاضي إيل» ليست بغريبة عن العربية (دان، يدين أي قاضى، يقاضي أو يجازي)، ذكرت في النصوص الأوغاريتية تحت اسم «دانيل» أحد ملوك هذه المدينة وقاضيها الأوّل والمعروف أيضاً في النصوص والوثائق الأشورية القديمة التي أخرجها المنقّبون الأثريون من أرض المشرق القديم والتي عنها نُقلت التوراة. وبهذا يتأكّد لنا أن التوراة ما هي إلاّ كتاب سوري - فينيقي - آرامي قديم، ارتبطت به جماعة اليهود فقط دينياً وليس قومياً ولا حضارياً، لأنه، في الأساس، يخصّ أقواماً وشعوباً كثيرة قديمة سورية المنشأ وعربية الأصل، تماماً كمثل ارتباط كلّ جماعة دينية بدينها ككتاب وطقوس ليس إلا. و «دان»

بلفظها العربي «عدن» تعني الجنة أو الواحة وإليها نُسبت قبيلة العدنانيين وعدنان هو أب العرب، فأنّى لليهود أن يحتكروا الاسم لهم فقط؟ أليس الأجدى الاعتراف بأن اليهود القدامى كانوا جزءاً من تلك الأقوام العربية حتى ولو كانوا من فئات البدو الرحل ولم يكونوا قط من الحضر سكان المدن؟ و«دان» شبيهة لفظاً بعدن الشهيرة بجنّتها والمعنى يصبح أن الدانيين أو العدنانيين كانوا سكان الواحات مقابل القحطانيين[1] سكان البوادي القاحطة القاحلة، الذين نسبوا إلى قحطان بسبب طبيعة الأرض التي قطنوها.

وهكذا نرى أنه من خلال التحليل للأسماء الأصلية، تُفتح لنا أبواب الحقائق التاريخية واسعة أمامنا، فما من أحد ينكر أن اليهود كما «العبرانيون» أو «العابرون» القدامى أي البدو الرحّل هم من الشعوب الشامية أي السورية المشرقية العربية ولا جدال حول ذلك، ولكن لا يجوز أن يستأثروا بالتراث السوري-العربي لوحدهم من دون غيرهم من المقوّمات البشرية المتعدّدة التي شكلت الشعوب العربية القديمة على امتداد الجغرافيا السورية. كما أنه لا يجوز للأقوام السورية-العربية الأخرى إخراج اليهود من المكوّن الديني السوري القديم، ونبذ التوراة وإلحاقها بهم، فهو الكتاب أو الوثيقة التاريخية الأشمل لأنها جمعت ولو بشكل عشوائي ومفكك وربما متناقض ومزاجي أغلب الأحيان الكمّ الأكبر من التاريخ السوري القديم المشتّت والضائع. فمن ينكر أن الملك سليمان قد تحدّث بالعربية إلى ملكة سبأ اليمينية العربية وعرف لهجتها، كونه أحد ملوك سورية القديمة، وقد عبد إيل وعشتروت في هيكله وتزوّج من فينيقية صورية، بحسب ما ورد في التوراة؟ وقد ذكر في القرآن الكريم أيضاً ما يعزّز أصوله العربية بامتياز. كما ولا يجوز أن يتفرّد اليهود، القبيلة العربية البدوية، به مطلقاً حتى ولو ادّعى اليهود الجدد (عصابة الصهاينة واليهود العرب براء منهم) امتلاك تراث سورية من دون كلّ الأقوام صاحبة البلاد وكلّ من عاش على أرضها الواسعة، ونسبوه حكراً إليهم. إذن، لا مشكلة أن تكون تلة «دان» هي أقدم المعالم السورية، فهذا يثبت أقدمية السوريين الدانيين العرب أي العدنانيين في المنطقة، تماماً كما كان اليبّوسيون العرب، لفترة تاريخية طويلة، هم أصحاب القدس وهي أورشليم الآرامية - السُريانية اللفظ (أور سالم أو مدينة سالم أو أرض السلام) فكلمة «آر» تعني (مقياس) الأرض بالعربية وبالسُريانية وتعني النور

---

(1) يقال إن قحطان بن هود هو جدّ العرب العاربة وهم القحطانيون. يرجع في النسب إلى سام بن نوح (راجع: ابن كثير، البداية والنهاية؛ شرح البخاري؛ تاريخ الطبري؛ تاريخ ابن خلدون).

ومنها مدينة «أور» السومرية ذات الخمسة آلاف سنة من التاريخ والتي على أساس اسمها أنشأت الجاليات الكلدانية القادمة من العراق العريق مدينة أخرى سُميت باسمها «أور». وهذا التقليد بقي ملازماً لكلّ المدن العربية التي تكثر تسمياتها مثل «المدينة المنورة» في شبه الجزيرة العربية و«مدينة السلام» أي بغداد، و«دار السلام» إسم تحمله عشرات المدن العربية والإفريقية. وأورشليم هي القدس الفينيقية العربية عُرفت باسمها هذا منذ أقدم العصور وحملت أيضاً إسم «القدس» وهو من «قادس» أو «قادش» أي المقدّس بالعربية القديمة – الفينيقية ومثلها «قادش» قرب حمص التي جرت فيها المعركة الشهيرة بين الحثيين والفرعون رعمسيس الثاني في القرن الثالث عشر ق.م.؛ ومثلها «قادش» (Cadix/Gadès) المستوطَنة الفينيقية الأقدم في إسبانيا والتي تعود بتأسيسها إلى العام (1500 سنة ق. م.) وهي ما زالت تحمل الاسم إلى اليوم، ومثلها «وادي قاديشا» المقدس في لبنان، ملتقى كلّ الأديان إلى الآن، وغيرها الكثير في المشرق القديم لا عدّ لها ولا حصر ممّا سمّيت بالمدينة المقدسة ومثلها «مقاديشو» الصومالية التي أعطيت ايضاً اسم القداسة.

أما أن يدّعي الصهاينة زوراً أنهم الأقدم بين سكان القدس لأنهم يهود، فنحن نقول إن اليهود قبائل عربية وهم معاصرون لأقوام سوريّة قديمة، إذن، هم متساوون مع العرب السوريين في الأقدمية وإن كانوا مختلفين عنهم في نمط العيش. وخلافاً للصهاينة الغربيين الدخلاء حديثاً على الأرض، فإن العرب بكلّ قومياتهم، حضراً كانوا أم مضراً، هم أصليون، مقيمون منذ فجر التاريخ على الأرض العربية. وأما أن يندس الصهاينة الدخلاء هؤلاء في الأقوام العربية باسم الدين اليهودي فهذا مرفوض! وأن يزّيفوا معالم العرب (اليهود والمسيحيين والمسلمين على حدّ سواء)، فهذا أيضاً مرفوض لأن معالم سورية للسوريين الفلسطينيين وليس للأوروبيين الغربيين، الصهاينة الغرباء أو «الفرنجة الجدد» و«التتر الجدد»، ولا دخل للدين البتّة في حسم هذا الموضوع، وإلاّ لآلت الشرائع الدولية التي تحرّم الاعتداءات على الأقوام إلى مهزلة وسادت شريعة الغاب، فقط لأن جماعة أو أخرى تنتمي لدين معين نشأ في بقعة معيّنة جاءت تدّعي شرعية هذه البقعة باسم ما اكتسبته من الدين أو اللغة وهذا غير منطقي بالطبع، فالمعروف عبر التاريخ، أن الجماعات تتنقل وتحمل دينها وتستوطن أماكن مختلفة وتتغيّر بتغيّر ظروفها والأحوال السياسية والاجتماعية والإثنولوجية، وهي بعكس الجماعة المقيمة المخوّلة الحفاظ على أرضها وتستمد شرعية سكنها في هذه الأرض التي ورثتها من أجدادها سكان الأرض.

وبتعبير آخر، لو أن اليهود العرب الأصليين هم من يدّعي أقدميتهم في الأرض لكان الأمر مقبولاً أن يُنظر فيه، لأنهم مكوّن من العرب ودين من أديان العرب مع المسلمين والمسيحيين وشركاء معهم في الأرض التي عاشوا عليها جميعاً، وهذا طبيعي أن يأخذ كلّ ذي حق حقه بالتعاون والمساهمة من الجميع في المحافظة على الحضارة الواحدة. أما أن يستعين اليهود العرب بالغرب الاستعماري للاستيلاء بالقوة على ممتلكات أخوانهم العرب كما حصل ويحصل إلى الآن من خلال تواطئهم مع المستعمر الغربي الذي أرسل لهم الصهاينة (أخوة لهم بالدين) من أجل دعمهم بقوة السلاح والمجازر والإبادات التي ترتكب منذ أكثر من ستين سنة في حق العرب بغاية ترحيلهم عن أرضهم، فهذا مرفوض، وحق المظلوم هنا أن يسانده الشرفاء من أهل الأرض، أخوانه في القومية ولو كانوا من دين آخر، لأن التراث القومي الذي يجمعهم هو الأساس في ملكية الأرض.

ومن واجب كلِّ امرئ أن يدافع عن أرضه وعرضه (والأرض والعرض لفظ واحد بدليل ان أرض تلفظ عريض و(ض) تقلب (ظ) والعكس) وهذا منطقي حتى لو تتطلّب الأمر فناء آخر فرد من أفراد قومه. وهذا المبدأ فينيقي - سوري قديم، فكم من مرّة أحرقت صيدا وصور وقرطاج نفسها لكي لا تستسلم وتسلّم أرضها، ولو لم يفعل أجدادنا ذلك لما كنّا نحن اليوم ولا كنّا لنتغنّى بهكذا قيم في الشجاعة والبطولة. نعم! نحن منهم لأننا ما زلنا نتكلّم لغتهم الفينيقية السورية - العربية وهي عينها عربيتنا اليوم، تغيّر لفظها بشكل بسيط بسبب تنوّع الألسنة واللكنات وتعدّدها في قلب اللغة الواحدة. ونحن منهم لأننا ما زلنا في أرضنا محافظين على إرثنا الحضاري والفكري وما كنّا لنبقى لو لم يكن قادتنا وأنبياؤنا ورسلنا من السيّد المسيح إلى النبيّ محمّد، ثائرين[1] على المستبد والمتعدّي، المعتدي على أرضنا وحملوا مشعل الحضارة المقاوِمة وعلى هديهم نحن سائرون.

---

(1) راجع حول ثورة كل من يسوع ومحمّد كتابي عاطف خليل الحكيم: «المسيح المعلم الثائر. هكذا تكلم يسوع»، المكتبة البولسية، حاريصا، لبنان، 2010؛ و «محمّد النبيّ الثائر». دولة حكمت الكون، ط 2، دار صادر، بيروت، 2015.

في الحفاظ على هوية فلسطين العربية من خلال أسماء الأماكن

كلّ ما قيل ويقال وسوف يقال ويردّد حول الدفاع عن القضية الفلسطينية إزاء الهجمة الصهيونة المتواصلة لابتلاعها نهائياً ومعها كلّ الدول الأرض العربية، يبقى كلاماً بلا طائل إن لم توضع الخطط العلمية المبنيّة على الفكر والمنطق من أجل المواجهة الحقيقية المرتكزة على الوثائق التاريخية الضامنة والحافظة للحقوق، هذا إذا ما وثّقت توثيقاً دقيقاً بناءً على مراجع تفيد في التعرّف على أسماء العائلات والأماكن الفلسطينية[1]. وكلّما كانت تلك الوثائق قديمة كلّما كانت أصحّ، لأنها قد عاينت أرض فلسطين قبل التشويه الشامل والمتسارع الذي تشهده اليوم تحت الاحتلال المدمِّر. ويعدّ فهرس الأسماء الجغرافية الصادر عن المساحة البريطانية في أوائل الأربعينات من القرن العشرين، والمتضمّن الأسماء الجغرافية التي وردت في الخرائط (100,000,1) «من أفضل وأنجح السبل لمواجهة التهويد ولتوثيق الأسماء الجغرافية العربية في فلسطين للأجيال القادمة، بل ولآلاف السنين. وميزاته أنه اعتمد المسح المباشر وفق الأسس العلمية ويتضمّن إحداثيات الموقع، ممّا يمكّن من التعرّف على المكان واسمه مهما طال الزمن ومهما تغيّرت أو غُيِّرت معالمه. إلاّ أن الفهرس لا يتضمّن جميع الأسماء الجغرافية في فلسطين ويشمل الأسماء العامة والأسماء المركّبة ومعناها بالإنكليزية. وقد استخدم نظام النقحرة المعتمد لدى حكومة فلسطين المنشور في الجريدة الرسمية (Palestine Gazette, n° 1133 of 2/10/194) بدون العلامات المميّزة المستخدمة في النظام، الذي لم يرد في بداية الفهرس بل يتمّ استخلاصه من المتن»[2].

---

(1) وهي لا شكّ متوفّرة ولكن ينبغي إعادة إنتاجها، نذكر منها: حنا عماري، كتاب موسوعة العشائر الأردنية والفلسطينية؛ عراف شكري، المواقع الجغرافية في فلسطين، الأسماء العربية والتسميات العبرية، موسّسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2004؛ قسطندي نقولا أبو حمور، معجم المواقع الجغرافية في فلسطين، جمعية الدراسات العربية، القدس، 1984؛ خمّار قسطنطين، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام 1948، ط2، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980؛ وأيضاً: موسوعة فلسطين الجغرافية، سلسلة كتب فلسطين، 16، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1969؛ (هيئة القدس العلمية)، كشاف البلدان الفلسطينية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973. (راجع لائحة المراجع في آخر الكتاب).

(2) موسى الزقرطي، «فهرس الأسماء الجغرافية الفلسطينية»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

يقول القارح: «في مواجهة الإستراتجية الإسرائيلية للتهويد والعمل على استعادة الأسماء الجغرافية الكاملة لفلسطين، يتوجّب وضع معجم موحّد بالإضافة إلى طبع خرائط عربية للأسماء الجغرافية والعمل على نقلها إلى اللغات الأجنبية المتداولة ونشرها على أوسع صعيد دولي ممكن مع إطلاق حملة دبلوماسية وإعلامية واسعة من أجل اعتمادها بصورة رسمية في المؤسّسات الدولية ذات الصلة (الأمم المتحدة والأونسكو، والمحكمة الدولية، الخ) واعتمادها كتسميات موحّدة في اللغة والخطاب السياسي الرسمي العربي كما وفي أدوات التواصل ووسائل الإعلام على أنواعه. إن حماية الأسماء العربية وتوظيف التسميات الجغرافية في العملية التنموية، مساران متلازمان في عملية استنهاض الطاقات البشرية والمعرفية العربية. من أجل الدفاع عن تراثنا العربي ضد الهجمة الصهيونية الشرسة التي تبغي تغيير الأسماء العربية وطمس حضارتنا وادعاء ملكية الأرض ونسبة المواقع الآرامية والكلدانية والكنعانية والأشورية والعربية الموجودة في أرض فلسطين إلى العبرية وتسجيلها لدى المحافل الدولية كإرث ثقافي لكيانها المغتصِب للأرض والأسماء والحضارة»[1].

«إسمها فلسطين وهويتها عربية»[2]

إن السبيل الوحيد للمحافظة على الإرث الثقافي هو الوعي الحضاري ومعرفة هويتنا وجذورنا. وهذا وحده كفيل في المحافظة على بلادنا وعلى الأسماء العربية من التهويد في كلّ من فلسطين والأراضي المحتلّة.

إن الاسم هو الهوية تماماً كما أن اللغة هي وعاء الفكر. والأسماء هي أكثر ما له صلة باللغة وهي الأداة في تعريف كلّ شيء، فماذا نستعمل غير الأسماء للتعريف عن بلادنا؟ من هنا ضرورة المحافظة عليها لأن ضياعها يعني ضياع الهوية والحضارة وضياعنا الكلّي وخروجنا من التاريخ.

لقد كان أجدادنا المشرقيون يكتبون على قبورهم عبارة هي بمثابة ترجّي للمار

---

(1) ر. القارح، «التسميات الجغرافية بين التاريخ والواقع. الفعل المستقبلي»، (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، 2010).

(2) مداخلة الدكتورة ڤيڤيان حنّا الشويري في المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، 26 – 29 آيار، بيروت، 2010.

أمام القبر أن يتلفّظ باسم المدفون لاعتقادهم أن ذكر الاسم وحده كفيل أن يحيي الميت. من هنا العادة أن يُكتب اسم الميت على القبر، ومن هنا ما يعرف تقليدياً بالبكاء على الأطلال، ومن هنا أيضا القول الدارج «يعيش باسمه» أو «مين خلّف ما مات». ومن هنا كذلك عادة تسمية الأبناء بأسماء الأجداد والخلف باسم السلف بهدف استمرار السلالة. لهذا حرص عدد كبير من الأشخاص على تخليدِ أسمائهم للتاريخ وبشتّى الوسائل. وإذا كان الأمر بهذه الأهمّية للأفراد، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق بأمة كالأمّة العربية العريقة القدم والتقاليد، فهل تُترك أسماء أماكنها عرضة للزوال؟ هذا ما يحصل بالفعل على أرض فلسطين والتهويد ماضي على قدم وساق منذ أن وطأ الصهاينة أرضها ودنّسوها.

لقد أدرك المحتلون أهمّية الأسماء الحضارية، لذا عمدوا إلى تحويرها وتشويهها ومحو صيغتها من حيث أصولها الفلسطينية، وإحلال أسماء يهودية محدثة مكانها وإلزام العرب التلفّظ بها وأدرجوها في الخرائط وجعلوا المحافل العلمية العالمية تعتمدها. لقد أنشأوا مراكز أبحاث لغوية وكليّات متخصّصة بشتّى أنواع التهويد وألّفوا الجمعيات المختلفة الوظائف للدفاع عن عملية التهويد، فمثلاً، تتولّى تهويد كلّ المواقع لجنة كانت الوكالة اليهودية قد شكلتها العام (1922) لهذه الغاية، وقد مارست عملها وضمّت عدداً من العلماء الصهاينة الذين يعتمدون، في الدفاع عن قضيتهم، المحاججة القائمة على المبدأ التوراتي الذي يدّعون أنهم يستمدون شرعيتهم في الأرض منه، مستندين على المبدأ الديني في دعم ما يدّعون. ونحن نعلم علم اليقين أن الدين ليس أساس القومية وإن كان عنصراً منها، بل هي الجغرافيا وحدها الكفيلة بتحديد شعب ما على أرضه، وإن الدين بكتبه على تعدّدها، لا يخوّل الشرعية في الأرض.

ومبدأ الأرض الهوية، هذا، يعرفه الصهاينة جيداً، إذ جعلوا «الإرتز» أي الأرض من أقدس مبادئ كيانهم، فاكتساب الأرض بشتّى السبل الهمجية هو الضامن لهم ولإدعاءالشرعية فيها، من هنا كان التزامهم باغتصاب أو «شراء» ومن ثم ضمّ الأراضي الفلسطينية وإنشاء المستعمرات ووضع أسماء يهودية عليها وتغيير كتب التاريخ والجغرافيا بأخرى مصدرها إيديولجياتهم الدينية، ضمّنوها أسماء ومفردات ومصطلحات وخرائط وصور معالم يهودية بالمطلق وفرضوا تدريسها على الفلسطينيين لإدراكهم أهمّية التعليم

منذ الصغر، كما واعتمدوا أيضاً على تشويه المعالم الحضارية الأثرية والتاريخية واللغوية الفلسطينية لصالحهم، وهذا النشاط في ازدياد مضطرد حتى هذه اللحظة[1].

في الواقع، إن المجهود الصهيوني الجماعي هذا، يميّزه التضامن والعمل المنظّم المبني على منهج مدروس، الكلُّ يتعاون من خلاله وكلٌّ يقوم بدوره بحسب المهام التي أوكلت إليه. إنه مشروع دولة ذلك المتعلّق بتهويد فلسطين وتغيير معالمها وأسمائها وليس مشروع أفراد، ومن هنا خطورته.

لقد عمدت الصهيونية ومنذ 130 عاماً (في ظل الإنتداب الإنكليزي لفلسطين) إلى الآن إلى محاولة طمس كلّ أثر يدلّ على الهوية العربية للبلاد وعلى ارتباط شعب فلسطين بها. ومنذ تأسيس الكيان الصهيوني، قامت المؤسّسة الإسرائيلية الحاكمة بحملة ناشطة لتهويد أسماء المعالم الجغرافية الفلسطينية بطريقة لم يسجل لها التاريخ مثيلاً، من حيث المعايير الكمّية والنوعية، منطلقها أدلجة العقول وتزوير الأسماء على أساس المشروع الصهيوني في فلسطين والقائم على ادعاء «يهودية البلاد وعودة اليهود إلى وطنهم». وجرى بناء جيش جرَّار من المقولات الغيبية المفبركة، وتسويق تلك الإيديولوجية وشرعنتها بهدف ترويج هذا الادعاء على الصعيدين اليهودي والعالمي. ونشطت الصهيونية الرامية إلى توفير الأغطية النظرية للمشروع الصهيوني، بسبب أهمّية التعاضد بين عامليّ الإيديولوجيا والقوة في تهويد فلسطين، وإقامة الدولة الصهيونية مهما كلّف الأمر من صعاب ورقاب ودماء ووقت.

والنتيجة اليوم، أن مدينة القدس تتعرّض للتخريب إلى أقصى الحدود، فإن ما يجري في القدس من أعمال التغيير والتزوير التي تترافق مع تغيير أسماء الشوارع من الأسماء التاريخية إلى أسماء يهودية، وتوثيق ذلك في اللوحات، كما حصل في منطقة «مدخل سلوان»، على بعد أمتار من السور الجنوبي للمسجد الأقصى، حيث أطلق إسم شارع «معاليه دافيد» على شارع «وادي حلوة» بسلوان، و«جاي هينوم» على شارع «وادي الربابة»، وعُلقت يافطات إرشادية في شوارع وأسواق القدس القديمة، تشير إلى المسجد الأقصى، مكتوب عليها باللغة «العبرية» (جبل الهيكل) وبالعربية (الحرم

---

(1) لم يعد يقتصر التشويه والتدمير فقط على فلسطين المحتلّة، بل شمل اليوم المشرق العربي السوري أو الوطن العربي برمّته، وذلك في سياسة ممنهجة، مخطّط لها، تمشي بخطى مدروسة وثابتة وفعّالة.

القدسي الشريف) . ويقضي قرار التهويد بشطب الأسماء العربية واللاتينية ، والإبقاء على أسمائها اليهودية فقط ، وبعد تطبيق القرار سيشطب اسم «القدس» ، ويُستبدل به إسم «يروشلايم» . وتحوير أسماء الأماكن في القدس يهدف لمحو الأسماء العربية من ذاكرة الأجيال القادمة . ومن الأمثلة على ذلك تحوير أسماء بوابات القدس التاريخية :

الإسم العربي التاريخيّ	الإسم المهوّد
باب الخليل	شاغر يانو (يافا)
باب الحديد	شاغر هحداش
باب العمود (دمشق)	شاغر شكيم
باب الزاهرة (الساهرة)	شاغر هورودوس
باب ستنا مريم	شاغر هاريون (الأسود)
باب المغاربة	شاغر هأشفا (النفايات)
باب الرحمة	شاغر هرحميم
باب النبيّ داوود	شاغر تنسيون (صهيون)

من جانبنا ، نحن العرب ، نعمل للتصدّي لهذا المشروع المدمّر لوجودنا ، فهو شغلنا الشاغل والصحافة لا تألو جهداً في نقل الممارسات الناشطة للصهاينة في تدمير إرثنا الحضاري في فلسطين ، والكلّ يدرك اليوم خطورة تغيير الأسماء الجغرافية في فلسطين وتغيير أسماء الأماكن في القدس تحديداً إلى يهودية مع كلّ ما يرافقها من تدمير للمعالم المعمارية العربية لتحلّ محلّها معالم صهيونية- يهودية . وكثرٌ هم الكتّاب الفلسطينيون العرب الذين وضعوا المؤلّفات عن أسماء فلسطين الجغرافية (مع ما يقابلها من الأسماء اليهودية المحدثة) . وهذه القضية أصبحت معروفة اليوم للجميع ، فإذا ما قمنا بجولة على المواقع الألكترونية التي تثير هذا الموضوع ، لوجدنا أنها بالعشرات ، إذ جيّش الشرفاء من أهل بلادنا كلّ جهودهم للإضاءة عليه . ويزداد عدد المراقبين الفلسطينيين يومياً من الذين يشيرون إلى العديد من الأماكن والمعالم الموجودة في مدينة القدس التي تمّ ويتمّ باستمرار استبدال أسمائها العربية والتاريخية بأسماء يستخرجها الصهاينة من كتبهم القديمة لا علاقة لها بهذه الأماكن أو تسميتها بأسماء زعماء لديهم ، ويزداد تحذير هؤلاء المراقبين من عمليات التهويد وتغيير الأسماء التي امتدّت إلى اللغة ومناهج التدريس من خلال فرض حصص تعليمية عن الهوية اليهودية والتراث اليهودي الصهيوني في المنهج العربي ، وهذا

من أخطر الأمور. ويتوجّب علينا العمل والتصدي السريع من خلال إثارة هذه القضية في المحافل الدولية واستنكارها وحث الجهود العالمية لوقفها والعمل ضد الإجراءات الصهيونية الماضية في تغيير الأسماء الجغرافية في فلسطين والأراضي المحتلّة، من خلال عمل مؤسّساتي ممنهج ومنظّم يعتمد على الوعي والمعرفة وذلك من خلال تعميم مادة التاريخ والجغرافيا الموحّدة في كلّ الدول العربية وباللغة العربية وإعادة الاعتبار لمادة التاريخ المهمّشة في البرامج التعليمية والتي لا تذكر إلاّ ما سوّقه العدو من دعاية مغرضة في حق أمّتنا وإسكات وما يروّجه أبناء شعبنا من أن التاريخ مادة بالية، في حين أن كلّ قضيتنا تقوم على التاريخ وحده.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا يكفي؟ والجواب بالطبع لا، والحل هو في المعرفة المتعمّقة باللّغات ذات الصلة. في الواقع، إن اللغات المحلّية التي أتت أسماء الأماكن الفلسطينية منها هي فينيقية - كنعانية - آرامية - سُريانية - عربية النشأة بالمطلق، من هنا ضرورة ردّ الاعتبار لهذه اللهجات العربية القديمة وتعليم أسس كتابتها وقراءتها وعدم إهمال الإرث الحضاري الذي تتضمّنه، وذلك قبل فوات الآوان، ممّا يكفل الحفاظ على لفظها الأساسي والعودة إليها لمعرفة المعنى الأصلي، لأن كلّ الأسماء لها معنى في الأصل بعكس الصيغة اليهودية المشوِّهة التي تعمد إلى أسماء مشابهة للأصلية ولكنها محوّرة ولا يُعرف لها معنى باللغة «العبرية المستحدثة» والمغيّرة للإسم. وهذا التغيير لا يقتصر فقط على التحوير اللفظي بل يعمل على محو الأسماء بالكامل ومثله عملية طمس المعالم التاريخية بهدف محو الهوية الوطنية الفلسطينية وزعزعة الذاكرة وضرب القومية العربية.

أيها المؤتمرون الكرام، إن ما يجمعنا اليوم هو الإرادة الصادقة في الحفاظ على الإرث الحضاري المشترك لوطننا العربي. ومؤتمرنا هذا هو خير دليل على همّنا المشترك همّ الأمّة والهوية والحضارة. وما من شكّ أن الوجدان العربي الملتهب كرامة وعزّة وإباء ونيّة صادقة في المحافظة على الأرض والعرض والشرف يـتأجّج في قلب كلّ مواطن عربي. ونحن في اجتماعنا هذا نعبّر عن صوته وثورته ونضاله، من هنا أهمّية لقائنا والمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقنا، ألا وهو النضال الفكري وهو من أصعب المهمات كما تعرفون. ومسألة الأسماء الجغرافية العربية التي نناقشها في ما نطرحه اليوم، هي إحدى أركان النضال الفكري بامتياز، فهي مسألة علم بالدرجة الأولى. والمثقّفون ورجال

السياسة العرب ينبغي أن يكونوا على بيّنة ممّا يجري من إجراءات العدو في طمس المعالم الحضارية لفلسطين وتغيير المعالم المعمارية القديمة ورموزها وخاصة أسمائها، وإن كان الباحث يتيه في غابة المواقع التي تتحدّث عن هذا الموضوع يومياً في كلّ وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، يبقى أن برامج المدارس كما الجامعات العربية لم تلحظ هذا الموضوع الخطير والحسّاس في مناهجها ولم تدخل إلى اليوم مادة علم أسماء الأماكن (Toponymie) في أي من برامج كليات الجغرافيا والتاريخ والآثار في جامعات وطننا العربي[1]. لذا، فنحن ندعو في توصيات المؤتمر أن تُدرج هذه المادة إلزامياً في المناهج التعليمية ومعها تدريس اللغات المشرقية القديمة، أمهات اللغة العربية الفصحى، إذ لا تكفي الصحافة والجمعيات المهتمة بموضوع الحفاظ على الأسماء في النضال وحدها لأجل الإبقاء على الهوية العربية من خلال الدعوة وحسب للحفاظ على أسماء الأماكن في فلسطين وفي كلّ الوطن العربي. ولأن التربية هي أهم وسائل نشر الوعي والمعرفة، فلماذا لا تدرج في مناهج الصفوف الإبتدائية مادة التربية الوطنية القومية العربية الشاملة؟

من التوصيات التي نقترحها أيضاً، أن يهتم كلّ من عمل في مجال التوعية والإعلام، وبالأخص المعلّمون والمدرّسون وأساتذة الجامعات والصحافيون والكتّاب بموضوع الأسماء العربية ويكثرون من استعمالها وعدم اللجوء بالمطلق إلى استعمال أشباه هذه الأسماء المحرّفة والمشوهة. لقد التزم كبيرُ الأدباء السوريين العرب جبران خليل جبران بهذا المبدأ، إذ ورد في كتاباته «الأصلية»[2] ذكر للأمّة الجامعة التي انتمى إليها والتي كان الاحتلال العثماني يعمد إلى إزالتها من الوجود، وإن مجرّد ذكر اسمها في كتاباته كفيل باحيائها وهذا الاسم هو سورية. ولا ننسى أن فلسطين كانت تسمّى العام (1920) وحتى العام (1948) بسورية الجنوبية، ومن أهم مناطقها: (مجين – أسدود – المجدل – بير السبع – عسقلان – جبل الكاشف – حي التفاح – بيت حانون – جبلة – الدريج – البريج – خان يونس – بيت لاهيا – حي الزيتون...)

---

(1) وهذا ما استدركته الجامعة اللبنانية الآن مشكورة، من باب حسّها الوطني والقومي ودورها الرائد.

(2) للأسف! باتت نادرة اليوم وما يصدر دورياً من أعمال هذا الأديب العربي العظيم هو مشوّه في بعض مواضعه، كما من يدسّ السم في الدسم، فمن يعثر على اسم الأمّة «سورية» في ما يطبع من أعماله اليوم وقد أزيل في أكثرها؟ في حين أنه في عصر جبران كان هو اسمها الرسمي المعترف به عالمياً، قبل اتفاقية «سايكس – بيكو» (1916) التي قسّمتها إلى كيانات.

ومن التوصيات التي نقترحها أيضاً، أن يؤسّس دار نشر عربي خاص بموضوع أسماء الأماكن وتشجيع كلّ الأقلام الشريفة على نشر كتبها ودراساتها في هذه المسألة الطارئة، لما تشكّل من أهمّية في النضال الفكري ولعله الأهم في وقتنا الذي يشهد تنفيذاً صريحاً وواضحاً لكلّ ما وضعه الصهيوني من مخططات لتهويد القدس وفلسطين كلّها.

إن اجتماعنا هذا، بالإضافة إلى كلّ الجهود العربية، التي تُبذل، هو بحدّ ذاته مواجهة بوجه كلّ محاولات التزييف والتحوير، فلا يظنّن أحد أننا نيّام أو غائبون أو مغيّبون، فنحن هنا على أرضنا العربية نتكلّم لغتنا العربية ونناضل من أجل أسماء بلادنا العربية، وهي عنوان هويتنا الأزلية.

الاستعمار الثقافي سلاح أمضى وأخطر: كما تغيّر العقول، تغيّر الأسماء

في الواقع، وبحكم التطوّر بطبيعة الحال، فإن الاستعمار العسكري المباشر راح يأخذ اليوم أشكالاً أكثر تمدّناً، بحيث ينحسر لصالح الاستعمار الثقافي، آخر نتاج صاحب القوة والنفوذ في العصر الحالي. وهذا الشكل الاستعماري الجديد يُعرف بالفرنكوفونية والأنغلوفونية والأمريكوفونية أو ببساطة بالعولمة وهي كلّها أشكال مبطّنة وملطّفة للاستعمار العسكري الذي يفرض التواجد المادي الجسدي على الأرض. وهدف هذه الأدلجة الثقافية تعتمد على غسل الأدمغة وتساعدها التقنيات الحديثة ممّا يسمّى وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام المرئي والمكتوب والمسموع والتي تعتمد على التكنولوجيا الإلكترونية المتطوّرة التي تصل إلى كلّ شخص بمجرّد كبسة زر، فتدخل في العقول عقائد وموض جديدة تجعل المتلقي غير المحصّن عجينة طيّعة ومادة قابلة للأدلجة، فيقع فريسة دعايتها المتكرّرة أبداً. وأوّل ما تستهدف هذه «العولمة المتوحشة» كما أُطلق عليها، فهي تستهدف اللغة المحلّية التي تبدأ بالإنحسار لصالح لغتها التي تسوّقها وهي اليوم الإنكليزية بطبيعة الحال كونها لغة القوة الاستعمارية الأكبر: الولايات المتحدة الأمريكية، أما اللغة الأضعف فهي العربية بطبيعة الحال أيضاً كون الوطن العربي ضعيف وتتعرّض لغته للتشويه والإهمال من قبل الشبيبة العربية نفسها والتي تنحو نحو اللغة العالمية السائدة. وينتج من جرّاء إضعاف اللغة، إضعاف الثقافة وكلّ مكوّناتها لصالح ثقافة هذه العولمة المسيطرة والتي تعمل بموجب مبدأ معروف جاء على لسان كبار المفكّرين السوريين وهو سعادة، ومفاده: «إذا أردت أن تقضي على

أمّة، فاقضي على ثقافتها»! وردّدها بعده العالم[1].

والثقافة تشمل كلّ مقوّمات الحضارة من عادات وتقاليد وطقوس ولغة وفنون... كما وأن الثقافة هي منظومة أخلاقية متكاملة تحتوي على القيم والمبادئ ومجمل الفكر الموروث، وبفقدانها تفقد الأمّة العربية وكلّ أمّة مستعبَدة رصيدها الفكري الضامن لوحدتها وقوتها. وهذه العولمة تمارسها القوى الاستعمارية بشتّى الوسائل وأهمها الدعاية والإعلان والإعلام، فمن دون كبير عناء وبأقل مجهود وتكاليف مادية، تستطيع العولمة ترويج بضاعاتها وكلّ أفكارها من خلال بثّها، بدقائق قليلة، وتسويق منتوجها إلى أعداد كبيرة من المجتمع المتلقي وبكل شرائحه وطبقاته وهي تفعل فعلها السلبي في تلك الفئات، ليس فقط تلك غير المحصّنة بالمعرفة وغير المدركة لخطورة ما تستلقفه يومياً من مادة مؤدلجة فتّاكة تُسوّق لعادات وتقاليد وممارسات وأفكار وإيديولوجيات غريبة عنها وبلغة غير لغتها، بل وفي تلك الفئة المتلقفة طوعاً وبملء إرادتها وبكامل وعيها، بل عن سابق تصميم وإصرار، بهدف اللحاق بركب «الحداثة» على حدّ زعمها. وترى، في نهاية المطاف، تلك العقول وقد أصبحت مجيّرة لتلك الثقافة الكاسحة وتتكلّم بلغتها وأسلوبها وتعتمد فنونها وأغانيها ومشاريعها وطروحاتها وتروح تبثّها مجاناً، فيتداولها المجتمع وتنتشر بأبسط الطرق. ولعل الأطفال والشباب هم الفئة الأكثر عرضة لهكذا أدلجة ولعل المدارس هي أكثر البيئات الحاضنة لأفكار العولمة والدليل أن الاستعمار القديم يحقّق اليوم ما عجزت عنه أدواته الاستعمارية تلك نفسها، ومثالنا على ذلك، وقد أصبح التاريخ مفتوحاً أمام الجميع وبوضوح ومن ينكره لعله فقد البصر والبصيرة معاً، السلطنة العثمانية خلال أربعمة سنة ونيف وما هدفت إليه من تتريك الشرق وجعله أمّة عثمانية لدرجة استعمال البطش والعنف والقتل الجماعي في أغلب الأحيان، وما واجهته من عناد وتمسّك قومي بالثقافة العربية من قبل الوطنيين وكلّ الأحرار[2] آنذاك، والذين تمكّنوا،

---

(1) «Celui qui veut assassiner un peuple, détruira son âme, profanera ses croyances, ses religions, niera sa culture et son histoire» (Jean-Marie Adiaffi, La carte d'identité, 1980).

(2) هؤلاء عرفوا لقرن من الزمن تقريباً بالشهداء الوطنيين، وقد علقت السلطات العثمانية أجسادهم على المشانق التي رفعت في ساحة الشهداء في بيروت، حيث ما زال النصب الذي يمثلهم ماثلاً يشهد على تاريخهم المشرّف. أما العيد الذي كُرّس لهم، أي «عيد الشهداء» (6 آيار) فأزيل من الروزنامة اللبنانية لتكتمل، على يد اللبنانيين أنفسهم، خطة «سايكس-بيكو» اللاغية لكلّ عمل وطني ضد المستعمر!

في أصعب الظروف وأحلكها، الحفاظَ على اللغة العربية والتصدّي للحملات المتكرّرة لمحّوها ولمحو كلّ ما يمتّ للثقافة العربية بصلة.

ولكن، لم تمنع تلك الحركات المناهضة حدوث الكارثة التي لحقت بثقافة أمّتنا، ما أدّى إلى تزوير وتحوير أفكارها ومبادئها وحتى ضرب عقائدها وتشويه فكرها المسيحي والإسلامي معاً. كما لم تستطع وقف أعمال الإبادة الجماعية في حق الجماعات السورية كافة، تلك الحاملة للتراث اللغوي والثقافي الموروث من سريان وأشوريين وكلدانيين وأرمن وأكراد وأزيديين وصابئة... ولم تتمكّن من إيقاف عجلة القضاء على القوميين الحاملين فكر الأمّة النيّر والموحّد، هذا التيار الذي أصبح شبه نكرة بموازاة تلك الجماعات الغفيرة التي انتسبت إلى ما ابتدع من الفرق والنحل والمذاهب والتي تدأب على العمل على إشعال الفتن الطائفية للقضاء على البنية القومية نهائياً. وهذا ما نجني ثماره الفاسدة اليوم ونحمل تبعياته الخطيرة وأوزاره الثقيلة وقد أصبحت الطائفية والمذهبية والفئوية السرطان المتفشي في الأمّة يفتك بها من الداخل، جرّاء ذلك الترويج الأعمى والملح للتيارات المتطرّفة ضد الإرث العربي العريق ولغته وثقافته القومية العربية الجليلة، وهذه التيارات ما فتئت في سعي دؤوب لضرب ما أتت به الحضارة العربية من فكر مسيحي – إسلامي رفيع ومن تنوير وسمو. ولو توفّر للعثمانيين، قديماً، أدوات العولمة السريعة كما هي اليوم لكانوا قضوا بلمحة بصر على أمّة السيد المسيح والنبيّ الكريم بأقصى سرعة ودونما عناء[1]. وما أرست فرنسا دعائمه بصعوبة أبان انتدابها على سورية ولبنان (1916 – 1945) تقوم به العولمة اليوم بكل سهولة، فالمدارس الخاصة وهي في أغلبها نفسها تلك الإرساليات الدينية الفئوية، الطائفية التي رعتها فرنسا وإنكلترا في السابق، والولايات المتحدة الأميركية الآن، ما زالت عاملة وبنشاط ولا تترك للمدرسة العامة الجامعة لأبناء الوطن الواحد أي فرصة للتقدم وليس هناك مجال للمنافسة حتى،

---

(1) هذا ما يجري تحديداً في هذه الحقبة من تاريخ أمّتنا المتدهور باضطراد وما فتئت «العثمانية الجديدة» ومن معها، من تحت الطاولة، من قوى أعجمية جارة وهي الحاملة لواء الإسلام زوراً، تسعى جاهدة بمعونة الاستعمار الغربي إلى تحقيق ما مارسته خلال سلطتها العثمانية على الشرق وما بدأته من سنة (1516) حتى سنة (1916) من تشويه حضاري وفكري ومذابح وتنكيل وإبادات جماعية تراها تكمله اليوم كونها ما زالت اليد المنفذة للغرب الاستعماري في الشرق، حيث أن روما ما زالت ناشطة وبأحسن حالاتها!

فالمدارس العامة ترواح في ضعفها وقدراتها الهزيلة مادياً، غير قادرة على مواكبة ما وصلت إليه المدارس الخاصة من سمعة ومكانة وثقة لدى المواطنين الذين، بغض النظر عن المستوى الأكاديمي (وهو بالمناسبة، ليس كما يُظن أنه في المدارس الخاصة أفضل منه في المدارس العامة التي تشرف عليها الدولة)، يضمنون انتماء أولادهم الطائفي والمذهبي المريح نفسياً، تحت شعار ما يسمّى الأخلاق الحسنة واكتسابها منذ الصغر والأهم يضمنون تعلّمهم اللغة الأجنبية موضوع الفخار والعز.

في الواقع، إن فعل تلك المدارس المحلّية المنشأ والأجنبية التوجّه هو الأخطر على الإطلاق، فهي معاهد لغسل العقول لصالح الدولة المستعمِرة، هدفها الأدلجة فكرياً والاستعمار وجدانياً، وهذا ما نلحظه ونستشفه من عقلية شبيبتنا التي تنتمي للمدرسة الخاصة وتتبع ثقافتها ولغتها وتسوّق لبضاعتها وتستهلك منتجها، فالمدرسة ذات التوجّه الفرنسي ما هي إلاّ سوق تجاري لكلّ البضاعة الفرنسية (من أدب وكتب ولغة وفنون ومسرح وموسيقى وغناء ومعارض وترويج ثقافي للتاريخ الفرنسي: تمجيد الثورة الفرنسية وأعلامها والتمثّل بحروبها وانتصاراتها وإنجازاتها ورموزها وقادة فرنسا وإنجازتهم من مثل حملة نابليون على مصر...) وكتّاب فرنسا وأدبائها (ما زلنا ندّرس بقدسية المناهج الفرنسية الأدبية بما فيها من أدباء وشعراء وفلاسفة تحدثوا زيفاً وظلماً في حق ثقافتنا وأمّتنا ورجالاتها وأنبيائها، فهل قرأ أحد كتاب «محمّد» لفولتير وفهمه؟) وأقلامها الصحافية على علاّتها، فأغلب منشوراتنا هي ترجمات عن الفرنسية ومجلاّتها وما تعرضه من مواد خاصة بها ننقلها بسذاجة وتحمل موضوعات بعيدة عن تقاليدنا أو حتى لا تتطابق مع تقاليدنا وحتى لا تُطبّق في حال أهملنا تقاليدنا وذلك بسبب دساتيرنا التي لا تسمح بالتعديل، مثلاً: كيف تُطبّق العلمانية والنظام المدني من زواج وأحوال شخصية و «عدالة اجتماعية»، وكذلك الديموقراطية الإنتخابية والتمثيلية للمواطن ودستورنا الأحدث أي المعدّل في الطائف يقوم على التوازن الطائفي وتوزيع الحصص مذهبياً ومرجعيتنا الأولى هي الطوائف وأسيادها من رجال الدين وليس القانون المدني؟

وما تبتدعه تلك القوى الغربية في مجال ما يسمّى «الديموقراطية» و «حقوق الإنسان» وحقوق المرأة والطفل والعامل... وحفظ كرامة الإنسان إلى ما هنالك من شعارات، ليست إلاّ كلاماً فارغاً من المضمون وهي بضاعة تروّج من القبل الدول الكبرى، التي هي نفسها تعجز عن تطبيقها وتكيل ليس فقط بمكيالين بل وبمكايل، فتسوّق هكذا

أفكار مثالية جداً من أجل دسّ السم في الدسم. تقوم تلك الدعاية بالترويج لهكذا أفكار تماماً كما يروّج للصناعات الفرنسية والغربية ومنتوجاتها التي تجد سوقاً لها بين من اعتمدها كثقافة من أبناء شعبنا، يمشون بركبها ولا يحلفون إلاّ بدينها.

وبالطبع، تروّج هذه القوى الاستعمارية البديلة عن العسكرة ما يسمّى «الوطنية» لدى أتباعها الفرنكوفونيين وتبثّ فيهم حبّ الوطن، ولكن ذلك الوطن المصنّع على يد فرنسا نفسها وليس الوطن المنتمي لمحيطه الجغرافي والبيئي والثقافي والحضاري واللغوي والاقتصادي والفكري، وإنما الوطن التابع سياسياً وثقافياً وإيديولوجياً لفرنسا «الأم الحنون». إذن، هذا الولاء والانتماء هو للأمّة الفرنسية التي يتفانى الفرنكوفونيون في الدفاع عنها ويستميتون على حساب أمّتهم وتاريخهم وإرثهم الحضاري الذي ألفوا الازدراء به وتسخيفه وإهماله ونسيانه، كونه، في عرفهم وقناعاتهم، لا شيء أمام ما اكتسبوه من ثقافة «ذات مستوى أعلى وأرقى»، تلك التي للدولة الحاضنة باعتبارها من الدول ذات النفوذ ومرتبتها أولى في تصنيف الدول، فالأفضل بالنسبة لهم أن يكونوا عبيداً لديها على أن يموتوا أحراراً من أجل هويتهم الخاصة.

كما وتروّج هذه المدارس العقائد والقيم الدينية وتهتم بتدريس الأخلاق، ولكن ليست تلك التي كانت لأجدادنا بل تلك التي تعتمدها فرنسا نفسها، فالروزنامة هي روزنامة الغرب ولا أحد يعرف شيئاً عن أعلام وشهداء وقديسي بلاده ومفكّريه وفلاسفته، هؤلاء الذين ترسّخوا في الأرض واستشهدوا دفاعاً عنها وعن لغاتها وعن فكرها وعن مناطقها وأسمائها [1].

إن المسألة تتعلّق بالهوية الخاصة بكل شعب، فالفرنسي يتغنّى بهويته لأنها خاصته وتحتوي على عناصر مميّزة له عن غيره، وفيها عناصر قومية مشتركة مع غيره من الفرنسيين، وهذه القاعدة عامة أي ينبغي أن تكون لكلّ شعب من دون استثناء ومهما

(1) حتى القديسين والشفعاء والأولياء المكرّمين عندنا هم ممّن اختارتهم الجهة المستعمِرة التي تنتمي إليها الطوائف وليس هؤلاء الذين يكوّنون فكراً جامعاً وموحّداً لتاريخنا وإرثنا الفكري. ومثلهم الأعلام والأدباء والشعراء والمفكّرون، فنحن لا نكرّم ولا نعتمد إلاّ من اعتمدته القوة الاستعمارية وسوّقت له، لسبب بسيط أنها رأت فيه مادة تخدم طموحاتها وأطماعها ونحن غافلون عن ذلك. وإذا قطع رأس أبو العلاء المعري لا أحد يهتم من العرب، بينما هو أمر ضروري للمستعمِر لأنه يخدمه، فأعلام ثقافتنا تضرّه أيما ضرر، ونحن نتفرّج، ومنّا من يهزأ، ومنّا من لا يبالي، ومنّا من لا علم له بشيء!

كانت درجة تصنيفه في تراتبية الشعوب، وهويته الخاصة المميّزة هي التي تجعله يصنّف في ركب الحضارة ومن دونها فهو نكرة، ولن ينفعه إذا أضحى تابعاً وتعلّق بذيل هوية أخرى فهو سوف يبقى دخيلاً ومتعدّياً وليس أصيلاً، أي على حدّ قول المثل الشعبي «مثل اللابس لبس عيارة» لا يريح من يلبسه ولا من أعاره.

لقد استشهد عدد من الشرفاء الوطنيين، هؤلاء الذين خصّصنا لهم عيداً خاصاً بهم (6 أيار والذي أُلغي اليوم) هؤلاء «الشهداء» الذين تنتصب قاماتهم في «ساحة الشهداء» في العاصمة بيروت، فهل لقنّا تلامذتنا وطلاّبنا معنى تلك الشهادة والأسباب التي من أجلها ضحّوا بحياتهم بعد أن وقفوا وقفة واحدة من أجل كلمة الحق بوجه ذلك السلطان الجائر، العثماني الذي سيطر على أرضنا لأكثر من 400 سنة ونيّف، حيث حاول العثمانيون خلالها ضرب الحضارة العربية لدرجة أن هذه المرحلة الطويلة من التاريخ تسمّى «عصر الإنحطاط» بامتياز؟ هلا ذكّرنا أطفالنا وأجيالنا أنه كانت وجهة تطلع هؤلاء الشهداء الرئيسية الحضارة السورية العربية الجامعة، أي التي تمتاز بالتنوّع والجامعة لعدد كبير من الأقوام والثقافات واللهجات والتقاليد، مشكّلة بذلك فسيفساءً إنسانية شاملة تُظهر هذه الصورة الحضارية الغنية التي انصهرت فيها شعوب كثيرة وطأت أرض سورية وامتزجت بنسيجها الحضاري مع الاحتفاظ بميزاتها الخاصة أي هويتها، وهذا ما جعل سورية الأرضَ الأغنى فكرياً، حيث تلاقحت الموروثات الثقافية لتكون مادة للخلق والإبداع تتفرّد بها. أليست هي مهد الحضارات والفكر والدين واللغة والكتابة والتاريخ والقانون والصناعات والتجارة... لدرجة أن الغرب نفسه يجد جذوره في سورية نفسها ويدين للمشرق القديم بحضارته ورقيّه وحتى بوجوده نفسه؟ وما قول العالم الأثري الشهير أندريه بارو (A. Parrot): «لكل امرئ منا وطنان، وطنه الأم وسورية»، إلاّ خير دليل عن الانتماء والهوية، فالإنسان يكمن بموروثه الحضاري وليس فقط بوجوده المادي وهويته هي ما يحمله من إرث ثقافي وليس فقط مكان ولادته وتاريخها وحيث نشأ وترعرع.

إذن، تعمل السلطات المستعمِرة أياً كانت (عثمانية، فارسية، فرنسية، إنكليزية، أميركية، صهيونية...) والمنتهكة أرضنا، جاهدةً لضرب هذا المكوّن الحضاري السوري العربي الوطني الجامع بكل جوانبه، لإدراكها مدى أهمّيته وخطورته أيضاً، فهو السلاح الأمضى المضاد لانتهاكاتها وهو المقابل لثقافتها التي تسعى إلى تعميمها، ويشكّل قوة بحدّ

ذاتها، لذا تعمل على تدميرها من أجل السيطرة الدائمة وذلك عبر تغييب كلّ وعي جماعي بالقومية والهوية حتى لا تقوم قيامة للسوريين العرب بعد ذلك.

إلا أن المفارقة كانت أنهم رغم كلّ ما مارسوه من ظلم وتنكيل وتهجير وقتل جماعي وترحيل لم يفلحوا في تحقيق مشروعهم الهدّام ذلك، وعجزوا أمام هؤلاء الوطنيين الذين تمسّكوا بهويتهم وبثقافتهم ووحدتهم والتي يبرهن عليها إيما برهان احتضان سورية الوطن لكلّ تلك الأقوام التي عاشت على أرضها لآلاف السنين وتفاعلت معاً. وهذا الاحتضان والتكتل الجماعي الجديد شكل قوة متوقّدة بوجه العثمانيين ومن بعدهم الفرنسيين، ما شدّد عزيمة القوميين على مواجهة المستعمر من خلال توحّدهم حول القضية الواحدة، وهذا ما جعل هذه القوى الاستعمارية الكبرى تنهار أمام هذه الوحدة القومية التي بتنا نشعر أنها مفقودة للأسف اليوم، ونخشى أنه لم يعد يبقى من تلك اللحمة الثقافية إلاّ الاسم فقط والذكرى لأن الكثيرين باتوا لا تعنيهم قيم الماضي ولا حتى شهادة هؤلاء القوميين الذين علّقت مشانقهم في ساحة الشهداء العام (1916)، ولا يأبهون للشرفاء الذين ناضلوا ضد الفرنسيين أبان ثورة (1925)، وضد الإحتلال الصهيوني (من 1949 -) أو غيرهم. ويكتفي المسؤولون بالاحتفال الذي أضحى ذكرى وتقليداً فارغاً من مضمونه تماماً، أشبه بالطقوس الدينية التي تحجّرت في قمقم الممارسات المتكرّرة ببغائياً ليس إلا!

وإذا كانت القوى الاستعمارية قد عجزت أمام تمسّك الوطنيين بثقافتهم ولغتهم وتقاليدهم المشتركة بغض النظر عن الدين والطائفة ليقينهم أنها من الأمور الثانوية مقارنة بالقضية الكبرى وهي الوطن والهوية قبل كلّ شيء، فلأن الشرفاء الوطنيين أولئك أيقنوا أن الدين لله والوطن للجميع»[1] و«لا إكراه في الدين»، و«لا فرق لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى»، وهذه تختصر مقوّمات الدولة المدنيّة، ولأنهم أدركوا وآمنوا أن الوطن الحضاري الجامع المانع لا صبغة طائفية له، وأنه لا يمكن إلغاء أي مكوّن من مكوّنات الوطن الكلي، أي لا يمكن نبذ الأقوام التي لا تنتمي لهذا الدين أو ذاك، وإلاّ ينتفي وجود الوطن الشامل. وهذا ما تريد القوى الاستعمارية ترويجه على مبدأ طائفي تفريقي

(1) هي عبارة قائد الثورة السورية الكبرى (1925)، ضد الفرنسيين، سلطان باشا الأطرش (1891 - 1982)، وردت في وصيته لأبناء الوطن التي نُقشت على ضريحه في قرية «القريا» بالسويداء السورية. وثمّة من يقول إن هذه المقولة هي حديث شريف في الأصل.

ولا تعير اهتماماً إلاّ للفريق الذي ينتمي إلى عقيدتها، أما الأخرون فهم نكرة[1] ويجب التخلص منهم وهذا ما تسعى ثانية إلى تحقيقه في زمن التقهقر القومي العربي الذي وصلنا إليه الآن.

أسماء الأماكن على ضوء قراءة التاريخ والأدب والفكر

والحق يقال، لقد استطاع الشهداء القوميون في أمّتنا العربية، أن يحفظوا لنا إرثنا القومي واللغوي والتراثي والحضاري، بما تسلّحوا به من عزيمة وحس وطني ووحدة رأي وقناعة من مواقفهم ولغتهم التي جاهدوا باسمها ورفعوا لواءها عالياً كعنوان وحدتهم وناضلوا بكل ما استطاعوا من قوة وعزيمة لإبقاء رايتها مرفوعة، وبالمقابل ناضل الأدباء واللغويون والمفكّرون في تلك الفترة كلّها للحفاظ على مقوّمات اللغة العربية من الضياع والاضمحلال واللاعودة، كما وعملوا على تنمية الروح الوطنية من خلال تشجيع العادات والتقاليد ورفعها إلى مصاف القداسة، فنرى أدباء النهضة (بداية القرن العشرين) يتغنّون بالحياة الريفية البسيطة ويضمّنون نصوصهم وصف بلادنا

(1) أين الأكراد والأرمن والمسيحيون الذين كانوا الأغلبية في تركيا واضمحلوا منها على إثر الإبادات الجماعية في حقهم على يد العثمانيين؟ حتى أن مرتبة دينية كبرى قد أصبحت مجرّد لقب وحسب وهي «بطريرك إنطاكية وسائر المشرق» تلك التي يحملها البطاركة منذ أن كانت إنطاكية عاصمة سورية الكبرى ومنطلق المسيحية الأوّل! فأين المسيحيون في إنطاكية اليوم والتي ضمّتها تركيا إلى ما ادّعته أراضيها (1916) قبل ضمّ «لواء الإسكندرون» (1928) الذي تحوّل اسمه إلى «هاتاي» ومعناه «بلد الحثيين» ولكأن الحثيّين هم غرباء عن سورية؟! وإن مثل القدس عاصمة المسيحية ومهدها وعاصمة الإسلام معاً ليس بالأفضل وهذه نتيجة ما تأتي به تلك الدول الاستعمارية التي تقوم على الأساس الطائفي الملغي للآخرين والمهدّم لكلّ ثقافة مغايرة! وما الكيان الصهيوني المختلق من قبل بريطانيا وفرنسا بمساعدة عثمانية والذي تبنّته الولايات المتحدة الأميركية، إلاّ الصيغة اليهودية للسلطنة العثمانية المتقهقرة بسعي من الحلفاء نفسهم، وما سياسة الصهاينة إلاّ نفسها العثمانية وهي تفريق العرب إلى ملل ونحل وطوائف ومذاهب وتيارت وأحزاب وأفراد متقاتلة فيما بينها حتى الاضمحال والقضاء على نفسها بنفسها، على مبدأ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ (الحشر، 2). ومن يتمسّك بالعثمانيين كونهم مسلمين أي على أساس ديني فقط، نعلمه أن السلاطين ترجموا القرآن الكريم وحرّفوا أسماء الأئمة وهدّموا مقاماتهم، وكان عهد منعوا خلاله لفظ اسم النبيّ العربي الأكرم «محمّد» واستبدلوه بالترجمة التركية «أُعز»، ومنعوا تلاوة القرآن الكريم بالعربية والتي هي أحد شروط الإسلام، فتصوّروا!

وأماكنها ويذكرون أسماءها وميّزاتها بحنين، تلك الأماكن التي ابتعدوا عنها قصراً، فهذه «الرابطة القلمية» في أقصى الدنيا (الأميركيتين) تعيد إلى الذاكرة أسماء قراها وضيعها وأريافها وبلداتها وتعبّر عن حنينها لملاقاة الوطن الأم ولاحتضانه. وما زالت أعمالهم شاهدة على الانتماء والهوية والوطنية ونبراساً لمن يهتدي بهديها. وقافلة المناضلين بالقلم هؤلاء الذين أبعدوا عن وطنهم قصراً، وعلى رأسهم جبران خليل جبران، ما زالت مواكبها تسير ولكن بخجل والمطلوب تفعيلها إلى أقصى حدّ في زمننا هذا.

لقد واجهوا كلّهم بشراسة عمليات التدمير المنهج للإرث الثقافي واللغوي وتحديداً عمليات تغيير أو تشويه أسماء المناطق والبلدات والقرى والضيع في وطنهم، وظلوا واقفين بوجه العثماني المحتل وبعده الفرنسي[1] المحتل واستنكروا سكوت الغرب المتواطيء معه ومشاركته في عملية سفك الدماء العربية، مختبئاً وراء عباءة الدفاع عن كرامة الشعوب وحقّها بالعيش الحرّ على أرضها. ولعل الكثير من الوطنيين أدركوا أن الغرب العميل يناور للوصول إلى مآربه من خلال التواطؤ مع المستعمر العثماني واللعب على مشاعر ووجدان العرب الذين اضطروا لوضع اليد معه للتخلص من شرّ العثمانيين، ليقعوا في شرّ الأوروبيين والغرب الاستعماري الذي، ما كادت الحرب العالمية تنتهي، حتى انقض على الشرق بأنيابه فارضاً مخططاته التي حاكها لمصلحته ومن أبرزها اتفاقية «سايكس - بيكو» (1916) التي قسّمت السلطنة العثمانية مناصفة بين الإنكليز والفرنسيين، ومن ثم مؤتمر «سان ريمو» (1916) الذي بموجبه بسطت فرنسا انتدابها على سورية، وواكبه تنفيذ «وعد بلفور» (1917) الذي قطعه الإنكليز للصهاينة وهو حلمهم القديم في الاستيلاء على فلسطين. وهذا التقسيم جزّأ سورية الكبرى إلى ولايات وكيانات حيث جُزيء الجزء لدرجة أن سورية، من دون غيرها، قُسّمت إلى أجزاء قُطّعت أوصالها الجغرافية والحضارية والثقافية واللغوية، وما لبث بعد ذلك أن أُلحقت مقاطعات أخرى منها بتركيا، بموجب اتفاقات بينها وبين فرنسا ومنها اقتطاع لواء الإسكندرون (1939) الذي يعتبر نموذجاً صارخاً وفادحاً عن ممارسات تلك العصابات

---

(1)

دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق
وللمستعمرين وإن ألانوا	قلوب كالحجارة لا ترق
وللحرية الحمراء باب	بكل يد مضرّجة يُدق

(أحمد شوقي)

التي تدفع وتشتري وتبيع وتقبض ما طاب لها. ثم بدأت عملية تركية ممنهجة لتغيير أسماء الأماكن والبلدات والقرى في اللواء، تزامناً بالضرورة مع ترحيل سكانه وتهجيرهم والتنكيل بمن يرفض الانضواء تحت الهيمنة التركية وما زالت عملية السطو والتزوير والتهديم مستمرّة إلى اليوم، فتغيير اسم اللواء من لواء الإسكندرون الذي حمله منذ أكثر من ألفي سنة إلى «هاتاي» أي بلد الحثيين، تبعه تغيير أسماء جميع المناطق والأماكن والبلدات والشوارع التي يضمّها اللواء حتى نسي سكانها أسماءها الأصلية. وحدها إنطاكية حافظت على اسمها وكانت عاصمة سورية قبل الدعوة المحمدية إلى يوم نقل معاوية العاصمة إلى دمشق وتأسيس الدولة الأموية. وما حال إنطاكية إلاّ كحال مقدونية شمال اليونان التي كانت أهم المقاطعات اليونانية والتي انطلقت منها فتوحات «الإسكندر المقدوني» سنة (333ق.م.) إلى الشرق والتي سُلخت عن اليونان لتفقد حضارتها وانتماءها وقوميتها. وما فلسطين إلاّ المثل الصارخ عن عملية التزوير الحضاري الممنهج، فبعد منحها للعصابات الصهيونية من قبل بريطانيا، بموجب «وعد بلفور» المشؤوم والذي يحقّق لهم إقامة دولتهم اليهودية على «أرض الميعاد» التوارتي التلمودي كما يدّعون، بدأت مباشرة عملية تغيير أسماء الأماكن وتزامنت مع التنكيل والقتل والتهجير الجماعي تحت قوة النار وتتوالى إلى الآن مع المجازر المرتكبة لإبادة وتهجير ما تبقّى من فلسطينيين في أرض أجدادهم ما برحوا يقاومون وحدهم، والعالم يتفرّج على حمام الدم الذي سوف يبقى وصمة عار يندى لها جبين البشرية إلى الأبد وسوف يقلق مضاجع هؤلاء العصابات الإرهابية الغاصبة ومضاجع أحفادها إلى الأبد. و«تهويد القدس» وكلّ فلسطين يُنفّذ تزامناً مع تغيير معالمها وتهديم صروحها التاريخية والأثرية حتى القضاء على كلّ شاهد تاريخي وعلى كلّ تراث يمت لحضارتها العربية الأصلية التي تنتمي إلى المشرق القديم بكل عراقته.

وتعمد السلطات المحتلّة في الكيان الصهيوني على نشر ثقافة يهودية بديلة مبنية على برامج عبرية مستحدثة منقولة عن تراث سورية القديم بحذافيره ولكن مع تزوير الأسماء والوقائع لصالح الصهاينة وجعل ادعاءات اليهود «شعب الله المختار» هم أصل الحضارة في المشرق ولهم يعود الفضل في تمدين الكون، حتى أنهم أدمجوا نفسهم بالساميين من كنعانيين وآراميين واستولوا على تراثهم اللغوي وهؤلاء منهم براء والبرهان أن الصهاينة غربيو المنشأ ولا يمتّون لليهود العرب الأصليين في المشرق بصلة،

وإن كان الدين القاسم المشترك بينهم، ونكرّر أنه لا تقوم الأوطان على أساس الدين! والعالم الغربي يؤيّد سياسة الإجرام هذه لأنها لصالحه وهي مسألة وجود بالنسبة له أن تبقى عصاباته من الصهاينة تنفّذ مآربه الاستعمارية في المشرق، فصراع شرق/غرب أو غرب/شرق واقع في التاريخ لا محال، وبتهديم المشرق حضارياً لا يمكن أن تقوم له قيامة بعد ذلك لتهديد الغرب والامتداد فيه كما حصل على مرّ العصور السالفة، حيث كان السوريون-الفينيقيون-العرب هم أسياد الغرب أبان قوتهم القديمة الفينيقية والقرطاجية وأيضاً أبان الدولة العربية الأموية التي استوطنت الغرب (الأندلس) لقرون طويلة (من 711 - 1492) وكان من نتائج هذه التمركز أن وُضعت أسماء الأماكن والمناطق والمدن بالأسماء الفينيقية (زمن ملقرت وأساطيله) ولاحقاً، أسماء عربية ما زالت ماثلة وحيّة إلى اليوم تشهد على التاريخ المجيد لأجدادنا العرب وإنجازاتهم التاريخية الحضارية التي أدّت إلى تطوّر ونمو الغرب وازدهاره في شتّى ميادين العلوم والمعارف والصناعات وفي مجال الآداب كافة وأثّرت فيه أيما تأثير إيجابي، دونما الحاجة للقضاء على إرثه الثقافي والحضاري الخاص وموروثه القومي المميّز له، بل تفاعلت الحضارات والثقافات المختلفة لتؤلّف حضارة جامعة يتباهى كلاهما الغرب والشرق معاً بالانتماء إليها وبفخر. وهذا عكس الاستعمار الغربي المتوحش والمدمر للشرق والقاضي على الهويات الثقافية، والسبب بسيط فأنّى لغير المتمدّن أن يعطي حضارة؟ ولو تداركت شعوبنا وأقوامنا العربية حقيقة أمر الغرب وأطماعه لكانت ردأت عنها خطره القاتل ولكانت سعت إلى وحدة قومية مبنية على المقوّمات الحضارية الجامعة لأبنائها والتي كانت سبب قوتها وانطلاقها الحضاري إلى العالم والذي ما زال يشع نوراً وأنواراً بفضلها إلى اليوم.

الوجود بين إرساء وإلغاء. ماذا يبقى وماذا يزول؟

إن معركة الوجود هي معركة الحضارة نفسها. وعبارة معركة تفيد المعنى بدقّة لأن الصراع على البقاء يعادله الصراع على الإلغاء، بل هو متوازي معه، فبقاء فريق رهن بزوال فريق آخر وهي حلقة مفرغة تدور فيها البشرية منذ «قصة الخلق».

غزو الفضاء وبصمة المستقبل

يطالعنا التاريخ بحدثين مهمين هما إنجاز «نيل أمسترونغ» وطبعة قدمه على القمر ونجاح مهمة «النازا» بإرسال «روبوت» إلى المريخ، تحت إدارة العالِم اللبناني شارل عشي. لا شكّ أن خطوة «أمسترونغ» هي التي مهّدت لنجاح خطة «النازا» في الوصول إلى المريخ وسعيها إلى تحقيق حلم دولة بلغت قوتها حدّاً أنها لم تعد تكتفِ بالأرض، بل تعدّتها إلى الفضاء وهذا شأن الدولة القوية في كلّ زمان ومكان وهو أن تتخطّى حددوها في كلّ الاتجهات، تعبيراً عن قوتها وتقدّمها وتثبيتاً لهيبتها وهيمنتها. إنه السعي إلى تبووء المركز الأوّل في السباق إلى تخليد الاسم في الوجود. وهو سعي البشرية الدائب منذ بداية الخلق وقد تداولته كلّ قصص الخلق، إنه السعي إلى الخلود. وبحسب نظرية «داروين»، فالبقاء دائماً للأقوى والقوة هي العنصر الفاصل في هذه المعركة. ولكن يبقى السؤال: ما هي هذه القوة؟ هل هي قوة البطش العسكرية، قوة الهمجية المدمّرة والقاضية على الوجود أم قوة السلاح النووي الذي لا يبقي حتى أثراً بسيطاً للحياة؟ ما هو السلاح الأمضى في معركة الوجود؟

والحقيقة هناك سلاحان لا سلاح واحد وهما سلاح الجهل وسلاح الفكر، الأوّل مدمّر والثاني مدمّر أيضاً ولكن بطريقة بنّاءة وهنا المفارقة: فكيف لسلاح أن يكون بناءً؟ فإذا كان الجهل هو أقوى الأسلحة المدمِّرة للحضارة، حضارة الآخر ولكن أيضاً حضارة المعتدي نفسه ويهدّد وجوده ويقضي عليه، لأن الجاهل أوّل من يدمّر يدمّر نفسه، (تخيّلوا مثلاً كبسة زر طائشة لقنبلة ذرية، فماذا تكون عواقبها؟). بالمقابل، فإن سلاح الفكر هو على العكس تماماً، لأن مصنّعه يسعى إلى بقائه وبقاء الآخر معه وذلك بعد أن يكون قد قضى على الجهل قضاءً تاماً وصارعه بأقصى ما أوتي من قوة ودمّره وأحلّ مكانه فكراً حضارياً بنّاءً يسعى إلى خير البشر وتطوّرهم ورقيهم الفكري والحضاري والوجودي. إنه سلاح المحبة وهو الضامن الوحيد للخلود.

فكر ناجز وتام غير قابل لا للتغيير ولا للتعديل

ولكن من مبدع هذا الفكر وما هي فعاليته وهل أنه ناجز وتام أم أنه عرضة للنقصان وحتى إلى الزوال؟

في الواقع، منذ أن سعى الإنسان إلى تطوير ذاته ومجتمعه، أي منذ العصور الما قبل تاريخية حيث لم تكن الكتابة قد أوجدت بعد، راح إنسان الكهوف يصوّر على جدرانها

معتقداته وتطلعاته وأحلامه وكتب بلغة الصورة ما راوده من أفكار وهواجس وتخيلات، أو عبّر، من خلال الصورة، عن طبيعته وبيئته وهذا التعبير هو خير دليل على إحساسه ووعيه بوجوده المادي، وكذلك المعنوي والفكري الذي يتخطّى البشرُ، من خلاله، طبيعتَهم الحيوانية إلى الطبيعة الخلاقة والإنسانية. فطبَعَ إنسان ما قبل التاريخ آثار يديه وقدميه في التربة الصلصال أو على حوافي المغاور وهكذا خلّد أثره الذي من خلاله تعرّفنا عليه وأيقنّا وجوده ومراحل تطوّره، فعرفنا أنه لم يكتف بالابداع المادي بل تخطّاه إلى الابداع الفكري باختراعه أداة تخليد عبقرية، ألا وهي الكتابة، وكأن الصورة لم تعد تكفيه بل تعدّاها إلى الرمز والرمز المشفّر المعقد الذي يضمن له قوته الفكرية واحتكاره المعرفة والعلوم، فكان تطوّر الكتابات من تصويرية (الألف الرابع ق.م.) إلى مقطعية (الألف الثاني ق.م.) إلى أبجدية (الألف الأوّل ق.م.) وهذه الأخيرة، بخلاف سابقتيها، أدخلت الإنسانية في النهج الديموقراطي في تعاطي الإنسان مع أخيه الإنسان، إذ فتحت لكلّ الأقوام السبيل إلى المعرفة والثقافة وكان مبدعوها هم نفسهم من أبدع الفكر البنّاء، أمضى سلاح وهو سلاح المحبة بين البشر والتسامح والإخاء المبني على التعليم والتنوير ونشر العلم والمعرفة والحق والجمال أين ما كان.

إنهم السوريون، سكان المشرق القديم! لقد بلغت بهم فلسفة الارتقاء والسمو، منذ «جلجامش» وحتى السيّد المسيح والنبيّ محمّد[1]، درجة لم تبلغه ولن تبلغها حضارة أبداً. لقد أنجزوا فكراً خالصاً، غير قابل للتغيير ولا للتعديل بأي شكل من الأشكال ولا يمكن خرقه بأي قوة كانت، ولكنه فكر يحتاج لقوة تسانده وتدعمه وتدفعه، ليس فقط من أجل إحيائه والمحافظة عليه، بل من أجل نشره. وهكذا فإن السلاح الذي استخدمه السوريون - العرب كان من أجل بناء الصرح الإنساني وليس من أجل تهديم الإنسان، والقوة البنّاءة وحدها كانت كفيلة أن يحقّق ما حقّق، والدليل انتشاره في كلّ الفكر الإنساني وتغلّبه على كلّ فكر آخر وكلّ فلسفة أخرى، هذا إن وجدا، وانصهار الكون في بوتقته. إنها قوة دولة قادرة أن تحمي مبادئها وإبداعاتها، إنها الدولة - الإمبراطورية السورية القديمة. ولست أدري إذا كانت ثمة رياح أو غبار سوف تغطي أو تزيل طبعة

---

(1) راجع بهذا الصدد دراسة الدكتور عاطف خليل الحكيم: «بيروت، طائر الفينيق والتنين، دراسة في الفكر الديني القديم»، في إطار بيروت عاصمة عالمية للكتاب، بالتعاون مع وزارة الثقافة وحلقة الحوار الثقافي، بيروت، 2009، ص 277 - 326.

قدم «أمسترونغ» على سطح القمر أو أن قوة أخرى سوف تمحيها، أما الأكيد فهو أن الفكر السوري خالد ولا يمكن محوه بأي طريقة ما دام الإنسان إنساناً، لأنه ماهية الإنسان نفسه وليس شيئاً آخر، وهو مبدأ اعتنقته كلّ الإنسانية ولم يعد حكراً على قوم أو أفراد أو جماعة، إنه ببساطة حرية الإنسان وكرامته ويتعلّق بوجوده.

هذه آثارنا تدلّ علينا

إن بترول العرب ما هو إلاّ وسيلة الغرب الاستعماري لضرب العرب بمال العرب أنفسهم، هذه هي كلّ أطماع الغرب الاستعماري التي طالما يُحكى عنها. إنه مجرّد وسيلة للاستعمار بيد لصوص الاستعمار وقراصنته، وقد أوجدتهم دول عظمى من أجل ضمان وجودها منذ الرومان، مروراً بفرنسا وإنكلترا وقراصنة ملكتها ووصولاً إلى الولايات المتحدة الأميركية. واليوم، يستمر نهب ثروات الشعوب العربية باسم ما يسمّى استعمارياً بالربيع العربي من أجل دعم الإرهاب والتطرّف لصالح المستعمر الأميركي الذي اخترع الإرهاب ويموّله من جيوب العرب لضرب العرب، بحسب شعار السي ي ي: «ليس المهم من يحمل القنبلة المهم على من تقع»!

ولطالما ناقش النقاد مسألة النفط هذه وأطماع الغرب فيها واليوم يتحدّثون عن الغاز وبعضهم الآخر عن الماء وغيرهم عن أي مصدر طاقة يطمع الغرب الاستعماري في الاستيلاء عليه في أرض العرب. ولكن هل من أحد تنبّه إلى مسألة الفكر والحضارة والإبداع وأطماع الغرب الاستعماري فيها، ليس لامتلاكها بل لتدميرها؟ هل من باحث أدرك أن هدف الغرب الاستعماري هو أوّلاً وأخيراً القضاء على ثقافتنا وحضارتنا وبالتالي وجودنا وهويتنا، إنطلاقاً من مبدأ «إذا أردت أن تقضي على أمّة فاقضي على ثقافتها»؟ هل فقهوا معنى لهذا المأثر العظيم بعد أن رأوا بأم أعينهم فضاحة التهديم الذي قضى على المتاحف وعلى المواقع الأثرية التي لا تعوّض في بلادنا؟ وألم يتدارك أحدٌ بعد فظاعة ما حصل وأبعاد ما يصبو إليه أعداؤنا من القضاء على كلّ دليل ثقافي وهو علّة وجودنا ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؟ وإن لم يفقه البعض إلى اليوم خطورة تدمير التراث والفكر الحضاري القومي الوطني (باعتبار الجهلة كلّهم، وهم كثر يرفضون هذا الفكر النهضوي لمجرّد الرفض والمعارضة!)، أفلم يقرأوا، وهم الباحثون الأفذاذ، مؤرّخي الحضارة العربية وعلى رأسهم وربما آخرهم ابن خلدون في مقدّمته الشهيرة والتي طالما يستشهد مثقّفو العرب بمضامينها الاجتماعية وغيرها من الشؤون التاريخية؟ فهل قرأوا أن ابن

خلدون، في عرضه للتطوّر في المجتمع وبحثه في العمران، قد ذكر ما يسمّى «بالمتخلفات» وهي الآثار التي تبقى بعد زوال العهد الذي نشأت فيه، فتكون رواسب لأحوال قديمة ومنها نستخلص العادات والتقاليد، وأنه على، حدّ تعبيره، تكثر الآثار الضخمة في الأمم العريقة في حضارتها ومجتمعها الراقيين وتقلّ إلى درجة الصفر في غير ذلك وأن كلّ أثر يدلّ على ماهية الشعب الذي حقّقه؟[1]

وهذه آثارنا تدلّ علينا. إنها ضخمة، إنها عريقة وإنها ماثلة للعيون تتحدّى الزمن والبشر والطبيعة... فإذا كانت آثار بعلبك، على سبيل المثال لا الحصر، بهذه الضخامة اليوم، فكيف كانت في الأساس قبل الخراب الذي حلّ بها؟ والشواهد المادية للحضارة السورية تنتشر في متاحف العالم بموجوداتها التي لا تقدر بثمن من أدوات عظمية وحجرية ومعدنية وفخارية تعود إلى الإنسان الأوّل، مروراً بما ابتعدته عقول وأيدي أبناء سورية من صناعات وفنون، وصولاً إلى الرُقُم والتماثيل والأثاث والزجاجيات والخزفيات والمسكوكات واللوحات والمنحوتات الناتئة والنافرة إلى النواويس والآنية على أنواعها إلى الحلي... وليس انتهاءً بالمخطوطات واللفائف والمدوّنات التي احتوت فكرهم وتاريخ علومهم وإبداعاتهم، إلخ...

وهذه أسماؤنا وأسماء أماكننا والتي انتشرت في العالم، فكيف لا تدلّ على عظمة أجدادنا الذين أرادوا ثقافتهم منيعة وعملوا جاهدين حتى تخلد ومن خلالها يخلدون؟ لقد نقشوا الصخور الضخمة وسمّوها بأسمائهم فكانوا من الذكاء أن خلّدوا في الحجر وجودهم وهو ما لن تستطعه أي وسيلة تكنولوجية اليوم وحتى لو كانت الأعظم والأكثر عبقرية، لأنها تعمل على الطاقة، فإذا اضمحلت الطاقة فهل يضمحل ويمحى أثر مبتكريها؟ والجواب: بالطبع نعم! وحتى طبعة قدم «أمسترونغ» على سطح القمر، فإذا لم تتوفّر الطاقة للذهاب لرؤيتها، فتكون عبثاً ونكرة لأن ما من أحد يستطيع رؤيتها أو التأكد من صحّة وجودها، هذا إذا ما صدف وعلم بشأنها أحد في الأجيال المقبلة!

إنما أجدادنا قد فهموا أهمّية الوجود والاستمرار وأن الإنسان يعيش بذكراه، باسمه

---

(1) هنا لا يسعنا إلا ذكر حديث للنبيّ الكريم محمّد عندما سُئل عن القلاع في المدينة المنورة (يثرب): «هذه الآطام، ماذا نفعل بها؟»، قال: «اتركوها فهي زينة المدينة»! (بتصرّف). ألا يكفي هذا القول شاهداً لكي يضع حدّاً لمن يهدّم الآثار الشاهدة عن عظمة أجدادنا مدّعياً انه يهدمها باسم الدين والدين براء منها؟ والدين براء من أيدي عملاء المستعمرين المخرّبين هؤلاء!

وليس بشيء آخر، فمن امتلك الذاكرة امتلك الوجود، أما ما يقال عن النسيان وإنه من حسن الحظ أن الإنسان ينسى (الإنسان نسى)، وما ينصح به، خاصة علماء النفس، مشجعو الغريزة الحيوانية، منذ زعيمهم المهدّم للسمو الإنساني والرقي، «فرويد» الداعي إلى رمي الماضي وذكرياته إلى دون رجعة وكأن كلّ المسائل عاطفة وحزن وقلوب مكسّرة وخيبات جنسية وعجز وهستيريا فردية وجماعية، ما هو إلاّ محو للماضي وللذاكرة وهو هذيان وضرب من ضروب التخريب. فهل نسي أعداؤنا، ومنهم «فرويد» نفسه، ذاكرتهم وتاريخهم؟ أبداً! حتى أنهم ما برحوا يصطنعون تاريخاً مزيّفاً للبرهان عن وجود حضاري مزعوم لهم في التاريخ، فحبذا لو تعلمنا! وما فتيء العرب يتغنون بأنهم ينسون بسرعة ويبدأون من جديد ويضربون المثل بطائر الفينيق الذي هو منهم براء فهو يموت ويقوم من أجل مجد أكبر ممّا كان عليه من قبل، يجدّده كلّ فترة للتطوّر الدائم! أما هم، وبلسان شعرائهم وما أكثرهم! فعلى أي أساس ينهضون؟ على أساس الخرافة والكذب على النفس وانتهاج سياسة النعامة وتعليل النفس أن قوتهم في ضعفهم، متجاهلين أنهم ما زالوا ينامون نوم أهل الكهف منذ هزيمة الأمّة سنة (1516). والمطلوب بإلحاح اليوم وأكثر من أي يوم مضى في معركة المصير والوجود التذكّر ووضع التاريخ نصب أعيننا حتى نفقه ما هو مستقبلنا وماذا ينتظرنا وما هو مصيرنا الذي يتحدّد عبر قراءة الماضي والعودة إلى التاريخ.

الفكر صناعة سورية - عربية

ولعل الاكتشاف الأهم في مسيرة الإنسان أنه وعى باكراً، في هذا المشرق القديم، أي في سورية الكبرى، فلسفة وجوده، فمنذ «جلجامش» الذي ذهب في رحلته الشهيرة، بحسب ما ورد في النقوش السومرية (الألف الرابع ق.م.) والأكدية والبابلية (الألف الثاني ق.م.) والأشورية والفينيقية (الألف الأوّل ق.م.)، ولاحقاً في المخطوطات السُريانية والعربية والتي نقلت إلى الفارسية والسنسكريتية الهندية (من القرن الثالث ميلادي إلى القرون الوسطى وعصر النهضة)، للبحث عن نبتة الخلود، كانت النتيجة الخيبة الكبرى التي انتهى إليها في اكتشافه، في آخر المطاف وبعد المشقّات التي عاناها خلال مغامراته وترحاله، أن الخلود ليس للبشر وإنما هو حكراً على الآلهة ومصير الإنسان الحتمي هو الموت والفناء وأن الخلود للإنسان لا يتمّ إلاّ بالأعمال الصالحة والذكرى الطيبة والاسم المنزّه عن كلّ عيب. فكانت نشأة فلسفة المحبة وبذورها الأولى والتي سوف

ترتقي من «جلجامش» إلى «أدونيس» إلى السيّد المسيح إلى الرسول العربي، مؤسّس الإمبراطورية العربية، حتى تصبح القوة الحضارية الأزلية[1]. وهكذا هي الحكاية منذ «جلجامش» الذي صارع قوى الشر من أجل البقاء والخلود. إنه باختصار صراع الخير والشر والتي تناقلته كلّ فلسفات الشعوب وفي كلّ الأزمان. هذه الجدلية الحتمية عند الإنسان تعبّر عن ماهيته وطبيعته التي لا يمكن له أن يتخطّاها إلاّ بالسمو والرقي وأداته المحبة والسلام ليس إلا، فلا التحنيط قديماً ولا التناسخ حديثاً يمكنهما استنطاقه، وحدها أعماله هي التي تتحدّث عنه وتخلّده إلى الأبد، وحده اسمه الذي يبقى.

التدمير، وسيلة لإلغاء الهوية فاشلة

وبمقابل الخير والمحبة، هناك تيار الشر الذي أبداً يسعى إلى إلغاء الآخر والقضاء على وجوده ويتمثّل بداية في «قصة الخلق» وبصراع العناصر وانفصالها ومن ثم بصراع الأخوة الأعداء الذي بقي لنا شاهد عنه في التوراة، وهي ناقلة الفكر السوري القديم، صراع «قابيل وهابيل» والجريمة الأولى في التاريخ كما يقال. هي باختصار قصة إلغاء الآخر من أجل التفرّد في البقاء، مردّها إلى السوء الكامن في البشر وكأن الأرض لا تتسع لاثنين معاً[2].

دائماً، يسعى الإنسان الحضاري، صاحب الفكر والإبداع، إلى البناء والرقي. وأبداً، يسعى صاحب النهج الهمجي إلى تهديم تلك الإنجازات الحضارية والفكرية والروحية السامية، ليعود بالبشر إلى الحضيض والفناء. لقد مرّ الغزاة بوحشيتهم على أرضنا حتى أنه لا يتسع المجال هنا لذكر ولو بعض أسماء هؤلاء الغزاة الذين تضافرت جهودهم، على مرّ السنين، للقضاء على سورية، فمن الفرس واليونان والرومان والتتر والمغول والفرنجة الذين حملوا رمز الصليب زوراً وبهتاناً باسم «شهود يهوه»، إلى البرجيّين والأتراك والعثمانيين والغرب الاستعماري اليوم، كلّهم مرّوا ودمّروا تراثنا وإرثنا المعماري والثقافي وأحرقوا مكتباتنا وشوّهوا أسماء أماكننا، من «يوليوس قيصر» وحرقه لمكتبة

---

(1) عاطف خليل الحكيم، «بيروت، طائر الفينيق والتنين...، المرجع السابق نفسه.

(2) للأسف لم تتسنّ لهما الفرصة آنذاك أن يستمعا إلى «هيلاري كلينتون» وهي تتوجّه للصينيين اليوم بقولها إن المحيطات في آسيا تتسع لأميركا وللصين معاً، فلم التزاحم؟ وكأني بها تقول لهم: «تحالفوا معنا اليوم حتى نقضي عليكم غداً بعد إرهاقكم بالتسليح وإضعافكم».

الإسكندرية (48 ق.م.)، حتى «جينكيزخان» الذي وحّد القبائل المغولية (1215) وأعدّها لغزو سورية والاستيلاء على عواصمها ابتداءً ببغداد، واضعاً حدّاً لخلافتها العباسية الماجنة، الضاربة عرض الحائط بالهوية العربية وإمبراطوريتها العظيمة التي أسّسها أجدادنا بدمائهم، هذه الخلافة العباسية الخرفة التي انتهت بموت آخر الخلفاء العباسيين، المعتصم، الذي مُثّل بجثته (تماماً كما فعل التتر الجدد بجثث شعبنا اليوم، فهم همجيون ولكنهم يقرأون التاريخ من أجل مصالحهم!) وأحرقت بغداد ومكتباتها و «بيت الحكمة» فيها على يد «هولاكو» وجنده (10 شباط 1258) (تماماً كما أحرق الهمج الجدد اليوم متاحفها وبيوت العلم والمخطوطات فيها ومواقعها الحضارية). وسنة (1401)، إحتل «تيمورلنك» حلب ومن ثم دمّر سورية وميراثها المعماري والفكري...

فلماذا يدمّرون وما هو مرماهم وهدفهم من ذلك؟ لماذا سورية ودائماً سورية؟ فإذا كان العالم الأثري بارو (Parrot) قد صرح منذ نحو قرن أن على المرء أن يكون له وطنان بلده الأم وسورية، فلماذا تدمّر ولماذا الغرب تحديداً يسعى لمحوها عن خارطة الوجود؟ بالتأكيد! هي لن تزول جغرافياً، رغم اقتلاع جبالها وتلويث أرضها، ولكن ماذا يدمّرون منها؟ يدمّرون فكرها الماثل في حضارتها ومن خلاله استمرار وجود شعبها وهويتها. إنه دائماً صراع شرق - غرب وغرب - شرق[1].

لقد حسمت سورية أمرها وقالت كلمتها الأخيرة، في معركة الوجود، أن أحبوا بعضكم البعض والسلام عليكم، بينما ما زال الغرب يتخبّط خبط عشواء بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء ومكر وخداع وتقنية وسلاح وعملاء، حتى ليكاد يدمّر نفسه، فهو تارة يسوّق الغرائز والقرصنة والأفلام والروايات التي عُبّئت بفلسفة الدمار التي ينتهجها من خلال تسويقه مناهج العنف والإباحية والدم والقتل، إلخ... يدمّرون وينشرون الخراب والفناء ويسوّقون لأبوكاليبس (apocalypse) قادم ينتهي معه العالم إلى الأبد، وهذا دينهم وديدنهم، ثم يدّعون نشر السلام والمحبة والديموقراطية والحوار والاعتراف بالآخر إلى ما هنالك من فضائل تسوّقها جمعياتهم الخيرية على كثرة أسمائها وتوجّهاتها وكذلك أصحاب الجلابيب السود، عملاؤهم... ومن دواعي السخرية أن أهم جائزة في العالم اليوم هي جائزة «نوبل» للسلام، فتصوّروا هذه المهزلة: مخترع الدمار يُوضع

(1) للباحث الدكتور عاطف خليل الحكيم أبحاث قيّمة يعرض فيها لنظريته صراع شرق/ غرب وغرب/ شرق. ذكرنا بعضها في سياق بحثنا.

اسمه على جائزة للسلام ويصدّق العالم هذه الحيلة، فكيف ذلك؟ إنه ببساطة حق يراد به باطل! فهذا السلام هدفه الخفي الدمار، فالجائزة تمنح إلى من يخرّب بلاده ويتعامل ضدها ويضع يده بيد المحتل والمستعمِر ويعمل لمصلحته، تماماً، مثل جوائز المغنين التي تُمنح إلى الأقزام وإلى مهدّمي الفن من قبل شركات التسويق والتسويف العالمية.

والسؤال: هل حركة الدمار نجحت في التاريخ، ونجحت اليوم، وسوف تنجح مستقبلاً؟ هل ألغت وجود سورية الحضارة؟ والجواب: لا، لأن الوجود مرتبط بالوجود الفكري الذي أرسى دعائمه دعاة الفكر، السوريون العظماء، بحيث أنجزوا فكراً ثابتاً لا يمكن لأحد تعديله البتّة، فهو غير قابل للتغيير لأنه تام وناجز وكامل، هو فكر المحبة والسلام الذي يعمّ فلسفة العالم الأخلاقية التي تسعى إلى الرقي والسمو بالإنسان. ودليلنا هو تبنّي أداة الشر نفسها لهذا الفكر وإلاّ لو فعل المدمِّر العكس لدمّر نفسه قبل غيره. وباختصار: لو جاء الغرب الاستعماري يقول علانية: «سأدمّركم!» فهل من أحد يرضى؟ لا أحد يرضى بطبيعة الحال، باستثناء المرضى والجهلة وعميان البصيرة والمخدّرين وهم كثر للأسف في شعبنا اليوم! بينما لو جاء يقول: «أحبكم والسلام لكم وعليكم»، فهل ننصاع؟ بالتأكيد والكون كلّه معنا! وبهذا يكون، حتى أشرس المعتدين قد انصهروا في قالب الفكر السوري الذي انصهر فيه قبلهم كلّ الغزاة، ويكونون بذلك قد عادوا إلى سوريتهم الأولى، إلى مبدأ المحبة الذي لا زوال له، ومن هنا خلود سورية وأزليتها بفضل هذه القوة التي لا تضاهيها قوة، قوة المحبة التي ترزح تحتها القوى الزائفة كلّها.

ألا يكفي هذه الأمّة فخراً أن أسماء الأماكن في العالم أجمع انطلقت منها لتخلّد ذكراها إلى الأبد؟

ملحق[1]

«الصخور أفواه تتكلّم»

بين ترشيش ومجدل ترشيش قممٌ، قممٌ تطل على قمم مزروعة بشراً من صخور ويبدو أن الموسم وافر وقد اقترب زمن الحصاد، والحاصدون كاميرات بدلاً عن الديناميت، واللون بدلاً عن المخل، والكياسة بدلاً عن المهدّدات، والذوق بدلاً عن مطارق الكسارات.

هذا، والكاميرات تحمل الصخور إلى بيادر الاستنتاج والاستقراء والاستنباط وليست هي كما الكسارات تحملها إلى طرقات العجلات والمهملات والفوضى.

قرار اتخذناه، لقد أهملنا صورة الديناميت المرعبة وتجاوزنا عنها إلى صور الاستنباط والاستقراء عن سابق إصرار وتصميم، تجاوزنها إلى الرسم بالكلمة. هيا! اعتلوا أجنحة الخيال وتعالوا نحلّق معاً إلى فضاء التصوّر ونتحدث بألسنة لم تخطر على بالٍ ولن...

لم أتقدم على الصخور بالحديث، لقد سبقتني هي إلى الحديث.

على طول الطريق ما بين ترشيش والروشة ألسنةٌ صخرية تحدّثك والحديث شتّى.

جماعات، جماعات جيران، جماعات من رمال وجماعات من تراب وجماعات من حصى، هذه جماعة رمداء وتلك جماعة سوداء وهناك جماعة صفراء...

وقفت متعجباً!، فقالت إحداها وهي السوداء، لأنها الأكثر وجوداً وحضوراً: «ما زال في قلبك شكٌّ، مما العجب! ألا تعلم أن الصفة تدلّ على الموصوف؟ ألا تعرف أن الاسم هو عين الموجود؟ أنتَ نفسكَ أثبتَّ ذلك! كم من مرّة برهنت على الحقيقة العلمية

(1) لما كانت مادة علم أسماء الأماكن تفضي بالضرورة إلى موضوع هام هو الانتشار الحضاري عبر الأسماء وتحديداً الانتشار السوري - الفينيقي - العربي في العالم، ارتأينا إضافة هذا الملحق الذي كتبه بهذا المعنى الدكتور عاطف الحكيم المهتم جداً بدراسة اللغات الساميّة القديمة (السُريانية - السورية). ونصّه يُظهر بوضوح قيمة الطبيعة السورية الناطقة تعبيراً فنياً عن جمال بلادنا التي نقل رجالُها اسمَها وفكرها وثقافتها وحفرت إلى الأزل على الصخور. من هنا كان عنوان لوحة الغلاف «من ترشيش إلى ترشيش» أي البداية من صخور ترشيش اللبنانية، مروراً بطرطوس الساحلية، و«تارسيس» في آسيا الصغرى وصولاً إلى «ترشيش» في إسبانيا وربما أبعد.

هذه، ألم تكن هذه هي دلالتك البحثية في تفسير الأسماء؟

أجل! لا يأخذك العجب، ومثلما أنتَ تضمر اللحظة تماماً، فأنا الأكثر سواداً من عشيرة الحديد، وتلك الرمداء من عائلة الرصاص، وهاتيك الصفراء من بيت النحاس... أنظر، تقطع الشكّ باليقين، نحن الحجر أصل البشر، ونحن في الأساس تعود أصولنا إلى الصخور قبل أن يفتّتنا أبناءُ جنسك ويسرقوا مادتنا، أبناءنا، ثم يتركوننا غير مبالين للإهمال والنسيان.

سيدي، امض في طريقك، طريقك أجسادنا، ودعنا لهمومنا وآلامنا».

ومضيتُ ليوقفني العجب ثانية، وقفت أمام قصر حجارته آيات ناطقات من الجمال وكل حجر يقول: «وهل يحسب الإنسان نفسه مثّالاً؟ هل يظن الإنسان أن جمال أزاميله أجمل من جمال الطبيعة؟ ألا ليت الإنسان يعرف أن أكثر آيات جمالات الأزاميل هي من أشدّ ألامات الحجارة! الجمال الذي أبدعه الإنسان ليس هو إلاّ آلام الحجارة! هي حياتنا نحن الحجارة: ديناميت، فمخل، فمطارق كسر. وهي حياتكم أنتم البشر: إدعاء، فمباهاة، فعجب.

ارحمنا أيها المتعجب وامض في رحلتك السرمدية!»

قليلاً، وقفتْ الحجارة تستقبلني، عادتها، مثلما تستقبل كل ضيف بالترحاب. وأكثر الضيوف يمرّون سريعاً مرور الكرام أولئك الذين يمرّون مرّ السحاب، يمرّون ولا يقفون ولو هنيهة ليبادلوها الترحاب بترحاب أحسن منه.

أما أنا فوقفت، فقالت: «اقترب وتحمّم معي بذوبان صنين الباردة». ركنت السيارة واقتربت وتحمّمت وشربت من ماء تحمّمت منه، فسكرت وفاضت قريحة الوجود.

هما صخرتان وكأنهما راهبتان وقفتا وجهاً لوجه تحرسان الجبل من كلّ نفس مريضة عابثة، عابسة... وقد سوّلت النفس نفسها المريضة لتعبث بجمال الطبيعة.

وهذه صخرة حبلى استراحت القرفصاء وكأنها مجسّم إلهة الأرض في لحظة المخاض، فقعدت تولد الصخور أصنافاً وأنواعاً وأحجاماً وأشكالاً...

وتلك صخرة تمثّل دور السيد يسوع... وقد لاحظ أحدهم هذه الصورة وتمثّلها، فجاء بتمثال السيدة العذراء ووضعه قبالة الوجه، فأضفى وضعه على المكان خشوعاً ومهابة ورهبة ورحمة.

أما هذه الصخرة، فقد بسطت يداً وكأنها يد شرطي مرور ويرشد الناس إلى جادتهم حيث صراط الأمان.

وهنالك صخر مهشّم يذرف الحصى دمعاً ولسان دموعه يقول: «أهكذا يبادل ابن التراب جمالي بقبحه، وخيري بشرّه، وحقّي بباطله؟ ومع كل ذلك، فإذا جاءني يوماً معتذراً سأوسّع له على الرحب في صدري قبراً يقيه غضب الأنوف الشامرة».

وصخرة عرضت صدرها العزّ، إلاّ أن إنساناً ما لم يعجبه عزّ الصدر، فجاء بمثقاب وثقب الصدر وثبّت في الثقب مسامراً وثبّت على المسامر صورة قديس... فانقسم المارة حول القديس، بعضهم يرجو ويتوسط وبعضهم الآخر يلعن ويسخر.

الذي لفتني صخرة سخّرت نفسها لنبتة بنفسجية، ليلكية، صفروابة، خضروابة... وتنهال الألوان مع كل زاوية شعاع، مائدة لمزهرية من طيف، ولقد غدت متناسقة، فهل يد الإنسان أكثر إبداعاً من يد الطبيعة؟!

وتلك شجرة قد نبذتها أمُها الأرض، ففتحت صخرةٌ رحمها وضمّتها إلى حضنها لتعوّيضها حنان الأم بأم. وبالقرب من الصخرة الرحم رحمٌ آخر، وإذا شئت فقل: كهف ويبوح بسرّ الحكمة التي حجبها الناس عن أنفسهم، إلا أنها هي مباحة لكلّ من يرغب ويشاء ويريد.

الصخور كثيرة، واسعة، رحبة... إلا أن لخيالي حدوداً، خيالي ومهما كان واسعاً، خصباً إلاّ أنه ضيق أمام فن الطبيعة وعظمة إبداعها.

الطبيعة كريمة سخيّة، بإمكانها أن تهبني خيالاً وافراً، سرمدياً لا نهاية له. إلاّ أنها سيدة عادلة تهب الخيالات بالمساواة بين الناس. هذا ومثلما سمحت لخيالي بالحديث والنسج والتقميش، فهي تسمح لكلّ خيالٍ بأن يجنح وينسج ويتحدّث ويقمّش، فاجنحوا وانسجوا وتحدثوا وقمّشوا.

يا لروعة تلك الحلبة! حلبة رقص تغصّ بالراقصين! والراقصون صخور، وتتحاشر الصخور في رقصة هادئة، رقراقة، وتتمايل على أنغام الخرير والحفيف والتغريد... ويمرّ النسيم منساباً، سريعاً بين الراقصين، إلاّ أنه يرتدّ عند كل منعطف صدى من وزّان وكأنما لسان حاله يدعو المتهالكين أن يكبحوا من أنفاس عجلتهم ويشاركوا الطبيعة رقصتها الموسمية في مناسبات أعراسها، هو ذا الطريق بمنعطفاته وكأنه معلّم ويلقن الناس فن الدوران في حلبة الرقص. وتنساب عن منعطفات الدوران موجةٌ من دوخة، دوخة إلاّ

أنها نشوة لطيفة أكثر منها دوخة .

وتمضي موسوعة الصخور تغور في الزمن وتهب خيالاً حتى للذين لا خيال لهم وتعطي أولئك تصوّراً وتسخو على هؤلاء بأحلامٍ . . . وتنتهي مسيرة القلم؟ ويبسم القلم ويقول : «هل من مزيد؟ من قال إن المسيرة انتهت ، فقد ضلّ ضلالاً بعيداً . واعلموا أن القراطيس ما زالت بيضاء وما فتئت جعبة الأقلام ممتلئةً!»

عجباً! ، هذه صخرة وقعت ككتاب مفتوح وتقرأ ذاتها ، على صفحتها اليسرى كُتبَ : أبجد ، هوز ، حطي . أما على صفحتها اليمنى فقد كتب : كلمن ، سعفص ، قرشت .

والعجب العجب! وصخرة سوداء كزجاجة نبيذ مرسلة هدية من التاريخ ، حُرر فَمُها ، فتدفق الماء نبيذاً ، أبيض ، سلسبيلاً .

وتنحنحت صخرة فوقعت تتكيء على صخر ، لم أرهما صخرتين ورأيتهما المسيح المعلّم يميل نحو متّى التلميذ ويقول : «أنت الصخر يا متّى وعليك أبني كنيستي» ، وعليه يقرأ عظاته .

وصخر في العلى بدا لأحدهم كشيخ يقف في باب صومعة ، وراح هذا الأحد يحدّثني بشغف حار ويشير قائلاً : «هل تلاحظ لحيته؟ هل رأيت جبّته؟» ونظرت ممعنَ الخيال ، فرأيت جبّته تمازحها الرياح ورأيت فماً يستعيذ بالرحمن ويداً منه تمسح لحيته .

هي الصخور أبجديةٌ سريانية وتتكلّم ، إلاّ أن القارئين قليل . هي الصخور أرقامٌ خورزمية وتحسب ، إلاّ أن الرياضيين قليل . هي الصخورُ أحيرامية وترسم ، إلاّ أن المهندسين قليل . . .

هناك أمام مدخل غابة صنوبر ، وقفت صخورٌ تشبه الحروف ، حرفان (ف) وحرفان (ياء) تبادلا المواقع ، وحرف (أ) وحرف (ن) ، لقد وقفت الحروف متأهبةً ، مستعدةً كربّة الغاب تحرس الغابة .

استأذنتها وولجت إلى قلب الغابة حذراً ، فأذنتْ ولوجي ، وحين امتدّت يدي لتعبث بطيّونها تعثّرتُ وكبوتُ ، فربطتُ الأسباب بالمسببات ، وعلمت أنها تحذّرني العبث بما هو ليس ملكاً لي إنما هو ملك الجميع .

وقفتُ شارداً من بعد عثرة ، فسرح نظري يتسلق الهضاب والتلال ويسابق النسور إلى أعشاشها حتى ثبت عند صخر شامخ ، قدماه الوديان ورأسه فوق السحب ، فتنبّأت وقلت : «هذا هو إله الجبل» . وما أن أعلنت نبؤتي حتى سرى صوت حذائي ينذرني

قائلاً : «تأدّب أيها السارح النظر ، اذهب وبشّر بأن الطبيعة حيّة ، ترى وتشعر وتحسّ» .

نأزتُ خجلاً ، ونظرتُ من حولي ، فإذا هو حالي يخجل من حالي ، وقال الصوت ثانية : «ما زال في خيالك شكٌّ!» وأجبت : «أجل» ، فحسبتُ أن إله الجبل قد هوى عليّ ، فرفعتُ يدي أتقي شرّ الوقوع ، فحسب إله الجبل أن يدي رفعت رجاءً ، فارتد راجعاً إلى مكانه حيناً تحتضنه السحب وحيناً تحرّره السحب من حبّها ، فيبتسم مشرقاً ، فتقترب وتقبله شمس المغيب شفقيةً متوهّجةً .

لم أبرح مكاني ولم استرد نظري ولم أحجم خيالي ، فإذا بإله الجبل يتحوّل إلى مسلّة أمامي ، دقّقتُ البصر ، فإذا هي مسلة حمورابي بشرائعه (282) المئتين والإثنتين والثمانين .

ثبّتُّ النظر على لوحة لن تتكرّر ولم . . . وأمعنتُ الفكر ، فإذا بصوت فيروز يتهادى : (هلاّ ، هلاّ يا تراب عينطوره) ويحرّرني من غيبوبة الوحي .

طرحة عروس نسيها آذار حول صخرة كرويّة كان قد فرشها كانون ، فبدت كرأس طفل حول عنقه ياقة بيضاء ، وحتى تتجلّى الصورة جاء نيسان ونثر حول الطرحة الأقحوان والنعمّان والمرجان .

ما الذي أرى؟ هل هذا حقيقة ، أم أنه ضرب من الأحلام؟ صخرٌ علّق في الهواء! ليس قائماً على أرض ولا هو معلّق في سماء . وجهه المرمري ، البلوري ، إسودّ من حنان الشمس ، إلاّ أنه يبسم وكأنما الأشجار عاشقة له ، فغارت على الحجر من عين الشمس ، فجاءت وانتشرت حول الوجه كأستار سوداء منسدلة . وحتى تكتمل الصورة كانت رفوف حمام بكفيا البيضاء تطير وتهدل أمام الحجر ، تظهر وتختفي ، لتعود وتظهر في دورة طيران جديدة! ألم تكتمل عندكم الصورة؟ ألم تتصوّروا أنكم أمام حجر مكّة والحجّاج حول الأسود يدورون ويوحّدون ويكبّرون؟ أليست صورة الطبيعة تشبه مكّة وحجرها الأسود؟ والسؤال : هل أن مكة وحجرها يقلّدان طبيعة بكفيا وحجرها ، أم أن طبيعة بكفيا وحجرها يقلّدان مكّة وحجرها؟

وتكلّمت صخرةٌ قالت : «ألا يكفيني ظلم البشر حتى جاء الطير يغنّي فوق هامي ويرقص ، وحين ينتشي من الغناء يرمي سواده حيث انتشى ويمضي ؟

تظنون أن لا كرامة لي ، تظنون أنني لا أحسّ ولا أشعر أو أتألم! ألا يكفيني ظلم أمّنا الطبيعة؟ لقد وهبتكم أمّنا ألسنة وحرمتني؟ لماذا ميّزت الطبيعة بين فلذاتها؟ تهشّمونني بكل ما أُعطيتم من قوة مطارق ومهدّدات وديناميت ، فهل تحسبون أنني لا أتألم؟! لا ، أنا

أتألم! إلا أن كبريائي وعنفواني وعزّة نفسي تمنعني من إظهار ضعفي والبكاء. إن كنتم لا تسمعون نحيب الأبكم يبكي، فكيف تسمعون نحيب الصخر؟

يا سادتي الظالمون: هي الصخور أفواه تتكلّم وأرواح تتألم!

أما الذي يبكيني ويضحكني إثر رحلة الآلام هو أن هذا الإنسان جاءني يسعى، يقبلني بشفتين نادمتين ويضعني على جبين خاشع، ثم يبسط يدين آثمتين ويتلمّس جسدي ويمسح الغبار ويتبارك وروحٌ منه ترجف خائفةً طالبةً الرحمة والغفران.

مضحك هذا الإنسان ومبكٍ، يبتدعني من خياله ثم يسجد أمامي عبداً، عابداً، ذليلاً!»

ودبّت الحمية في قلب شيرٍ عملاق لبلاغة الصخرة، فوقف يتكلّم أسوة بالصخرة. لكنني لم أعلم هل هو يتعصّب للصخرة أم أنه يتعصّب للإنسان!

اعلمي أيتها الصخرة، أن هوية الإنسان السوري هي الصخر، ولكلِّ إنسان صخر وهوية.

أن قومية الإنسان السوري هي الصفا، ولكلِّ إنسان صفا وقومية.

أن كنيسة الإنسان السوري هي البطرس ولكلِّ إنسان بطرس وكنيسة.

أيتها الصخرة، ألا تعلمين أننا نحن الصخور كتاب الإنسان على الدهور؟

لو لم تكن الصخور كتاب الإنسان، لكان الإنسان وجميع منجزاته هباءً منثوراً.

وكأنما الروشة قد أسكرها كلام الشير شبهها، فتحركت عندها القريحةُ، فقالت بعد أن فردت ما بين ساقيها، فجاء البحر كمراهق يفتش ما بين الساقين عن ضالةٍ: «أيها الشير، يا صديقي، إن كنت أنتَ كتاباً، فأنا زبدة الكتاب، من هنا، من هذا البحر عَرجتْ الحضارات كافة. أيها الشير، يا صديقي: أنا موضوع كتاب الإنسان وأنا مضمونه، أنا صفوة عصارة الجبل والسهل والوديان الفكرية. اذهب على طول شواطئ الأرض ترى بأم عينك صخوراً تكتب وصخوراً تتكلّم وصخوراً ترسم. اذهب في الأرض طولاً وعرضاً، فإنك لن تجد إلا سوريّاً يحمل الكتاب العربي ويمضي مكرّزاً ومبشّراً».

هذه هي بلادي صخور تتكلّم وتنثر الكلمات، جبال شمٌّ تصنع البطولات معجزات، وديان انحنت من ثقلِ الانتصارات، بحرٌ يشهد ويُسيّر غرباً الأمواجَ

رحلات، جزرٌ خرجت من البحر آلهةً بنات وربّات. كل هذا ظهر أمام عيوني. وخطر في البال سهلٌ يدفق الخيرات، صحراءٌ ترسل الأنبياء فرادة وزرافات، بحرٌ آخر بسط يديه كأنه أمٌّ بسطت يديَها لتحتضن ابنتها الصحراء، على أن يدها اليمين خليج ويدها اليسار بحر؛ هناك، هناك في البعيد، البعيد جبالٌ شمٌّ، شامخات، وتمتد، وتمتد لتشكل حصوناً ممانعةً بوجه الأصفر والأبيض... حصون إلاّ أن لها فماً ينثر الفكر آيات وينشر السوريين حضارات.

د. عاطف خليل الحكيم رياق، 8/ 6/ 2017

المصادر والمراجع

المراجع العربية

- **ابن الفقيه**، كتاب البلدان، (تحقيق يوسف الهادي)، عالم الكتب، ط. 1، بيروت، 1996.
- **ابن الأثير** (عليّ بن محمد الشيباني)، الكامل في التاريخ (مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
- **ابن بطوطة** (الطنجي)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تحقيق عبد الهادي التازي)، الرباط، 1997.
- **البكري** (عبد الله بن عبد العزيز)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، بيروت، 1983.
- **البلاذري**، فتوح البلدان، مكتبة الهلال، بيروت، 1988.
- **أشتية محمد** (تحرير)، موسوعة المصطلحات والمفاهيم الفلسطينية، المركز الفلسطيني للدراسات الإقليمية، البيرة، 2003.
- **إقليمس يوسف داوود** (المطران)، اللمّعة الشهيّة في نحو اللغة السُريانية، مطابع الآباء الدومنيكانيين، دمشق، 1896.
- **بازمة محمد مصطفى**، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، منشورات مكتبة قورينا، بنغازي، 1975.
- **برصوم يوسف ايوب** (الأب)، الأصول السُريانية في أسماء المدن والقرى السورية، 2003.
- **بركه بسام**، «الأسماء والتسميات مرآة الثقافة وذاكرة التاريخ»، **مجلّة العربي**، العدد 206، كانون الثاني، 2009، ص130 – 133.
- **بريتون رولان**، جغرافيا الحضارات، منشورات عويدات، بيروت – باريس، 1993.
- **بشور وديع**، سورية صنع دولة وولادة أمّة، دار اليازجي، دمشق، 1994.

- **بطرس لبيب**، الرياضة الفينيقية وتأثيرها في نشأة الألعاب الأولمبية، جزءان، بيروت، 1974.
- **جاسر حمد**، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: معجم مختصر يحوي أسماء المدن والقرى وأهم موارد البادية، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1981.
- **حامد حسن**، أطلس العالم الصحيح، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1985.
- **حبيقة يوسف** (القس)، اللغة السُريانية في سورية ولبنان، لبنان، 1902.
- **حرب أنطوان**، إسم لبنان عبر العصور، 1979.
- **الحكيم عاطف خليل**، اللغة السُريانية، تاريخ، حضارة وهوية، المكتبة البولسية، حاريصا، لبنان، 2010.
- **الحكيم عاطف خليل**، «بيروت، طائر الفينيق والتنين، دراسة في الفكر الديني القديم»، في إطار «بيروت عاصمة عالمية للكتاب»، (وزارة الثقافة وحلقة الحوار الثقافي)، بيروت، 2009، ص 277 – 326.
- **الحلو عبد الله**، الفينيقيون وأميركا، فصول شغلت العالم، دار فكر، بيروت، 1991،
- **الحموي ياقوت**، معجم البلدان، (5 أجزاء)، دار صادر، لبنان، 1993.
- **الحميري** (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار (تحقيق إحسان عباس)، مؤسّسة ناصر للثقافة، 1980.
- **حنين رياض**، أسماء قرى ومدن وأماكن لبنانية في روايات شعبية، 1986.
- **ابن حوقل** (أبو القاسم النصيبي)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1997.
- **ابن خرداذبة** (أبي القاسم عبد الله)، المسالك والممالك، ليدن، بلجيكا، 1889.
- **الخضّور جمال الدين**، الأنتربولوجية المعرفية العربية. دراسة في الإناسة المعرفية العربية التاريخية – اللغوية ووحدتها، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.
- **خوشابا شليمون** (الأب)، **يوخنا عمانوئيل بيتو** (الأب)، زهريرا قاموس عربي– سُرياني، 2000.
- **ابن جبير** (أبو الحسن محمد)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1980.
- **ذوق محمد رشيد ناصر**، «الجغرافيا وأسماء الأمصار في اللغة العربية»، 2006 (موقع إنترنت).

- **رمزي محمد**، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993 .
- **زابوروف ميخائيل**، الصليبيون في الشرق، دار التقدّم، موسكو، 1986 .
- **الزقرطي إبراهيم**، أسس الأسماء الجغرافية، المركز الجغرافي الملكي الأردني، عمّان، 1997 .
- **الزقرطي إبراهيم**، معجم الأسماء الجغرافية في فلسطين (عربي – إنكليزي)، هيئة جائزة سليمان عرعر للفكر والثقافة، 2010 .
- **الزقرطي إبراهيم، العزيزي هاني عبدالرحيم**، معجم المصطلحات والمفاهيم الجغرافية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2007 .
- **الزمخشري** (أبو القاسم محمود بن عمر)، كتاب الأمكنة والجبال والمياه (تحقيق إبراهيم السامراني)، دار عمار، عمّان، 1999 .
- **السعدي عباس فاضل**، ياقوت الحموي : دراسة في التراث الجغرافي العربي مع التركيز على العراق في معجم البلدان، دار الطليعة للنشر، بيروت، 1992 .
- **سعودي محمد عبد الغني**، الوطن العربي، (أطلس)، دار النهضة العربية، بيروت، 1967 .
- **شامي يحيى**، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت، 1993 .
- **شرّاب محمد حسن**، معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينية وتفسير معانيها ومدلولاتها السياسية والحضارية، دار الأهلية، عمان، الأردن، ط1، 1999، 2009 .
- **شراب م . م .**، معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق – بيروت، 1987 .
- **الصباغ سعيد**، الأطلس العربي العام، مؤسّسة سعيد الصباغ، بيروت، 1981 .
- **صالح ديب فرج الله**، اليمن هي الأصل، دار الأمين، بيروت، 2008 .
- **صالح ديب فرج الله**، كذبة السامية وحقيقة الفينيقية، مؤسّسة نوفل، بيروت، 1998 .
- **صالح ديب فرج الله**، التوراة العربية وأورشليم اليمنية، مؤسّسة نوفل، بيروت، 1994 .
- **الصليبي كمال**، التوراة جاءت من الجزيرة العربية، مؤسّسة الأبحاث العربية، بيروت، 1997 .

- **صفي الدين بن عبدالحق**، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، 6 مجلّدات، ط. لايدن، 1964.
- **الطبال أحمد**، «الماء في رمزيته الأسطورية والدينية»، مجلّة الفكر العربي المعاصر، العدد25، 1988، ص 142 – 153.
- **الطبري** (محمد بن جرير)، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، 1997.
- **عبدالجابر إبراهيم**، «إنتاج الخرائط والفهارس والأطالس في المركز الجغرافي الملكي الأردني» (المؤتمر الخامس للأسماء الجغرافية، بيروت، آيار، 2010.)
- **عبده سمير**، السوريون والحضارة السُريانية، دار الحصاد والنشر، 1998.
- **عبده سمير**، السُريانية – العربية. الجذور والامتداد، دار علاء الدين، دمشق، 2002.
- **عتريس محمد**، معجم بلدان العالم: آخر التطوّرات السياسية أحدث البيانات الاحصائية، الدار الثقافية، القاهرة، 2001.
- **عجينة محمد**، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، مجلّدان، دار الفارابي، بيروت، 1994.
- **العزيزي هاني**، دول وعواصم العالم، أسماؤها الرسمية ومعانيها، ط2، دار النبراس، عمّان، 1996.
- **عصفور محمد أبو المحاسن**، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- **العظمة نذير**، سفر العنقاء (حفرية ثقافية في الأسطورة) دراسات فكرية 27، منشورات وزارة الثقافة، سورية، 1996.
- **عليّ جواد**، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، 8 أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، 1970، (مكتبة النهضة بغداد، 1970).
- **عواد كوركيس**، **سركيس يعقوب**، أصول أسماء مدن وقرى عراقية، الورق للنشر، الفرات، بيروت، 2009.
- **عيسى محمود**، حديقة الأسماء (أجمل الأسماء ومعانيها)، منشورات بحسون، دار المنال، بيروت، 2003.
- **غروم نايجل**، معجم الطوبوغرافية وأسماء الأماكن العربية، إنكليزي – عربي، مكتبة لبنان ناشرون، 1983.

- **غنيمة يوسف**، الألفاظ الآرامية في اللغة العامية العراقية (لغة العرب 4)، العراق، 1926 .
- **فريحة أنيس**، معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية، مكتبة لبنان، ط4، 1996 .
- **فريحة أنيس**، معجم الألفاظ العامية، مكتبة لبنان، بيروت، 1973 .
- **فيليب حتّي**، اللغات الساميّة المحكية، بيروت 1922 .
- قاموس الآلهة والاساطير في بلاد الرافدين: السومرية والبابلية في الحضارة السورية: الأوغاريتية والفينيقية، (تعريب م . و . خياطة)، مكتبة سومر، 1987 .
- **كنعان جورجي**، تاريخ الله (ايل – العالي)، بيسان للنشر والتوزيع، ط3، بيروت، 1996 .
- **قسطندي نقولا**، معجم المواقع الجغرافية في فلسطين، جمعية الدراسات العربية، القدس، 1984 .
- **قسطندي نقولا، عنبتاوي وصفي، درّه عبد الباري**، الأسماء الجغرافية في الأردن وفلسطين، اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة، عمّان، 1989 .
- **قسطنطسن خمّار**، أسماء المعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام 1948، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 .
- **كابلان روبرت**، إنتقام الجغرافيا (ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي) سلسلة عالم المعرفة، العدد 420، الكويت، يناير، 2015 .
- **لامنس هنري (الأب اليسوعي)**، تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، مجلّدان، دارالرائد اللبناني، ط2 (مجلّة الشرق) .
- **لوبون غوستاف**، حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر)، هنداوي، مصر، 2013 .
- **مرهج عفيف بطرس**، إعرف لبنان، موسوعة المدن والقرى اللبنانية، 9 أجزاء، 1971 – 1972 .
- **المعلوف عيسى إسكندر**، تاريخ زحلة، مطبعة زحلة الفتاة، زحلة، 1912 .
- **المعلوف عيسى إسكندر**، تاريخ سورية المجوّفة، 1915 .
- **المقدسيّ** (البشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991 .

- **موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية**، (إعداد دارة الملك عبدالعزيز وهيئة المساحة الجيولوجية السعودية)، إصدارات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، 1424 هجري.
- **ناردوتشي غوليام**، استيطان برقة قديماً وحديثاً (ترجمة إبراهيم أحمد المهدوي)، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1996.
- **نصر محمد سعيد (وآخرون)**، أطلس العالم، مكتبة لبنان، بيروت (د. ت).
- **الهمذاني** (ابن الفقيه)، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988.
- **اليعقوبي (أحمد بن إسحاق)**، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1988؛ طبعة لايدن، 1892.

المراجع الأجنبية

- **Abu Sitta Salman H**., *Atlas of Palestine 1948, Palestine Land Society*, London, 2004.
- **Abu Sitta Salman H.**, *The Return Journey. A Guide to the depopulated and Present Palestine Towns and Villages and Holy Sites in english, arabic and hebrew*, Palestine Land Society, London, 2007.
- **Ayoubi M.Z.** *«Les toponymes libanais»*, in Hannon II, 1967, p. 133-138.
- **Ayoubi M.Z.** *«Évolution de la Toponymie au Liban»*, in Hannon III, 1968, p. 123-127.
- **Abel F.-M**., *Géographie de la Palestine*, 2 vols, Paris, 1933; 1967.
- **Balty Charles**, *Apamée de Syrie*, Centre Belge de Recherches Archéologiques à Apamée en Syrie et Centrum voor de studie van de grieske en de latijnse documenten, Vrije universiteit Brussel, Édition: Bruxelles: VUB press; De Boccard, Paris, 1993.
- **Balty Janine** (édité par), *Apamée de Syrie. Bilan des recherches archéologiques 1973-1979. Aspects de l'architecture domestique d'Apamée*. (Actes du colloque tenu à Bruxelles les 29, 30 et 31 mai 1980).
- **Baly D.**, *The Geography of the Bible*, London, 1957.
- **Bates O.**, *The Eastern Libyans*, London, 1914.
- **Baudot Marcel**, «*Les Noms des défrichements dans la toponymie de la France*», in (Troisième Congrès international de Toponymie et d'Anthroponymie), Vol. 14, n° 1, 1964.
- **Baylon Christian**, **Fabre Paul**, *Les noms de lieux et de personnes,* Paris, Nathan, 1982.
- **Bérard Victor**, *Les Phéniciens et l'Odyssée*, A. Colin, Paris, 1903.
- **Bérard V.**, *Les navigations d'Ulysse* (Nouv. éd.), A. Colin, Paris, 1971.
- **Bernard P.**, «*I- Une légende de fondation hellénistique: Apamée sur l'Oronte d'après les Cynégétiques du Pseudo-Oppien. II- Paysages et toponymie dans le Proche-Orient hellénisé*», in Topoi 5, 1995, p. 353-408.
- **Bezold C.**, **Budge E.A.W.**, *The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum*, London, 1892.
- **Briquel Chatonnet F.**, «*Onomastique et religion phénicienne*», *Prosopographie et histoire religieuse*, éd. M.-F. Baslez & F. Prévot, Paris, 2005, p. 135-143.

- **Bordreuil P.**, «*Du Carmel à l'Amanus, notes de toponymie phénicienne II*», Géographie historique au Proche-Orient, éd. P.-L. Gatier, B. Helly & J.-P. Rey-Coquais, Paris, 1988, p. 301-314.
- **Bromberger Ch.**, «*Pour une analyse anthropologique des noms de personnes»*, in Langages, n° 66, vol. 16, 1982, pp. 103-124.
- **Brunet Roger**, **Ferras R.Théry H.**, *Les mots de la géographie, dictionnaire critique*, Reclus, La Documentation française, 1994.
- **Buyt O.P.**, *Géographie de la Terre Sainte*, 1958.
- **Cahen Claude**, «*La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche*», in Fougères M., Mélanges d'Histoire Sociale, 1943, vol.3, n° 3, pp. 117-118; Nouvelle édition, Damas, Presses de l'Ifpo, 1940.
- **Caquot A.**, «*Sur l'onomastique religieuse de Palmyre*», in Syria 39, 1962, p. 231-256.
- **Cassirer Ernst**, *Langages et mythes*, Les Éditions de Minuit, Paris, 1973.
- **Champault Ph.**, *Phéniciens et Grecs en Italie d'après l'Odyssée. Étude géographique, historique et sociale par une méthode nouvelle*, Paris, 1906.
- **Champollion Jean-François**, «*Lettre à M. Dacier relative à l'alphabet des hiéroglyphes phonétiques*», (27 septembre 1822).
- **Clermont-Ganneau**, *«Le dieu Satrape et les Phéniciens dans le Péloponnèse»*, in Journal Asiatique, X, p. 157; XII, p. 257.
- **Coates Richard**, *Toponymic topics: essays on the early toponymy of the British Isles*. Brighton: Younsmere Press,1988.
- **Coates R.**, *A classified bibliography on Sussex place-names, 1586-1987, with an introductory essay*. Brighton, Younsmere Press, 1987 [A supplement was issued in 1996.].
- **Coates R.**, (guest ed.), «*Name theory. Special issue of Onoma»*, vol. 41 (spine date 2006; appeared 2011), 2006, pp. 309.
- **Coates R.**, «*A place-name history of the parishes of Rottingdean and Ovingdean in Sussex» (including Woodingdean and Saltdean)*. Nottingham: English Place-Name Society (Regional series 2); [Published with the aid of a grant from the British Academy], pp. xviii.
- **Collinet Paul**, *Histoire de l'École de Droit de Beyrouth*, Paris, 1925.
- Colloque international: «*Le nom propre maghrébin de l'homme, de l'habitat, du relief et de l'eau*», Centre National de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle (CRASC). Comité d'organisation: O. Yermeche (ENS Alger / CRASC Oran) B. Aziri (HCA Alger) Ch. Bilek

(HCA) F.Benramdane (Université de Mostaganem /CRASC Oran), du 21 au 23 septembre, 201.

- **Conder and Kichiner R.E.**, *The Survey of Ewstern Palestine* (transliterated and explained by E.H. Palmer), Palestine Exploration Fund, London, 1881.
- **Costaz Louis**, *Dictionnaire syriaque, français*, éd. de l'Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1963.
- **Cross F.M.**, «*The Phoenician Inscription from Brazil*», in Orientalia 37, 1968, p. 437-460.
- **Curtius E.**, *Topographie und Mythologie*,1895.
- **Dauzat Albert**, *Essais de géographie linguistique*, E. Champion, Paris, 1914.
- **Dauzat A.**, *Légendes, prophéties et superstitions de la guerre*, la Renaissance du livre, 1918-1925.
- **Dauzat A.**, *Essai de géographie linguistique. Noms d'animaux*, Édouard Champion, Paris,1921.
- **Dauzat A.**, *La Géographie linguistique*, 1ère éd., E. Flammarion, coll. «Bibliothèque de culture générale», Paris, 1922.
- **Dauzat A.**, *Un mois dans les Alpes. De Genève à Nice*, Librairie Hachette, Paris, 1922.
- **Dauzat A.**, *Les Noms de lieux: origine et évolution, villes et villages, pays, cours d'eau, montagnes, lieux-dits*, Librairie Delagrave, Paris, 1926.
- **Dauzat A.**, *Dictionnaire étymologique des noms de famille et prénoms de France*, Larousse, 1951 (réédition, revue et augmentée par Marie-Thérèse Morlet en 1980).
- **Dauzat Albert**,**Charles Rostaing**, *Dictionnaire étymologique des noms de lieux de France*, Paris, Larousse, 1963.
- **Delekat L.**, *«Une nouvelle copie du texte de Paraiba»*, Linguistica Biblica 15-16, 1972, p. 25-35.
- *Dictionnaire des noms de lieux de France*, Larousse, Paris, 1963.
- *Dictionnaire topographique de Damas à l'époque médiéval*e (en association avec La Maison de l'Orient et de la Méditerranée (MOM) de Lille, (sous la direction de J.Ch. Ducenes et J.M. Mouton, EPHE avec la contribution de Bassam Dayoub, Université de Damas).
- **Delestrée L.-P. Tache M.**, *Atlas des monnaies gauloises*, *I. De la Seine au Rhin*, Saint-Germain-en-Laye. 2001 ; *II. De la Seine à la Loire*, Saint-Germain-en-Laye, 2004.

- **Dossin G.** *«A propos de quelques toponymes égéens»*, in La Toponymie Antique, (Actes du Colloque de Strasbourg), 1977, pp. 185-217.
- **Dostalova-Jenistova R.**, *Sur «Les Dionysiaques» de Nonnos de Panopolis, chants XLI-XLIII, in Tyros a Bejrut*, V, Dionysiakah Nonna Z.Panopolie Listy Filol, V, 1, 1975.
- **Duberete**, **Weulersee**, *Manuel de Géographie: La Pénisule Arabique*, Beyrouth, 1940.
- **Dussaud René**, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, 1920.
- **Eilert Ekwall**, *English places names*, 1984.
- **Eilert Ekwall**, *English river names*, Published by Oxford University Press, Oxford, 1968.
- **Eusèbe de Césarée**, *Onomasticon*: *Eusebius Werke* 3/1. *Das Onomastikon der biblischen Ortsnamen mit der lateinischen Übersetzung des Hieronymus*, éd. E. Klostermann, Leipzig (GCS), 1904.
- **Fahd T.**, (Publications), *La toponymie antique*: (Actes du Coloque de Strasbourg 12-14 juin, 1975), Publications de l'Université des Sciences Humaines de Strasbourg, Travaux du Centre de Recherche sur le Proche-Orient et la Grèce antiques, 4, 1977.
- **Faucherre N.**, **Mesqui J.**, **Proudeau N.**, **Richard J.**, *La fortification au temps des croisades*, 2004.
- **Féghali Elisabeth et François-Xavier**, *Toponymes du Liban médiéval Toponymes du Liban au Moyen Age*, Citadelle 1999-2015.
- **Frézouls E**., *«La toponymie de l'Orient Syrien et l'apport des éléments macédoniens»*, in La Toponymie Antique, (Actes du Colloque de Strasbourg, 12-14 juin, 1975), pp. 219-269.
- **Gardiner A.H.**, *Egyptian Grammar (An Introduction to the Study of Hieroglyphs)*, London, 1973.
- **Gelling Margaret**, *Place-Names of Oxfordshire*, Cambridge: English Place-Name Society, 5 parts, 1953-2006.
- **Gelling M.**, *«English place-names derived from the compound Wicham»*, Medieval Archaeology (The Society for Medieval Archaeology) XI: 103., 1967.
- **Gelling M.**, **Nicolaisen W.F.H.**, **Richards Melville**, *The Names of Towns and Cities in Britain*, London, B.T. Batsford Ltd.
- **Gelling M.**, **Cole**, **Ann**, *The Landscape of Place-Names*, Shaun Tyas, 2000.
- **Gendron Stéphane**, *Animaux et noms de lieux*, Errance, Paris, 2010.

- **Gendron S.**, *L'origine des noms de lieux en France. Essai de toponymie,* Errance, Paris, 2008.
- **Germain**, **G.**, *Genèse de l'Odyssée, le fantastique et le sacré,* PUF, Paris, 1954.
- **Gignoux P**., *Nouveaux toponymes sassanide*s, Paul Geuthner, Paris,1974.
- **Gordon C.H.**, *«The Canaanite Text from Brazil»*, in Orientalia 37, 1968, p. 425-436.
- **Guyot L. Gibassier P.**, *Les Noms des Arbres*, Que sais-je, n° 861, PUF, Paris, 1966, p. 32
- **Hérodote**, *Histoire* (trad. du grec, par Lacher), Charpentier, Paris, 1880.
- **Homère**, *L'Odyssée et l'Iliade* (nouvelle trad. de Louis Bardollet), R. Laffont, Paris, 1995.
- **Jacotin M.**, *Carte topographique de l'Égypte*, Paris, 1818.
- **Jérôme**, *Onomasticon*: voir Eusèbe de Césarée.
- **Kalifé Charles**, *Étude des toponymes arabes en français dans les récits des croisades, XII*e*-XIV*e *siècle* (Thèse, Lille 3: A.N.R.T., 1991; Texte imprimé, Lettes, Paris 4) édition,1983.
- **Khoury Yéshoua**, *Introduction à la langue syriaque* (en arabe et syriaque), Liban, éd. Apôtres, Jounié, 1987.
- **Kuschke A**., «*Historisch-topographische Bemerkungen zu Stefan Wilds «Libanesische Ortsnamen*», in La toponymie antique, Leyde, 1977, p. 75-82.
- **Laroche E.** *«Toponymes et frontières linguistiques en Asie Mineure»*, in La Toponymie antique, Actes du colloque de Strasbourg, 1977, pp. 205-217.
- **Lefebvre Gustave**, *Grammaire de l'égyptien classique*, Le Caire, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1955.
- **Lemaire A.**, «*Divinités égyptiennes dans l'onomastique phénicienne*», Religio Phoenicia, éd. C. Bonnet, E. Lipiński & P. Marchetti, Namur, 1986, p. 87-98.
- **Lenormant F.**, *Essai sur la propagation de l'alphabet phénicien dans l'ancien monde*, Paris,1875.
- **Levy-Strauss C.**, *La Pensée sauvage*, Pion, Paris, 1962.
- **Losique S**., *Dictionnaire étymologique des noms des pays et des peuples,* éd.Klinckrieck, Paris, 1971.
- **M.Dunand**, *Byblia Grammata: Documents et recherches sur le développement de l'écriture en Phénicie*, J. Maisonneuve, Paris, 1945.

- **Maalouf Amin**, *The Crusades Through Arab Eyes*, Published by Schocken, 1989.
- **Maspero Gaston**, *Introduction à l'étude de la phonétique égyptienne*, Paris, H. Champion, 1917.
- **Mircea Eliade**, «*Le mythe Aranda*» (extrait de «Religions australiennes», traduit de l'anglais par Laurent Jospin), Folklore Coll., Petite Bibliothèque Payot, n° 352, 2004.
- **Morlet Marie-Thérèse**, *Toponymie de la Thiérache*, Artrey, Paris, 1957.
- **Morlet M.-Th.**, *Les Noms de personnes sur le territoire de l'ancienne Gaule du VIème au XIIème siècle*, 1968, 1972 et 1985.
- **Morlet M.-Th.**, *Les Études d'onomastique en France: de 1938 à 1970*, Société d'Etudes Linguistiques et Anthropologiques de France, Paris, 1981
- **Morlet M.Th.**, *Dictionnaire étymologique des noms de famille*, 1ère édition, Perrin, Paris, 1991.
- **Morlet M.Th.**, «*Terrier de la Seigneurie du Marquais. Étude Onomastique*», in Source picarde (Hommage à R. Debrie), CEP de l'Université de Picardie-Jules-Verne, n° XLV / Eliktra, Association culturelle picarde, n° LXX, Amiens, 1992.
- **Morvan Michel**, *«La racine toponymique pré-celtique bar»,* in Lapurdum, Revue sur la langue et les textes basques, Linguistique I, n° 1, 1996, pp. 11-20.
- **Morvan Michel**, «*Les noms de montagnes du Pays Basque*», in Lapurdum, 4, 1999, p. 167-190.
- **Mulon Marianne**, «*Toponymie*», in Encyclopædia Universalis XVI, Paris, 1973, p. 186-187.
- **Mulon M.**, «*Terminologie française de l'onomastique*», in (Actes du 11e Congrès international des Sciences onomastiques II, Sofia, 1975), p. 91-98.
- **Mulon M.**, «*Lexicographie du latin médiéval et toponymie*», in La Lexicographie du latin médiéval et ses rapports avec les recherches actuelles sur la civilisation du Moyen Âge, Paris, 1981, p. 137-144.
- **Mulon M.**, «*L'onomastique, témoin des langues disparues*», in Onoma XXVI, 1982, p. 206-210.
- **Mulon M.** «*Les noms de famille française»*, in Stemma 14, 1982, p. 219-220.
- **Mulon M.**, «*Nos ancêtres et nous*», in Stemma 15, 1982, p. 77-79.

- **Mulon M.**, «*Noms de personnes et noms de lieux*», in Gé-Magazine 17,1984, p. 17-20.
- **Mulon M.**, «*Le type Alépée dans les noms de famille français*», in Onomata X, (Ελληνικης Ονοματολογικης Εταιρειας), Athènes, 1986, p. 90-95.
- **Nègre Ernest**, *Les noms de lieux en France*, Paris, A. Colin, 1963.
- **Nègre E.**, *Les noms de lieux du Tarn*, 3ème éd., Paris, d'Artrey, 1972.
- **Nègre E.**, *Études de linguistique romane et toponymie*, Toulouse, Collège d'Occitanie, 1984.
- **Nègre E.**, *Toponymie générale de la France : étymologie de 35000 noms de lieux*, 4 volumes, Genève, Droz, 1990-1998.
- **Nègre E.**, *Toponymie du canton de Rabastens*, Paris, d'Artrey, 1959.
- **Neiman D**., «*Phoenician Place-Names*», in JNES 24, 1965, p. 113-115.
- **Nouvel Alain**, *Les noms de lieux témoins de notre histoire*, Ed. Terra d'Oc, 1981.
- Oberhummer E., Die Phoenizier in Akarnanien, Munich,1884.
- **Padel Oliver**, *Cornish place-name elements* (English Place-Name Society series, v. 56/57), Nottingham, English Place-Name Society, 1985.
- **Padel O.**, *A popular dictionary of Cornish place-names*, Penzance, A. Hodge, 1988.
- **Parrochia Daniel**, *La notion de classification chez Auguste Comte et l'idée d'une théorie générale des classifications* (Université Jean Moulin-Lyon III-IRPHIL), 2013.
- **Pausanias**, *Description de la Grèce* (*Description of Greece*, éd. et trad. W.H.S. Jones, Cambridge [Mass.] et Londres (Loeb), 1918-1935 ; (éd. et trad. M. Casevitz et al), Paris [CUF], 1992-2005 (livres 1-8).
- *«Recherches Méditerranéennes I-8. Études et Travaux de «Méditerranée*», Revue Géographique des Pays Méditerranéens. Centre d'Etudes Méditerranéennes du Laboratoire de Géographie de la Faculté des Lettres d'Aix-en-Provence, 1969.
- **Reich M.S**., *Études sur les villages araméens de l'Anti-Liban*, Beyrouth, 1937.
- **Renan Ernst**, *Mission de Phénicie*, 2 vols, Imprimerie impériale, Paris, 1864, nouvelle édition, Beyrouth, 1997.
- **Rey-Coquais J.-P.**, «*Onomastique et histoire de la Syrie gréco-romaine*», (Actes du VIIe Congrès international d'épigraphie grecque et latine, éd. D.M. Pippidi, Bucarest et Paris, 1979), p. 171-183.

- **Rossi Pierre**, *La Cité d'Isis. Histoire vraie des Arabes*, Nouvelles éditions latines, 1976.
- **Rostaing Charles**, *Les noms des lieu***x**, Que sais-je? PUF, Paris, 1969,1992.
- **Rostaing Ch.**, *Essai sur la toponymie de la Provence (depuis les origines jusqu'aux invasions barbares)*, Laffite Reprints, Marseille, 1973 (1ère édition 1950),1994.
- **Smith Albert Hugh**, *English Place-Names Elements*, 2 vols, 1956.
- **Strabon**, *Géographie*, Belles-Lettres, 15 vols, Paris,1978.
- **Taylor E.**, *Primitive Culture*, 2 vols. 1873-1874, (Traduit en français sous le titre La civilisation primitive); Researches into the early history of mankind, 1865, (Trad. en fr. sous le titre Recherche sur les débuts de l'histoire de l'humanité).
- **Ubaud Josiane**, *Des Arbres et des Hommes. Architecture et marqueurs végétaux en Provence et Languedoc*, Edisud, 1997.
- *United states Board on Geographic Names*, Jordan, Officila Standard Names, Washington D.C., 1971.
- **Vallicrosa M.**, *«De toponimia púnico-española»*, Sefarad, I, 1941, pp. 313-326.
- **Van den Branden Albert**, *Grammaire phénicienne*, Bibl. de l'USEK, Kaslik, Liban, 1969.
- **Vargas Machka**, *Dell'antiche colonie venute in Napoli ed i primi si furono i Fenici*, Naples, 1764; *Dell'antiche colonie venute in Napoli ed i secondi furono gli Euboici*, Naples, 1773.
- **Villon François**, *Œuvres éditées par Auguste Longnon* (4ème édition revue par Lucien Foulet, notes sur le texte par A. Lanly), Le Livre à Venir, Cuisery, France, 1957.
- **William J. Watson**, *History of the Celtic Place-Names of Scotland*, Edinburgh, 1926, (reprinted, with an Introduction, full Watson bibliography and corrigenda by Simon Taylor, Edinburgh, 2004).
- **Waddell L.A.**, *Place, river and mountain names in Himalaya*, Asiatic Society, Calcutta, 1892.
- **William J. Watson**, **Savage Steve**, *Scottish Place-Name Papers*, London, 2002.
- **Zadora-Rio E.**, «*Archéologie et Toponymie: le divorce*», Les petits cahiers d'Anatolie, n° 8, décembre 2001.

المحتوى

الفصل الأوّل
نشأة علم أسماء الأماكن

الفصل الثاني
نشأة أسماء الأماكن
ومناهج تحليلها وتفسيرها

الفصل الثالث

علم أسماء الأماكن وعلم اللغة

الفصل الرابع
أسماءُ الأماكنِ هويةٌ وانتماءٌ

الدكتورة ڤيڤيان حنّا الشويري

- دكتوراه في الفنون والآثار والإيكونوغرافيا من جامعة السوريون (Sorbonne-Paris IV)، باريس، 1997.
- أستاذة الفنون والآثار في الجامعة اللبنانية، منذ سنة 2000.
- مترجمة متخصّصة (العربية، الفرنسية، الإنكليزية).
- **محقّقة** لغوية، فنية وأدبية.
- باحثة في الأديان القديمة والميثولوجيا والحضارات المقارنة والفكر الثقافي.
- **أبحاث ومقالات** علمية باللغتين العربية (مجلّة الحداثة 2008/ 2009) والفرنسية (أوراق جامعية – 2009 – 2015) و(مجلّة تحوّلات مشرقية 2009 – 2015) و(مجلّة الحقائق اللبنانية، 2014 – 2015) ومجلّة دراسات تربوية Revue de l'Éducation جامعة الكسليك، 2010 –) و(مجلّة عشتروت 2010 – 2012) ودراسات حضارية منها: «**بيروت عاصمة الفكر وناشرة الحرف في العالم**» في إطار «بيروت عاصمة عالمية للكتاب»، (بالتعاون مع وزارة الثقافة وحلقة الحوار الثقافي، 2009). دراسة لغوية مطوّلة بعنوان «**اللغة الآرامية أم اللغة الفهلوية ؟**» (مجلّة تحوّلات، 2011)؛ دراسة في اللغة العربية تاريخها وأصولها وكتاباتها (مجلّة تحوّلات، 2015).
- **مؤلّفات**: **La prêtresse de Niha**، (دار صادر، 2013).
- **كتب مترجمة إلى الفرنسية**: **Le Grand Livre des Pensées**، (دار الحداثة، 2008). **Muḥammad, le Prophète révolutionnaire** (دار صادر، 2015)؛ **Jésus le Maître révolté; La Science est Lumière** (دار صادر، 2016)؛ **La Mémoire du Phénix** (دار صادر، 2017).
- **دراسات معجمية**: معجم «**آلهة وأماكن**»، 10 أجزاء، تحت الطبع).
- شاركت في العديد من المؤتمرات الأثرية واللغوية وحول أسماء الأماكن (المؤتمر العربي الخامس لخبراء الأسماء الجغرافية ACGN) بالتعاون مع الشؤون الجغرافية للجيش اللبناني، والجامعة العربية، بيروت، 2010.